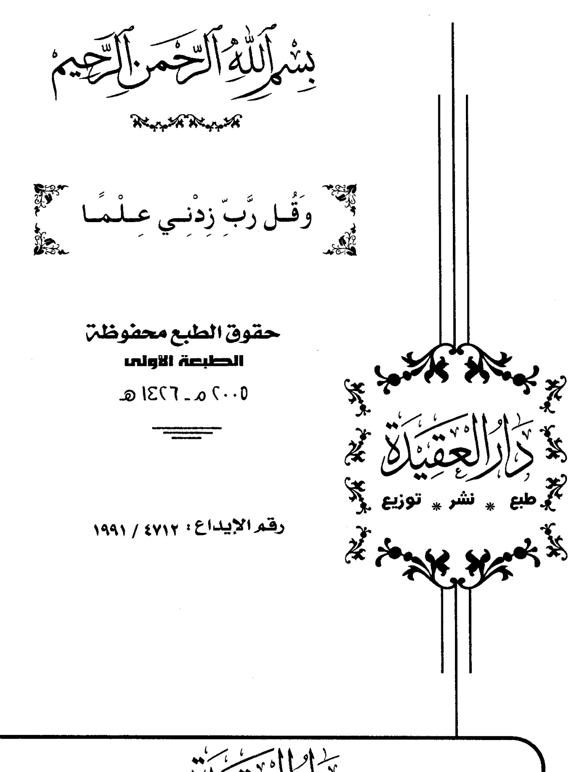
مُخْتَصَرُ مِنْهَاجِ القَاصِدِين

تأليف
مُحَمَّدَ أحْمَدَ بْن عَبْدِالرَّحْمَن بْن قُدَامَة المَقْدِسِيّ

نُسْخَة مَضْبُوطَة مُحَقَّقَة وَمُخَرَّجَة الأَحَادِيث

وتم مراجعتها على كتب العلامة الشيخ الألباني

دَارُ العَقِيدَة



بسم الله الرحمن الرحيم

وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا

الطبعة الأولى

٢٠٠٥م - ١٤٢٦هـ

رقم الإيداع: ٤٧١٢ / ١٩٩١

دار العقيدة

طبع * نشر * توزيع

دار العقيدة

الإسكندرية: ١٠١ ش الفتح باكوس ت: ٠٣/٥٧٤٧٣٢١ ف: ٠٣/٥٧٦٥٦٢١

القاهرة: ٣ درب الأتراك - خلف الجامع الأزهر ت: ٠٠٢٠٢/٥١٤٣١٧٤



ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشداً

قال الشيخ الإمام العالم الزاهد العابد الأوحد العلامة، نجم الدين أبو العباس أحمد، ابن الشيخ الإمام العالم العامل الزاهد العابد العلامة، عز الدين أبى عبد الله محمد، ابن الشيخ الإمام العالم العامل الزاهد العابد العلامة شيخ الإسلام مفتى الأنام، سيد العلماء والحكام، شمس الدين، أبى محمد عبد الرحمن، ابن الشيخ الإمام العالم العامل العارف الزاهد الورع شيخ الإسلام، أبى عمر محمد بن أحمد بن محمد بن قدامة، المقدسى الحنبلى رحمه الله:

الحمد لله الذى عمَّ برحمته جميع العباد، وخص أهل طاعته بالهداية إلى سبيل الرشاد، ووفقهم بلطفه لصالح الأعمال، ففازوا ببلوغ المراد.

أحمده حمد معترف بجزيل الإرفاد،[١] وأعوذ به من وبيل[٢] الطرد والإبعاد، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، شهادة أدخرها ليوم المعاد.

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، موضِّح طريق الهدى والرشاد والسداد، قامع الجاحدين والملحدين من أهل الزيغ والعناد، صلى الله تعالى عليه وعلى آله وأصحابه الأكرمين الأجواد، صلاة تبلغنا بها نهاية الأمل والمراد.

وبعد: فإنى كنت وقفت مرةً على كتاب: «منهاج القاصدين» للشيخ الإمام العالم الأوحد، جمال الدين ابن الجوزى، رحمه الله تعالى، فرأيته من أجل الكتب وأنفعها وأجملها فوائد، فحصل عندى بموقع، ورغبت فى تحصيله ومطالعته، فلما تأملته ثانياً، وجدته فوق ما كان فى نفسى، لكن رأيته كتاباً مبسوطاً فأحببت أن أعلق منه هذا المختصر الذى قد احتوى على أكثر مقاصده، وأجل مهماته، وفوائده سوى ما ذكر فى أوائله من مسائل ظاهرة تتعلق بالفروع. فإنها مشهورة فى كتب الفقه المستفيضة بين الناس؛ إذ كان المقصود من الكتاب غير ذلك. ولم ألتزم فيه المحافظة على ترتيبه وذكر ألفاظه بعينها، بل

(١) الإرفاد: الإعطاء والإعانة.

(٢) وبيل: وخيم وشديد.

أذكر بعضها بالمعنى قصداً للاختصار، وربما ذكرت فيه حديثاً أو شيئاً يسيراً من غيره إن كان مناسباً له، والله تعالى أعلم.

وأسأل الله الكريم أن ينفعنا به، ومن نظر فيه، أو قرأه، أو سمعه، وأن يجعله خالصاً لوجهه، وأن يختم لنا بخير، ويوفقنا لما يرضاه من القول والعمل والنية، وأن يسامحنا فى تقصيرنا وتفريطنا، ولا يكلنا إلى أنفسنا طرفة عين، ولا إلى أحد من خلقه، فإنه حسبنا ونعم الوكيل.

قال المصنف(*) رحمه الله - بعد فراغه من هذه الخطبة:

أما بعد: فإنى رأيتك أيها المريد الصادق، الجازم والعازم، قد وطنت نفسك على التخلى عن فضول الدنيا الشاغلة، وعزمت على الانقطاع إلى الآخرة، علماً منك أن مخالطة الخلق توجب التخليط، وإهمال المحاسبة للنفس أصل التفريط، وأن العمر إن لم يستدرك أدركه الفوت، وأن مراحل الأنفاس تسرع بالراكب إلى منزل الموت. فنظرتَ أىَّ أنيس من الكتب تستصحبه فى خلوتك، وتستنطقه فى حال صمتك، فإذا أنت تؤثر كتاب «إحياء علوم الدين» وتزعم انفراده فى جنسه، ونفاسته فى نفسه.

فاعلم أن فى كتاب «الإحياء» آفات لا يعلمها إلا العلماء. وأقلها الأحاديث الباطلة الموضوعة والموقوفة، وقد جعلها مرفوعة، وإنما نقلها كما رآها لا أنه افتراها، ولا ينبغى التعبد بحديث موضوع، والاغترار بلفظ مصنوع.

وكيف أرتضى لك أن تصلى صلوات الأيام ولياليها، وليس فيها كلمة قالها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وكيف أوثر أن يطرق سمعك من كلام المتصوفة الذى جمعه(1) وندب إلى العمل به مما لا حاصل له من الكلام فى الفناء والبقاء، والأمر بشدة الجوع، والخروج إلى السياحة فى غير حاجة، والدخول فى الفلاة بغير زاد، إلى غير ذلك مما قد كشفت عن عواره(2) فى كتابى المسمى بـ«تلبيس إبليس».

وسأكتب لك كتاباً يخلو من مفاسده، ولا يخل بفوائده، أعتمد فيه من النقول الأصح

---

(1) أي صاحب الإحياء: الإمام أبو حامد الغزالي.

(2) عواره: عيوبه.

(*) أى: ابن الجوزي.

والأشهر، ومن المعنى الأثبت والأجود، وأحذف ما يصلح حذفه، وأزيد ما يصلح أن يزاد.

ثم قال بعد ذلك (*): وإذ قد صح عزمك على العزلة لاستيفاء حق الحق من النفس، والأخذ على يدها، فليكن وكيلك عليها العلم، وكن باحثاً عن دقائق هواها لعلك تَسْلَم، واحذر سبيل أحد رجلين:

عالم عرف الجدال فى الفقه، واقتنع برئاسته، أو نال القضاء فسعى فى حفظ منزلته، أو زخرف الوعظ فضيق أعين شبكته.

أو زاهد تقلب برأيه الفاسد فى جهالته، وتقرب بتقبيل يده واعتقاد بركته، ويعمل بهواه دونْ شرع الله وسنته.

فهذان عادلان عن منهاج الصواب، مقتنعان بقشور الأعمال عن خالص اللباب، خادعان للمبتدئين بلامع السراب، وطريقهما بمعزل عن سنن السلف الصالح الذى هو جادة الاستقامة وطريق السلامة.

وسأدرج لك فى هذا الكتاب إن شاء الله من أخبارهم ما يدل على آثارهم.

وكتابنا هذا يحتاج إليه المنتهِى، كما يحتاج إليه المبتدى، لأن فيه أسرار العبادات، والتحذير من آفات المعاملات. وقد جعله المصنف أربعة أرباع:

الأول: ربع العبادات.

والثانى: ربع العادات.

والثالث: ربع المهلكات.

والرابع: ربع المنجيات.

وكل واحد من هذه الأقسام الأربعة يشتمل على كتب، وأبواب، وفصول، فمن أقسام الربع الأول:

(*) أى ابن الجوزي.

الربع الأول من الكتاب: ربـع العبادات

كتاب العلم وفضله وما يتعلق بـه

قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ (الزمر: ٩). وقال تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ (المجادلة: ١١)، قال ابن عباس رضي الله عنهما: للعلماء درجات فوق المؤمنين بسبعمائة درجة، ما بين الدرجتين مسيرة خمسمائة عام، وقال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ (فاطر: ٢٨).

وفى «الصحيحين» من حديث معاوية بن أبى سفيان رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: **«من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين»**.(١)

وعن أبى أمامة رضي الله عنه قال: ذكر لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رجلان: أحدهما: عابد، والآخر: عالم، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: **«فضل العالم على العابد كفضلى على أدناكم»**، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: **«إن الله وملائكته، وأهل السماوات والأرض، حتى النملة فى جحرها، وحتى الحوت ليصلون على معلم الناس الخير»** رواه الترمذى وقال: حديث حسن صحيح.(٢)

وفى حديث آخر: **«فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر»**(٣).

وعن صفوان بن عسال رضي الله عنه، أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال: **«إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضًى بما يطلب»** رواه الإمام أحمد، وابن ماجه.(٤)

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخارى (٧١) العلم، ومسلم (١٠٣٧) الزكاة.

(٢) **صحيح**: أخرجه الترمذى (٢٦٨٥) العلم، وصححه الألبانى فى صحيح الترمذى والمشكاة.

(٣) **صحيح**: أخرجه أحمد (٢١٢٠٨)، وأبو داود (٣٦٤١) العلم، والترمذى (٢٦٨٢)، وابن ماجه (٢٢٣) من طريق عاصم بن رجاء بن حيوة، عن داود بن جميل، عن كثير بن قيس، عن أبى الدرداء، عن النبى ﷺ، وقال أبو عيسى: «وهذا أصح من حديث محمود بن خداش، ورأى محمد بن إسماعيل -يعنى البخارى- هذا أصح»، وصححه الألبانى فى صحيح الترمذى.

(٤) **حسن صحيح**: أخرجه أحمد (١٧٦٢٧)، وابن ماجه (٢٢٦) المقدمة، من طريق عبد الرزاق عن معمر عن عاصم بن أبى النجود، عن زر بن حبيش عن صفوان بن عسال، وصححه الألبانى فى صحيح ابن ماجه.

قال الخطابى: فى معنى وضعها أجنحتها ثلاثة أقوال:

احدها: أنه بسط الأجنحة.

الثانى: أنه بمعنى التواضع تعظيماً لطالب العلم.

الثالث: أن المراد به النزول عند مجالس العلم وترك الطيران.

وعن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: **«من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهَّل الله له به طريقاً إلى الجنة»** رواه مسلم.[١]

وروى عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: **«من جاءه الموت وهو يطلب العلم ليحيى به الإسلام، كان بينه وبين الأنبياء فى الجنة درجة واحدة»**[٢]، وفيه أخبار كثيرة.

وكان بعض الحكماء يقول: ليت شعرى، أى شىء أدرك من فاته العلم، وأى شىء فات من أدرك العلم.

ومن فضائل التعليم ما أخرجاه فى «الصحيحين» عن سهل بن سعد رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لعلىّ رضي الله عنه: **«لأن يهدى الله بك رجلاً واحداً خير لك من أن يكون لك حمر النَّعم»**.[٣]

وقال ابن عباس: «إن الذى يعلِّم الناس الخير يستغفر له كل دابة حتى الحوت فى البحر». وروى نحو ذلك فى حديث مرفوع إلى النبى صلى الله عليه وآله وسلم.[٤]

فإن قيل: ما وجه استغفار الحوت للمعلم؟

فالجواب: أن نفع العلم يعم كل شىء حتى الحوت، فإن العلماء عرفوا بالعلم ما يحل ويحرم، وأوصوا بالإحسان إلى كل شىء حتى إلى المذبوح[٥] والحوت، فألهم الله تعالى الكل الاستغفار لهم جزاءً لحسن صنيعهم.

---

(١) **صحيح:** أخرجه مسلم (٢٦٩٩) الذكر والدعاء، عن الأعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة.

(٢) **ضعيف:** أخرجه الدارمى (٣٥٤) المقدمة، من طريق محمد بن إسماعيل عن عمرو بن كثير عن الحسن مرسلاً، وضعفه الألبانى فى «المشكاة» (٢٤٩).

(٣) **صحيح:** أخرجه البخارى (٢٩٤٢)، ومسلم (٢٤٠٦) فضائل الصحابة، وأبو داود (٣٦٦١) العلم.

(٤) **صحيح مرفوعاً:** عن ابن عباس وانظر كتاب «العلم» لابن أبى خيثمة بتصحيح الألبانى.

(٥) **صحيح:** أخرجه مسلم (١٩٥٥) عن شداد بن أوس: «إن الله كتب الإحسان على كل شىء...».

وعن أبى موسى رضي الله عنه قال: قـال رسول الله صلـى الله عليـه وآله وسلم: **«إن مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم، كمثل غيث أصاب أرضاً، فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء، فأنبتت الكلأ، والعشب الكثير، وكان منها أجادب[1] أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس، فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصاب منها طائفة أخرى، إنما هى قيعان[2]، لا تمسك ماء، ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه فى دين الله، ونفعه الله بما بعثنى الله به فعلم وعلّم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً، ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به»** أخرجاه فى «الصحيحين»[3].

فانظر رحمك الله إلى هذا الحديث ما أوقعه على الخلق، فإن الفقهاء أولى الفهم، كمثل البقاع التى قبلت الماء فأنبتت الكلأ، لأنهم علمـوا وفهموا، وفرّعوا وعلّموا. وغاية الناقلين من المحدثين الذين لم يرزقوا الفقه والفهم، أنهم كمثل الأجادب التى حفظت الماء فانتفع بما عندهم، وأما الذين سمعوا ولم يتعلموا ولم يحفظوا، فهم العوام الجهلة.

وقال الحسن رحمه الله: لولا العلماء لصار الناس مثل البهائم.

وقال معاذ بن جبل رضى الـله تعالى عنه: تعلموا العلم، فإن تعلمه لـله خشية، وطلبه عبادة، ومدارسته تسـبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يعـلمه صدقة، وبذله لأهله قربة، وهو الصاحب فى الغربة، والمحدث فى الخلوة.[4]

وقال كعب رحـمه الله: أوحى الله تعالى إلـى موسى عليه السلام: أن تعـلّم يا موسى الخير وعلمه للناس، فإنى منور لمعلم الخير ومتعلمه قبورهم حتى لا يستوحشوا بمكانهم.

فصـل : طلب العلم فريضـة

قد روى عن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: **«طلب العلم فريضة على كل مسلم»** رواه أحمد فى «العلل».[5]

قال المصنف رحمه الله تعالى: اختلف الناس فى ذلك.

---

(١) أجدب: الأرض تمسك الماء فلا يسرع فيه النضوب.

(٢) قيعان: جمع قاع، وهى الأرض الملساء لا نبات فيها.

(٣) **صحيح:** أخرجه البخارى (٧٩) العلم، ومسلم (٢٢٨٢) الفضائل.

(٤) **موضوع:** ضعفه الألبانى فى ضعيف الترغيب والترهيب (٤٧) عن معاذ بن جبل.

(٥) **صحيح:** أخرجه ابن ماجه (٢٢٤) المقدمة، عن محمد بن سيرين عن أنس، وصححه الألبانى -دون زيادة ابن ماجه- وانظر الضعيفة (٤١٦).

فقال الفقهاء: هو علم الفقه، إذ به يعرف الحلال والحرام.

وقال المفسرون والمحدثون: هو علم الكتاب والسنة، إذ بهما يتوصل إلى العلوم كلها.

وقالت الصوفية: هو علم الإخلاص وآفات النفوس.

وقال المتكلمون: هو علم الكلام.

إلى غير ذلك من الأقوال التى ليس فيها قول مَرْضِىّ، والصحيح أنه علم معاملة العبد لربه.

والمعاملة التى كلفها على ثلاثة أقسام: اعتقاد، وفعل، وترك.

فإذا بلغ الصبى، فأول واجب عليه تعلم كلمة الشهادة وفهم معناها، وإن لم يحصل ذلك بالنظر والدليل، لأن النبى صلى الله عليه وآله وسلم اكتفى من أجلاف العرب بالتصديق من غير تعلم دليل، فذلك فرض الوقت، ثم يجب عليه النظر والاستدلال.

فإذا جاء وقت الصلاة وجب عليه تعلم الطهارة والصلاة، فإذا عاش إلى رمضان وجب عليه تعلم الصوم، فإن كان له مال وحال عليه الحول، وجب عليه تعلم الزكاة، وإن جاء وقت الحج، وهو مستطيع، وجب عليه تعلم المناسك.

وأما المتروك: فهو بحسب ما يتجدد من الأحوال، إذ لا يجب على الأعمى تعلم ما يحرم النظر إليه، ولا على الأبكم تعلم ما يحرم من الكلام، فإن كان فى بلد يتعاطى فيه شرب الخمر، ولبس الحرير، وجب عليه أن يعرف تحريم ذلك.

وأما الاعتقادات: فيجب علمها بحسب الخواطر، فإن خطر له شك فى المعانى التى تدل عليها كلمة الشهادة، وجب عليه تعلم ما يصل به إلى إزالة الشك. وإن كان فى بلد قد كثرت فيه البدع، وجب عليه أن يتلقن الحق، كما لو كان تاجراً فى بلد شاع فيه الربا، وجب عليه أن يتعلم الحذر منه.

وينبغى أن يتعلم الإيمان بالبعث والجنة والنار.

فبان بما ذكرنا أن المراد بطلب العلم الذى هو فرض عين: ما يتعين وجوبه على الشخص.

فأما فرض الكفاية: فهو كل علم لا يستغنى عنه فى قوام أمور الدنيا، كالطب: إذ هو ضرورى فى حاجة بقاء الأبدان على الصحة، والحساب: فإنه ضرورى فى قسمة المواريث والوصايا وغيرها.

فهذه العلوم لو خلا البلد عمن يقوم بها حرج أهل البلد، وإذا قام بها واحد كفى وسقط الفرض عن الباقين.

ولا يتعجب من قولنا: إن الطب والحساب من فروض الكفاية، فإن أصول الصناعات أيضاً من فروض الكفاية، كالفلاحة والحياكة، بل الحجامة فإنه لو خلا البلد عن حجام لأسرع الهلاك إليهم، فإن الذى أنزل الداء أنزل الدواء، وأرشد إلى استعماله.

وأما التعمق فى دقائق الحساب، ودقائق الطب وغير ذلك، فهذا يعد فضلة، لأنه يستغنى عنه.[1]

وقد يكون بعض العلوم مباحاً، كالعلم بالأشعار التى لا سخف فيها، وتواريخ الأخبار.

وقد يكون بعضها مذموماً، كعلم السحر، والطلسمات، والتلبيسات.

فأما العلوم الشرعية فكلها محمودة، وتنقسم إلى أصول، وفروع، ومقدمات ومتممات.

فالأصول: كتاب الله تعالى، وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، وإجماع الأمة، وآثار الصحابة.

والفروع: ما فهم من هذه الأصول من معان تنبهت لها العقول، حتى فهم من اللفظ الملفوظ وغيره، كما فهم من قوله: «**لا يقضى القاضى وهو غضبان**»[2] أنه لا يقضى جائعاً.

والمقدمات: هى التى تجرى مجرى الآلات، كعلم النحو واللغة، فإنهما آلة لعلم كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم.

والمتممات: كعلم القراءات، ومخارج الحروف، وكالعلم بأسماء رجال الحديث وعدالتهم وأحوالهم، فهذه هى العلوم الشرعية، وكلها محمودة.

فصل: فى علم المعاملة

فأما علم المعاملة وهو علم أحوال القلب، كالخوف، والرجاء، والرضى، والصدق، والإخلاص، وغير ذلك، فهذا العلم ارتفع به كبار العلماء، وبتحقيقه اشتهرت أذكارهم،

(١) من أسباب تخلف المسلمين بُعدهم عن فنون العلوم الأخرى التى وصل فيها الغرب الكافر إلى اختراع الآلات الحديثة التى غزوا بها ديار الإسلام مثل الطائرات والصواريخ وبراعتهم فى الطب والهندسة وغير ذلك، ونسى المسلمون قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ﴾ (الأنفال: ٦٠).

(٢) **صحيح**: أخرجه البخارى (٧١٥٨) الأحكام، ومسلم (١٧١٧) الأقضية من حديث أبى بكرة ﷺ عن النبى ﷺ: «**لا يحكم أحد بين اثنين وهو غضبان**».

كسفيان الثورى، وأبى حنيفة، ومالك، وأحمد، والشافعى.

وإنما انحطت رتبة المسميـن بالفقهاء والعلماء عن تلك المقامات، لتـشاغلهم بصور العلم من غير أخذ على النفس أن تبلغ إلى حقائقه وتعمل بخفاياه.

وأنت تجـد الفقـيه يتكـلم فى الظهـار، واللعـان، والزنى، والسـبق، والرمى، ويـفرع التفريعات التى تمـضى الدهور فيها، ولا يحتاج إلى مسألة مـنها، ولا يتكلم فى الإخلاص ولا يحذر من الرياء، وهذا عليه فرض عيـن، لأن فى إهماله هلاكه، والأول فرض كفاية. ولو أنه سئل عن علة ترك المناقشة للنفس فى الإخلاص والرياء لم يكن له جواب. ولو سئل عن علة تشاغله بمسـائل اللعان والزنى، لقال: هذا فرض كفاية، ولـقد صدق، ولكن خفى عليـه أن الحساب فرض كـفاية أيضـاً، فهلا تشـاغل به، وإنما تبـهرج عليه الـنفوس، لأن مقصودها من الرياء والسمعة يحصل بالمناظرة، لا بالحساب.

واعلم: أنه قد بدلت ألفاظ وحرفت، ونقلت إلى معانٍ لم يردها السلف الصالح.

فمن ذلك: الفقه، فإنهم تصرفوا فيه بالتخصيص، فـخصوه بمعرفة الفروع وعللها، ولقد كان اسم الـفقه فى الـعصر الأول منطـلقاً على عـلم طريق الآخرة، ومـعرفة دقـائق آفات النفوس، ومفسدات الأعمال، وقوة الإحاطة بحقارة الدنيا، وشدة التطلع إلى نعيم الآخرة، واستيلاء الخوف على القلب.

ولذلك قال الحسن البصرى رحمه الله: إنما الفقيه الزاهد فى الدنيا، الراغب فى الآخرة، البصـير بدينه، المداوم على عـبادة ربه، الورع الكافُّ عن أعـراض المسلمين، العـفيف عن أموالهم، الناصح لهم.

فكان إطلاقهم اسم الفـقه على علم الآخرة أكثر، لأنه لم يكن متـناولاً للفتاوى، ولكن كان متناولاً لذلك بطريق العموم والشمول، فثار من هذا التخصيص تلبيس بعث الناس على التجرد لعلم الفتاوى الظاهرة، والإعراض عن علم المعاملة للآخرة.

اللفظ الثانى: العلم. فقد كان ذلك يطلق على العلم بالله تعالى وبآياته، أى: نعمه وأفعاله فى عباده، فخصوه وسموا به فى الغالب المناظر فى مسائل الفقه وإن كان جاهلاً بالتفسير والأخبار.

اللفظ الثالث: التوحيد. وقد كان ذلك إشـارة إلى أن ترى الأمور كلها من الـله تعالى رؤية تقطع الالتفات إلى الأسباب والوسائط، فـيثمر ذلك التوكل والرضى، وقد جعل الآن

عبارة عن صناعة الكلام فى الأصول، وذلك من المنكرات عند السلف.

اللفظ الرابع: التذكير والذكر. قال الله تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الذاريات: ٥٥).

وقال النبى صلى الله عليه وآله وسلم: «**إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا**. قالوا: وما رياض الجنة؟ قال: **مجالس الذكر**»[1] فنقلوا ذلك إلى القصص وما يحتوى عليه اليوم مجلس القاص من الشطح والطامات.

ومن تشاغل فى وعظه بذكر قصص الأولين، فليعلم أن أكثر ما يحكى فى ذلك لا يثبت، كما ينقلون أن يوسف عليه السلام حل تكته، وأنه رأى يعقوب عاضاً على يده، وأن داود جهز أوريا حتى قتل، فمثل هذا يضر سماعه.

وأما الشطح والطامات: فمن أشد ما يؤذى العوام، لأنها تشتمل على ذكر المحبة والوصال وألم الفراق، وعامة الحاضرين أجلاف، بواطنهم محشوة بالشهوات وحب الصور، فلا يحرك ذلك من قلوبهم إلا ما هو مستكن فى نفوسهم، فيُشْعل فيها نار الشهوة، فيصيحون، وكل ذلك فساد.

وربما احتوى الشطح على الدعاوى العريضة فى محبة الله تعالى، وفى هذا ضرر عظيم. وقد ترك جماعة من الفلاحين فلاحتهم، وأظهروا مثل هذه الدعاوى.

اللفظ الخامس: الحكمة. والحكمة: العلم والعمل به.

قال ابن قتيبة رحمه الله: لا يكون الرجل حكيماً حتى يجمع العلم والعمل. وقد صار هذا الاسم يطلق فى هذا الزمان على الطبيب والمنجم.

فصل (فى العلوم المحمودة)

واعلم أن العلوم المحمودة تنقسم إلى قسمين:

الأول: محمود إلى أقصى غاية، وكلما كان أكثر كان أحسن وأفضل. وهو العلم بالله تعالى، وبصفاته، وأفعاله، وحكمته فى ترتيب الآخرة على الدنيا، فإن هذا علم مطلوب لذاته، والتوصل به إلى سعادة الآخرة، وهو البحر الذى لا يدرك غوره، وإنما يحوم المحومون على سواحله وأطرافه بقدر ما تيسر لهم.

---

(١) **حسن:** أخرجه الترمذى (٣٥١٠) الدعوات، وأحمد (١٢١١٤) عن محمد بن ثابت البنانى عن أبى، عن أنس بن مالك عن النبى ﷺ، وحسنه الألبانى وانظر الصحيحة (٢٥٦٢).

القسم الثانى: العلوم التى لا يحمد منها إلا مقدار مخصوص، وهى التى ذكرناها من فروض الكفايات، فإن فى كل منها افتقاراً واقتصاراً واستقصاءاً.

فكن أحد رجلين: إما مشغولاً بنفسك، وإما متفرغاً لغيرك بعد الفراغ من نفسك.

وإياك أن تشتغل بما يصلح غيرك قبل إصلاح نفسك، واشتغل بإصلاح باطنك وتطهيره من الصفات الذميمة، كالحرص، والحسد، والرياء، والعجب، قبل إصلاح ظاهرك، وسيأتى ذلك إن شاء الله تعالى فى ربع المهلكات. فإن لم تتفرغ من ذلك فلا تشتغل بفروض الكفايات، فإن فى الخلق كثيراً يقومون بذلك، فإن مُهلك نفسه فى طلب صلاح غيره سفيهٌ، ومثله مثل من دخلت العقارب تحت ثيابه وهو يذب الذباب عن غيره. فإن تفرغت من نفسك وتطهيرها، وما أبعد ذلك فاشتغل بفروض الكفايات وراعِ التدرج فى ذلك.

فابتدئ بكتاب الله عز وجل، ثم بسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، ثم بعلوم القرآن: من التفسير، ومن ناسخ ومنسوخ، ومحكم ومتشابه، إلى غير ذلك.

وكذلك فى السنة، ثم اشتغل بالفروع، وأصول الفقه وهكذا بقية العلوم على ما يتسع له العمر ويساعد فيه الوقت. ولا تستغرق عمرك فى فن واحد منها طلباً للاستقصاء، فإن العلم كثير، والعمر قصير، وهذه العلوم آلات يراد بها غيرها، وكل شىء يطلب لغيره فلا ينبغى أن ينسى فيه المطلوب.

فصل فى عالم لم ينفعه علمه

واعلم: أن المناظرات الموضوعة لقصد المغالبة والمباهاة منبع الأخلاق المذمومة، ولا يسلم صاحبها من كبر، لاحتقار المقصرين عنه، وعُجْب بنفسه لارتفاعه على كثير من نظرائه، ولا يَسْلَم من الرياء، لأن جمهور مقصود المناظر اليوم علم الناس بغلبته، وإطلاق ألسنتهم بشكره ومدحه، فهو يُذهِب عمره فى العلوم التى تُعين على المناظرة مما لا ينفع فى الآخرة، كحسن اللفظ، وحفظ النوادر.

وقد روى فى الحديث عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «**أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفعه علمه**»[1] والله أعلم.

(١) **ضعيف:** أخرجه الطبرانى «الأوسط» (١/ ٣٠٥)، وابن عدى فى «الكامل» (٥/ ١٥٨)، عن عثمان البرى عن سعيد المقبرى عن أبى هريرة مرفوعاً، وعثمان هذا قال فيه ابن عدى: «حديثه مما لا يتابع عليه إسناداً ومتناً، وهو ممن يغلط كثيراً»، وضعفه الألبانى فى «ضعيف الترغيب والترهيب» (١٠٦) عن أبى هريرة ﷺ.

بـاب فى آداب الـمعلم والـمتعلم

وآفات العلم وبيان علماء السوء وعلماء الآخـرة

أما المتعلم: فينبغى له تقديم طهارة النفس عن رذائل الأخلاق ومذموم الصفات. إذ العلم عبادة القلب.

وينبغى له قطع العلائق الشاغلة، فإن الفكرة متى توزعت قصرت عن إدراك الحقائق.

وقد كان السلف يؤثرون العلم على كل شيء، فروى عن الإمام أحمد رحمه الله أنه لم يتزوج إلا بعد الأربعين.

وأهديت إلى أبى بكر ابن الأنبـارى جارية، فلما دخلت عليه تفكر فى اسـتخراج مسألة فعزبت عنه فـقال: أخرجوها إلى النخاس، فقالـت: هل من ذنب؟ قال: لا، إلا أن قلبى اشتغل بك، وما قدر مثلك أن يمنعنى علمى.

وعلى المتعلم أن يُلْقى زمـامه إلى المعلم إلقاء المريض زمامه إلى الطبـيب، فيتواضع له، ويبالغ فى خدمته. وقد كان ابن عباس ﷺ يأخذ بركاب زيد بن ثابت ﷺ ويقول: هكذا أمرنا أن نفعل بالعلماء.

ومتى تكبر المتعلم أن يستفيد من غير موصوف بالتقدم فهو جاهل، لأن الحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها أخذها، وليدعْ رأيه لرأى معلمه، فإن خطأ المعلم أنفع للمتعلم من صواب نفسه.

قال عليّ ﷺ : إن من حق العالم عليك أن تسلم على القوم عـامة، وتخصه بالتحية، وأن تجلس أمامه، ولا تـشير عنده بيدك، ولا تغـمزن بعينك، ولا تكثر عـليه السؤال، ولا تعينه فى الجواب، ولا تلح عليه إذا كسل، ولا تراجعه إذا امتنع، ولا تأخذ بثوبه إذا نهض، ولا تفشى له سراً، ولا تغـتابن عنده أحداً، ولا تطلبن عثرته، وإن زل قـبلت معذرته، ولا تقولن له: سمعت فلاناً يقول كذا، ولا إن فلاناً يقول خلافك. ولا تصفن عنده عالماً، ولا تعرض من طول صحبته، ولا ترفع نفسك عن خدمته، وإذا عرضت له حاجة سبقت القوم إليها، فإنما هو بمنزلة النخلة تنتظر متى يسقط عليك منها شيء.

وينبغى أن يحترز الخائض فى العلم فى مبتدأ الأمر من الإصغاء إلى اختلاف الناس، فإن ذلك يحير عقله ويفتر ذهنه ونيته.

وينبغى له أن يأخذ من كل شىء أحسنه. لأن العمر لا يتسع لجميع العلوم، ثم يصرف جمام قوته إلى أشرف العلوم، وهو العلم المتعلق بالآخرة، الذى به يكتسب اليقين الذى حصله أبو بكر الصديق رضي الله عنه، حتى شهد له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: «ما سبقكم أبو بكر بكثرة صوم ولا صلاة، ولكن بشىء وقر فى صدره»[1] فهذه وظائف المتعلم.

وأما المعلم فعليه وظائف أيضاً:

من ذلك: الشفقة على المتعلمين، وأن يجريهم مجرى بنيه، ولا يطلب على إفاضة العلم أجراً، ولا يقصد به جزاء ولا شكوراً، بل يعلّم لوجه الله تعالى، ولا يرى لنفسه منة على المتعلمين، بل يرى الفضل لهم إذ هيؤوا قلوبهم للتقرب إلى الله تعالى بزراعة العلم فيها، فهم كالذى يعير الأرض لمن يزرع فيها. فلا ينبغى أن يطلب المعلم الأجر إلا من الله سبحانه وتعالى، وقد كان السلف يمتنعون من قبول هدية المتعلم.

ومنها: أن لا يدخر من نصح المتعلم شيئاً. وأن يزجره عن سوء الأخلاق بطريق التعريض مهما أمكن، لا على وجه التوبيخ. فإن التوبيخ يهتك حجاب الهيبة.

ومنها: أن ينظر فى فهم المتعلم ومقدار عقله، فلا يُلقِى إليه ما لا يدركه فهمه، ولا يحيط به عقله.

فقد روى عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «أمرت أن أخاطب الناس على قدر عقولهم»[2].

وقال علىّ رضي الله عنه: إن ههنا علماً -وأشار إلى صدره- لو أصبت له حَمَلَةً. وقال الشافعى رحمه الله:

أأنثُرُ دراً بين سارحةِ النَّعَمْ ... أأنظمُ منثوراً لراعيةِ الغَنَمْ
ومَنْ منح الجهّالَ علماً أضاعَهُ ... ومَنْ منع المُستوجبينَ فقد ظَلَمْ

ومنها: أن يكون المعلّم عاملاً بعلمه، ولا يكذّب قوله فعله. قال الله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ (البقرة: ٤٤).

---

(١) **ضعيف:** ذكره ابن القيم فى «المنار المنيف»، وقال: «وهذا من كلام أبى بكر ابن عياش»، وانظر الأسرار المرفوعة للملا على القارى (١/ ٤٧٦).

(٢) **إسناده ضعيف جداً:** أورده العجلونى «كشف الخفاء» (١/ ٢٢٦)، والشوكانى «الفوائد المجموعة» (١/ ١٦٤) عن ابن عباس مرفوعاً. وفى «صحيح البخارى» (١٣٧) من قول علىّ رضي الله عنه: «حدّثوا الناس بما يعرفون أتحبون أن يكذّب الله ورسوله».

وقال عليّ رضي الله عنه: قصم ظهري رجلان: عالم متهتك، وجاهل متنسك.

فصل في آفات العلم وبيان علماء السوء وعلماء الآخرة

علماء السوء: هم الذين قَصْدهم من العلم التنعم بالدنيا، والتوصل إلى المنزلة عند أهلها.

وقد روى أبو هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: **«من تعلم علماً مما يبتغى به وجه الله عز وجل، لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا، لم يجد عرف الجنة يوم القيامة»** يعني ريحها. (1)

وفي حديث آخر أنه قال: **«من تعلم العلم ليباهي به العلماء، أو يماري به السفهاء، أو يصرف به وجوه الناس إليه، فهو في النار»** رواه الترمذي. (2) وفي ذلك أحاديث كثيرة.

وقال بعض السلف: أشد الناس ندامة عند الموت عالم مفرِّط.

واعلم أن المأخوذ على العالم أن يقوم بالأوامر والنواهي، وليس عليه أن يكون زاهداً، ولا معرضاً عن المباحات، إلا أنه ينبغي له أن يتقلل من الدنيا مهما استطاع، لأنه ليس كل جسم يقبل التعلل، فإن الناس يتفاوتون.

وروى أن سفيان الثوري رحمه الله كان حسن المطعم. وكان يقول: إن الدابة إذا لم يحسن إليها في العلف لم تعمل.

وكان الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله يصبر من خشونة العيش على أمر عظيم، والطباع تتفاوت.

ومن صفات علماء الآخرة: أن يعلموا أن الدنيا حقيرة، وأن الآخرة شريفة. وأنهما كالضرتين، فهم يؤثرون الآخرة، ولا تخالف أفعالهم أقوالهم، ويكون ميلهم إلى العلم النافع في الآخرة، ويجتنبون العلوم التي يقل نفعها إيثاراً لما يعظم نفعه، كما روى عن شقيق البلخي

---

(1) **صحيح:** أخرجه أبو داود (٣٦٦٤) العلم، وابن ماجه (٢٥٢) المقدمة، وأحمد (٨٢٥٢)، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه.

(2) **حسن:** أخرجه الترمذي (٢٦٥٤)، وقال: «إسحاق بن يحيى بن طلحة ليس بذاك القوي عندهم، تكلم فيه من قبل حفظه»، وحسنه الألباني في صحيح الترمذي. وله شاهد عند ابن ماجه (٢٥٣) عن ابن عمر، (٢٦٠) عن أبي هريرة.

رحمه الله أنه قال لحاتم الأصم: قد صحبتنى مدة، فماذا تعلمت؟ قال: ثمانية مسائل:

اما الأولى: فإنى نظرت إلى الخلق، فإذا كل شخص له محبوب، فإذا وصل إلى القبر فارقه محبوبه، فجعلت محبوبى حسناتى لتكون فى القبر معى.

وأما الثانية: فإنى نظرت إلى قول الله تعالى: ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ (النازعات: ٤٠) فأجهدتها فى دفع الهوى حتى استقرت على طاعة الله تعالى.

وأما الثالثة: فإنى رأيت كل من معه شيء له قيمة عنده يحفظه، ثم نظرت فى قوله سبحانه وتعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ (النحل: ٩٦) فكلما وقع معى شيء له قيمة، وجَّهته إليه ليبقى لى عنده.

وأما الرابعة: فإنى رأيت الناس يرجعون إلى المال والحسب والشرف، وليست بشيء، فنظرت فى قول الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (الحجرات:١٣) فعملت فى التقوى لأكون عنده كريماً.

وأما الخامسة: فإنى رأيت الناس يتحاسدون، فنظرت فى قوله تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ﴾ (الزخرف: ٣٢) فتركت الحسد.

والسادسة: رأيتهم يتعادون، فنظرت فى قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ (فاطر:٦) فتركت عداوتهم واتخذت الشيطان وحده عدواً.

والسابعة: رأيتهم يذلون أنفسهم فى طلب الرزق، فنظرت فى قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ (هود: ٦) فاشتغلت بما له عليَّ، وتركت ما لى عنده.

والثامنة: رأيتهم متوكلين على تجارتهم وصنائعهم وصحة أبدانهم، فتوكلت على الله سبحانه وتعالى.

ومن صفات علماء الآخرة: أن يكونوا منقطعين عن السلاطين، محترزين من مخالطتهم.

قال حذيفة رضي الله عنه: إياكم ومواقف الفتن. قيل: وما هى؟ قال: أبواب الأمراء، يدخل أحدكم على الأمير فيصدقه بالكذب، ويقول ما ليس فيه.

وقال سعيد بن المسيب رحمه الله: إذا رأيتم العالم يَغْشَى الأمراء، فاحذروا منه فإنه لص.

وقال بعض السلف: إنك لا تصيب من دنياهم شيئاً إلا أصابوا من دينك أفضل منه.

ومن صفات علماء الآخرة: أن لا يتسرعوا إلى الفتوى، وأن لا يفتوا إلا بما يتيقنون صحته.

وقد كان السلف يتدافعون الفتوى حتى ترجع إلى الأول.

وقال عبد الرحمن بن أبى ليلى رحمه الله: أدركت فى هذا المسجد مائة وعشرين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ما أحد يسأل عن حديث أو فتوى إلا ود أن أخاه كفاه ذلك، ثم قد آل الأمر إلى إقدام أقوام يدعون العلم اليوم، يقدمون على الجواب فى مسائل لو عرضت لعمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه لجمع لها أهل بدر واستشارهم.

ومن صفاتهم: أن يكون أكثر بحثهم فى علم الأعمال عما يفسدها ويكدر القلوب ويهيج الوساوس، فإن صور الأعمال قريبة سهلة، وإنما التعب فى تصفيتها.

وأصل الدين: التوقى من الشر، ولا يصح أن يتوقى حتى يعرف.

ومن صفاتهم: البحث عن أسرار الأعمال الشرعية، والملاحظة لحكمها. فإن عجز عن الاطلاع على العلة كفاه التسليم للشرع.

ومن صفاتهم: اتباع الصحابة وخيار التابعين، وتوقى كل مُحْدَث.

كتاب الطهارة وأسرارها والصلاة وما يتعلق بها

اعلم: أن الطهارة لها أربع مراتب:

الأولى: تطهير الظاهر من الأحداث والأنجاس والفضلات.

والثانية: تطهير الجوارح من الذنوب والآثام.

والثالثة: تطهير القلب من الأخلاق المذمومة والرذائل الممقوتة.

والرابعة: تطهير السر عما سوى الله تعالى، وهذا هو الغاية القصوى، فمن قويت بصيرته سمت إلى هذا المطلوب، ومن عميت بصيرته لم يفهم من مراتب الطهارة إلا المرتبة الأولى، فتراه يضيّع أكثر زمانه الشريف فى المبالغة فى الاستنجاء وغسل الثياب، ظناً منه -بحكم الوسوسة وقلة العلم- أن الطهارة المطلوبة هى هذه فقط، وجهلاً بسير المتقدمين الذين كانوا يستغرقون الزمان فى تطهير القلوب ويتساهلون فى أمر الظاهر، كما روى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه توضأ من جرة نصرانية، وكانوا لا يكادون يغسلون أيديهم من الدسم، ويصلون على الأرض، ويمشون حفاة، ويقتصرون فى الاستجمار على الأحجار.

وقد انتهى الأمر إلى قوم يسمون الرعونة نظافة، فترى أكثر زمانهم يمضى فى تزيين الظواهر، وبواطنهم خراب محشوة بخبائث الكبر، والعجب، والجهل، والرياء، والنفاق. ولو رأوا مقتصراً فى الاستجمار على الحجر، أو حافياً يمشى على الأرض، أو من يصلى عليها من غير حائل، أو متوضئاً من آنية عجوز، لأنكروا عليه أشد الإنكار، ولقبوه بالقذر، واستنكفوا من مؤاكلته.

فانظر كيف جعلوا البذاذة التى هى من الإيمان قذارة، والرعونة نظافة، وصيّروا المنكر معروفاً، والمعروف منكراً. لكن من قصد بهذه الطهارة النظافة، ولم يسرف فى الماء، ولم يعتقد أن استعمال الماء الكثير أصل الدين، فليس ذلك بمنكر، بل هو فعل حسن. وليرجع فى معرفة الأنجاس والأحداث إلى كتب الفقه، فإن المقصود من هذا الكتاب الآداب.

وأما إزالة الفضلات فهى نوعان:

(النوع الأول): أوساخ تزال، كالذى يجتمع فى الرأس من الوسخ والدرن، فيستحب تنظيفه بالغسل والترجيل والتدهين لإزالة الشعث، وكذلك ما يجتمع فى الأذن والأنف من الوسخ يستحب إزالته.

ويستحب التسوك والمضمضة لإزالة ما على الأسنان واللسان من القلح، وكذلك وسخ البراجم والدرن الذى يجتمع على جميع البدن برشح العرق وغبار الطريق، وذلك يزيله الغسل.

ولا بأس بدخول الحمام، فإنه أبلغ فى الإزالة، وقد دخـله جماعة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلـم، لكن على داخله صيانة عورته من نظر الغيـر إليها ولمسه إياها. وينبغى للداخل إليـه أن يتذكر بحرارته حر النار، فإن فكـرة المؤمن لا تزال تجول فى كل شىء من أمور الدنيا فيذكر به أمور الآخرة، لأن الغالب على المؤمن أمر الآخرة، وكل إناء ينضح بما فيه. ألا ترى أنه لو دخل إلى دار -معمـورة- بزاز، ونجار، وبناء، وحائك، رأيت البزاز ينظر إلى الفرش يـتأمل قيمتها، والحائـك ينظر إلى نسج الثياب، والنجـار ينظر إلى سقف الدار، والبناء ينـظر إلى الحائط، فكذلك المؤمن إن رأى ظلـمة ذكر ظلمة القـبر، وإن سمع صوتاً هائلاً تذكر نفخة الصور، وإن رأى نعيماً ذكر نعيم الجنة، وإن رأى عذاباً ذكر النار.

ويكره دخول الحمام قريباً من الغروب وبين العشاءين، فإنه وقت انتشار الشياطين.

(النوع الثانى من إزالة الفضلات): أجزاء تحـذف، مثل قص الشـارب، ونتف الإبط، وحلق العانة، وقص الأظافر. ويكره نتف الشيب، ويستحب خضابه.

وباقى مراتب الطهارة يأتى فى ربع المهلكات والمنجيات إن شاء الله تعالى.

فصل (فى فضائل الصلاة)

وأما الصلاة فإنها عـماد الدين وغرة الطاعات. وقد ورد فى فضائل الصـلاة أخبار كثيرة مشهورة، ومن أحسن آدابها الخشوع.

وقد روى عن عثمان بن عفان ﷺ، عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: **«ما من امرئ مسلم تحضره صلاة مكتوبة، فيحسن وضوءها وخشوعها وركوعها إلا كانت كفارة لما قبلها من الذنوب ما لم يأت كبيرة، وذلك الدهر كله»**[1].

وله فى حديث آخر أيضاً عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: **«من صلى ركعتين لا يحدث فيهما نفسه غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر»**[2].

(١) **صحيح:** أخرجه مسلم (٢٢٨) الطهارة.

(٢) **صحيح:** أخرجه البخارى (١٦٠) الوضوء، ومسلم (٢٢٦) الطهارة.

وكان عبد الـله بن الزبير ﷺ إذا قام فى الصـلاة كأنه عود من الخشوع، وكـان يسجد فتنزل العـصافير على ظهـره لا تحسبه إلا جذع حائط، وصـلى يوماً فى الحجر فجـاء حجر قذافة فذهب ببعض ثوبه فما انفتل.

وقال ميمـون بن مهران: ما رأيت مسلم بن يـسار ملتفتاً فى صلاة قـط، ولقد انهدمت ناحية من المسجد ففزع أهل السـوق لهدتها وانطفأ المسـجد، وإنه لفى المسجد يـصلى فما التفت، وكان أهل بيته إذا دخل المنزل سكتوا، فإذا قام إلى الصلاة تكلموا وضحكوا.

وكان علىّ بن الحسين ﷺ إذا توضأ اصفـر لونه، فقيل له: ما هذا الذى يـعتادك عند الوضوء؟ فقال: أتدرون بين يدى من أريد أن أقوم؟

واعلم: أن الصلاة أركاناً وواجـبات وسنناً، وروحها النية والإخلاص والخـشوع وحضور القلب، فإن الصلاة تشتمل على أذكار ومناجـاة وأفعال، ومع عدم حضور القلب لا يحصل المقصود بالأذكـار والمناجاة، لأن النطق إذا لم يعرب عـما فى الضمير كان بمـنزلة الهذيان، وكذلك لا يـحصل المقصـود من الأفعال، لأنه إذا كـان المقصود مـن القيام الخـدمة، ومن الركوع والسجود الذل والتعظيم، ولم يكن القلـب حاضراً، لم يحصل المقصود، فإن الفعل متى خرج عـن مقصوده بقى صورة لا اعـتبار بها، قال الـله تعالى: ﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ (الحج: ٣٧)، والمقصود أن الواصل إلى الله سـبحانه وتعالى هو الوصف الذى اسـتولى على القـلب حتى حمـل على امتثـال الأوامر المطلوبة، فـلا بد من حضورالقلب فى الصلاة، ولكن سامح الشـارع فى غفلة تطرأ، لأن حضور القلب فى أولها ينسحب حكمه على باقيها.

والمعانى التى تتم بها حياة الصلاة كثيـرة:

المعنى الأول: حضور القلب كمـا ذكرنا، ومعناه أن يفرّغ القلب من غيـر ما هو ملابس له، وسبب ذلك الهمة، فإنه متى أهمك أمر حـضر قلبك ضرورة، فلا علاج لإحضاره إلا صرف الهمة إلى الصلاة، وانصراف الهمة يقوى ويضعف بحسب قوة الإيمان بالآخرة واحتقار الدنيا، فمتى رأيت قلبك لا يحضر فى الصلاة، فاعلم أن سببه ضعف الإيمان، فاجتهد فى تقويته.

والمعنى الثانى: التفهم لمعـنى الكلام فإنه أمر وراء حضور القلـب ، لأنه ربما كان القلب حاضراً مع اللفظ دون المعنى، فينبغى صـرف الذهن إلى إدراك المعنى بدفع الخواطر الشاغلة وقطع موادها، فإن المواد إذا لم تنقطع لم تنصرف الخواطر عنها.

والمواد، إما ظاهرة، وهى ما يشغل السمع والبصر، وإما باطنة وهى أشد كمن تشعبت به الهموم فى أودية الدنيا، فإنه لا ينحصر فكره فى فن واحد، ولم يغنه غض البصر، لأن ما وقع فى القلب كافٍ فى الاشتغال به.

وعلاج ذلك إن كان من المواد الظاهرة، بقطع ما يشغل السمع والبصر، وهو القرب من القبلة، والنظر إلى موضع سجوده، والاحتراز فى الصلاة من المواضع المنقوشة، وأن لا يترك عنده ما يشغل حسه، فإن النبى صلى الله عليه وآله وسلم لما صلى فى أنبجانية لها أعلام نزعها وقال: «**إنها ألهتنى آنفاً عن صلاتى**».[1]

وإن كان من المواد الباطنة، فطريق علاجه أن يرد النفس قهراً إلى ما يقرأ فى الصلاة ويشغلها به عن غيره، ويستعد لذلك قبل الدخول فى الصلاة، بأن يقضى أشغاله، ويجتهد فى تفريغ قلبه، ويجدد على نفسه ذكر الآخرة، وخطر القيام بين يدى الله عز وجل وهول المطلع، فإن لم تسكن الأفكار بذلك، فليعلم أنه إنما يتفكر فيما أهمه واشتهاه، فليترك تلك الشهوات وليقطع تلك العلائق.

واعلم: أن العلة متى تمكنت لا ينفعها إلا الدواء القوى، والعلة إذا قويت جاذبت المصلى وجاذبها إلى أن تنقضى الصلاة فى المجاذبة، ومثل ذلك كمثل رجل تحت شجرة أراد أن يصفو له فكْره، وكانت أصوات العصافير تشوش عليه وفى يده قضيب يطيرها به، فما يستقر فكْره حتى تعود العصافير فيشتغل بها، فقيل له: هذا شىء لا ينقطع، فإن أردت الخلاص فاقطع الشجرة، فكذلك شجرة الشهوة إذا تشعبت وتفرقت أغصانها انجذبت إليها الأفكار كانجذاب العصافير إلى الأشجار والذباب إلى الأقذار، فذهب العمر النفيس فى دفع ما لا يندفع، وسبب هذه الشهوة التى تجلب هذه الأفكار حب الدنيا.

قيل لعامر بن عبد قيس رحمه الله: هل تحدثك نفسك بشىء من أمور الدنيا فى الصلاة؟ فقال: لأن تختلف الأسنة فىَّ أحب إلىَّ من أن أجد هذا.

واعلم: أن قطع حب الدنيا من القلب أمر صعب، وزواله بالكلية عزيز، فينبغى الاجتهاد فى الممكن منه، والله الموفق المعين.

---

(١) **صحيح:** أخرجه البخارى (٣٠٣) الصلاة، (٥٨١٧) اللباس، ومسلم (٥٥٦) المساجد ومواضع الصلاة. وفى الصحيحين أنه صلى فى خميصة لها أعلام فألهته عن الصلاة فنزعها.

المعنى الثالث: التعظيم لله والهيبة، وذلك يتولد من شيئين: معرفة جلال الله تعالى وعظمته، ومعرفة حقارة النفس وأنها مستعبدة، فيتولد من المعرفتين: الاستكانة، والخشوع.

ومن ذلك: الرجاء، فإنه زائد على الخوف، فكم من معظم ملكاً يهابه لخوف سطوته ولا يرجو بره.

والمصلى ينبغي أن يكون راجياً بصلاته الثواب، كما يخاف من تقصيره العقاب.

وينبغي للمصلى أن يحضر قلبه عند كل شيء من الصلاة، فإذا سمع نداء المؤذن فليتمثل النداء للقيامة وليشمر للإجابة، ولينظر ماذا يجيب، وبأى بدن يحضر. وإذا ستر عورته فليعلم أن المراد من ذلك تغطية فضائح بدنه عن الخلق، فليذكر عورات باطنه وفضائح سره التى لا يطلع عليها إلا الخالق، وليس لها عنه ساتر، وإنما يكفرها الندم، والحياء والخوف.

وإذا استقبل القبلة فقد صرف وجهه عن الجهات إلى جهة بيت الله تعالى، فصرْف قلبه إلى الله تعالى أولى من ذلك، فكما أنه لا يتوجه إلى جهة البيت إلا بالانصراف عن غيرها، كذلك القلب لا ينصرف إلى الله تعالى إلا بالانصراف عما سواه.

إذا كبّرتَ أيها المصلى، فلا يكذّبنَّ قلبُك لسانَك، لأنه إذا كان فى قلبك شيء أكبر من الله تعالى فقد كذبت، فاحذر أن يكون الهوى عندك أكبر؛ بدليل إيثارك موافقته على طاعة الله تعالى.

فإذا استعذت، فاعلم أن الاستعاذة هى التجاء إلى الله سبحانه وتعالى، فإذا لم تلجأ بقلبك كان كلامك لغواً، وتفهم معنى ما تتلو، وأحضر التفهم بقلبك عند قولك: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، واستحضر لطفه عند قولك: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، وعظمته عند قولك: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، وكذلك فى جميع ما تتلو.

وقد روينا عن زرارة بن أوفى ﷺ أنه قرأ فى صلاته: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ﴾ (المدثر:٨) فخر ميتاً، وما ذاك إلا لأنه صور تلك الحالة فأثرت عنده التلف.

واستشعر فى ركوعك التواضع، وفى سجودك زيادة الذل، لأنك وضعت النفس موضعها، ورددت الفرع إلى أصله بالسجود على التراب الذى خلقت منه، وتفهم معنى الأذكار بالذوق.

واعلم: أن أداء الصلاة بهذه الشروط الباطنة سبب لجلاء القلب من الصدأ، وحصول الأنوار فيه التى بها تتلمح عظمة المعبود، وتطلع على أسراره، وما يعقلها إلا العالمون.

فأما من هو قائـم بصورة الصلاة دون معانيها، فإنـه لا يطلع على شىء من ذلك، بل ينكر وجوده.

فصل فى آداب تتعلق بصلاة الجمعة ويوم الجمعة

وهى نحو من خمسة عشر:

احدها: أن يستعـد لها من يوم الخميس وفى ليلة الجمعـة، بالتنظيف، وغسـل الثياب، وإعداد ما يصلح لها.

الثانى: الاغتسـال فى يومها، كما جـاء فى الأحاديث فى «الصحـيحين»[1] وغيرهما، والأفضل فى الاغتسال أن يكون قبيل الرواح إليها.

الثالث: التزين بتنظـيف البدن، وقص الأظفار، والسواك، وغيـر ذلك مما تقدم من إزالة الفضلات، ويتطيب ويلبس أحسن ثيابه.

الرابع: التبكير إليها ماشياً.

وينبغى للساعى إلى الجامع أن يمشى بسكون وخشوع، وينوى الاعتكاف فى المسجد إلى وقت خروجه.

الخامس: أن لا يتخطى رقاب الناس، ولا يفرق بين اثنين، إلا أن يرى فرجةً فيتخطى إليها.

السادس: أن لا يمر بين يدى المصلى.

السابع: أن يطلب الصف الأول، إلا أن يرى منكراً أو يسمعه فيكون له فى التأخر عذراً.

الثامن: أن يقطع النفل من الصلاة والذكر عند خروج الإمام، ويشتغل بإجابة المؤذن، ثم بسماع الخطبة.

التاسع: أن يصلى السنة بعد الجمعة إن شاء ركعتين، وإن شاء أربعاً.

العاشر: أن يقيم فى المسجد حتى يصلى العصر، وإن أقام إلى المغرب فهو أفضل.

الحادى عشر: أن يراقب الساعة الشريفة التى فى يوم الجمعة بإحضار القلب وملازمة الذكر.

واختلف فى هذه الساعة، ففى أفـراد مسلم من حديث أبى موسى ﷺ أنها ما بين أن

---

(1) أخرجه البخارى (٨٥٨)، ومسلم (٨٤٦) عن أبى سعيد الخدرى عن النبى ﷺ : **«غسل يوم الجمعة واجب على كل محتلم»**.

يجلس الإمام إلى أن تقضى الصلاة[1] وفى حديث آخر هى ما بين فراغ الإمام من الخطبة إلى أن تقضى الصلاة، وفى حديث جابر رضي الله عنه: أنها آخر ساعة بعد العصر. وفى حديث أنس رضي الله عنه قال: التمسوها ما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس.

وقال أبو بكر الأثرم رحمه الله: لا تخلو هذه الأحاديث من وجهين: إما أن يكون بعضها أصح من بعض، وإما أن تكون هذه الساعة تنتقل فى الأوقات كتنقل ليلة القدر فى ليالى العشر.

الثانى عشر: أن يكثر من الصلاة على النبى صلى الله عليه وآله وسلم فى هذا اليوم، فقد روى عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: **«من صلى عليَّ فى يوم الجمعة ثمانين مرة غفر الله ذنوب ثمانين سنة»**.[2] وإن أحبَّ زاد فى الصلاة عليه الدعاءَ له، كقوله: «اللهم آتِ محمداً الوسيلة والفضيلة والدرجة الرفيعة، وابعثه المقام المحمود الذى وعدته، اللهم اجز نبينا محمداً عنا ما هو أهله». وليضف إلى الصلاة الاستغفار، فإنه مستحب فى ذلك اليوم.

الثالث عشر: أن يقرأ سورة الكهف، فقد جاء فى حديث من رواية عائشة رضي الله عنها أنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ألا أحدثكم بسورة ملأ عظمها ما بين السماء والأرض، ولكاتبها من الأجر مثل ذلك، ومن قرأها يوم الجمعة غفر له ما بينها وبين الجمعة الأخرى وزيادة ثلاثة أيام، ومن قرأ الخمس الأواخر منها عند نومه بعثه الله تعالى أى الليل شاء»؟ قالوا: بلى يا رسول الله: قال: **«سورة الكهف»**[3].

وروى فى حديث آخر: «أن من قرأها فى يوم الجمعة أو ليلة الجمعة وقى الفتنة»[4].

---

(١) **صحيح موقوفاً**: أخرجه مسلم (٨٥٣) الجمعة، وأبو داود (١٠٤٩) الجمعة من حديث ابن وهب عن مخرمة بن بكير، عن أبيه، عن أبى بردة ابن أبى موسى عن أبى موسى عن النبى ﷺ وقال الألبانى فى صحيح أبى داود: «ضعيف والمحفوظ موقوف». ويخالفه ما صح عن جابر رضي الله عنه عند أبى داود (١٠٤٨) الصلاة، والنسائى (١٣٨٩) الجمعة، وصححه الألبانى فى صحيح أبى داود.

(٢) **ضعيف**: أورده العجلونى فى «كشف الخفاء»، وقال: «ورواه الدارقطنى عن ابن المسيب قال أظنه عن أبى هريرة»، وفى صحيح النسائى وأبى داود كما صححه الألبانى عن أوس بن أوس: «**إن من أفضل أيامكم يوم الجمعة، فيه خلق آدم .. فأكثروا عليَّ من الصلاة فيه، فإن صلاتكم معروضة عليَّ**».

(٣) **ضعيف جداً**: أخرجه ابن مردويه فى تفسيره بسند ضعيف، كما فى «تنزيه الشريعة». وضعفه الألبانى فى «السلسلة الضعيفة» (٢٤٨٢) من رواية الديلمي (١/٢/٣٣٧) عن عبد الرحمن بن هشام المخزومى: حدثنا أبى عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة مرفوعاً. وقال الألبانى: وهذا إسناد ضعيف جداً.

(٤) فى صحيح الترغيب والترهيب للألبانى: «من حفظ عشر آيات من سورة الكهف عصم من الدجال» رواه مسلم واللفظ له وأبو داود والنسائى وعندهما: «عصم من فتنة الدجال».

ويستحب أن يكثر من قراءة القرآن فى يوم الجمعة، وأن يختم فيه أو فى ليلة الجمعة إن قدر.

الرابع عشر: أن يتصدق فى يوم الجمعة بما أمكن، ولتكن صدقته خارج المسجد.

ويستحب أن يصلى صلاة التسبيح فى يوم الجمعة.

الخامس عشر: يستحب أن يجعل يوم الجمعة لأعمال الآخرة، ويكف عن جميع أشغال الدنيا.

فصل فى ذكر النوافل

اعلم: أن ما عدا الفرائض من الصلاة ثلاثة أقسام: سنن، ومستحبات، وتطوعات.

ونعنى بالسنة: ما نقل عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المواظبة عليه، كالرواتب عقيب الفرائض والوتر والضحى.

ونعنى بالمستحب: ما ورد الخبر بفضله ولم ينقل المواظبة عليه، كالصلاة عند دخول المنزل والخروج منه.

ونعنى بالتطوعات: ما وراء ذلك مما لم يرد به خبر، ولكن العبد يتطوع بفعله، وتسمى هذه الأقسام الثلاثة: نوافل، لأن النفل هو زيادة، وهذه زيادة على الفرائض.

واعلم: أن أفضل تطوعات البدن: الصلاة.

وأقسام النوافل وفضائلها مشهورة مذكورة فى كتب الفقه وغيرها، لكن نذكر منها صلاة التسبيح لأنها قد تخفى صفتها على بعض الناس.

فروى عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال للعباس: **«ألا أعطيك، ألا أعلمك»** -وذكر الحديث إلى أن قال-: **«تصلى أربع ركعات، تقرأ فى كل ركعة بفاتحة الكتاب وسورة، فإذا فرغت من القراءة فى أول ركعة وأنت قائم قلت: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر خمس عشرة مرة، ثم تركع فتقولها وأنت راكع عشراً، ثم ترفع رأسك من الركوع فتقولها عشراً، ثم تهوى ساجداً فتقولها وأنت ساجد عشراً، ثم ترفع رأسك**

من السجود فتقولها عشراً، ثم تسجد فتقولها عشراً، ثم ترفع راسك من السجود فتقولها عشراً قبل أن تقوم، فذلك خمس وسبعون. تفعل ذلك فى أربع ركعات، إن استطعت أن تصليها فى كل يوم مرة فافعل، فإن لم تفعل، ففى كل جمعة مرة، فإن لم تفعل، ففى كل شهر مرة، فإن لم تفعل ففى كل سنة، فإن لم تفعل ففى عمرك مرة[1].

فصل فى أوقات النهى عن الصلاة

ولا يتطوع فى أوقات النهى بصلاة لا سبب لها كصلاة التسبيح، لأن النهى مؤكد فيها عن الصلاة، وهذه الأشياء ضعيفة فلا تقاومه. وأما ما له سبب، كتحية المسجد، وصلاة الكسوف والاستسقاء ونحوها، فعلى روايتين.

واعلم: أن النهى عن الصلاة فى الأوقات الثلاثة له ثلاثة أسرار:

أحدها: ترك التشبه بعبدة الشمس.

الثانى: التحذير من السجود لقرن الشيطان، فإن الشمس تطلع ومعها قرن الشيطان، فإذا ارتفعت فارقها فإذا، استوت قارنها، فإذا زالت الشمس فارقها، فإذا تضيفت للغروب قارنها، فإذا غربت فارقها.

الثالث: أن سالكى طريق الآخرة مواظبون على العبادات، والمواظبة على نمط واحد يورث الملل، فإذا وقع المنع زاد النشاط، لأن النفس حريصة على ما منعت منه، فمنع الإنسان من الصلاة فى أوقات النهى، ولم يمنع من نوع آخر من التعبد، كالقراءة، والتسبيح لينتقل العابد من حال إلى حال، كما جعلت الصلاة متنوعة بين قيام وقعود وركوع وسجود، والله أعلم.

وصلى الله على سيدنا محمد النبى العربى، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

---

(١) **صحيح:** أخرجه أبو داود (١٢٩٧) باب صلاة التسبيح، وابن ماجه (١٣٨٧) إقامة الصلاة والسنة فيها، وصححه الألبانى فى صحيح أبى داود.

كتـاب الزكـاة وأسـرارها ومـا يتعلـق بهـا

الزكاة: أحد مبـانى الإسلام، وقد قرنهـا الله سبحانه وتـعالى بالصلاة. فقـال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ (البقرة: ٤٣).

أما أنواع الزكاة، وأقسامها، وأسباب وجوبهـا، فظاهر مشهور فى مظانه من كتب الفقه، وإنما نذكر هاهنا بعض الشروط والآداب.

فمن الشروط: أن يُخْرِج المنصوص عليه، ولا يُخْرِج القـيمة فى الصحيح. فإن مَنْ أجاز إخراج القيـمة إنما تلمح سد الخلة فقط، وسـد الخلة ليس هو كل المقصود بل بـعضه، فإن واجبات الشرع ثلاثة أقسام:

القسم الأول: تعبد محـض، كرمى الجمار، فمقصـود الشرع فيه الابتلاء بالعـمل ليظهر عبودية العبد بفعل ما لا يعقل له معنى، لأن مـا يعقل معناه يساعد عليه الطبع ويدعو إليه، فلا يظهر خلوص العبودية به، بخلاف ما ذكرنا.

والقسم الثانى: عكس ذلك، وهو ما لا يقـصد منه التعبد، بل المقصـود منه حظ محض، كقضاء دين الآدميين، ورد المغصوب ونحو ذلك، وكذلك لا تعـتبر فيه النية ولا الفعل، بل كيفما وصل الحق إلى مستحقه حصل المقصود وسقط خطاب الشرع، فهذان قسمان لا تركيب فيهما.

وأما القسم الثالث: فهو المركَّب، وهو أن يقـصد منه الأمران جميعاً: امـتحان المكلف، وحظ العبـاد، فيجتمع فـيه تعبد رمى الجمـار، وحظ رد الحقوق، فلا ينبـغى أن ينسى أدق المعنيين وهـو التعبد والاسترقـاق بسبب أحدهما، ولعل الأدق هـو الأهم، والزكاة من هذا القبيل، فحظ الفقير مقصود فى سد الخلة، وحق الـتعبد مقصود الشرع فى اتباع التفاصيل، وبهذا الاعتبار صارت الزكاة قرينة الصلاة والحج، والله أعلم.

فصـل فـى دقـائـق الآداب الباطنـة فـى الـزكـاة

اعلم: أن على مريد الآخرة فى زكاته وظائف:

الوظيفة الأولى: أن يفهم المراد مـن الزكاة، وهو ثلاثة أشيـاء: ابتلاء مدعى محـبة الله تعالى بإخراج محبوبه، والتنزه عن صفة البخل المهلك، وشكر نعمة المال.

الوظيفة الثانية: الإسرار بإخراجها لكونه أبعـد من الرياء والسمعة، وفى الإظهار إذلال

للفقير أيضاً، فإن خاف أن يتهم بعدم الإخراج أعطى من لا يبالى من الفقراء بالأخذ بين الجماعة علانيةً وأعطى غيره سراً.

الوظيفة الثالثة: أن لا يفسدها بالمن والأذى، وذلك أن الإنسان إذا رأى نفسه محسناً إلى الفقير، منعماً بالإعطاء، ربما حصل منه ذلك، ولو حقق النظر لرأى الفقير محسناً إليه بقبول حق الله الذى هو طهرة له. وإذا استحضر مع ذلك أن إخراجه للزكاة شكر لنعمة المال، فلا يبقى بينه وبين الفقير معاملة. ولا ينبغى أن يحتقر الفقير لفقره، لأن الفضل ليس بالمال ولا النقص بعدمه.

الوظيفة الرابعة: أن يستصغر العطية، فإن المستعظم للفعل معجب به. وقد قيل: لا يتم المعروف إلا بثلاث: بتصغيره، وتعجيله، وستره.

الوظيفة الخامسة: أن ينتقى من ماله أحله وأجوده وأحبه إليه.

أما الحل، فإن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيباً.

وأما الأجود، فقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾ (البقرة: ٢٦٧).

وينبغى أن يلاحظ فى ذلك أمرين، أحدهما: حق الله سبحانه وتعالى بالتعظيم له، فإنه أحق من اختير له، ولو أن إنساناً قدَّم إلى ضيفه طعاماً رديئاً لأوغر صدره.

والثاني: حق نفسه، فإن الذى يقدمه هو الذى يلقاه غداً فى القيامة، فينبغى أن يختار الأجود لنفسه.

وأما أحبه إليه، فلقوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ (آل عمران: ٩٢).

وكان ابن عمر رضي الله عنهما إذا اشتد حبه لشىء من ماله قربه لله عز وجل.

وروى: أنه نزل الجحفة وهو شاك، فقال: إنى لأشتهى حيتاناً فالتمسوا له فلم يجدوا إلا حوتاً، فأخذته امرأته فصنعته ثم قربته إليه، فأتى مسكين، فقال ابن عمر رضي الله عنهما: خذه، فقال له أهله: سبحان الله، قد عنيتنا ومعنا زاد نعطيه، فقال: إن عبد الله يحبه.

وروى أن سائلاً وقف بباب الربيع بن خثيم رحمة الله عليه فقال: أطعموه سكراً، فقالوا: نطعمه خبزاً أنفع له فقال: ويحكم أطعموه سكراً، فإن الربيع يحب السكر.

الوظيفة السادسة: أن يطلب لصدقته من تزكو به الصدقة، ولا يكتفى بأن يكون من عموم الأصناف الثمانية، فإن في عمومهم خصوص صفات، فليراعِ خصوص تلك الصفات، وهم خصوص من عموم الأصناف الثمانية، ولهم صفات:

الأولى: التقوى، فليخص بصدقته المتقين، فإنه يرد بها هممهم إلى الله تعالى.

وقد كان عامر بن عبد الله بن الزبير يتخير العباد وهم سجود، فيأتيهم بالصرة فيها الدنانير والدراهم، فيضعها عند نعالهم بحيث يحسون بها ولا يشعرون بمكانه، فقيل له: ما يمنعك أن ترسل بها إليهم؟ فيقول: أكره أن يتمعر وجه أحدهم إذا نظر إلى رسولى أو لقينى.

الثانية: العلم، فإن فى إعطاء العالم إعانة على العلم ونشر الدين، وذلك تقوية للشريعة.

الثالثة: أن يكون ممن يرى الإنعام من الله وحده، ولا يلتفت إلى الأسباب إلا بقدر ما ندب إليه من شكرها، فأما الذى عادته المدح عند العطاء، فإنه سيذم عند المنع.

الرابعة: أن يكون صائناً لفقره، ساتراً لحاجته، كاتماً للشكوى، كما قال تعالى: ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾ (البقرة:٢٧٣). وهؤلاء لا يحصلون فى شبكة الطالب إلا بعد البحث عنهم، وسؤال أهل كل محلة عمن هذه صفته.

الخامسة: أن يكون ذا عائلة، أو محبوساً لمرض أو دَين أو بسبب من الأسباب فيوجد فيه معنى قوله عز وجل: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ (البقرة:٢٧٣) أى حبسوا فى طريق الآخرة بعيلة أو ضيق معيشة أو إصلاح قلب، فهذا من المحصرين والتصدق عليه إطلاق لحصره.

السادسة: أن يكون من الأقارب وذوى الأرحام، فإن الصدقة عليهم صدقة وصلة، وكل من جمع من هذه الخلال خلتين أو أكثر، كان إعطاؤه أفضل على قدر ما جمع.

فصل فى آداب القابض

لابد أن يكون آخذ الزكاة من الأصناف الثمانية، وعليه فى ذلك:

الوظيفة الأولى: أن يفهم أن الله تعالى إنما أوجب صرف الزكاة إليه ليكفيه ما أهمه ويجعل همومه هماً واحداً فى طلب رضى الله عز وجل.

الوظيفة الثانية: أن يشكر المعطى ويدعو له ويثنى عليه، وليكن ذلك بمقدار شكر السبب، فإن من لم يشكر الناس لم يشكر الله، كما ورد فى الحديث.[1]

---

(١) **صحيح**: أخرجه الترمذى (١٩٥٥) البر والصلة، وأحمد (١٠٨٧٧) عن أبى سعيد، وأخرجه الترمذى (١٩٥٤) وأحمد (٧٤٥٢) عن أبى هريرة، وأحمد (١٧٩٨١) عن النعمان بن بشير. وانظر صحيح الترمذى للألبانى.

ومن تمام الشكر أن لا يحتقر العطاء وإن قل، ولا يـذمه، ويغطى ما فيه من عيب. وكمـا أن وظيفة المعطـى الاستصغـار فكذا وظيفة الـقابض الاستعـظام، وكل ذلك لا يناقض رؤية النعمة من الله عز وجل. فـإن مَنْ لا يرى الواسطة واسطة، فهو جاهل، وإنما المنكر أن يرى الواسطة أصلاً.

الوظيفة الثالثة: أن ينظر فيـما يُعطاه، فإن لم يكن من حـلٍّ لم يأخذه أصلاً، لأن إخراج مال الغير ليس بزكاة، وإن كان من شـبهة تورع عنه، إلا أن يضيق عليه الأمر، فمن كان أكثـر كسبه حراماً، فأخرج الزكـاة ولم يعرف لما أخرجه مالكاً مـعيناً، كانت الفتوى فيه أن يتصدق به، فيجوز لهذا الفقير أن يأخذ قدر حاجته عند ضيق الأمر عليه وعجزه عن الصافى.

الوظيفة الرابعة: أن يتوقى مواقع الشـبه فى قدر ما يأخذ، فيأخـذ القدر المباح له، ولا يأخذ أكثر من حاجته. فإن كان غارماً لم يزد على مقدار الدين، أو غازياً لم يأخذ إلا مقدار ما يحتاج إليه، وإن أخـذ بالمسكنة أخذ قدر حاجته دون ما يستـغنى عنه، وكل ذلك موكول إلى اجتهاده، والورع ترك ما يريب.

واختلف العلماء فى قـدر الغنَى المانع من الزكاة، والصحيح فيـه أن يكون له كفاية على الدوام، إما من تجارة، أو صناعة، أو أجرة عقـار، أو غير ذلك، وإن كان له بعض الكفاية أخذ ما يتممها، وإن لم يكن له ذلك أخذ ما يكفيه.

وليكن ما يأخذه بقدر ما يكفى سنتـه، ولا يزيد على ذلك، وإنما اعتبر بالسَّنة، لأنها إذا ذهبت جاء وقت الأخذ، وإذا أخذ الأكثر منها ضيّق على الفقراء.

فصل فى صدقة التطوع وفضلها وآدابها

أما فضائل الصدقة فهى كثيرة مشهورة:

منها: ما روى البخارى من حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: **«أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله؟** قالوا: يا رسـول الله ما منا أحـد إلا ماله أحب إليه، قال: **فإن ماله ما قدم، ومال وارثه ما أخر».** [1]

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخارى (٦٤٤٢) الرقاق، والنسائى (٣٦١٢)، وأحمد (٣٦١٩).

وفى «الصحيحين» من رواية أبى هريرة رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: **«من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب -ولا يصعد إلى الله إلا الطيب- فإن الله يتقبلها بيمينه ثم يربيها لصاحبها كما يربى أحدكم فلوه حتى تكون مثل الجبل»**.(١)

وفى حديث آخر: **«إن الصدقة لتطفئ غضب الرب، وتقى ميتة السوء»**(٢).

وفى حديث آخر: **«تصدقوا فإن الصدقة فكاككم من النار»**(٣).

وعن بريدة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: **«ما يُخْرِج أحد شيئاً من الصدقة حتى يفك عنه لحى سبعين شيطاناً»**(٤).

وروى أن راهباً تعبد فى صومعة ستين سنة، ثم نزل يوماً ومعه رغيف، فعرضت له امرأة فتكشفت له، فوقع عليها، فأدركه الموت وهو على تلك الحال، وجاء سائل فأعطاه الرغيف ومات، فجيء بعمل ستين سنة، فوضع فى كفة ميزانه وخطيئته فى كفة، فرجحت بعمله، حتى جيء بالرغيف فوضع مع عمله، فرجّح حسناته.

وفى أفراد مسلم، من حديث أبى هريرة رضي الله عنه ، عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: **«ما نقصت صدقة من مال»**(٥).

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخارى (١٤١٠) الزكاة، ومسلم (١٠١٤) الزكاة.

(٢) **ضعيف**: أخرجه الترمذى (٦٦٤) عن يونس بن عبيد، عن الحسن، عن أنس عن النبى ﷺ ، وضعف إسناده الألبانى كما فى الإرواء (٨٨٥)، وقد روى من حديث عبد الله بن جعفر، وأبى سعيد الخدرى، وعبد الله بن عباس وعمر بن الخطاب وعبد الله بن مسعود وأبى أمامة، ومعاوية بن حيدة. وصحح شطره الأول الألبانى بمجموع الطرق، وانظر الصحيحة (١٩٠٨).

(٣) **ضعيف**: أخرجه الطبرانى «الأوسط» (٨٠٥٦)، وأبو نعيم «الحلية» (١٠/٤٠٣) من طريق محمد بن زنبور: ثنا الحارث بن عمير عن حميد عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ : فذكره. وضعفه الألبانى. تفرد به الحارث بن عمير، وهو ضعيف، وانظر الضعيفة (١٦٢٨).

(٤) **صحيح**: أخرجه أحمد (٢٢٨٥٨) وابن خزيمة فى «صحيحه» (١/٢٤٨/٢)، والحاكم (١/٤١٧)، والطبرانى «الأوسط» (١٠٣٨)، عن أبى معاوية محمد بن خازم عن الأعمش عن ابن بريدة عن أبيه مرفوعاً. وقال الحاكم: «صحيح على شرط الشيخين». ووافقه الذهبى وصححه الألبانى أيضاً كما فى «الصحيحة» (١٢٦٨).

(٥) **صحيح**: أخرجه مسلم (٢٥٨٨) البر والصلة، والترمذى (٢٠٢٩)، وأحمد (٧١٦٥)، عن العلاء عن أبيه عن أبى هريرة عن النبى ﷺ .

وروى عن عائشة رضي الله عنها أنهم ذبحوا شاة فقال النبى صلى الله عليه وآله وسلم: «**ما بقى منها؟**» فقالت: ما بقى منها إلا كتفها، فقال: «**بقى كلها إلا كتفها**».[1]

وأما آدابها، فنحو ما تقدم فى الزكاة.

واختلفوا: أيما أفضل للفقير، أن يأخذ من الزكاة، أو من الصدقة. فقال قوم: من الزكاة أفضل، وقال آخرون: من الصدقة أفضل.

وأما أفضل الصدقة فعن أبى هريرة رضي الله عنه قال: «سئل رسول الله صلى الله علية وآله وسلم، أى الصدقة أفضل؟ قال: «**أن تصدق وانت صحيح شحيح، تخشى الفقر، وتأمل الغنى، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت: لفلان كذا، ولفلان كذا، وقد كان لفلان**» أخرجاه فى «الصحيحين»[2].

والله أعلم. وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

---

(١) **صحيح**: أخرجه الترمذى (٢٤٧٠) صفة القيامة، وأحمد (٢٢٧٢٠)، عن يحيى بن سعيد عن سفيان عن أبى إسحاق -السبيعى- عن أبى ميسرة عن عائشة مرفوعاً، وصححه الألبانى وانظر الصحيحة (٢٥٤٤).

(٢) **صحيح**: أخرجه البخارى (١٤١٩) الزكاة، ومسلم (١٠٣٢) الزكاة.

كتـاب الصـوم وأسـراره ومهمـاته ومـا يتعلـق بـه

اعلم: أن فى الصوم خصيصة ليست فى غيره، وهى إضافته إلى اللـه عز وجل حيث يقول سبحانه: **«الصوم لى وانا اجزى به»**[1]، وكفى بهذه الإضافة شرفاً، كما شرف البيت العتيق بإضافته إليه فى قوله: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾ (الحج: ٢٦). وإنما فضل الصوم لمعنيين:

احدهما: أنه سر وعمل باطن، لا يراه الخلق ولا يدخله رياء.

الثانى: أنه قهر لعدو الله، لأن وسيلة العدو الشهوات، وإنما تقوى الشهوات بالأكل والشرب، وما دامت أرض الشهوات مخصبة، فالشياطين يترددون إلى ذلك المرعى، وبترك الشهوات تضيق عليهم المسالك، وفى الصوم أخبار كثيرة تدل على فضله وهى مشهورة.

فصـــل فـــى سنـن الصـــوم

يستحب السحور، وتأخيره، وتعجيل الفطر، وأن يفطر على التمر.

ويستحب الجود فى رمضان، وفعل المعروف، وكثرة الصدقة، اقتداءً برسول الله صلى اللـه عليه وآله وسلم. ويستحب دراسة القرآن الكريم، والاعتكاف فى رمضان: لاسيما فى العشر الأواخر، وزيادة الاجتهاد فيه.

وفى «الصحيحين» من حديث عائشة ﵂ قالت: «كان النبى صلى الله عليه وآله وسلم إذا دخل العشر الأخير، شد مئزره، وأحيا الليل، وأيقظ أهله».[2]

وذكر العلماء فى معنى شد المئزر وجهين:

احدهما: أنه الإعراض عن النساء.

الثانى: أنه كناية عن الجد والتشمير فى العمل. قالوا: وكان سبب اجتهاده فى العشر طلب ليلة القدر.

بيـان أسـرار الصـوم وآدابـه

وللصوم ثلاث مراتب: صوم العموم، وصوم الخصوص، وصوم خصوص الخصوص.

---

(١) **صحيح**: حديث قدسى أخرجه البخارى (١٨٩٤) الصوم، ومسلم (١١٥١) الصوم.

(٢) **صحيح**: أخرجه البخارى (٢٠٢٤) صلاة التراويح، ومسلم (١١٧٤) الاعتكاف.

فأما صوم العموم فهو كف البطن والفرج عن قضاء الشهوة.

وأما صوم الخصوص: فهو كف النظر، واللسان، واليد، والرجل، والسمع، والبصر، وسائر الجوارح عن الآثام.

وأما صوم خصوص الخصوص: فهو صوم القلب عن الهمم الدنية، والأفكار المبعدة عن الله سبحانه وتعالى، وكفه عما سوى الله سبحانه وتعالى بالكلية، وهذا الصوم له شروح تأتى فى غير هذا الموضع.

فمن آداب صوم الخصوص: غض البصر، وحفظ اللسان عما يؤذى من كلام محرم أو مكروه، أو مما لا يفيد، وحراسة باقى الجوارح.

وفى الحديث -من رواية البخارى- أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال: **«من لم يدع قول الزور والعمل به، فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه»**(١).

ومن آدابه: أن لا يمتلئ من الطعام فى الليل، بل يأكل بمقدار، فإنه ما ملأ ابن آدم وعاءً شراً من بطن. ومتى شبع أول الليل لم ينتفع بنفسه فى باقيه، وكذلك إذا شبع وقت السحر لم ينتفع بنفسه إلى قريب الظهر، لأن كثرة الأكل تورث الكسل والفتور، ثم يفوت المقصود من الصيام بكثرة الأكل، لأن المراد منه أن يذوق طعم الجوع، ويكون تاركاً للمشتهى.

فأما صوم التطوع، فاعلم أن استحباب الصوم يتأكد فى الأيام الفاضلة، وفواضل الأيام بعضها يوجد فى كل سنة، كصيام ستة أيام من شوال بعد رمضان، وكصيام يوم عرفة، ويوم عاشوراء، وعشر ذى الحجة، والمحرم.

وبعضها يتكرر فى كل شهر، كأول الأشهر، وأوسطها، وآخرها، فمن صام أول الشهر وأوسطه وآخره فقد أحسن. غير أن الأفضل أن يجعل الثلاثة أيام البيض.

وبعضها يتكرر فى كل أسبوع وهو يوم الاثنين، ويوم الخميس.

وأفضل صوم التطوع صوم داود عليه السلام، كان يصوم يوماً ويفطر يوماً، وذلك يجمع المعانى الثلاثة:

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخارى (١٩٠٣) الصوم، والترمذى (٧٠٧) الصوم، وأبو داود (٢٣٦٢) الصوم، وابن ماجه (١٦٨٩) الصيام، وأحمد (٩٥٢٩) عن أبى هريرة رضي الله عنه.

أحدها: أن النفس تعطى يوم الفطر حظها، وتستوفى فى يوم الصوم تعبدها، وفى ذلك جمع بين ما لها وما عليها، وهو العدل.

والثانى: أن يوم الأكل يوم شكر، ويوم الصوم يوم صبر، والإيمان نصفان: شكر وصبر.

والثالث: أنه أشق على النفس فى المجاهدة، لأنها كلما أنست بحالة نقلت عنها. فأما صوم الدهر: ففى أفراد مسلم من حديث أبى قتادة ﷺ أن عمر ﷺ سأل النبى صلى الله عليه وآله وسلم فقال: كيف بمن يصوم الدهر كله؟ فقال: «**لا صام ولا أفطر** -أو- **لم يصم ولم يفطر**»[1] وهذا محمول على من سرد الصوم فى الأيام المنهى عن صيامها: فأما إذا أفطر يومى العيدين وأيام التشريق فلا بأس بذلك.

فقد روى عن هشام بن عروة رحمه الله أن أباه كان يسرد الصوم، وكانت عائشة ﷺ تسرد.

وقال أنس بن مالك ﷺ: سرد أبو طلحة الصوم بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أربعين عاماً.

واعلم: أن من رزق فطنة، علم المقصود بالصوم، فحمل نفسه قدر ما لا يعجزه عما هو أفضل منه.

فقد كان ابن مسعود قليل الصوم، وكان يقول: إذا صمت ضعفت عن الصلاة، وأنا أختار الصلاة على الصوم.

وكان بعضهم إذا صام ضعف عن قراءة القرآن، فكان يكثر الفطر حتى يقدر على التلاوة، وكل إنسان أعلم بحاله وما يصلحه.

---

(١) **صحيح** : أخرجه مسلم (١١٦٢) الصيام، والترمذى (٧٦٧) الصوم، والنسائى (٢٣٨٧)، وأبو داود (٢٤٢٥)، وأحمد (٢٢١٤٤).

كتاب الحج وأسراره وفضائله وآدابه ونحو ذلك

ينبغى لمن أراد الحج أن يبدأ بالتوبة، ورد المظالم، وقضاء الديون، وإعداد النفقة لكل ما تلزمه نفقته إلى وقت الرجوع، ويرد ما عنده من الودائع.

ويستصحب من المال الحلال ما يكفيه لذهابه ورجوعه من غير تقتير، على وجه يمكنه معه التوسع فى الزاد، والرفق بالفقراء.

ويستصحب ما يصلحه كالسواك، والمشط، والمرآة، والمكحلة.

ويتصدق بشىء قبل خروجه، وإذا اكترى فليظهر للجمَّال كل ما يريد أن يحمله من قليل وكثير. وقد قال رجل لابن المبارك: احمل لى هذه الرقعة إلى فلان. فقال: حتى أستأذن الجمال.

وينبغى أن يلتمس رفيقاً صالحاً محباً للخير معيناً عليه، إن نسى ذكره، وإن ذكر أعانه، وإن ضاق صدره صبّره.

وليؤمر الرفقاء عليهم أحسنهم خلقاً، وأرفقهم بالأصحاب، وإنما احتيج إلى التأمير؛ لأن الآراء تختلف، فلا ينتظم التدبير، وعلى الأمير الرفق بالقوم، والنظر فى مصالحهم، وأن يجعل نفسه وقاية لهم.

وينبغى للمسافر تطييب الكلام، وإطعام الطعام، وإظهار محاسن الأخلاق، فإن السفر يخرج خفايا الباطن، ومن كان فى السفر الذى هو مظنة الضجر حسن الخلق، كان فى الحضر أحسن خلقاً.

وقد قيل: إذا أثنى على الرجل معاملوه فى الحضر ورفقاؤه فى السفر فلا تشكوا فى صلاحه.

وينبغى له أن يودع رفقاءه وإخوانه المقيمين، ويلتمس دعاءهم، ويجعل خروجه بكرة يوم الخميس، وليصلِّ فى منزله ركعتين قبل الخروج منه ويستودع أهله وماله، ويستعمل الأدعية والأذكار المأثورة عند خروجه من منزله، وفى ركوبه ونزوله، وهى مشهورة فى كثير من الكتب فى مناسك الحج، وكذلك يفعل فى جميع المناسك من الإحرام، والطواف، والسعى، والوقوف بعرفة، وغير ذلك من أعمال الحج يأتى فيها بما ذكر من الأذكار والدعوات والآداب، وكل ذلك مستوفى فى كتب الفقه وغيرها، فليطلب هناك.

فصل فى الآداب الباطنة والإشارة إلى أسرار الحج

اعلم: أنه لا وصول إلى الله سبـحانه وتعالى، إلا بالتجرد والانفراد بخـدمته، وقد كان الرهبان ينفردون فى الجبال طلباً للأنس بالله، فجعل الحج رهبانية لهذه الأمة.

فمن الآداب المذكورة: أن يكون خالياً فى حجه من تجارة تشغـل قلبه وتفرق همه، ليجتمع على طاعة الله تعالى، وأن يكون أشعث أغبر، رث الهيئة، غير مستكثر من الزينة.

وينبغى أن يتجنب ركوب المحمل إلا من عذر، كمن لا يستمسك على الزاملة، فإن النبى صلى الله عليه وآله وسلم حج على راحلة وتحته رحل رث.

وفى حديـث جابر ﷺ، عن النبى صـلى الله عليه وآلـه وسلم قال: **«إن الله عز وجل يباهى بالحجاج الملائكة فيقول: انظروا إلى عبادى، اتونى شعثاً غبراً، من كل فج عميق، اشهدكم انى قد غفرت لهم»**. [1]

وقد شرَّف الله تعـالى بيته وعظَّمه، ونصبه مـقصداً لعباده، وجعل ما حـوله حرماً له؛ تفخيماً لأمره، وتعظيماً لشأنه، وجعل عرفة كالميدان على فنائه.

واعلم: أن فى كل واحد من أفعال الحج تذكرة للمتذكر، وعبرة للمعتبر.

فمن ذلك: أن يتذكر بتحـصيل الزاد زاد الآخرة من الأعمال، وليحـذر أن تكون أعماله فاسدة من الرياء والسمعة فلا تصحبه ولا تنفعه، كالطعام الرطب الذى يفسد فى أول منازل السفر، فيـبقى صاحبه وقت الحاجة مـتحيراً، فإذا فارق وطنه، ودخل البـادية، وشهد تلك العقبات، فليتذكر بذلك خروجه من الدنيا بالموت إلى عقبات القيامة وما بينهما من الأهوال.

ومن ذلك: أن يتذكر وقت إحرامه وتجرده من ثيابه، إذا لبس المُحْرِم الإحرام لبس كفنه، وأنه سيلقى ربه على زى مخالف لزى أهل الدنيا، وإذا لبى فليستحضر بتلبيته إجابة الله تعالى إذ قال: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾ (الحج: ٢٧)، وليرجُ القـبول، وليخشَ عدم الإجـابة، وكذلك إذا وصل إلى الحرم ينبغى أن يرجو الأمن من العقوبة، وأن يخشى أن لا يكون من أهل القرب، غير أنه ينبغى أن يكون الرجاء غالباً، لأن الكرم عميم، وحق الزائر مَرعىّ، وذمام المستجير لا يضيع.

---

(١) **صحيح**: أخرجه أحمد (٧٠٤٩) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص، وأخرجه أحمد (٧٩٨٦)، وابن حبان والحاكم من حديث أبى هريرة وصححه الألبانى وانظر صحيح الترغيب والترهيب (١١٣٢). أما حديث جابر ففى شرح السنة، والمشكاة للألبانى برقم (٢٦٠١).

ومن ذلك: إذا رأى البيت الحرام استحضر عظمته فى قلبه، وشكر الله سبحانه وتعالى على تبليغه رتبة الوافدين إليه، وليستشعر عظمة الطواف به، فإنه صلاة، ويعتقد عند استلام الحجر أنه مبايع لله على طاعته، ويضم إلى ذلك عزيمته على الوفاء بالبيعة، وليتذكر بالتعلق بأستار الكعبة والالتصاق بالملتزم، لجأ المذنب إلى سيده، وقرب المحب.

وأنشد بعضهم فى ذلك:

سُتورُ بيتِكَ نَيْلُ الأمْنِ منكَ وقَدْ	علقتُهَا مستجيراً أيّها البارى
وما أظنُّك لما أنْ علقتُ بها	خوفاً من النارِ تُدْنينى مِنَ النَّارِ
وهَا أنا جارُ بيتٍ أنْتَ قلتَ لنا	حُجُّوا إليهِ وقَدْ أوْصَيْتَ بِالجَارِ

ومن ذلك: إذا سعى بين الصفا والمروة، ينبغى أن يمثلها بكفتى ميزان، وتردده بينهما فى عرصات القيامة، أو تردد العبد إلى باب دار الملك، إظهاراً لإخلاص خدمته، ورجاء الملاحظة بعين رحمته، وطمعاً فى قضاء حاجته.

وأما الوقوف بعرفة: فاذكر بما ترى فيه من ازدحام الخلق، وارتفاع أصواتهم واختلاف لغاتهم موقف القيامة، واجتماع الأمم فى ذلك الموطن، واستشفاعهم.

فإذا رميت الجمار: فاقصد بذلك الانقياد للأمر، وإظهار الرق والعبودية، ومجرد الامتثال من غير حظ النفس.

وأما المدينة الشريفة: فإذا لاحت لك فتذكر أنها البلدة التى اختارها الله لنبيه محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وشرع إليها هجرته، وجعل فيها تربته، ثم مثّل فى نفسك مواضع أقدام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عند تردده فيها، وتصور خشوعه وسكينته، فإذا قصدت زيارة القبر، فأحضر قلبك لتعظيمه، والهيبة له، ومثّل صورته الكريمة فى خيالك، واستحضر عظيم مرتبته فى قلبك، ثم سلم عليه، واعلم أنه عالم بحضورك وتسليمك، كما ورد فى الحديث.[1] والله أعلم.

(١) **حسن** : روى أبو داود (٢٠٤١) وأحمد (١٠٤٣٤) عن يزيد بن عبد الله بن قسيط، عن أبى هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: **«ما من أحد يسلم علىَّ إلا رد اللهُ علىَّ روحى حتى أردَّ عليه السلام»** وحسنه الألبانى فى صحيح أبى داود.

كتاب آداب القرآن الكريم وذكر فضله

أعظم فضائل القرآن الكريم أنه كلام الله عز وجل، وقد مدحه الله تعالى فى آيات كثيرة، كقوله تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾ (الأنعام: ٩٢)، ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ (الإسراء: ٩)، ﴿لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ﴾ (فصلت: ٤٢).

وفى أفراد البخارى، من حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه، أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال: «**خيركم من تعلم القرآن وعلمه**».[١]

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**إن لله عز وجل أهلين من الناس، قيل: من هم يا رسول الله؟ قال: أهل القرآن هم أهل الله وخاصته**» رواه النسائى[٢].

وفى حديث آخر، أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال: «**لا يعذب الله قلباً وعى القرآن**».[٣]

وعن ابن عمرو رضي الله عنهما، عن النبى صلى الله عليه وآله وسم قال: «**يقال لصاحب القرآن: اقرأ وارتق ورتل كما كنت ترتل فى الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها**» صححه الترمذى.[٤]

وعن بريدة رضي الله عنه عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «**إن القرآن يلقى صاحبه يوم القيامة حين ينشق عنه قبره كالرجل الشاحب، فيقول: هل تعرفنى؟ فيقول: ما أعرفك، فيقول: أنا صاحبك القرآن الذى أظمأتك فى الهواجر وأسهرت ليلك، وإن كل تاجر من وراء تجارته، وإنى لك اليوم من وراء كل تجارة، فيعطى الملك بيمينه والخلد بشماله، ويوضع على**

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخارى (٥٠٢٧) فضائل القرآن، وأبو داود (١٤٥٢)، والترمذى (٢٩٠٧) فضائل القرآن، وأحمد (٤١٤).

(٢) **صحيح**: أخرجه النسائى -ربما فى الكبرى- وأحمد (١١٨٧٠)، وابن ماجه (٢١٥)، والحاكم (١/ ٥٥٦)، وأبو نعيم (٩/ ٤٠) من طريق عبد الرحمن بن بديل، عن أبيه، عن أنس بن مالك عن النبى ﷺ . وقال الألبانى: «بديل بن ميسرة ثقة من رجال مسلم. وابنه عبد الرحمن، قال ابن معين وأبو داود والنسائى: ليس به بأس» وصححه الألبانى تحت «الضعيفة» (١٥٨٢).

(٣) **ضعيف جداً**: أخرجه الدارمى (٣٣٢٠) عن مسلمة بن علىّ: ثنا حريز بن عثمان عن سليم بن عامر عن أبى أمامة موقوفاً، وأورده الألبانى فى الضعيفة (٢٨٦٥) عن تمام فى «الفوائد» (٢٦٦/ ٢)، وابن عساكر (٢٦٧/ ١) بهذا الإسناد مرفوعاً وقال: «وهذا إسناد واه جداً، مسلمة بن على -وهو الخشنى- متروك، كما فى «التقريب»».

(٤) **حسن صحيح**: أخرجه أبو داود (١٤٦٤)، والترمذى (٢٨٣٨) فضائل القرآن، من طريق سفيان عن عاصم بن أبى النجود عن زر عن عبد الله بن عمرو عن النبى ﷺ ، وقال أبو عيسى: «حديث حسن صحيح». وكذلك صححه الألبانى فى صحيح أبى داود.

رأسه تاج الوقار، ويكسى والده حلتين لا تقوم لهما الدنيا، فيقولان: بم كسينا هذين؟ فيقال: بأخذ ولدكما القرآن، ثم يقال: اقرأ واصعد فى درج الجنة وغرفها، فهو فى صعود ما كان يقرأ، هذاً كان أو ترتيلاً». (١)

قال ابن مسعود رضي الله عنه: ينبغى لحامل القرآن أن يعرف بـليله إذ الناس نائمون، وبنهاره إذ الناس مفطرون، وبحزنه إذ الناس يفرحون، وببـكائه إذ الناس يضحكون، وبصمته إذ الناس يخوضون، وبخشوعه إذ الناس يختالون.

ولا ينبغى أن يكون جافياً ولا غافلاً ولا صخاباً ولا حديداً.

وقال الفضيل رحـمه الله: حامل القرآن حامل راية الإسلام، لا ينـبغى أن يلغو مع مَنْ يلغو، ولا يسهو مع مَنْ يسهو، ولا يلهو مع مَنْ يلهو، تعظيماً لله سبحانه وتعالى.

ولا ينبغى أن يكون له إلى أحد حاجة، بل ينبغى أن تكون حوائج الناس إليه.

وقال الإمام أحمد بـن حنبل رحمه الله: رأيت رب العزة فى المنـام، فقلت: يا رب، ما أقرب ما يتقـرب به إليك المتقربون؟ فقال: بـكلامى يا أحمد، فقلت: يا رب بفـهم أو بغير فهم؟ فقال: بفهم وبغير فهم.

فصـل فـى آداب التـلاوة

ينبغـى لقارئ القرآن أن يكـون على وضوء، مسـتعملاً للأدب، مـطرقاً غير مـتربع ولا متكئ، ولا جالس على هيئة المتكبر.

وأفضل الأحوال: أن يقرأ فى الصلاة قائماً، وأن يكون فى المسجد.

وأما مقدار القراءة، فقد اختلفت فيها عادات السلف، فمنهم من كان يختم كل يوم وليلة

---

(١) **حسن**: أخرجه أحمد (٢٢٨٤٦)، والدارمـى (٣٢٥٧) عن أبى نعيم عن بشير بن المهاجر عـن عبد الله بن بريدة عن أبيه مرفوعاً. وفى «الـصحيحة» للألبانى قوله: (أخرجه ابن أبـى شيبة فى «المصنف» (١٠/ ٤٩٢-٤٩٣)، وأبو القاسم الأصـبهانى فى «الترغيب») وقـال أيضاً فى «الصحيحـة»: (وفيه بشير بن المهاجـر، وهو صدوق لين الحديث كما فى «التقريب» وقلت: فـمثله يحتمل حديثه التحسين، أما التصحيح -كـما فعل الحاكم- فهو بعيد)، وقال الألبانى أيضاً: (وكذلك حـسن إسناده الحافظ ابن كثير فى «تفسير سـورة البقرة» (١/ ٣٣) وتكلم على راويه (بشير) بكلام حسن، ثم قال: «لكن لبعض شواهد» قلت: -الألـبانى- وكلها تدور حول فضيلة سورة البقرة وآل عمران التى جاءت فى أول حـديث بريدة، وأما سائر الحديث. . . فلم يذكر له أى شاهـد) وشطر الحديث الأخير معروف من حديث ابن عمرو وقد سبق وانظر الصحيحة (٦/ ٧٩٣).

ختمة، ومنهم من كان يختم فى اليوم والليلة أكثر من ذلك، ومنهم من كان يختم فى ثلاث ختمة، ومنهم من كان يختم فى كل أسبوع، ومنهم من كان يختم فى كل شهر، اشتغالاً بالتدبر أو بنشر العلم، أو بتعليمه، أو بنوع من التعبد غير القراءة، أو بغيره من اكتساب الدنيا.

وأولى الأمر: ما لا يمنع الإنسان من أشغاله المهمة، ولا يؤذيه فى بدنه، ولا يفوته معه الترتيل والفهم.

قال ابن عباس ﷺ: لأن أقرأ البقرة وآل عمران، وأرتلهما وأتدبرهما أحب إلىَّ من أن أقرأ القرآن كله هذرمة، ومن وجد خلسة فى وقت، فليغتنم كثرة القراءة ليفوز بكثرة الثواب، فقد كان عثمان ﷺ يقرأ القرآن فى ركعة يوتر بها، وكان الشافعى رحمه الله يختم فى رمضان ستين ختمة.

وأما الدوام: فليكن على قدر الإمكان، كما أشرنا إليه.

واستحب بعضهم إذا ختم بالنهار أن يختم فى ركعتى الفجر أو بعدهما، وإذا ختم بالليل أن يختم فى ركعتى المغرب أو بعدهما ليستقبل بالختمة أول الليل وأول النهار.

وقال ابن مسعود ﷺ: من ختم القرآن فله دعوة مستجابة.

وكان أنس ﷺ إذا ختم القرآن جمع أهله ودعا.

فصل فى الأعمال الباطنة فى التلاوة

ويستحب أن يحسن القراءة، وإذا لم يكن حسن الصوت حسّنه ما استطاع، فأما القراءة بالألحان، فقد كرهها السلف.

ويستحب الإسرار بالقراءة. وقد جاء فى الحديث: «فضل قراءة السر على قراءة العلانية كفضل صدقة السر على صدقة العلانية»[1]، إلا أنه ينبغى أن يُسمِع نفسه.

---

(١) جاء فى ضعيف الجامع للألبانى **«فضل صلاة الليل على صلاة النهار كفضل صدقة السر على صدقة العلانية»** وضعفه الألبانى. وأخرجه الترمذى (٢٨٤٣) فضائل القرآن، وصححه الألبانى من طريق إسماعيل بن عياش، عن بحير بن سعد، عن خالد بن معدان، عن كثير بن قرة الحضرمى، عن عقبة بن عامر، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«الجاهر بالقرآن، كالجاهر بالصدقة، والمسر بالقرآن، كالمسر بالصدقة»**، وقال أبو عيسى: «حديث حسن غريب».

ولا بأس بالجهر فى بعض الأوقات لمقصود صحيح، إما لتجويد الحفظ، أو ليصرف عن نفسه الكسل والنوم، أو ليوقظ الوسنان.

فأما حكم القراءة فى الصلاة، ومقدار ما يقرأ فى صلاة الفرض، وموضع الجهر والإسرار فذلك معروف مشهور فى كتب الفقه.

ومن كان عنده مصحف ينبغى له أن يقرأ فيه كل يوم آيات يسيرة لئلا يكون مهجوراً.

وينبغى لتالى القرآن العظيم أن ينظر كيف لطف الله تعالى بخلقه فى إيصال معانى كلامه إلى أفهامهم، وأن يعلم أن ما يقرأه ليس من كلام الخلق، وأن يستحضر عظمة المتكلم سبحانه وتعالى، ويتدبر كلامه، فى قوله تعالى: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ (محمد: ٢٤) فإن التدبر هو المقصود من القراءة، وإن لم يحصل التدبر إلا بترداد الآية، فليرددها، فقد روى أبو ذر رضي الله عنه عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أنه قام ليلة بآية يرددها ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ الآية (المائدة: ١١٨)(١) وقام تميم الدارى رضي الله عنه بآية وهى قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ (الجاثية: ٢١)، وكذلك قام بها الربيع بن خثيم رحمة الله عليه ليلة.

وينبغى للتالى أن يستوضح من كل آية ما يليق بها، ويتفهم ذلك، فإذا تلا قوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ (الأنعام: ١) فليعلم عظمته ويتلمح قدرته فى كل ما يراه.

وإذا تلا: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ﴾ (الواقعة: ٥٨) فليتفكر فى نطفة متشابهة الأجزاء، كيف تنقسم إلى لحم وعظم، وعروق وعصب، وأشكال مختلفة من رأس، ويد، ورجل، ثم إلى ما ظهر فيها من الصفات الشريفة كالسمع، والبصر، والعقل، وغير ذلك، فيتأمل هذه العجائب.

وإذا تلا أحوال المكذبين فليستشعر الخوف من السطوة إن غفل عن امتثال الأمر.

وليتخلى التالى من موانع الفهم، مثل أن يخيل الشيطان إليه أنه ما حقق تلاوة الحرف ولا أخرجه من مخرجه، فيكرره التالى، فينصرف همه عن فهم المعنى.

---

(١) **حسن**: أخرجه ابن ماجه (١٣٥٠) وحسنه الألبانى فى صحيح ابن ماجه.

ومن ذلك أن يكون التالى مصراً على ذنب، أو متصفاً بكبر، أو مبتلى بهوى مطاع، فإن ذلك سبب ظلمة القلب وصداه، فهو كالخبث على المرآة، يمنع من تجلى الحق، فالقلب مثل المرآة والشهوات مثل الصدأ، ومعانى القرآن مثل الصور التى تتراءى فى المرآة، والرياضة للقلب بإماطة الشهوات مثل الجلاء للمرآة.

وينبغى لتالى القرآن أن يعلم أنه مقصود بخطاب القرآن ووعيده، وأن القصص لم يرد بها السمر بل العبر فليتنبه لذلك، فحينئذ يتلو تلاوةَ عبدٍ كاتبه سيده بمقصود.

وليتأمل الكتاب ويعمل بمقتضاه، فإن مثل العاصى إذا قرأ القرآن وكرره، كمثل من كرر كتاب الملك وأعرض عن عمارة مملكته، وما أمر به فى الكتاب فهو مقتصر على دراسته، مخالف أوامره، فلو ترك الدراسة مع المخالفة كان أبعد من الاستهزاء واستحقاق المقت.

وينبغى أن يتبرأ من حوله وقوته، وأن لا يلتفت إلى نفسه بعين الرضى والتزكية، فإن من رأى نفسه بصورة التقصير، كان ذلك سبب قربه والحمد لله حامداً مصلياً ومسلماً على أحمد ﷺ

كتاب الأذكار والدعوات وغيرها

اعلم: أنه ليس بعد تلاوة القرآن عبادة تؤدى باللسان أفضل من ذكر الله سبحانه وتعالى، ورفع الحوائج بالأدعية الخالصة إليه تعالى، ويدل على فضل الذكر قوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ (البقرة: ١٥٢)، وقوله: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ (آل عمران: ١٩١)، وقوله: ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ﴾ (الأحزاب: ٣٥).

وعن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «**إن الله عز وجل يقول: أنا مع عبدى ما ذكرنى وتحركت بى شفتاه**»[١].

وفى أفراد مسلم عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «**لا يقعد قوم يذكرون الله إلا حفتهم الملائكة، وغشيتهم الرحمة، ونزلت عليهم السكينة، وذكرهم الله فيمن عنده**»[٢] وفى ذلك أحاديث كثيرة مذكورة فى فضائل الأعمال.

وعن أبى هريرة رضي الله عنه، عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال: «**ما جلس قوم مجلساً، فتفرقوا على غير ذكر الله عز وجل، إلا تفرقوا عن مثل جيفة الحمار، وكان ذلك المجلس عليهم حسرة يوم القيامة**»[٣].

وفى حديث آخر: «**لا يجلس قوم مجلساً لا يذكرون الله عز وجل ولا يصلون على النبى صلى الله عليه وآله وسلم إلا كان عليهم حسرة يوم القيامة**»[٤].

---

(١) **صحيح**: أخرجه أحمد (١٠٥٩٣)، والبخارى تعليقاً (٧٤٠٥)، وابن ماجه (٣٧٩٢)، وصححه الألبانى فى صحيح ابن ماجه من طريق إسماعيل بن عبيد الله، عن أم الدرداء كريمة ابنة الحسحاس المزنية- عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ.

(٢) **صحيح**: أخرجه مسلم (٢٧٠٠) الذكر والدعاء والتوبة، وأحمد (١١٤٦٥) من طريق الأغر أبى مسلم عن أبى هريرة وأبى سعيد عن النبى ﷺ.

(٣) **صحيح**: أخرجه أبو داود (٤٨٥٥) الأدب، وأحمد (١٠٣٠٢) عن سهيل بن أبى صالح عن أبيه عن أبى هريرة عن النبى ﷺ. وصححه الألبانى وانظر الصحيحة (٧٧).

(٤) **صحيح**: أخرجه الترمذى (٣٣٨٠) عن أبى هريرة، وقال: «حديث حسن صحيح»، وأخرجه أحمد (٧٠٥٣) عن عبد الله بن عمرو عن النبى ﷺ، وانظر الصحيحة للألبانى (٧٤)، (٧٦).

وأما فضيلة الدعاء: فقد روى أبو هريرة ﷺ، عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: **«ليس شىء أكرم على الله عز وجل من الدعاء»**[(١)]. و **«أشرف العبادة الدعاء»**.

و **«من لا يسأل الله يغضب عليه»**[(٢)]. وفى حديث آخر: **«سلوا الله من فضله، فإن الله يحب أن يُسأل»**[(٣)].

وللدعاء آداب: من ذلك أن يتحرى الأوقات الشريفة، كيوم عرفة من السنة، ورمضان من الشهور، والجمعة من الأسبوع، والسحر من الليل.

ومن الأوقات الشريفة بين الأذان والإقامة، وعقيب الصلوات، وعند نزول الغيث، وعند القتال فى سبيل الله، وعند ختم القرآن، وفى السجود، وعند الإفطار، وعند حضور القلب ووجله.

وعلى الحقيقة فإن شرف الأوقات يرجع إلى شرف الحالات، فإن وقت السحر وقت صفاء القلب وفراغه، وحالة السجود حالة الذل.

ومن آداب الدعاء: أن يدعو مستقبل القبلة ويرفع يديه ثم يمسح بهما وجهه، وأن يخفض صوته حال الدعاء.

ومن آدابه: أن يبدأ بذكر الله عز وجل، ثم يصلِّى على النبى صلى الله عليه وآله وسلم، ولا يتكلف السجع فى الدعاء.

ومن آدابه: وهو الأدب الباطن -وهو الأصل فى الإجابة- التوبة ورد المظالم.

---

(١) **حسن:** أخرجه الترمذى (٣٣٧٠) الدعوات، وابن ماجه (٣٨٢٩)، من طريق عمران القطان، عن قتادة، عن سعيد ابن أبى الحسن، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ، وقال أبو عيسى: «حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث عمران بن القطان. وعمران القطان هو: ابن داور، ويكنى أبا العوام». وحسّن الألبانى الحديث فى صحيح الترمذى. وأخرجه الترمذى أيضاً من طريق عبد الرحمن بن مهدى، عن عمران بن القطان بهذا الإسناد نحوه.

(٢) **حسن:** أخرجه الترمذى (٣٣٧٣) الدعوات، وابن ماجه (٣٨٢٧) عن أبى المليح عن أبى صالح، عن أبى هريرة ﷺ عن النبى ﷺ وحسنه الألبانى فى صحيح الترمذى.

(٣) **ضعيف جداً:** أخرجه الترمذى (٣٥٧١) من طريق حماد بن واقد، عن إسرائيل، عن أبى إسحاق، عن أبى الأحوص، عن عبد الله، قال: قال رسول الله ﷺ الحديث. وقال الترمذى: هكذا روى حماد بن واقد هذا الحديث، وقد خولف فى روايته، وحماد بن واقد هذا هو: الصفار ليس بالحافظ، وهو عندنا شيخ بصرى. وروى أبو نعيم هذا الحديث، عن إسرائيل، عن حكيم بن جبير، عن رجل، عن النبى ﷺ مرسلاً. وحديث أبى نعيم أشبه أن يكون أصح. وضعفه الألبانى، وانظر الضعيفة (٤٩٢).

كتاب الأوراد وفضلها وتوزيع العبادات على مقادير الأوقات

اعلم: أنه إذا حصلت المعرفة لله سبحانه وتعالى، والتصديق بوعده، والعلم بقصر العمر، وجب ترك التقصير فى هذا العمر القصير، والنفس متى وقفت على فن واحد حصل لها، ملل، فمن التلطف نقلها من فن، إلى فن وقد قال الله تعالى: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴿٢٥﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً﴾ (الإنسان: ٢٥-٢٦)، فهذا ونحوه مما ذكر من الآيات فى ذلك يدل على أن الطريق إلى الله تعالى مراقبة الأوقات وعمارتها بالأوراد على الدوام، وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً﴾ (الفرقان: ٦٢)، أى يخلف أحدهما الآخر ليتدارك فى أحدهما ما فات فى الآخر.

بيان عدد أوراد الليل والنهار وترتيبها

أوراد النهار سبعة، وأوراد الليل ستة، فلنذكر فضيلة كل ورد ووظيفته وما يتعلق به.

الورد الأول من أوراد النهار: ما بين طلوع الفجر الثانى إلى طلوع الشمس، وهو وقت شريف، وقد أقسم الله تعالى به فقال: ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ (التكوير: ١٨).

فينبغى للمريد إذا انتبه من النوم أن يذكر الله سبحانه وتعالى فيقول: **«الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور»**. روى ذلك عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم من أفراد البخارى.[1]

وفى أفراد مسلم، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا أمسى قال: **«أمسينا وأمسى الملك لله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شىء قدير، رب أسألك خير ما فى هذه الليلة وخير ما بعدها، وأعوذ بك من شر هذه الليلة وشر ما بعدها، رب أعوذ بك من الكسل وسوء الكبر، رب أعوذ بك من عذاب فى النار وعذاب فى القبر»**. وإذا أصبح قال ذلك أيضاً: **«أصبحنا وأصبح الملك لله.....»** إلى آخره[2]، ويقول: **«بسم الله الذى لا يضر مع اسمه شىء فى الأرض ولا فى**

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخارى (٦٣١٢)، (٦٣١٤)، (٧٣٩٤) وأحمد (٢٢٧٦٠)، وابن ماجه (٣٨٨٠)، وأبو داود (٥٠٤٩) عن حذيفة بن اليمان، وأخرجه البخارى (٦٣٢٥) (٧٣٩٥)، وأحمد (٢٠٨٥٩) عن ربعى بن خراش عن أبى ذر، وأخرجه مسلم (٢٧١١)، وأحمد (١٨١٢٩) عن البراء بن عازب.

(٢) **صحيح**: أخرجه مسلم (٢٧٢٣)، والترمذى (٣٣٩٠) الدعوات، وأبو داود (٥٠٧١) الأدب، وأحمد (٤١٨١).

الأرض ولا فى السماء وهو السميع العليم» ثلاث مرات[(١)]، **«رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد صلى الله عليه وآله وسلم نبياً ورسولاً»**[(٢)].

فإذا صلى الفجر قال، وهو ثانٍ رجله قبل أن يتكلم: **«لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يحيى ويميت، وهو على كل شىء قدير»**[(٣)] عشر مرات.

ويذكر سيد الاستغفار: **«اللهم أنت ربى، لا إله إلا أنت، خلقتنى، وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك علىَّ، وأبوء بذنبى، فاغفر لى، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت»**[(٤)].

ويقول: **«أصبحنا على فطرة الإسلام، وكلمة الإخلاص، ودين نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وملة أبينا إبراهيم حنيفاً مسلماً، وما كان من المشركين»**.[(٥)]

ويدعو **«اللهم أصلح لى دينى الذى هو عصمة أمرى، وأصلح لى دنياى التى فيها معاشى، وأصلح لى آخرتى التى فيها معادى، واجعل الحياة زيادة لى فى كل خير، واجعل الموت راحة لى من كل شر»**.[(٦)]

ويدعو بدعـاء أبى الدرداء: «اللهم أنت ربى، لا إله إلا أنت، علـيك توكلت، وأنت رب العرش العـظيم، ما شاء اللـه كان، وما لم يشأ لـم يكن، ولا حول ولا قوة إلا باللـه العلى العظيم، أعلم أن الله على كل شىء قدير، وأن الله قد أحاط بكل شىء علماً، اللهم أنى أعوذ بك من شر نفسى، ومن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها، إن ربى على صراط مستقيم».[(٧)]

---

(١) **صحيح**: أخرجه أبو داود (٥٠٨٨) الأدب، والترمذى (٣٣٨٨) الدعـوات، وابن ماجه (٣٨٦٩) الدعاء، وأحمد (٤٤٨) عن عثمان بن عفان عن النبى ﷺ وصححه الألبانى.

(٢) **ضعيف**: أخرجه ابن ماجه (٣٨٧٠)، والترمذى (٣٣٨٩)، وضعفه الألبانى وانظر الضعيفة (٥٠٢٠).

(٣) **ضعيف**: أخرجه الترمذى (٣٤٧٤) الدعـوات من طريق عبيد الله بن عمرو الرقىّ، عـن زيد بن أبى أنيسة، عن شهر بـن حوشب، عن عبد الـرحمن بن غنم، عن أبـى ذر، عن النبى ﷺ. وقال أبو عيسـى: «حديث حسن صحيح غريب». وضعفه الألبانى.

(٤) **صحيح**: أخرجه البخـارى (٦٣٠٦) الدعوات، والنسائى (٥٥٢٢) الاستعاذة، وأحمـد (١٦٦٦٢) عن بشير بن كعب عن شداد بن أوس عن النبى ﷺ.

(٥) **صحيح**: أخرجه أحمد (١٤٩٣٥)، والدارمى (٢٦٨٨) الاستئـذان، وابن السنى (١٢/ ٣٢)، والطبرانى فى الدعاء، والنسائى فى «عمل اليوم والليلة» (١٣٣/ ١) من طرق عن يحيى بن سعـيد عن سفيان، قال: حدثنى سلمة بن كهيل عن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى أبزى عن أبيه وصححه الألبانى، وانظر الصحيحة (٢٩٨٩).

(٦) **صحيح**: أخرجه مسلم (٢٧٢٠) الذكر والدعاء، من حديث أبى هريرة رضي الله عنه.

(٧) **ضعيف**: ضعفه الألبانى فى «الكلم الطيب» ص (٧٤) عن طلق بن حبيب عن أبى الدرداء مرفوعاً.

فهذه الأدعية لا يستغنى المريد عن حفظها.

وينبغى له قبل خروجه إلى صلاة الفجر أن يصلى السنة فى منزله ثم يخرج متوجهاً إلى المسجد ويقول: **«اللهم إنى أسألك بحق السائلين عليك، وبحق ممشاى هذا، فإنى لم أخرج أشراً ولا بطراً، ولا رياء ولا سمعة، وخرجت اتقاء سخطك وابتغاء مرضاتك، أسألك أن تنقذنى من النار، وأن تغفر لى ذنوبى إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت»**.(١)

فإذا دخل المسجد فليقل ما روى مسلم بن الحجاج -رحمه الله- فى «صحيحه» أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إذا دخل أحدكم المسجد فليسلم على النبى صلى الله عليه وآله وسلم، ثم ليقل: **اللهم افتح لى أبواب رحمتك، وإذا خرج فليقل: اللهم إنى أسألك من فضلك**»(٢)، ثم يطلب الصف الأول منتظراً للجماعة داعياً بنحو ما تقدم من الأذكار والأدعية.

فإذا صلى الفجر استحب أن يمكث فى مكانه إلى طلوع الشمس.

فقد روى أنس رضي الله عنه، عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: **«من صلى الفجر فى جماعة، ثم جلس يذكر الله تعالى حتى تطلع الشمس، ثم صلى ركعتين، كانت له كأجر حجة وعمرة تامة تامة»**(٣).

ولتكن وظائف وقته أربعاً: الدعاء، والذكر، والقراءة، والفكر.

وليأت بما أمكنه، وليتفكر فى قطع القواطع، وشغل الشواغل عن الخير ليؤدى وظائف يومه، وليتفكر فى نعم الله تعالى ليتوفر شكره.

الورد الثانى: ما بين طلوع الشمس إلى الضحى، وذلك بمضىّ ثلاث ساعات من النهار، إذا فرض النهار اثنتى عشرة ساعة، وهو الربع، وهذا وقت شريف، وفيه وظيفتان: إحداهما: صلاة الضحى. والثانية: ما يتعلق بالناس من عيادة مريض، أو تشييع جنازة، أو حضور

---

(١) **ضعيف**: أخرجه ابن ماجه (٧٧٨) وأحمد (١٠٧٧٢)، وابن السنى (٨٣) من طريق فضيل بن مرزوق عن عطية العوفى عن أبى سعيد الخدرى عن النبى ﷺ، وضعفه الألبانى كما فى الضعيفة (٢٤) لضعف فضيل بن مرزوق، وعطية العوفى.

(٢) **صحيح**: أخرجه مسلم (٧١٣) صلاة المسافرين، وأبو داود (٤٦٥)، والنسائى (٧٢٩) المساجد، وأحمد (١٥٦٢٧) من حديث أبى بن حميد أو أبى أسيد عن النبى ﷺ.

(٣) **حسن**: أخرجه الترمذى (٥٨٦) عن أبى ظلال، عن أنس عن النبى ﷺ. وقال أبو عيسى: «حديث حسن غريب، وسألت محمد بن إسماعيل -البخارى- عن أبى ظلال؟ فقال: هو مُقاربُ الحديث. قال محمدٌ: واسمه هلال». وحسنه الألبانى فى صحيح الترمذى.

مجلس علم، أو قضاء حاجة مسلم. وإن لم يفعل شيئاً من ذلك تشاغل بالقراءة والذكر.

الورد الثالث: من وقت الضحى إلى الزوال، والوظيفة فى هذا الوقت، الأقسام الأربعة، وزيادة أمرين:

أحدهما: الاشتغال بالكسب والمعاش، وحضور السوق، فإن كان تاجراً فليتجر بصدق وأمانة، وإن كان صاحب صنعة، فينصح وشفقة، ولا ينسى ذكر الله تعالى فى جميع أشغاله، وليقنع بالقليل.

والثانى: القيلولة، فإنها مما تعين على قيام الليل، كما يعين السحور على صيام النهار، فإن نام فليجتهد فى الانتباه قبل الزوال بقدر الاستعداد للصلاة قبل دخول الوقت.

واعلم: أن الليل والنهار أربع وعشرون ساعة، فالاعتدال أن ينام من ذلك الثلث، وهو ثمانى ساعات، فمن نام أقل من ذلك لم يأمن اضطراب بدنه، ومن نام أكثر من ذلك كثر كسله، فإذا نام أكثر من ذلك فى الليل فلا وجه لنومه فى النهار، بل من نقص منه استوفى ما نقص فى النهار.

الورد الرابع: ما بين الزوال إلى الفراغ من صلاة الظهر، وهو أقصر أوراد النهار وأفضلها، فينبغى له فى هذا الوقت إذا أذن المؤذن أن يجيبه بمثل قوله، ثم يقوم فيصلى أربع ركعات، ويستحب أن يطيلهن، فإن أبواب السماء تفتح حينئذ، ثم يصلى الظهر وسنتها، ثم يتطوع بعدها بأربع.

الورد الخامس: ما بعد ذلك إلى العصر، فيستحب له فى هذا الوقت الاشتغال بالذكر، والصلاة، وفنون الخير، ومن أفضل الأعمال انتظار الصلاة بعد الصلاة.

الورد السادس: إذا دخل وقت العصر إلى أن تصفر الشمس، وليس فى هذا الوقت صلاة سوى أربع ركعات بين الأذانين، ثم فرض العصر ثم يتشاغل بالأقسام الأربعة التى سبق ذكرها فى الورد الأول، والأفضل فيه تلاوة القرآن بالتدبر والتفهم.

الورد السابع: من اصفرار الشمس إلى أن تغرب، وهو وقت شريف. قال الحسن البصرى رحمه الله: كانوا أشد تعظيماً للعَشىّ من أول النهار فيستحب فى هذا الوقت التسبيح والاستغفار خاصة.

وبالمغرب تنتهى أوراد النهار فينبغى أن يلاحظ العبد أحواله، ويحاسب نفسه، فقد انقضت من الطريق مرحلة. وليعلم أن أيام العمر تنقضى جملتها بانقضاء آحادها.

قال الحسن: يا بن آدم، إنما أنت أيام، إذا مضى يومك مضى بعضك. وليتفكر هل ساوى يومه أمسه، فإن رأى أنه قد توفر على الخير فى نهاره، فليشكر الله سبحانه وتعالى على التوفيق، فإن تكن الأخرى، فليتب وليعزم على تلافى ما سبق من التفريط فى الليل، فإن الحسنات يذهبن السيئات، وليشكر الله تعالى على صحة جسمه، وبقاء بقية من عمره يمكن فيها استدراك التقصير، وقد كان جماعة من السلف يستحبون أن لا ينقضى يوم إلا عن صدقة، ويجتهدون فيما أمكن من كل خير.

ذكر أوراد الليل

الورد الأول: إذا غربت الشمس إلى وقت العشاء، فإذا غربت صلى المغرب واشتغل بإحياء ما بين العشاءين، فقد روى عن أنس رضي الله عنه فى قوله تعالى: ﴿**تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ**﴾ (السجدة:١٦). أن هذه الآية نزلت فى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، كانوا يصلون بين المغرب والعشاء.[١]

وعن أبى هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**من صلى بعد المغرب ست ركعات، لم يتكلم فيما بينهن بسوء، عدلن له بعبادة اثنتى عشرة سنة**»، رواه الترمذى[٢].

الورد الثانى: من غيبوبة الشفق الأحمر إلى وقت النوم، يستحب أن يصلى بين الأذانين ما أمكنه، وليكن فى قراءته ﴿**الم ۝ تَنزِيلُ الْكِتَابِ**﴾ (السجدة:١، ٢)، و ﴿**تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ**﴾ (تبارك:١). فقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا ينام حتى يقرأهما.[٣]

---

(١) **صحيح**: أخرجه الترمذى (٣١٩٦) باب «ومن سورة السجدة» عن سليمان بن بلال، عن يحيى بن سعيد، عن أنس بن مالك عن النبى ﷺ. وصححه الألبانى فى صحيح الترمذى، وقال أبو عيسى: «حسن صحيح غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه».

(٢) **ضعيف جداً**: أخرجه الترمذى (٤٣٥) الصلاة، وابن ماجه (١١٦٧)، من طريق زيد بن الحُباب عن عمر بن أبى خثعم عن يحيى بن أبى كثير عن أبى سلمة عن أبى هريرة عن النبى ﷺ. وقال أبو عيسى: «حديث أبى هريرة حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث زيد بن الحُباب عن عمر بن أبى خثعم، وسمعت محمد بن إسماعيل يقول: عمر بن عبد الله بن أبى خثعم منكر الحديث، وضعفه جداً»، وضعفه الألبانى فى ضعيف الترمذى.

(٣) **صحيح**: أخرجه ابن السنى «عمل اليوم والليلة» (٦٧٧)، والنسائى «عمل اليوم والليلة» (٧١١)، والترمذى (٢٨٩٢)، وأحمد (١٤٢٤٩)، عن ليث عن أبى الزبير عن جابر مرفوعاً، وقال الترمذى: «هذا حديث رواه غير واحد عن ليث بن أبى سليم مثل هذا. ورواه مغيرة بن مسلم، عن أبى الزبير، عن جابر عن النبى ﷺ مثل هذا، وروى زهير قال: قلت لأبى الزبير: سمعت من جابر يذكر هذا الحديث؟ فقال أبو الزبير: «إنما أخبرنى صفوان، أو ابن صفوان، وكأن زهيراً أنكر أن يكون هذا الحديث عن أبى الزبير عن جابر» وصححه الألبانى من رواية صفوان بن صفوان، وهو ثقة من رجال مسلم، وزهير هو ابن معاوية بن حديج أبو خيثمة، فقال الألبانى: فالسند صحيح، كما قال الحاكم والذهبى. والحديث ضعف إسناده الشيخ سليم الهلالى فى تخريج «عمل اليوم والليلة» لابن السنى برقم (٦٧٧)، وانظر الصحيحة للألبانى (٥٨٥).

وفى حديث آخر، عن ابن مسعود رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: **«من قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة»**[1]

الورد الثالث: الوتر قبل النوم، إلا من كان عادته القيام بالليل، فإن تأخيره فى حقه أفضل، قالت عائشة رضي الله عنها: «من كل الليل قد أوتر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: من أول الليل، وأوسطه وآخره، فانتهى وتره إلى السحر» متفق عليه[2]، ثم ليقل بعد الوتر: «سبحان الملك القدوس» ثلاث مرات.

الورد الرابع: النوم، وإنما عددناه من الأوراد، لأنه إذا روعيت آدابه وحَسُن المقصود به احتسب عبادة. وقد قال معاذ رضي الله عنه: إنى لأحتسب فى نومتى كما أحتسب فى قومتى.

فمن آداب النوم: أن ينام على طهارة، لما روت عائشة رضي الله عنها، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان إذا أراد أن ينام وهو جنب يتوضأ وضوءه للصلاة.[3]

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: إن الأرواح يعرج بها فى منامها إلى السماء فتؤمر بالسجود عند العرش، فما كان منها طاهراً سجد عند العرش، وما كان ليس بطاهر سجد بعيداً عن العرش.

ومن آدابه: أن يتوب قبل نومه، لأنه ينبغى لمن طهر ظاهره أن يطهر باطنه، لأنه ربما مات فى نومه.

ومنها: أن يزيل كل غش فى قلبه لمسلم، ولا ينوى ظلمه، ولا يعزم على خطيئة إذا استيقظ.

ومنها: أن لا يبيت مَنْ له شىء يوصى به إلا ووصيته مكتوبة عنده، لأن فى «الصحيحين»[4] من حديث ابن عمر رضي الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: **«ما حق امرئ مسلم له شىء يوصى فيه، يبيت ليلتين إلا ووصيته مكتوبة عنده»**.

وينبغى له أيضاً أن لا يبالغ فى تمهيد الفراش متنعماً بذلك، فإنه يزيد فى النوم، فإن النبى صلى الله عليه وآله وسلم ثنى له فراشه فقال: **«منعتنى وطأته صلاتى الليلة»**.

---

(1) **ضعيف**: أخرجه ابن السنى (٦٧٤)، والبيهقى فى الشعب، وضعفه الألبانى كما فى الضعيفة للألبانى (٢٨٩) من طريق أبى شجاع عن أبى طيبة عن ابن مسعود مرفوعاً. وقال الألبانى: «وهذا سند ضعيف، قال الذهبى: وأبو شجاع نكرة لا يعرف».

(2) **صحيح**: أخرجه البخارى (٩٩٦) الجمعة، ومسلم (٧٤٥) صلاة المسافرين.

(3) **صحيح**: أخرجه البخارى (٢٨٨) الغسل، ومسلم (٣٠٥) الحيض.

(4) **صحيح**: أخرجه البخارى (٢٧٣٨) الوصايا، ومسلم (١٦٢٧) الوصية.

وينبغي أن لا ينام حتى يغلبه النوم، فقد كان السلف لا ينامون إلا غلبة.

ومن آدابه: أن يستقبل القبلة وأن يدعو بما ورد من الأحاديث في ذلك، وأن ينام على جنبه الأيمن، فمما جاء في ذلك ما روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: **«إذا أوى أحدكم إلى فراشه فلينفضه بداخلة إزاره، فإنه لا يدري ما حدث بعده».**

فإذا وضع جنبه فليقل: **«باسمك ربي وضعت جنبي، وبك أرفعه، إن أمسكت نفسي، فاغفر لها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين»** أخرجاه في الصحيحين.(١)

وفي الصحيحين أيضاً، من حديث عائشة، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة، جمع كفيه ثم نفخ فيهما وقرأ فيهما: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ و ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ و ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ ثم مسح بهما ما استطاع من جسده، يبدأ بهما على رأسه ووجهه، وما أقبل من جسده يفعل ذلك ثلاث مرات.(٢)

وفيهما من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: **«إذا أتيت مضجعك، فتوضأ وضوءك للصلاة ثم اضطجع على شقك الأيمن، ثم قل اللهم إني أسلمت نفسي إليك، ووجهت وجهي إليك، وفوضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك، رغبة ورهبة إليك، لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك، آمنتُ بكتابك الذي أنزلت وبنبيك الذي أرسلت، فإنك إن مت في ليلتك مت على الفطرة، وإن أصبحت أصبت خيراً».**(٣)

وعن عليّ رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال له ولفاطمة: **«إذا أخذتما مضاجعكما أو أويتما إلى فراشكما، فسبحا الله ثلاثاً وثلاثين، واحمداه ثلاثاً وثلاثين، وكبراه أربعاً وثلاثين، فهو خير لكما من خادم»** متفق عليه(٤).

وحديث أبي هريرة في حفظ زكاة رمضان مشهور، وفيه أن شيطاناً قال له: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي، فإنه لن يزال عليك من الله حافظ ولا يقربك شيطان. فأخبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: **«أما إنه قد صدقك وهو كذوب»**(٥).

---

(١) **صحيح:** أخرجه البخاري (٦٣٢٠) الدعوات، ومسلم (٢٧١٤) الذكر والدعاء.

(٢) **صحيح:** أخرجه البخاري (٥٠١٨) فضائل القرآن، والترمذي (٣٤٠٢) الدعوات، وأبو داود (٥٠٥٦) الأدب.

(٣) **صحيح:** أخرجه البخاري (٢٤٧) الوضوء، ومسلم (٢٧١٠) الذكر والدعاء، والترمذي (٣٣٩٤) الدعوات، وأبو داود (٥٠٤٦) الأدب.

(٤) **صحيح:** أخرجه البخاري (٣١١٣) فرض الخمس، ومسلم (٢٧٢٧) الذكر والدعاء.

(٥) **صحيح:** أخرجه البخاري (٣٢٧٥) بدء الخلق، (٥٠١٠) فضائل القرآن، وأخرجه البخاري أيضاً تعليقاً في الوكالة.

وفى أفـراد مسلم أن الـنبى صلى الـله عليـه وآله وسلم كـان إذا أوى إلى فراشـه قال: «**الحمد لله الذى أطعمنا وسقانا، وكفانا وآوانا، فكم ممن لا كافى له ولا مؤوى**». (١)

فإذا استيقظ للتهجد، فليدعُ بدعاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**اللهم ربنا لك الحمد، انت قيوم السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد انت نور السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد انت الحق ووعدك الحق، ولقاؤك حق، والجنة حق، والنار حق، والنبيون حق، ومحمد حق، والساعة حق، اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك انبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، فاغفر لى ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت**». وفى رواية: «**وما انت أعلم به منى، انت المقدم، وانت المؤخر، لا إله إلا انت**» متفق عليه. (٢)

وليجتهد أن يكون آخر كلامه عند النوم ذكـر الله تعالى، وأول ما يجرى على لسانه عند التيقظ ذكر الله تعالى، فهاتان علامتان على الإيمان.

الورد الخامس من أوراد الليل: يدخل بمضى النصف الأول إلى أن يبقى من الليل سدسه، وذلك وقت شريف. قال أبو ذر رضي الله عنه: سألت رسول الله صلى الـله عليه وآله وسلم: أى صلاة الليل أفضل؟ فقال: «**نصف الليل او جوف الليل، وقليل فاعله**»(٣).

وروى أن داود عليه السلام قال: يا رب، أية ساعة أقوم لك؟ فأوحى الله تعالى إليه: يا داود لا تقم أول الليـل ولا آخره، ولكن قـم فى شطر الليل حـتى تخلو بـى وأخلو بك، وارفع إلىَّ حوائجك.

فإذا قام إلى التهجد، قرأ العشر آيات من آخر سورة (آل عمران)، كما روى فى الصحيحين أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم فعَل ذلك(٤)، وليدعُ بما سبق من دعائه صلى الله عليه وآله وسلم عند قيامه من الليل، ثم يستفتح صـلاته بركعتين خفيفتين، لما روى أبو هريرة رضي الله عنه

---

(١) **صحيح**: أخرجه مسـلم (٢٧١٥) الذكر والدعاء، وأحمد (١٢١٤٢)، والترمذى (٣٣٩٦) الدعوات، وأبو داود (٥٠٥٣) الأدب، والنسائى «عمل اليوم والليلة» (٨٠٤)، وابن السنـى «عمل اليوم والليلة» (٧١٣)، وانظر تحقيق سليم الهلالى فى «عمل اليوم والليلة».

(٢) **صحيح**: أخرجه البخارى (١١٢٠) الجمعة، ومسلم (٧٦٩) صلاة المسافرين عن طاوس عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبى ﷺ.

(٣) **ضعيف**: انظر ضعيف الجامع للألبانى (١٠٢٢).

(٤) **صحيح**: أخرجه البخارى (١٨٣) الوضوء، ومسلم (٧٦٣) صلاة المسافرين. عن عبد الله بن عباس عن النبى ﷺ.

عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «**إذا قام أحدكم يصلى بالليل، فليبدأ بركعتين خفيفتين**» رواه مسلم[1]، ثم يصلى مثنى مثنى، وأكثر ما روى عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أنه كان يصلى من الليل ثلاث عشرة ركعة مع الوتر، وأقلهن سبع.[2]

الورد السادس من الليل: السدس الأخير وهو وقت السحر، قال الله تعالى: ﴿**وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ**﴾ (الذاريات: ١٨).

وفى الحديث: إن قراءة الرجل آخر الليل محضورة تشهدها الملائكة الكرام.[3]

وجاء طاووس إلى رجل وقت السحر فقالوا: هو نائم، فقال: ما كنت أرى أن أحداً ينام فى وقت السحر.

فإذا فرغ المريد من صلاة السحر، فليستغفر الله عز وجل. وروى عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه كان يفعل ذلك.

فصل فى اختلاف الأوراد باختلاف الأحوال

اعلم: أن السالك لطريق الآخرة لا يخلو من ستة أحوال: إما أن يكون عابداً، أو عالماً، أو متعلماً، أو والياً، أو محترفاً، أو مستغرقاً بمحبة الله عز وجل مشغولاً به عن غيره.

الأول: العابد: وهو المنقطع عن الأشغال كلها إلى التعبد، فهذا يستعمل ما ذكرنا من الأوراد، وقد تختلف وظائفه، فقد كانت أحوال المتعبدين من السلف مختلفة، فمنهم من كان يغلب على حاله التلاوة، حتى يختم كل يوم ختمة، أو ختمتين أو ثلاثاً، وكان فيهم من يكثر التسبيح، ومنهم من يكثر الصلاة ومنهم من يكثر الطواف بالبيت الحرام.

فإن قيل: فما الأولى أن يصرف إليه أكثر الأوقات من هذه الأوراد؟

---

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم (٧٦٧) صلاة المسافرين، وأحمد (٢٣٤٩٧) عن سعد بن هشام عن عائشة رضي الله عنها عن النبى ﷺ.

(٢) **صحيح**: أخرجه البخارى (١١٤٠) عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبى ﷺ يصلى من الليل ثلاث عشرة ركعة منها الوتر وركعتا الفجر».

(٣) **صحيح**: أخرجه مسلم (٧٥٥) صلاة المسافرين، وابن ماجه (١١٨٧) إقامة الصلاة، وأحمد (١٣٩٧٢) عن الأعمش عن أبى سفيان عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «**من خشى منكم أن لا يقوم من آخر الليل فليوتر من أول الليل فإن قراءة آخر الليل محضورة وذلك أفضل**». دون لفظ تشهدها الملائكة. وانظر الصحيحة (٢٦١١) للألبانى.

فاعلم أن قراءة القرآن فى الصلاة قائماً مع التدبر يجمع الجميع، ولكن ربما عسرت المواظبة على ذلك، والأفضل يختلف باختلاف حال الشخص، ومقصود الأوراد تزكية القلب وتطهيره، فلينظر المريد ما يراه أشد تأثيراً فيه فليواظب عليه، فإذا أحس بملل انتقل عنه إلى غيره.

قال أبو سليمان الدارانى -رحمه الله-: فإذا وجدت قلبك فى القيام فلا تركع، وإذا وجدته فى الركوع فلا ترفع.

الثانى: العالم: الذى ينتفع الناس بعلمه فى فتوى، أو تدريس، أو تصنيف، أو تذكير، فترتيبه فى الأوراد يخالف ترتيب العابد، فإنه يحتاج إلى المطالعة فى الكتب، والتصنيف والإفادة، فإن استغرق الأوقات فى ذلك، فهو أفضل ما يشتغل به بعد المكتوبات، وإنما نعنى بالعلم المقدم على العبادة الذى يرغب فى الآخرة، ويعين على سلوك طريقها، والأولى بالعالم أن يقسم أوقاته، لأن استغراق الأوقات فى العلم لا تصبر عليه النفس، فينبغى أن يخص ما بعد الصبح إلى طلوع الشمس بالأذكار والأوراد على ما ذكرنا، ثم ما بعد طلوع الشمس إلى الضحى فى الإفادة والتعليم، فإن لم يكن عنده من يتعلم صرف ذلك الزمان إلى التفكير فى العلوم، فإن صفاء القلب بعد الفراغ من الذكر وقبل الاشتغال بهموم الدنيا يعين على التفطن للمشكلات، ثم من ضحوة النهار إلى العصر للتصنيف والمطالعة، لا يترك ذلك إلا فى وقت أكل، أو طهارة، أو مكتوبة، أو قيلولة، ومن العصر إلى اصفرار الشمس يشتغل بسماع ما يُقرأ عليه من تفسير، أو حديث، أو علم نافع، ومن الاصفرار إلى الغروب يشتغل بالاستغفار والتسبيح، فيكون ورده الأول من عمل اللسان، والثانى فى عمل القلب بالتفكير، والثالث فى عمل العين واليد والمطالعة والنسخ، والرابع بعد العصر فى عمل السمع لتتروح العين واليد، فإن المطالعة والنسخ بعد العصر ربما أضرا بالعين.

وأما الليل: فأحسن قسمة فيه قسمة الشافعى رحمه الله تعالى، فإنه كان يقسمه ثلاثة أجزاء: الثلث الأول لكتابة العلم، والثانى للصلاة، والثالث للنوم، فأما الصيف، فربما لا يحتمل ذلك، إلا إذا كان أكثر النوم بالنهار.

الثالث: حال المتعلم: فإن التعلم أفضل من التشاغل بالأذكار والنوافل، وحكم المتعلم حكم العالم فى ترتيب الأوراد، لكنه يشتغل بالاستفادة حين يشتغل العالم بالإفادة، وبالتعليق والنسخ حين يشتغل العالم بالتصنيف، فإن كان من العوام فإن حضوره مجالس الذكر والعلم والوعظ أفضل من اشتغاله بالأوراد المتطوع بها.

الرابع: الوالي: مثل الإمام، والقاضي، أو المتولي للنظر في أمور المسلمين، فقيامه بحاجات الناس، وجميع المسلمين وأغراضهم على وفق الشرع وقصد الإخلاص أفضل من الأوراد المذكورة، لأنه عبادة يتعدى نفعها، فينبغي أن يقتصر في النهار على المكتوبات، ثم يستفرغ باقي الزمان في ذلك، ويقتنع بأوراد الليل.

الخامس: المحترف: وهو محتاج إلى الكسب له أو لعياله، فليس له أن يستغرق الزمان في التعبد، بل يجتهد في الكسب مع دوام الذكر، فإذا حصل له ما يكفيه عاد إلى أوراده.

السادس: المستغرق بمحبة الله سبحانه: فهذا ورده بعد المكتوبات حضور القلب مع الله تعالى، وهو يحركه إلى ما يريد من ورده.

وينبغي أن يداوم على الأوراد، لقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: **«أحب العمل إلى الله أدومه وإن قل»**[(١)] . وكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم عمله ديمة[(٢)]، والله أعلم.

باب في قيام الليل وفضله والأسباب الميسرة لقيامه ونحو ذلك

قال الله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ (السجدة: ١٦).

وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: **«عليكم بقيام الليل، فإنه دأب الصالحين قبلكم، وهو قربة إلى ربكم، ومغفرة للسيئات، ومنهاة للإثم»**[(٣)] وفي فضله أحاديث كثيرة.

وقال الحسن البصري رحمه الله: لم أجد من العبادة شيئاً أشد من الصلاة في جوف الليل، فقيل له: ما بال المتهجدين أحسن الناس وجوهاً؟ فقال: لأنهم خلوا بالرحمن فألبسهم من نوره.

---

(١) **صحيح :** أخرجه البخاري (٦٤٦٤) الرقاق، ومسلم (٧٨٢) صلاة المسافرين. عن أبي سلمة عن عائشة عن النبي ﷺ .

(٢) **صحيح :** أخرجه البخاري (١٩٨٧) الصوم، ومسلم (٧٨٣) صلاة المسافرين عن علقمة عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ .

(٣) **حسن صحيح :** أخرجه الترمذي (٣٥٤٩) الدعوات من طريق محمد القُرشي، عن ربيعة بن زيد، عن أبي إدريس الخولاني، عن بلال، عن النبي ﷺ . وقال أبو عيسى: «هذا حديث غريب لا نعرفه من حديث بلال إلا من هذا الوجه، ولا يصح من قبل إسناده»، وضعفه الألباني في ضعيف الترمذي. ورواه الترمذي قال: «حدثنا بذلك محمد بن إسماعيل، قال: حدثنا عبد الله بن صالح، قال: حدثني معاوية بن صالح، عن ربيعة ابن زيد، عن أبي إدريس الخولاني، عن أبي أمامة، عن رسول الله ﷺ . وقال أبو عيسى: «وهذا أصح من حديث أبي إدريس، عن بلال». وصححه الألباني بقوله: «حسن صحيح» وانظر الإرواء (٤٥٢).

فصل فى الأسباب الميسّرة لقيام الليل

اعلم: أن قيام الليل صعب إلا من وُفّق للقيام بشروطه الميسّرة له.

فمن الأسباب ظاهر، ومنها باطن:

فأما الظاهر: فأن لا يكثر الأكل، كان بعضهم يقول: يا معشر المريدين لا تأكلوا كثيراً فتشربوا كثيراً فتناموا كثيراً، فيفوتكم خير كثير.

ومنها: أن لا يتعب نفسه بالنهار بالأعمال الشاقة.

ومنها: أن لا يترك القيلولة بالنهار، فإنها تعين على قيام الليل.

ومنها: أن يجتنب الأوزار.

قال الثورى: حرمت قيام الليل خمسة أشهر بذنب أذنبته.

وأما الميسرات الباطنة:

فمنها: سلامة القلب للمسلمين، وخلوه من البدع، وإعراضه عن فضول الكلام.

ومنها: خوف غالب يلزم القلب مع قصر الأمل.

ومنها: أن يعرف فضل قيام الليل.

ومن أشرف البواعث على ذلك حب الله تعالى، وقوة الإيمان بأنه إذا قام ناجى ربه، وأنه حاضره ومشاهده، فتحمله المناجاة على طول القيام.

قال أبو سليمان رحمه الله تعالى: أهل الليل فى ليلهم ألذ من أهل اللهو فى لهوهم، ولولا الليل ما أحببت البقاء فى الدنيا.

وفى «صحيح مسلم» عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال: **«إن فى الليل لساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله فيها خيراً إلا أعطاه إياه، وذلك كل ليلة»**.[1]

وإحياء الليل مراتب:

المرتبة الأولى: أن يحيى الليل كله، روى ذلك عن جماعة من السلف.

---

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم (٧٥٧)، وأحمد (١٤٣٣٦) عن أبى الزبير عن جابر عن النبى ﷺ.

المرتبة الثانية: أن يقوم نصف الليل، وهو مرويّ أيضاً عن جماعة من السلف، وأحسن الطريق فى هذا أن ينام الثلث الأول من الليل، والسدس الأخير منه.

المرتبة الثالثة: أن يقوم ثلث الليل، فينبغى أن ينام النصف الأول، والسدس الأخير، وهو قيام داود عليه السلام.

ففى «الصحيحين»[1]: «إن أحب الصلاة إلى الله صلاة داود، كان ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه، وينام سدسه»، ونوم آخر الليل حسن، لأنه يذهب بآثار النعاس من الوجه بالغداة، ويقلل صفرته.

المرتبة الرابعة: أن يقوم سدس الليل أو خمسه، والأفضل من ذلك ما كان فى النصف الأخير، وبعضهم يقول: أفضله السدس الأخير.

المرتبة الخامسة: أن لا يراعى التقدير، فإن مراعاة ذلك صعب.

ثم فيما يفعله طريقان:

أحدهما: أن يقوم أول الليل إلى أن يغلبه النوم فينام، فإذا انتبه قام، فإذا غلبه النوم نام، وهذا من أشد المكابدة، وهو طريق جماعة من السلف.

وفى «الصحيحين»[2] من حديث أنس رضي الله عنه: ما كنا نشاء أن نرى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مصلياً من الليل إلا رأيناه، وما كنا نشاء أن نراه نائماً إلا رأيناه. وكان عمر رضي الله عنه يصلى من الليل ما شاء الله، حتى إذا كان من آخر الليل أيقظ أهله، فيقول: الصلاة الصلاة.

وقال الضحاك: أدركت أقواماً يستحيون من الله فى سواد هذا الليل من طول الضجعة.

الطريق الثانى: أن ينام أول الليل، فإذا أخذ حظه من النوم، وانتبه، قام الباقى.

قال سفيان الثورى: إنما هى أول نومة، فإذا انتبهت لم أقلها -يعنى: لم ينم-.

المرتبة السادسة: أن يقوم مقدار أربع ركعات أو ركعتين، فقد روينا عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: **«صلوا من الليل، صلوا أربعاً، صلوا ركعتين»**[3] .. الحديث.

(1) **صحيح**: أخرجه البخارى (١١٣١) الجمعة، ومسلم (١١٥٩) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه.

(2) **صحيح**: أخرجه البخارى (١٩٧٣) الصوم، والنسائى (١٦٢٧) قيام الليل والتطوع، وأحمد (١١٦٠١) عن حميد عن أنس.

(3) **ضعيف**: أخرجه ابن أبى شيبة (٢/ ٤٤/ ١) وابن نصر فى «قيام الليل»، وابن أبى الدنيا فى «التهجد» (٣/ ٦٢) عن أبى عامر المزنى عن الحسن مرسلاً مرفوعاً. وقال الألبانى: «وهذا إسناد ضعيف» كما فى الضعيفة (٣٧٨٢).

وفى سنن أبى داود[1] قال: قال رسـول الله صلى الله علـيه وآله وسلم: «إذا استـيقظ الرجل من الليل وأيقـظ امرأته فصليا جميـعاً ركعتين، كتبـا ليلتئذ من الذاكرين الـله كثيراً والذاكرات». وكان طلـحة بن مصرف يأمر أهله بقـيام الليل، ويقول: صلوا ركعـتين، فإن الصلاة فى جوف الليل تحط الأوزار.

فهذه طرق قسمة الليل، فليتخير المريد لنفـسه ما يسهل عليه، فإن صعب القيام عليه فى وسط الليل، فلا ينبغى أن يخل بإحياء ما بيـن العشاءين والورد الذى بعد العشاء، ثم يقوم قبل الصبح وقت السحر، ليكون قائماً فى الطرفين، وهذ مرتبة سابعة.

فصل فيـمن صعبت عليه الطهارة فى الليـل

فأما مـن صعبت عليه الـطهارة فى الليل، وثقـلت عليه الصلاة، فـليجلس مستـقبل القبلة، وليـذكر الله تعالى، وليدعُ مهـما قدر. فإن لم يجلس فليـدعُ وهو مضطجع، ومن كان له ورد فغلبه النوم وفاته، فليـأتِ به بعد صلاة الضحى، فقد ورد ذلك فى الحديث[2]. وليحـذر من له عادة بقيـام الليل أن يتركهـا، ففى «الصحيـحين»[3] أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لعبد الله بن عمرو: **«لا تكن مثل فلان، كان يقوم الليل فترك قيام الليل».**

فصل فى بيان الليـالى والأيـام الفـاضـلة

أما الليالى المخصوصـات بمزيد الفضل التى يستحب إحياؤها، فـخمس عشرة ليلة، ولا ينبغى للمـريد أن يغفل عنهن، لأنه إذا غفل الـتاجر عن موسم الربح؟! فمـتى يربح؟ فمن هذه الليالى سبع فى رمضان: الليلة السابعة عشـرة، وهى التى كانت صبيحتها يوم الفرقان يوم التقى الجمعان، فـيه كانت وقعة بدر، والست الباقية هن أوتار العـشر الأخير، إذ فيهن

---

(1) **صحيح**: أخرجه أبو داود (١٣٠٩)، وابن ماجه (١٣٣٥) إقامة الصلاة، وصـححه الألبانى فى صحيح أبى داود عن أبى سعيد وأبى هريرة.

(2) **صحيح مقطوع**: أخرجه النسائى (١٧٩٣) عن حميد بن عبد الرحمن.

(3) **صحيح**: أخرجه البخارى (١١٥٢) الجمعة، ومسلـم (١١٥٩)، والنسائى (١٧٦٣) قيام الليل، وابن ماجه (١٣٣١) إقامة الصلاة.

تطلب ليلة القدر. وأما الثمان الأخر: فأول ليلة من المحرم، وليلة عاشوراء، وأول ليلة من رجب، وليلة النصف منه، وليلة سبع وعشرين منه فإنها ليلة المعراج، وليلة النصف من شعبان، وليلة عرفة، وليلتا العيدين[١]. وقد ورد صلوات لبعض هذه الليالى، وليس فيها ما يثبت.

وأما الأيام الفاضلة فتسعة عشر يوماً: يوم عرفة، ويوم عاشوراء، ويوم سبع وعشرين من رجب، وهو أول يوم هبط فيه جبريل على النبى صلى الله عليه وآله وسلم، ويوم سبع عشرة من رمضان كان فيه وقعة بدر، ويوم النصف من شعبان، ويوم الجمعة، ويوما العيدين، والأيام المعلومات وهى عشر ذى الحجة، والأيام المعدودات وهى أيام التشريق.

ومن فضائل الأيام فى الأسبوع: يوم الاثنين، والخميس، وأيام البيض. وفيها فضل كثير مذكور فى فضائل الصوم.

هذا آخر كتاب الأوراد، وهو آخر ربع العبادات، وبالله التوفيق.

---

(١) ليس فى ليلة النصف من شعبان أو رجب من صحة قول.

الربع الثانى من الكتاب ربع العادات

كتاب آداب الأكل والاجتماع عليه والضيافة ونحو ذلك

وآداب الأكل، منها ما هو قبله، ومنها ما هو مع الأكل، ومنها ما هو بعد الأكل.

فمن القسم الأول: غسل اليدين قبل الأكل، كما ورد فى الحديث[1]، لأنها لا تخلو من درن، ومن ذلك أن يوضع الطعام على السفرة الموضوعة على الأرض، فإنه أقرب إلى فعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من رفعه على المائدة، وهو أدنى إلى التواضع، ومن ذلك أن يجلس الجلسة على السفرة، فينصب رجله اليمنى، ويجلس على اليسرى، وينوى بأكله أن يتقوى على طاعة الله تعالى، ليكون مطيعاً بالأكل، ولا يقصد به التنعم فقط، وعلامة صحة هذه النية أخذ البُلغة دون الشبع. قال النبى صلى الله عليه وآله وسلم: **«ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطن، حسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة، فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه»**[2].

ومن ضرورة هذه النية أن لا يمد يده إلى الطعام إلا وهو جائع، وأن يرفع يده قبل الشبع، ومن فعل ذلك لم يكد يحتاج إلى طبيب. ومن ذلك أن يرضى بالموجود من الرزق، ولا يحتقر اليسير منه، وأن يجتهد فى تكثير الأيدى على الطعام ولو من أهله وولده.

---

(١) **ضعيف**: أخرجه الترمذى (١٨٤٦) من حديث قيس بن الربيع، عن أبى هشام: عن زاذان عن سلمان عن النبى ﷺ بلفظ: «**بركة الطعام الوضوء قبله والوضوء بعده**». وقال الترمذى: «وفى الباب عن أنس، وأبى هريرة. لا نعرف هذا الحديث إلا من حديث قيس بن الربيع، وقيس بن الربيع يضعف فى الحديث». وضعفه الألبانى وانظر الضعيفة (١٦٨) والضعيفة (١١٧).

قال الألبانى فى الضعيفة (١/ ٢٠١/ ٢٠٢): «وقد تأول بعضهم الوضوء فى هذا الحديث بمعنى غسل اليدين فقط، وهو معنى غير معروف فى كلام النبى ﷺ، كما ذكر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية فى «الفتاوى» (١/ ٥٦) فلو صح هذا الحديث لكان دليلاً ظاهراً على استحباب الوضوء قبل الطعام وبعده ولما جاز تأويله هذا، وقد اختلف العلماء فى مشروعية غسل اليدين قبل الطعام على قولين، منهم من استحبه، ومنهم من لم يستحبه، ومن هؤلاء سفيان الثورى فقد ذكر أبو داود عنه أنه كان يكره الوضوء قبل الطعام. قال ابن القيم: «والقولان هما فى مذهب أحمد وغيره، والصحيح أنه لا يستحب» قلت (الألبانى): وينبغى تقييد هذا بما إذا لم يكن على اليدين من الأوساخ ما يستدعى غسلهما، وإلا فالغسل والحالة هذه لا مبرر للتوقف عن القول بمشروعيته. وعليه يحمل ما رواه الخلال عن أبى بكر المروذى قال: «رأيت أبا عبد الله (الإمام أحمد) يغسل يديه قبل الطعام وبعده، وإن كان على وضوء». والخلاصة: «أن الغسل المذكور ليس من الأمور التعبدية».

(٢) **صحيح**: أخرجه الترمذى (٢٣٨٠) الزهد، وابن ماجه (٣٣٤٩)، وأحمد (١٦٧٣٥) عن المقدام بن معدى كرب، وصححه الألبانى فى صحيح الترمذى.

القسم الثانى: فى الآداب حالة الأكل: وهو أن يبدأ ببسم الله فى أوله، ويحمد الله تعالى فى آخره.

ومن ذلك: أن يأكل باليمنى، ويصغراللقمة، ويجود مضغها، وأن لا يمد يده إلى أخرى حتى يبتلع الأولى، ولا يذم مأكولاً. ومن ذلك: أن يأكل مما يليه، إلا أن يكون الطعام متنوعاً كالفاكهة، وليأكل بثلاث أصابع، وإذا وقعت لقمة أخذها.

ومن ذلك: أن لا ينفخ فى الطعام الحار، ولا يجمع بين التمر والنوى فى طبق واحد، ولا يجمعه فى كفه، بل يضعه من فيه على ظهر كفه ثم يلقيه، وكذا كل ما له عجم وثفل، ولا يشرب الماء فى أثناء الطعام، فإنه أجود فى باب الطب.

ومن آداب الشرب: أن يتناول الإناء بيمينه، وينظر فيه قبل الشرب، ويمص مصاً لا عباً، فقد روى عن علىّ ﷺ: «مصوا الماء مصاً ولا تعبوه عباً، فإن الكباد من العب».

ولا يشرب قائماً ويتنفس فى شربه ثلاثاً.

ففى «الصحيحين»[1] أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم كان يتنفس فى الإناء ثلاثاً. والمعنى يتنفس فى شربه ثلاثاً فى الإناء، بأن يباعد الإناء عنه ويتنفس، لا أن يكون النفس فى الإناء.

القسم الثالث: من آداب الأكل ما يستحب بعد الطعام، وهو أن يمسك قبل الشبع ويلعق أصابعه، وأن يسلت القصعة، ويحمد الله، ففى الحديث عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: **«إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها، يشرب الشَّربة فيحمده عليها»**[2]، ويغسل يديه من الغمر.

فصل فيما يزيد من الآداب بسبب الاجتماع والمشاركة فى الأكل

من ذلك: أن لا يبتدئ بالأكل إلا إذا كان معه مَنْ يستحق التقديم لكبر سن أو زيادة فضل، إلا أن يكون هو المتبوع.

ومنها: أن لا يسكتوا على الطعام، بل يتكلمون بالمعروف، ويتحدثون بحكايات الصالحين فى الأطعمة وغيرها.

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخارى (١٥٣) الوضوء، ومسلم (٢٦٧) الطهارة عن أبى قتادة عن أبيه عن النبى ﷺ، بلفظ: **«إذا بال أحدكم فلا يأخذن ذكره بيمينه، ولا يستنج بيمينه، ولا يتنفس فى الإناء»**.

(٢) **صحيح**: أخرجه مسلم (٢٧٣٤) الذكر والدعاء، والترمذى (١٨١٦) الأطعمة، وأحمد (١١٧٥٨) عن سعيد بن أبى بردة عن أنس بن مالك عن النبى ﷺ.

ومن ذلك: أن يقصد كل منهم الإيثار لرفيقه، ولا يحوج رفيقه إلى أن يقول له: كُلْ، بل ينبسط ولا يلتبس بالانقباض.

ومن ذلك: أن لا ينظر إلى أصحابه حالة الأكل لئلا يستحيوا.

ومن ذلك: أن لا يفعل ما يستقذره من غيره، فلا ينفض يده فى القصعة، ولا يقدم إليها رأسه عند وضع اللقمة فى فِيه، وإذا أخرج شيئاً من فِيه ليرمى به، صرف وجهه عن الطعام وأخذه بيساره، ولا يغمس اللقمة الدسمة فى الخل، ولا الخل فى الدسمة، فقد يكرهه غيره، ولا يغمس بقية اللقمة التى أكل منها فى المرقة.

فصل فى تقديم الطعام إلى الإخوان

ويستحب تقديم الطعام إلى الإخوان، روى ذلك عن علىّ بن أبى طالب رضي الله عنه أنه قال: لأن أجمع إخوانى على صاعٍ من الطعام أحب إلىَّ من أعتق رقبة.

وكان خيثمة رحمه الله يصنع الخبيص والطعام الطيب، فيدعو إبراهيم والأعمش ويقول: كلوا، فما صنعته إلا لكم.

ويقدم ما حضر من غير تكلف، ولا يستأذنهم فى التقديم، بل يقدم من غير استئذان، ومن التكلف أن يقدم جميع ما عنده.

ومن آداب الزائر: أن لا يقترح طعاماً بعينه، وإن خُيِّر بين طعامين اختار أيسرهما، إلا أن يعلم أن مضيفه يُسرّ باقتراحه، ولا يقصر عن تحصيل ذلك، فقد نزل الشافعى رحمه الله على الزعفرانى، وكان الزعفرانى يكتب كل يوم رقعة بما يطبخ من الألوان، ويسلمها إلى الجارية، فأخذ الشافعى الرقعة وألحق فيها لوناً آخر، فلما علم الزعفرانى اشتد فرحه.

فصل فى آداب الدخول للطعام

ولا ينبغى لأحد إذا علم أن قوماً يأكلون أن يدخل عليهم، فإن صادفهم من غير قصد، فسألوه الأكل، نظر، فإن علم أنهم إنما سألوه حياء منه، فلا يأكل، وإن علم أنهم يحبون أكله معهم، جاز له أن يأكل. ومن دخل دار صديقه فلم يجده وكان واثقاً به عالماً أنه إذا أكل من طعامه سُرّ بذلك جاز له أن يأكل.

فصل فى آداب الضيافة والإجابة

ومن آداب الضيافة: أن يقصد بدعوته الأتقياء دون الفساق، وقال بعض السلف: لا تأكل إلا طعام تقى، ولا يأكل طعامك إلا تقى.[1]

وينبغى أن يقصد الفقراء دون الأغنياء.

وينبغى أن لا يهمل أقاربه فى ضيافتهم، فإن إهمالهم يوجب الإيحاش وقطيعة الرحم. وكذلك يراعى الترتيب فى أصدقائه ومعارفه، ولا يقصد بدعوته المباهاة والتفاخر، بل استعمال السنة فى إطعام الطعام واستمالة قلوب الإخوان، وإدخال السرور على قلوب المؤمنين، ولا يدعو من يعلم أنه تشق عليه الإجابة، أو إذا حضر تأذى بالحاضرين بسبب من الأسباب.

وأما آداب الإجابة: فإن كانت دعوة عرس، فالإجابة إليها واجبة إذا دعاه المسلم فى اليوم الأول، وإذا كانت لغيره، فهى جائزة، ثم ينبغى أن لا يخص الغنى بالإجابة دون الفقير. ولا يمتنع من الدعوة لكونه صائماً، بل يحضر، فإن كان تطوعاً وعلم أن فطره يَسرّ أخاه المسلم فليفطر.

فأما إن كان الطعام حراماً فليمتنع من الإجابة، وكذلك إذا كان ثَمة منكر من فرش محرمة أو إناء محرم، أو مزمار أو صورة، وكذلك إذا كان الداعى ظالماً أو فاسقاً أو مبتدعاً أو مفاخراً بدعوته.

وينبغى أن لا يقصد بالإجابة إلى الدعوة نفس الأكل، بل ينوى به الاقتداء بالسنة، وإكرام أخيه المؤمن، وينوى صيانة نفسه عمن يسىء به الظن، فربما قيل عنه إذا امتنع: هذا متكبر.

وينبغى أن يتواضع فى مجلسه إذا حضر، ولا يتصدر، وإن عين له صاحب الدار مكاناً لم يتعده، ولا يكثر النظر إلى المكان الذى يخرج منه الطعام، فإنه دليل على الشره.

---

(١) **حسن** : أخرج الترمذى (٢٣٩٥) الزهد، وأبو داود (٤٨٣٢) الأدب، وأحمد (١٠٩٤٤)، والدارمى (٢٠٥٧) الأطعمة، عن سالم بن غيلان عن الوليد بن قيس عن أبى سعيد أو عن أبى الهيثم عن أبى سعيد الخدرى أنه سمع نبى الله ﷺ يقول: «**لا تصاحب إلا مؤمناً، ولا يأكل طعامك إلا تقى**»، وحسنه الألبانى فى صحيح الترمذى.

فصـل فى آداب إحضـار الطـعـام

وأما إحضار الطعام فله خمسة آداب:

الأول: تعجيله، فذلك من إكرام الضيف.

الثانى: تقديم الـفاكهة أولاً قـبل غيرها، وذلك أصـلح فى باب الطب، وقد قـال الله تعالى: ﴿ وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ (٢٠) وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ (الواقعة: ٢٠، ٢١).

ثم أفضل ما يقدم بعـد الفاكهة اللحم، خصوصاً المشوى، ثم أفـضل الطعام بعد اللحم الثريد، ثم الحـلوى، وتتم هذه الطيبات بشـرب الماء البارد، وتكملة الأمر صـب الماء الفاتر على اليدين.

الثالث: أن يقدم جميع الألوان الحاضرة.

الرابع: أن لا يبادر إلى رفعها بل يمكنهم من الاستيفاء حتى يرفعوا أيديهم.

الخامس: أن يقدم من الطعام قدر الكفاية، فإن التقليل من الكفاية نقص فى المروءة.

وينبغى أن يعـزل لأهل البيت نصيبهـم قبل تقديم الطعام، فإذا أراد الـضيف الانصراف ينبغى أن يخرج معه إلى باب الدار، فـإنه سنة، وذلك من إكرام الضيف، ومن تمام الإكرام طلاقة الوجه، وطيب الحديث عند الدخول والخروج وعلى المائدة.

وأما الضيف فينبغى أن يخرج طيب النفس وإن جرى فى حقه تقصير، فإن ذلك من حسن الخلق والتـواضع، ولا يخرج إلا برضى صاحب المنزل وإذنه، ويـراعى قلبه فى قدر الإقامة.

كتاب النكاح وآدابه وما يتعلق به

لا يختلف العلماء فى أن النكاح مستحب، مندوب إليه، كثير الفضائل، وفيه فوائد:

منها: الولد، لأن المقصود بقاء النسل، وفيه موافقة محبة الله تعالى بالسعى فى ذلك، ليبقى جنس الإنسان.

وفيه طلب محبة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى تكثير من به مباهاته.

وفيه طلب التبرك بدعاء الولد الصالح والشفاعة بموت الولد الصغير.

ومن فوائد النكاح: التحصن من الشيطان بدفع غوائل الشهوة.

وفيه ترويح النفس، وإيناسها بمخالطة الزوجة.

ومنها: تفريغ القلب عن تدبير المنزل، والتكفل به بشغل الطبخ والكنس والفرش وتنظيف الأوانى وتهيئة أسباب العيش، فإن الإنسان يتعذر عليه أكثر ذلك مع الوحدة، ولو ألزم نفسه بذلك لضاع أكثر أوقاته، ولم يتفرغ للعلم والعمل، فالمرأة الصالحة عون على الدين بهذه الطريقة، إذ اختلال هذه الأسباب شواغل للقلب.

ومن فوائده أيضاً: مجاهدة النفس ورياضتها والولاية، والقيام بحقوق الأهل، والصبر على أخلاقهن، واحتمال الأذى منهن، والسعى فى إصلاحهن، وإرشادهن إلى طريق الدين، والاجتهاد فى كسب الحلال لأجلهن، والقيام بتربية الأولاد، وكل هذه أعمال عظيمة الفضل، فإنها رعاية وولاية، وفضل الرعاية عظيم، وإنما يحترز منها من يخاف من القصور عن القيام بحقها، ومقاساة الأهل والولد بمنزلة الجهاد فى سبيل الله عز وجل.

وفى أفراد مسلم[1] عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: **«دينار انفقته فى سبيل الله، ودينار انفقته فى رقبة، ودينار تصدقت به على مسكين، ودينار انفقته على أهلك، أعظمها أجراً الذى أنفقته على أهلك».**

---

(١) **صحيح** : أخرجه مسلم (٩٩٥) الزكاة، وأحمد (٩٧٦٩) عن مزاحم بن زفر عن مجاهد عن أبى هريرة عن النبى ﷺ .

فصل فى آفات النكاح

وفى النكاح آفات:

أقواها: العجز عن طلب الحلال، فإن ذلك يصعب، فربما امتدت يد المتزوج إلى ما ليس له.

الثانية: القصور عن القيام بحقوق النساء، والصبر على أخلاقهن وأذاهن، وفى ذلك خطر، لأن الرجل راعٍ وهو مسؤول عن رعيته.

الثالثة: أن يكون الأهل والولد يشغلونه عن ذكر الله عز وجل، فيقضى ليله ونهاره بالتمتع بذلك، فلا يتفرغ القلب للفكر فى الآخرة والعمل لها، فهذه مجامع الآفات والفوائد، فالحكم على شخص واحد، بأن الأفضل له النكاح أو العزوبة مطلقاً مصروف على الإحاطة بمجامع هذه الأمور، بل ينبغى للمريد أن يعرض نفسه على هذه الأحوال، فإن انتفت عنه الآفات واجتمعت له الفوائد، بأن كان له مال حلال وحسن خلق، وهو مع ذلك شاب يحتاج إلى تسكين الشهوة، ومنفرد يحتاج إلى تدبير المنزل، فلا شك أن النكاح أفضل، وإن انتفت هذه الفوائد واجتمعت فيه الآفات، فتركه أفضل، وهذا فى حق من لم يحتج إلى النكاح، فإن احتاج إليه فإنه يلزمه.

فصل فى طيب العشرة

ويعتبر فى المرأة لطيب العشرة أمور:

أحدها: الدين، وهو الأصل، لقول النبى صلى الله عليه وآله وسلم: **«عليك بذات الدين تربت يداك»**[1]، ولأنها تعين على الدين، فإذا لم يكن لها دين أفسدت دين زوجها، وأزرت به. وإن سلكت سبيل الغيرة لم يزل فى بلاء وتكدير عيش.

الثانى: حسن الخُلُق، فإن سيئة الخلق ضررها أكثر من نفعها.

الثالث: حسن الخَلْق، وهو مطلوب، إذ به يحصل التحصن، ولهذا أمر بالنظر إلى المخطوبة، وقد كان أقوام لا ينظرون فى الحسن، ولا يقصدون التمتع، كما روى أن الإمام أحمد رحمه الله اختار امرأة عوراء على أختها، إلا أن هذا يندر، والطباع على ضده.

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخارى (٥٠٩٠) النكاح، ومسلم (١٤٦٦) الرضاع، عن أبى هريرة رضي الله عنه. وأخرجه الترمذى (١٠٨٦) النكاح، والنسائى (٣٢٢٦) النكاح، وأحمد (١٣٨٢٥) عن عبد الملك عن عطاء عن جابر عن النبى ﷺ، وصححه الألبانى.

الرابع: خفة المهر، وقد زوَّج سعيد بن المسيب ابنته بدرهمين.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لا تغالوا فى مهور النساء.

وكما تكره المغالاة فى المهر من جهة المرأة، يكره السؤال عن مالها من جهة الرجل.

قال الثورى: إذا تزوج الرجل، وقال: أى شىء للمرأة؟ فاعلم أنه لص.

الخامس: البكارة، لأن الشارع ندب إلى ذلك، ولأنها تحب الزوج وتألفه أكثر من الثيب، فيوجب ذلك الود، فإن الطباع مجبولة على الأنس بأول مألوف، وهو أيضاً أكمل لمودته لها، لأن الطبع ينفر من التى مسها غيره.

السادس: أن تكون ولوداً.

السابع: النسب، وهو أن تكون من بيت دين وصلاح.

الثامن: أن تكون أجنبية.

وكما ينبغى للرجل أن ينظر فى المرأة، ينبغى للولى أن ينظر فى دين الرجل وأخلاقه وأحواله، لأنها تصير بالنكاح مرقوقة، ومتى زوَّجها من فاسق أو مبتدع، فقد جنى عليها وعلى نفسه.

قال رجل للحسن بن علىّ رضي الله عنهما: ممن أزوج ابنتى؟ قال: ممن يتقى الله، فإنه إن أحبها أكرمها، وإن أبغضها لم يظلمها.

فصل فى آداب المعاشرة
والنظر فيما على الزوج وفيما على الزوجة

أما الزوج، فعليه مراعاة الاعتدال والأدب فى اثنى عشر أمراً:

الأول: الوليمة فإنها مستحبة.

الثانى: حسن الخلق مع الزوجات. واحتمال الأذى منهن لقصور عقلهن.

وفى الحديث الصحيح: **«استوصوا بالنساء خيراً، فإنهن خلقن من ضلع، وإن أعوج ما فى الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء خيراً»**[1].

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخارى (٥١٨٦) النكاح، ومسلم (١٤٦٨) الرضاع، عن أبى هريرة رضي الله عنه.

واعلم: أنه ليـس حسن الخلـق مع المرأة كف الأذى عنهـا، بل احتـمال الأذى منـها، والحلم علـى طيشهـا وغضبهـا، اقتداء برسـول الله صلى اللـه عليه وآله وسلـم، ففى الصحيـحين[1]، من حديث عـمر رضي الله عنه أن أزواج النبى صـلى الله عليه وآلـه وسلم كن يراجعنه وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل. والحديث مشهور.

الثالث: أن يداعبها ويمازحها، وقد سابق عليه السلام عائشة رضي الله عنها، وكان يداعب نساءه صلى الله عليه وآله وسلم، وقال لجابر: «**هلا بكراً تلاعبها وتلاعبك**»[2].

الرابع: أن يكون ذلك بقـدر، ولا ينبسط فى الدعـابة إلى أن تسقط هيـبته بالكلـية عند المرأة، بل ينبغى أن يقصد طريق الاقتـصاد. وقد روينا عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه عتب على بعض عماله، فكلمته امرأة عمر رضي الله عنه فيه فقالت: يا أميـر المؤمنين فيم وجدت عليه؟ قال: يا عدوة الله، وفيم أنت وهذا؟ إنما أنت لعبة يلعب بك ثم تتركين.

الخامس: الاعتدال فى الغيرة، وهو أن لا يتغافل عن مـبادئ الأمور التى يخشى غوائلها، ولا يبالغ فى إساءة الظن، وقد نهى النبى صى الله عليه وآله وسلم أن يطرق الرجل أهله ليلاً.[3]

السادس: الاعتدال فـى النفقة والقـصد دون الإسراف والتقـتير، ولا ينبـغى للرجل أن يستأثر عن أهله بالطعام الطيب، فإن ذلك مما يوغر الصدر.

السابع: أن يتعلم المتزوج من علم الحيض وأحكامـه ما يدرى به كيف معاشرة الحائض، ويلقنهـا الاعتقاد الصحيـح، ويزيل عن قلبها كل بـدعة إن كانت، ويعلمهـا أحكام الصلاة والحيض والاستحاضـة، فيعرفها أنها إذا انقطع دمـها قبل المغرب بمقدار ركعة فعـليها الظهر والعصر، وإذا انقطع دمهـا قبل الصبح بمقدار ركعة فعليها قـضاء المغرب والعشاء، وهذا لا يكاد النساء يراعينه.

الثامن: إذا كانت له نسـوة ينبغى أن يعدل بـينهن، والعدل فى المبـيت والعطاء، لا فى الحب والوطء، فإن ذلك لا يملكه، فإن سافر وأراد استصحاب إحداهن أقرع بينهن، فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه.

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخارى (٢٤٦٨) المظالم والغضب، ومسلم (١٤٧٩) الطلاق عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٢) **صحيح**: أخرجه البخارى (٥٢٤٧) النكاح، ومسلم (٧١٥) الرضاع، عن جابر.

(٣) **صحيح**: أخرجه البخارى (٥٢٤٤) النكاح، ومسلم (٧١٥) الإمارة، عن جابر.

التاسع: النشوز، فإذا كان النشوز من المرأة، فله أن يؤدبها ويحملها على الطاعة قهراً، ولكنه ينبغى أن يتدرج فى تأديبها بتقديم الوعظ والتخويف، فإن لم ينفع هجرها فى المضجع، فولاها ظهره أو انفرد عنها بالفراش، وهجرها فى الكلام فيما دون ثلاثة أيام، فإن لم ينفع ضربها ضرباً غير مبرح، وهو أن لا يدمى لها جسماً، ولا يضرب لها وجهاً.

العاشر: فى آداب الجماع، يستحب البداءة بالتسمية، والانحراف عن القبلة، وأن يتغطى هو وأهله بثوب، وأن لا يكونا متجردين، وأن يبدأ بالملاعبة والضم والتقبيل. ومن العلماء من استحب الجماع يوم الجمعة، ثم إذا قضى وطره فليتمهل لتقضى وطرها فإن إنزالها ربما يتأخر.

ومن الآداب: أن تأتزر الحائض بإزار من حقويها إلى ما بين الركبة إذا أراد الاستمتاع بها، ولا يجوز وطؤها فى الحيض، ولا فى الدبر، ومن أراد أن يجامع مرة ثانية فليغسل فرجه ويتوضأ.

ومن الآداب: أن لا يحلق شعره، ولا يقلم أظافره، ولا يخرج دماً وهو جنب، وأما العزل فهو مباح مع الكراهة.

الحادى عشر: فى آداب الولادة، وهى ستة:

الأول: أن لا يكثر فرحه بالذكر وحزنه بالأنثى، فإنه لا يدرى فى أيهما الخير.

الثانى: أن يؤذن فى أذن المولود حين يولد.

الثالث: أن يسميه اسماً حسناً.

وفى أفراد مسلم: «**إن أحب أسمائكم إلى الله عز وجل عبد الله وعبد الرحمن**»[(١)] ومن كان له اسم مكروه، استحب له تبديله، فقد غيّر النبى صلى الله عليه وآله وسلم أسماء جماعة[(٢)]، وقد كره من الأسماء: أفلح، ونافع، ويسار، ورباح، وبركة، لأنه يقال: أهو ثَمة؟ فيقال: لا.[(٣)]

---

(١) **صحيح:** أخرجه مسلم (٢١٣٢) الآداب، عن ابن عمر.

(٢) **صحيح:** أخرجه البخارى (٦١٩٠) فى الأدب، عن ابن المسيب عن أبيه أن أباه جاء إلى النبى ﷺ فقال: **ما اسمك؟** قال: حزن قال: **أنت سهل** وفى الحديث: «كان يغير الاسم القبيح إلى الاسم الحسن» أخرجه الترمذى وصححه الألبانى وانظر الصحيحة (٢٠٧).

(٣) **صحيح:** انظر مسلم (٢١٣٦) الآداب.

الرابع: العقيقة عن الذكر شاتان، وعن الأنثى شاة.

الخامس: أن يحنكه بتمرة أو حلاوة.

السادس: الختان.

الثانى عشر: مما يتعلق بالزوج الطلاق، وهو أبغض المباحات إلى الله عز وجل فيكره للرجل أن يفاجئ به المرأة من غير ذنب، ولا يجوز للمرأة أن تلجئه إلى طلاقها، فإذا أراد الطلاق، فليراعِ فيه أربعة أشياء.

الأول: أن يطلقها فى طهر لم يصبها فيه، لئلا تطول عدتها.

الثانى: أن يقتصر على طلقة واحدة ليستفيد بها الرجعة إن ندم.

الثالث: أن يتلطف فى الأمر فى الطلاق بإعطائها ما تتمتع به لينجبر الفاجع، وقد روى عن الحسن بن علىّ رضي الله عنهما أنه طلق امرأة وبعث إليها بعشرة آلاف درهم، فقالت: متاع قليل من حبيب مفارقَ.

الرابع: أن لا يفشى سرها، وفى الحديث الصحيح فى أفراد مسلم: **«إن من أشر الناس عند الله منزلة يوم القيامة الرجل يفضى إلى امرأته وتفضى إليه، ثم ينشر سرها»**. [(١)]

وروى عن بعض الصالحين أنه أراد طلاق امرأته فقيل له: ما الذى يريبك منها؟ فقال: العاقل لا يهتك ستر امرأته. فلما طلقها قيل له: لِمَ طلقتها؟ فقال: ما لى ولامرأة غيرى. فهذا كله فى بيان ما على الزوج.

القسم الثانى: من آداب المعاشرة، ما على الزوجة لزوجها:

عن أبى أمامة قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: **«لو جاز لأحد أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها»**[(٢)] لعظم حقه عليها.

---

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم (١٤٣٧) النكاح، وأبو داود (٤٨٧٠) الأدب، وأحمد (١١٢٥٨).

(٢) **حسن صحيح**: أخرجه الترمذى (١١٥٩) الرضاع عن أبى هريرة، وقال الترمذى: «وفى الباب عن معاذ بن جبل، وسراقة بن مالك بن جعشم وعائشة، وابن عباس...» وقال: «حديث أبى هريرة حديث حسن غريب». وقال الألبانى: «حسن صحيح»، وانظر ابن ماجه (١٨٥٣).

وفى هذا القسم أحاديث كثيرة تدل على تأكيد حق الزوج على زوجته، وحقوقه عليها كثيرة، وأهمها أمران:

احدهما: الستر والصيانة.

الثانى: القناعة، وعلى هذا كانت النساء فى السلف، كان الرجل إذا خرج من منزله يقول له أهله: إياك وكسب الحرام، فإنا نصبر على الجوع ولا نصبر على النار.

ومن الواجب عليها: أن لا تفرط فى ماله، فإن أطعمت برضاه كان لها مثل أجره، وإن كان بغير رضاه، كان له الأجر، وعليها الوزر.

وينبغى لوالديها تأديبها قبل نقلها إلى الزوج لتعرف آداب العشرة، وينبغى للمرأة أن تكون قاعدة فى عقر بيتها، لازمة لمغزلها، قليلة الكلام لجيرانها، كثيرة الانقباض فى حال غيبة زوجها، تحفظه غائباً وحاضراً، وتطلب رضاه فى جميع الأحوال، ولا تخونه فى نفسها ولا فى ماله، ولا توطئ فراشه من يكره، ولا تأذن فى بيته إلا بإذنه، ولتكن همتها صلاح شأنها وتدبير بيتها، قائمة بخدمتها فى الدار، فى كل ما أمكنها، ولتكن مقدمة لحقِّ زوجها على حقِّ نفسها وحق جميع أقربائها. آخر كتاب النكاح. والله أعلم بالصواب.

كتاب آداب الكسب والمعاش
وفضله وصحة المعاملة وما يتعلق بذلك

اعلم: أن الله سبحانه وتعالى بلطيف حكمته جعل الدنيا دار تكسب واكتساب، تارة للمعاش، وتارة للمعاد، ونحن نورد آداب التجارات، والصناعات، وضرورة الاكتساب وأسبابها ونشرحها.

فصل فى فضل الكسب والحث عليه

قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ (النبأ: ١١)، فذكره فى معرض الامتنان، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ﴾ (الأعراف: ١٠) فجعلها نعمة، وطلب الشكر عليها، وقال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ﴾ (البقرة: ١٩٨).

وفى الحديث أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال: **«طلب الحلال جهاد»**[١]، **و«إن الله ليحب العبد المحترف»**[٢] وفى أفراد البخارى أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال: **«ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده، وإن نبى الله داود كان يأكل من عمل يده»**[٣].

وفى حديث آخر: **«أن زكريا عليه السلام كان نجاراً»**.[٤]

قال ابن عباس ﷺ: كان آدم عليه السلام حراثاً، ونوح نجاراً، وإدريس خياطاً، وإبراهيم ولوط زراعين، وصالح تاجراً، وداود زراداً، وموسى وشعيب ومحمد بن عبد الله صلوات الله تعالى عليهم وسلم رعاة.

وأما الآثار فروى أن لقمان الحكيم قال لابنه: يا بنى استعن بالكسب الحلال، فإنه ما افتقر أحد قط إلا أصابه ثلاث خصال: رقة فى دينه، وضعف فى عقله، وذهاب مروءته،

---

(١) **ضعيف**: أخرجه ابن عدى «الكامل» (١٧٤٢) باب «من اسمه محمد» قال: حدثنا على بن العباس ثنا هشام بن يونس ثنا محمد بن مروان الكوفى عن ليث عن مجاهد عن ابن عمر عن النبى ﷺ. ومحمد بن مروان الكوفى صاحب الطلب ليس بثقة. وقال النسائى: «متروك الحديث». وأورده العجلونى فى «كشف الخفاء» (١٩٢٩)، وقال: «رواه القضاعى عن ابن عباس مرفوعاً»، ورواه أبو نعيم فى الحلية ومن طريق الديلمى عن ابن عمر. وأورده الشوكانى «الفوائد المجموعة» عن ابن عباس.

(٢) **ضعيف**: أخرجه الطبرانى فى الكبير (١٣٢٠٠) والبيهقى فى شعب الإيمان من حديث ابن عمر عن النبى ﷺ وضعفه الألبانى، وانظر الضعيفة (١٣٠١).

(٣) **صحيح**: أخرجه البخارى (٢٠٧٢) البيوع، عن خالد بن معدان عن المقدام ﷺ.

(٤) **صحيح**: أخرجه مسلم (٢٣٧٩) الفضائل، وابن ماجه (٢١٥٠) التجارات، وأحمد (٧٨٨٧) عن أبى هريرة مرفوعاً.

وأعظم من هذه الخصال استخفاف الناس به.

وقيل لأحمد بن حنبل: ما تقول فى رجل جلس فى بيته أو مسجده وقال: لا أعمل شيئاً حتى يأتينى رزقى؟ فقال أحمد: هذا رجل جهل العلم، أما سمع قول النبى صلى الله عليه وآله وسلم: «**إن الله جعل رزقى تحت ظل رمحى**»(١)، وقوله صلى الله عليه وآله وسلم حين ذكر الطير: «تغدو خماصاً وتروح بطاناً»(٢).

وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، يتجرون فى البر والبحر، ويعملون فى نخلهم، والقدوة بهم.

وقال أبو سليمان الدارانى: ليس العبادة عندنا أن تصف قدميك وغيرك يفوتك، ولكن ابدأ برغيفيك فاحرزهما ثم تعبد، فإن قيل: قال أبو الدرداء: زاولت التجارة والعبادة فلم يجتمعا، فاخترت العبادة؟ فالجواب: أنا لا نقول: إن التجارة لا تراد لذاتها، بل للاستغناء عن الناس، وإغناء العائلة، وإفاضة الفضل على الإخوان، فأما إن كان المقصود نفس المال وجمعه، والتفاخر ونحو ذلك، فهو مذموم.

وليكن العقد الذى به الاكتساب جامعاً لأمور أربعة: الصحة، والعدل، والإحسان، والشفقة على الدين.

الأمر الأول: فى الصحة، فإن كان العقد بيعاً، فله ثلاثة أركان: العاقد والمعقود عليه، واللفظ.

الركن الأول: العاقد، فينبغى للتاجر أن لا يعامل المجنون، لأنه غير مكلف، فلا يصح بيعه، ولا يعامل العبد إلا إن يعلم أنه مأذون له، وكذلك الصبى لا يعامل إلا أن يكون قد أذن له الأب أو الوصىّ، فيصير بمنزلة العبد المأذون له، وعند الشافعى لا تصح عقود الصبى، ومعاملة الأعمى عندنا صحيحة، يصح بيعه وشراؤه. وعند الشافعى لا تصح.

وأما الظلمة ومَنْ أكثر ماله من حرام، فلا ينبغى أن يعامل إلا فى شىء يعرف أن عينه حلال.

الركن الثانى: المعقود عليه، وهو المال المقصود نقله من أحد العاقدين إلى الآخر ولا يجوز بيع الكلب، لأنه نجس العين. فأما البغل والحمار فيجوز بيعهما، سواء قلنا: إنهما طاهران أو نجسان، ولا يجوز بيع الحشرات، ولا بيع العود والقانون والمزمار، والصور

(١) **صحيح**: أخرجه البخارى تعليقاً فى «الجهاد والسير»، ورفعه أحمد (٥٠٩٤) عن ابن عمر.

(٢) **صحيح**: أخرجه الترمذى (٢٣٤٤) الزهد، وابن ماجه (٤١٦٤) الزهد، وأحمد (٢٠٥)، من طريق عبد الله بن هبيرة، عن أبى تميم الجيشانى، عن عمر بن الخطاب عن النبى ﷺ. وصححه الألبانى فى صحيح الترمذى.

المصنوعة من الطين ونحوه، ولا يجوز بيع ما لا يقدر على تسليمه حساً ولا شرعاً، أما الحس فكالطير في الهواء، والحوت في البحر، والعبد الآبق ونحوهما، وأما الشرع فكالمرهون، وبيع الأم دون الولد الصغير، أو الولد دون الأم، فهذا ممنوع تسليمه شرعاً.

الركن الثالث: اللفظ، وهو الإيجاب والقبول، فإن تقدم القبولُ الإيجابَ لم يصح في إحدى الروايتين، ويصح في الأخرى، سواء كان بلفظ الماضي أو بلفظ الطلب، فإن تبايعا بالمعاطاة، فظاهر كلام أحمد صحة البيع.

وقال القاضي أبو يعلى: لا يصح ذلك إلا في الأشياء اليسيرة، وهذا أصلح الأقوال، أعني أن تكون المعاطاة في الأشياء الحقيرة دون النفيسة، لجريان العادات بذلك، وينبغي من طريق الورع أن لا يترك الإيجاب والقبول ليخرج عن شبهة الخلاف، وقد شدد الله تعالى في أمر الربا، فينبغي أن يحذر من الوقوع فيه، وهو قسمان: ربا الفضل، وربا النسيئة، فينبغي أن يعرف ذلك وما يجري فيه الربا، ويحتاج أيضاً أن يعرف شروط السلم، والإجارة، والمضاربة، والشركة، فإن المكاسب لا تنفك عن هذه العقود المذكورة.

فصل في العدل واجتناب الظلم في المعاملة

الأمر الثاني: وهو العدل، واجتناب الظلم في المعاملة، ونعني بالظلم ما يتضرر به الغير، وهو ينقسم إلى ما يعم ضرره، وما يخص:

الأول: الاحتكار، وهو منهي عنه لما فيه من غلاء السعر وتضييق الأقوات على الناس.

وصفته: أن يستكثر من ابتياع الغلات في الغلاء، ويتربص بها زيادة الأسعار، فأما إذا دخلت له غلة من ضيعته وحبسها، فليس محتكراً، وكذلك إذا كان الشراء في حال الاتساع والرخص على صفة لا يضيق على الناس، وفي الجملة تكره التجارة في القوت، لأنه قوام الآدمي.

القسم الثاني: ما يخص ضرره، نحو أن يثني على السلعة بما ليس فيها، أو يكتم بعض عيوبها فيضر بذلك المشتري. وقد قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: **«من غشنا فليس منا»**.[1]

واعلم: أن الغش حرام في البيوع، وفي الصناعات أيضاً، وقد سئل الإمام أحمد عن رفو الثوب حتى لا يبان، فقال: لا يجوز لمن يبيعه أن يخفيه.

---

(١) **صحيح**: أخرجه ابن ماجه (٢٢٢٥) في التجارات، عن أبي الحمراء، وضعفه الألباني دون لفظة: **«من غشنا فليس منا»** فهي صحيحة وأخرجه أحمد (٥٠٩٢)، والدارمي (٢٥٤١) عن ابن عمر.

وينبغى للتاجر أن يحقق الوزن، ولا يتخلص فى هذا حتى يرجح إذا أعطى، وينقص إذا أخذ، ومتى خلط العلاف الطعام تراباً ثم كاله فهو مطفف، وكذلك القصاب إذا خلط عظماً لم تجر العادة بمثله.

وقد نهى عن النجش[1]، وهو أن يزيد فى السلعة مَنْ لا يريد شراءها ليغر المشترى، ونهى عن التصرية.

فصل فى الإحسان بالمعاملة

الأمر الثالث: فى الإحسان بالمعاملة، وقد أمر الله تعالى بالعدل والإحسان، فمن الإحسان المسامحة فى البيع، وأن لا يغبنه فى الربح بما لا يتغابن به فى العادة، فأما أصل المغابنة فمأذون فيه، لأن البيع للربح، ولكن يراعى فيه التقريب، فإن بذل المشترى زيادة على الربح المعتاد لشدة رغبته وحاجته، فينبغى أن يمتنع البائع من قبول ذلك، فإن ذلك من الإحسان.

ومن ذلك: أنه إذا أراد استيفاء الثمن أو الدَّين، فيحسن تارة بالمسامحة وتارة بحط البعض، وتارة بالإنظار، وتارة بالتساهل، وتارة فى جودة النقد.

ومن الإحسان: أن يقيل من يستقيله، فإنه لا يستقيل إلا متضرر بالبيع، ولا ينبغى أن يرضى لنفسه أن يكون سبب الإضرار، والأحاديث تشهد بفضل هذه الأمور المذكورة، وما لصاحبها من الأجر والثواب.

فصل فى شفقة التاجر على دينه

الأمر الرابع: فى شفقة التاجر على دينه فيما يخصه ويعم آخرته، لا ينبغى للتاجر أن يشغله معاشه عن معاده، بل يراعى دينه، وإنما تتم شفقته على دينه بمراعاة ستة أشياء:

الأول: حسن النية فى التجارة، فلينو بها الاستعفاف عن السؤال، وكف الطمع عن الناس، والقيام بكفاية العيال، ليكون بذلك من جملة المجاهدين، ولينوِ النصح للمسلمين.

الثانى: أن يقصد القيام فى صناعته أو تجارته بفرض من فروض الكفايات، فإن الصناعة والتجارة لو تركت بطل المعاش، إلا أن من الصناعة ما هو مهم، ومنها ما

(١) **صحيح**: أخرجه البخارى (٢١٤٢) البيوع، ومسلم (١٥١٦). عن مالك عن نافع عن ابن عمر عن النبى ﷺ.

يستغنى عنه لكونه متعلقاً بالزينة، أو طلب التنعم، فليشتغل بصناعة مهمة، ليكون فى قيامه بها كافياً عن المسلمين مهماً، وليتجنب صناعة الصياغة، والنقش، وتشييد البنيان بالجص، وجميع ما يزخرف به، فإنه مكروه.

ومن المعاصى: خياطة الخياط القباء الديباج للرجل، ويكره أن يكون جزاراً، لأنه يوجب قساوة القلب، أو حجاماً، أو كناساً لما فيه مباشرة النجاسة، وفى معناه الدباغ.

ولا يجوز أخذ الأجرة على تعليم القرآن، والعبادات، وفروض الكفايات فإن أخذها مكروهة.

الثالث: أن لا يمنعه سوق الدنيا عن سوق الآخرة، وسوق الآخرة المساجد، فينبغى أن يجعل أول النهار إلى وقت دخول السوق لآخرته، فيواظب على الأوراد، وقد كان صالحو السلف من التجار يجعلون أول النهار وآخره للآخرة، ووسطه للتجارة، وإذا سمع أذان الظهر والعصر، فينبغى أن يترك المعاش اشتغالاً بأداء الفرائض.

الرابع: أن يلازم ذكر الله تعالى فى السوق، ويشتغل بالتسبيح والتهليل.

الخامس: أن لا يكون شديد الحرص على السوق والتجارة، فلا يكون أول من يدخل السوق، ولا آخر من يخرج منها.

السادس: أن لا يقتصر على اجتناب الحرام، بل يتوقى مواقع الشُّبَه ومواقع الرِّيب، ولا ينظر إلى الفتاوى، بل يستفتى قلبه فإن وجد حزازة اجتنبه.

كتاب الحلال والحرام

اعلم: أن طلب الحلال فرض على كل مسلم، وقد ادعى كثير من الجهال عدم الحلال، وقالوا: لم يبق منه إلا الماء الفرات، والحشيش النبات، وما عدا ذلك فقد أفسدته المعاملات الفاسدة، فلما وقع لهم هذا، وعلموا أنه لابد لهم من الأقوات توسعوا فى الشبهة والحرام، وهذا من الجهل، وقلة العلم، فإن فى «الصحيحين»[1] من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه، أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال: «**الحلال بيّن، والحرام بيّن، وبينهما أمور مشتبهات**».

ولما كانت هذه الدعوى من هؤلاء الجهال بدعة قد عم ضررها، واستطار فى الدين شررها، وجب كشف الغطاء عن فسادها بالإرشاد إلى مدرك الفرق بين الحلال والحرام والشبهة.

ونحن نوضح ذلك فى أقسام:

القسم الأول: فى فضيلة طلب الحلال، وذم الحرام، ودرجات الحلال والحرام. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ (المؤمنون: ٥١)، والطيبات: الحلال، فأمر بذلك قبل العمل، وقال فى ذم الحرام: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ﴾ (البقرة: ١٨٨)، إلى غير ذلك من الآيات.

وعن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**يا أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً**»، وذكر الحديث إلى قوله: «**ثم ذكر الرجل يطيل السفر، أشعث أغبر، يمد يديه إلى السماء، يا رب يا رب! ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وغذى بالحرام، فأنى يستجاب لذلك**»[2] رواه مسلم. وروى فى ذلك غير حديث.

وروى أن سعداً سأل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن تستجاب دعوته، فقال له: «**أطب طعمتك تستجب دعوتك**».[3]

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخارى (٢٠٥١) البيوع، ومسلم (١٥٩٩) المساقاة.

(٢) **صحيح**: أخرجه مسلم (١٠١٥)، والترمذى (٢٩٨٩) تفسير القرآن، وأحمد (٨١٤٨)، عن أبى حازم عن أبى هريرة عن النبى ﷺ.

(٣) **ضعيف**: أخرجه الطبرانى فى «الأوسط» (٦٤٩١) عن ابن عباس رضي الله عنهما وأشار إلى ضعفه المنذرى فى «الترغيب» (٣/ ١٢)، والهيثمى فى «المجمع» (١/ ٢٩١)، وضعفه الألبانى لضعف الحسن بن على الاحتياطى، قال أبو أحمد ابن عدى الحافظ: «يسرق الحديث، منكر عن الثقات، ولا يشبه حديثه حديث أهل الصدق». وانظر تخريج الألبانى فى «الضعيفة» (١٨١٢).

وقد كان السلف ينظرون فى الحلال، ويدققون فيه، وأكل أبو بكر الصديق ﷺ شيئاً من شبهة ثم قاءه.

فصل فى درجات الحلال والحـرام

اعلم: أن الحلال كله طيب، ولكن بعضه أطيـب من بعض، والحرام كله خبيث، ولكن بعضه أخبث من بـعض، كما أن الطبيب يحكم على كل حلو بـالحرارة، ولكنه يقول: هذا حار فى الدرجة الأولى، وهذا فى الدرجة الثانية، وهـذا فى الثالثة، وهذا فى الرابعة. مثال ذلك فى الحرام المأخوذ بعقد فاسد، حرام ولكنه ليس فى درجة المغصوب على سبيل القهر، بل المغصوب أغلظ، إذ فيه إيذاء الغير، وترك طريق الشرع فى الاكتساب، وليس فى العقود الفاسدة إلا تـرك طريق التعبد فـقط، وكذلك المأخوذ ظلمـاً من فقير أو صـالح، أو يتيم، أخبث وأغلظ من المأخوذ من قوى أو غنى أو فاسق.

فـصل فى درجات الورع

والورع له درجات أربع:

الدرجة الأولى: وهى درجة العدل - الورع عن كل ما تقتـضى الفتوى تحريمه، وهذا لا يحتاج إلى أمثلة.

الدرجة الثانية: الورع عن كل شبهة لا يجب اجتنابها، ولكن يستحب، كما يأتى فى قسم الشبهات. ومن هذا قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**دع ما يريبك إلى ما لا يريبك**»[1].

الدرجة الثالثة: الورع عن بعض الحلال مخافة الوقوع فى الحرام.

الدرجة الرابعة: الورع عن كل ما ليس لله تعالى، وهو ورع الصِّدِّيقين، مثال ذلك ما روى عن يحيى بن يحيـى النيسابورى رحمة الله عليه أنه شـرب دواء، فقالت له امرأته: لو مشيت فى الدار قليـلاً حتى يعمل الدواء، فقال: هذه مشيـة لا أعرفها، وأنا أحاسب نفسى منذ ثـلاثين سنة. فهذا رجل لم تحضـره نية فى هذه المشية تتعـلق فى الدِّين، فلم يُقْدِم عليها، فهذا من دقائق الورع.

(١) **صحيح**: أخرجه الترمذى (٢٥١٨) صـفة القيامة، والنسائى (٥٧١١) الأشربة، من طريـق شعبة عن بُريد بن أبى مريم عن أبـى الحوراء عن الحسن بن علىّ، وأبو الحـوراء اسمه: ربيعة بـن شيبان، وقال التـرمذى: «حديث صحيح»، وصححه الألبانى فى الإرواء (١٢/ ٢٠٧٤).

والتحقيق فيه أن الورع له أول وغاية، وبينهمـا درجات فى الاحتياط، فكلما كان الإنسان أشد تشديداً عـلى نفسه، كان أسـرع جوازاً على الصراط وأخـف ظهراً، وتتفاوت المـنازل فى الآخرة بحسب تفاوت هذه الدرجات فى الورع، كما تتفاوت دركات النار فى حق الظلمة بحسب درجات الحرام، فإن شئت فزد فى الاحتياط، وإن شئت فترخص، فلنفسك تحتاط وعليها تترخص.

القسم الثانى: فى مراتب الشبـهات وتمييزها عن الحلال والحرام، وحديـث النعمان بن بشير ﷺ [1] نص فى هذه الأقسام الثـلاثة، وهى الحلال والحرام وما بينهما والمـشكل فيها هو والمتوسط الذى لا يعرفه كثير من الناس، وهو الشبهة.

ونحن نكشف الغطاء عنها فنقول: **الحلال المطلق** الذى لا يتعلق بذاته صفة توجب تحريماً لعينه، ولا يتعلق بأسبابه ما يطرق إليه تحريماً أو كراهية، مثال ذلك الماء الذى يأخذه الإنسان من المطر قبل أن يـقع على مِلك أحد، ويكون هو واقـفاً عند أخذه وجمعـه من الهواء فى ملك نفسه أو فـى أرض مباحة. **الحرام المحض:** ما فيه صـفة محرمة، كالشـدة فى الخمر، والنجاسة فى البول، أو حصل بسبب منهى عنه، كـالمتحصل بالظلم والربا، فهذان الطرفان ظاهران، ويلتحق بهما ما تحقق أمره، ولكن يحتمل تغيره، ولم يكن لذلك الاحتمال سبب ظاهر يدل عليه، فإن صيد البر والبحر حلال، إلا أنه من صاد ظبية أو سمكة، فإنه يحتمل أن يكون قد ملكها صـياد ثم أفلتت، وهذا الاحتمال لا يتطرق إلـى ماء المطر المختطف من الهواء، فمساكنة ذلك الاحتمال فى الصيد ورع الموسوسين، لأنه وهم مجرد لا دلالة عليه، فلو دل عليه دليل، مثـل أن يجد فى الظبية جرحاً لا يقدر عليه، إلا بـعد الضبط، كالكى، ويحتمل أن يكون غيره، فهذا موضع الورع.

وحد الشبهة ما تعارض فيه اعتقادان صدرا عن شيئين مقتضيين لاعتقادين.

ومثارات الشبهة كثيرة، والمهم منها مثالان:

المثال الأول: الشك فى السبب المحلل أو المحرم، وينقسم إلى أربعة أنواع:

النوع الأول: أن يكون الحل معلوماً من قبل، ثم يقع الشك فى المحلل، فهذه شبهة يجب اجتنابها، ويحـرم الإقدام عليها، مثاله أن يرى صيداً فـيجرحه فيقع فى الماء فيصـادفه ميتاً، ولا يدرى هل مات بالغرق أو بالجرح؟ فهذا حرام، لأن الأصل التحريم.

---

(١) سبق تخريجه ص (٨٠).

النوع الثانى: أن يعرف الحل ويشك فى المحرم، فيـكون الأصل الحل، والحكم له، كما لو طار طائر، فـقال رجل: إن كان هذا غرابـاً فامرأته طالق، وقـال آخر: وإن لم يكن غراباً، فـامرأته طالق، ثم التبس الأمر، فإنا لا نقضى بالتحريم فى واحد منهما، ولكن الورع اجتنابهما وتطليقهما.

النوع الثالث: أن يكون الأصل التحـريم، ولكن طرأ ما يوجب التحليل بظـن غالب فهو مشكوك فيه، والغالب حله، مثاله أن يرمى إلى صيد فيغيب عنه، ثم يدركه ميتاً وليس عليه أثر سوى سـهمه، فـهذا الظاهر فـيه الحل، لأن الاحتـمال إذا لم يستند إلى دليل الـتحق بالوسوسة، فأما إن ظهر عليه أثر صدمة أو جراحة أخرى التحق بالنوع الأول.

النوع الرابع: أن يكون الحل معلوماً، ولكن يغلب على الظـن سريان المحرم بسبب معتبر فى غلبة الظن شرعاً، مثاله أن يؤدى اجتهـاده إلى نجاسة أحد الإناءين بالاعتماد على علامة معينة توجب عليه الظن، فتوجب تحريم شربه، كما أوجب منع الوضوء به.

المثال الثانى: أن يختلط الحرام بالحلال، ويشتبه الأمر فيه. وذلك على أوجه:

أحدها: إذا اختـلطت ميـتة بمذكـاة، أو بعشرة مـن المذكيـات، ونحو ذلك من الـعدد المحصور، ومثله أن تشتبه أخته بأجنبيات، فهذه شبهة يجب اجتنابها.

الثانى: أن يختلط حرام مـحصور بحلال غير محـصور، كما لو اشتبهت أخـته أو عشر رضائع بنسوة بلد كبير، فلا يلزم بهذا اجتناب نكاح أهل البلد، بل له أن ينكح مَنْ شاء منهن، لأن فى تحريمهن حرجاً كبيراً، وكذلك من علـم أن مال الدنيا خالطه حرام قطعاً، لم يلزمه ترك الشراء والأكل، لأن فى ذلك حـرجاً، وقد علم رسول الله صلى اللـه عليه وآله وسلم وأصحابه أن فى الناس مـن يرابى، وما تركوا الدراهم بالكلية، وأن مـجناً سُرِق فى زمانه، وما تركوا شراء المجن، فاجتناب هذا من ورع الوسوسة.

الثالث: أن يختلط حرام لا يحصر بحلال لا يحصر، كحكم الأموال فى زماننا هذا، فلا يحرم بهذا الاخـتلاط تناول شيء بعينه، إلا أن يقـترن بتلك العين علامـة تدل على أنه من الحرام، نحو أن يأخذه من يد سلطان ظالم، فإن لم يكـن له علامة تدل على الحرمة، فتركه ورع، ولا يحرم ذلك، لأنه قد علم فى زمان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والخلفاء بعده أن أثمان الخمور ودراهم الربا وغلول الغنيـمة اختلطت بالأموال، وقد أدركت الصحابة نهب المدينة وتصرف الظـلمة ولم يمنعوا من الشراء بالسوق، ولـولا صحة ذلك لانسد باب جميع التصرفات، فإن الفسق يغلب ويـتساهل بسببه الناس، لكن الأصل فى الأموال الحل،

وإذا تعارض أصل وغالب، ولا أمارة على الغالب، حكم بالأصل، كما قلنا فى طين الشوارع وأوانى المشركين، فقد توضأ عمر ﷺ من جرة نصرانية، مع أن مشربهم الخمر ومطعمهم الخنزير، ولا يحترزون من نجاسة، وكانت الصحابة ﷺ تلبس الفراء المدبوغة والثياب المصبوغة.

ومن تأمل أحوال الدباغين والصباغين، علم غلبة النجاسة عليهم، فيدل ذلك على أنهم لم يكونوا يحترزون إلا من نجاسة مشاهدة، أو يكون عليها علامة، فأما الظن الذى يستفاد من رد الوهم إلى مجارى الأحوال، فلم يعتبروه. فإن قيل: قد كانوا يتوسعون فى أمور الطهارة، ويحترزون من شبهات الحرام، فما الفرق؟

قلنا: إن أردت أنهم كانوا يصلون مع النجاسة فباطل، وإن أردت أنهم احترزوا من كل نجاسة وجب اجتنابها فصحيح، وأما تورعهم عن الشُبه، فكان بطريق كف النفس عما ليس به بأس مخافة ما به بأس، والنفس تميل إلى الأموال كيف كانت بخلاف الأنجاس، وقد كانوا يمتنعون مما يشغل قلوبهم من الحلال، والله أعلم.

القسم الثالث: من كتاب الحلال والحرام: فى البحث، والسؤال، والهجوم، والإهمال ومظانها.

اعلم: أنه لو قدم لك الطعام أو أهديت لك هدية، أو أردت أن تشترى شيئاً من شخص، فليس لك أن تقول: هذا مما لا أتحقق حله، فأريد أن أفتش عنه وليس لك أن تترك البحث مطلقاً، بل السؤال واجب مرة، وحرام مرة، ومندوب مرة، ومكروه مرة.

والقول الشافى فيه: أن مظنة السؤال مواقع الريبة، وهى تحصل إما من أمر يتعلق بالمال أو بصاحب المال، أما ما يتعلق بصاحب المال، فنحو أن يكون مجهولاً، وهو الذى ليس عليه قرينة تدل على ظلمه، كزى الأجناد، ولا على صلاحه، كثياب أهل العلم والزهد، فهاهنا لا يجب السؤال ولا يجوز، لأن فيه هتك المسلم وإيذاءه، ولا يقال لهذا: إنه مشكوك فيه، لأن المشكوك فيه هو الذى تحصل فيه الريبة بدلالة، مثل أن يكون على خلقة الأتراك، وأهل البوادى المعروفين بالظلم، وقطع الطريق، فهذا يجوز معاملته، لأن اليد تدل على الملك، وهذه الدلالات ضعيفة، إلا أن الترك من الورع.

وأما ما يتعلق بالمال، فنحو أن يختلط الحرام بالحلال، كما إذا طرح فى السوق أحمال من طعام مغصوب فاشتراها أهل السوق، فإنه لا يجب على من يشترى فى تلك البلدة من السوق أن يسأل عما يشتريه، إلا أن يظهر أن أكثر ما فى أيديهم حرام، فعند ذلك يجب السؤال، فإن لم يكن الأكثر حراماً كان التفتيش ورعاً غير واجب.

وكذلك نقول فى رجل له مال حلال خالطه حرام، مثل أن يكون تاجراً يعامل معاملات صحيحة ويرابى، فهذا إن كان الأكثر من ماله حراماً، لم تجز قبول ضيافته ولا هديته إلا بعد التفتيش، فإن ظهر أن المأخوذ من وجهٍ حلالٍ جاز، وإلا ترك، وإن كان الحرام أقل، فالمأخوذ شبهة والورع تركه.

واعلم: أن السؤال إنما يقع لأجل الريبة، فلا ينقطع إلا من حيث تنقطع الريبة المفضية له، بأن لا يكون المسئول متهماً، فإن كان متهماً وعلمت أن له غرضاً فى حضورك أو قبول هديته، فلا ثقة بقوله وينبغى أن يسأل غيره.

القسم الرابع: من كتاب الحلال والحرام: فى كيفية خروج التائب عن المظالم المالية.

اعلم: أن من تاب وفى يده مال مختلط، فعليه تمييز الحرام وإخراجه، فإن كان معلوم العين، فأمره سهل، وإن كان ملتبساً مختلطاً، فإن كان من ذوات الأمثال، كالحبوب والنقود والأدهان، وكان معلوم القدر، ميّز ذلك القدر، فإن أشكل فله طريقان:

أحدهما: الأخذ بغالب الظن. **والثانى**: الأخذ باليقين، وهو الورع.

فإذا أخرج المال الحرام، فإن كان له مالك معين، وجب صرفه إليه أو إلى وارثه، وإن كان لذلك المال زيادة ومنفعة، جمع ذلك كله وصرفه إليه، وإن يئس من معرفة المالك ولم يدرِ أمات عن وارث أم لا؟ فليتصدق به، وإن كان ذلك من مال الفىء والأموال المرصدة لمصالح المسلمين، صرف ذلك إلى القناطر والمساجد ومصالح طريق مكة وما ينتفع به كل من يمر من المسلمين.

مسألة: إذا كان فى يده مال حلال وشبهة، فليخص نفسه بالحلال، وليقدم قوته وكسوته على أجرة الحجام والزيت وإسجار التنور والحمام وعمارة المنزل وثمن الحطب ونحوه، ويخص الحلال لقوته ولباسه، وإذا أراد الأمر بين القوت واللباس فيخص القوت بالحلال لأنه الممتزج بلحمه ودمه، وكل لحم نبت من الحرام فالنار أولى به، وأصل هذا قوله صلى الله عليه وآله وسلم فى كسب الحجام: **«اعلفه ناضحك»**[1].

ولو كان فى يد أبويه حرام، فليمتنع من مؤاكلتهما، فإن كان شبهة داراهما، فإن لم يقبلا تناول اليسير.

---

(١) **صحيح**: أخرجه الترمذى (١٢٧٧) البيوع، وأحمد (٢٣١٧٨)، وابن ماجه (٢١٦٦)، وصححه الألبانى فى صحيح الترمذى، عن ابن أبى مُحَيِّصة أخى بنى حارثة عن أبيه عن النبى ﷺ . وقال أبو عيسى: «والعمل على هذا عند بعض أهل العلم، وقال أحمد: إن سألنى حَجَّامٌ نهيته، وآخذُ بهذا الحديث».

وقد روى أن أم بشر الحافى ناولته تمرة فأكلها، ثم صعد الغرفة فقاءها.

القسم الخامس: فى إدرار السلاطين وصلاتهم، وما يحل من مخالطة السلاطين الظلمة، ونحو ذلك.

اعلم: أن من أخذ مالاً من السلطان فلابد أن ينظر فى مدخل ذلك إلى السلطان من أين هو؟ وفى صفته التى يستحق بها الأخذ، وفى المقدار الذى يأخذه، هل يستحقه؟

وقد تورع جماعة عن ذلك، وكان فيهم من يأخذه فيتصدق به.

وأما فى هذا الزمان، فالاحتراز عنه أولى، لأنه قد علم طريق الأخذ، ثم لا ينال إلا بالذل والسؤال والسكوت على الإنكار. وقد كان بعض السلف لا يأخذ، ويعلل بأن باقى المستحقين لم يأخذوا، وهذا ليس بشىء، لأنه يأخذ حقه ويبقى أولئك فى مقام مظلوم، وليس المال مشتركاً.

فصل فى أحوال من يخالط الأمراء والعمال الظلمة

اعلم: أن لك مع الأمراء والعمال الظلمة ثلاثة أحوال:

الحالة الأولى: أن تدخل عليهم وهى شرها.

فقد روى عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: **«من أتى أبواب السلاطين افتتن»**[1] **«وما ازداد عبد من السلطان قرباً إلا ازداد من الله بعداً»**[2]

وقال حذيفة: إياكم ومواقف الفتن، فقيل: وما مواقف الفتن؟ قال: أبواب الأمراء، يدخل أحدكم على الأمير فيصدقه بالكذب، ويقول ما ليس فيه.

وقال بعض الأمراء لبعض الزهاد: ألا تأتينا؟ فقال: أخاف إن أدنيتنى فتنتنى، وإن أقصيتنى حرمتنى، وليس فى يدك ما أريده، ولا فى يدى ما أخافك عليه، وإنما أتاك مَنْ أتاك ليستغنى بك عمن سواك، وقد استغنيت عنك بمن أغناك عنى. فهذه الآثار تبين كراهية مخالطة السلاطين.

وأيضاً فإن الداخل على السلاطين معرَّض لأنْ يعصى الله عز وجل، إما بفعله أو قوله أو سكوته.

أما الفعل: فإن الدخول عليهم فى غالب الأحوال يكون إلى أماكن مغصوبة، ولو فرض أنه

---

(١) **صحيح**: أخرجه الترمذى (٢٢٥٦) الفتن، وأبو داود (٢٨٥٩) عن وهب بن منبه عن ابن عباس عن النبى ﷺ. وصححه الألبانى فى «صحيح أبى داود». وأخرجه أحمد (٨٦١٩)، (٩٣٩٠) عن أبى هريرة رضي الله عنه وضعفه الألبانى وانظر ما بعده.

(٢) **ضعيف**: أخرجه أبو داود (٢٨٦٠)، وأحمد (٨٦١٩)، وضعفه الألبانى فى «ضعيف أبى داود».

فى موضع غير مغصوب، ففى الغالب يكون ما تحته أو ما يظله من خيمة أو نحوها من ماله حرام، والانتفاع بذلك حرام، ولو فرض ذلك حلالاً، فربما يقع فى غيره من المحذورات، إما أن يسجد له، أو يركع، أو يتمثل له قائماً، ويخدمه، ويتواضع له بسبب ولايته التى هى آلة الظلمة.

والتواضع للظالم معصية، بل من تواضع لغنى لأجل غناه لا لمعنى آخر يقتضى التواضع، ذهب ثلثا دينه، فكيف إذا تواضع للظالم؟!

وتقبيل اليد له معصية، إلا أن يكون عند خوف، أو لإمام عادل، أو عالم يستحق ذلك، فأما غير ما ذكرنا، فلا يباح فى حقهم إلا مجرد السلام.

وأما القول : فهو أن يدعو للظالم، أو يثنى عليه، أو يصدقه فيما يقول من باطل بصريح قوله، أو بتحريك رأسه، أو باستبشار فى وجهه، أو يظهر له الحب والموالاة والاشتياق إلى لقائه، والحرص على طول بقائه، ففى الغالب لا يقتصر على السلام، بل يتكلم ولا يعدو كلامه هذه الأقسام.

وقد جاء فى الأثر: «من دعا لظالم بطول البقاء، فقد أحب أن يُعصى الله»[1].

ولا يجوز دعاؤه له إلا أن يقول: أصلحك الله، أو وفقك الله، أو نحو ذلك.

وأما السكوت: فهو أن يرى فى مجالسهم من الفرش الحرير، وأوانى الفضة، والملبوس المحرم على غلمانهم من الحرير، ونحو ذلك، فيسكت. وكل من رأى شيئاً من ذلك وسكت فهو شريك فيه، وكذا إذا سمع من كلامهم ما هو فحش وكذب وشتم وإيذاء، فإن السكوت عن ذلك كله حرام، لأنه يجب عليه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

فإن قلت: إنه يخاف على نفسه، فهو معذور فى السكوت.

قلنا: صدقت، إلا أنه مستغنٍ عن أن يعرض نفسه لارتكاب ما لا يباح إلا بعذر، لأنه لو لم يدخل ويشاهد، لم يجب عليه الأمر والنهى، وكل من علم بفسادٍ فى مكان، وعلم أنه إذا حضر لم يقدر على إزالته، لم يجز له أن يحضر.

فصل فى الدخول على الأمراء الظلمة

فإن سلم مما ذكرنا كله، وهيهات، لم يسلم من فساد يتطرق إلى قلبه، لما يرى من توسعهم فى التنعم، فيزدرى نعمة الله عليه، ثم يقتدى به غيره فى الدخول، ويكون مكثراً لسواد الظلمة.

وروى أن سعيد بن المسيب دعى إلى البيعة للوليد وسليمان ابنى عبد الملك، فقال: لا أبايع اثنين ما اختلف الليل والنهار، فقالوا: ادخل من هذا الباب واخرج من الآخر، قال:

---

(١) انظر «الصمت» لابن أبى الدنيا.

لا والله لا يقتدى بى أحد من الناس، فجُلد مئة وألبس المسوح. فعلى ما بيّنا لا يجوز الدخول على الأمراء الظلمة إلا بعذرين:

أحدهما: إلزام من جهتهم يخاف من الخلاف فيه الأذى.

والثانى: أن يدخل ليرفع ظلماً عن مسلم، فيجوز بشرط أن لا يكذب ولا يثنى ولا يدع نصيحة يتوقع لها قبولاً، فهذا حكم الدخول.

الحال الثانى: أن يدخل السلطان عليه زائراً، فجواب السلام لابد منه.

وأما القيام والإكرام، فلا يحرم مقابلة له على إكرامه، فإنه بإكرام العلم والدين مستحق للحمد، كما أنه بالظلم مستحق للذم. فإن دخل عليه وحده فى خلوة، وقد رأى أن يقوم إعزازاً للدين فهو أولى، وإن كان دخوله عليه فى جمع، فمراعاة حشمة أرباب الولايات فيما بين الرعايا أولى وأمثل، ولا بأس بالقيام على هذه النية.

وإن علم أن ذلك لا يورث فساداً فى الرعية، ولا يناله أذى من غضبه، فترك الإكرام بالقيام أولى، ثم يجب عليه أن ينصحه، ويعرفه تحريم ما يفعله مما لا يدرى أنه محرم.

فأما إعلامه بتحريم الظلم وشرب الخمر، فلا فائدة فيه، بل عليه أن يخوفه من ركوب المعاصى مهما ظن أن التخويف يؤثر فى قلبه، وعليه أن يرشده إلى المصالح، ومتى عرف طريقاً على وفق الشرع يحصل به غرض الظالم من غير معصية، فيصد الظالم بذلك عن الوصول إلى غرضه الذى عرفه إياه .

الحال الثالث: أن يعتزل عنهم فلا يراهم ولا يرونه، والسلامة فى ذلك، ثم ينبغى أن يعتقد بغضهم على ظلمهم، فلا يحب لقاءهم، ولا يثنى عليهم، ولا يستخبر عن أحوالهم ولا يقترب إلى المتصلين بهم، ولا يتأسف على ما يفوته بسبب مفارقتهم، كما قال بعضهم: إنما بينى وبين الملوك يوم واحد، إما يوم مضى فلا يجدون لذته، وأنا وإياهم فى غد على وجل، وإنما هو اليوم، فما عسى أن يكون فى اليوم؟!

مسألة: إذا بعث إليك سلطان مالاً لتفرقه على الفقراء، وكان له مالك معين، لم يحل أخذه، وإن لم يكن له، كان حكمه أن يتصدق به كما سبق بيانه، ويتولى تفرقته على الفقراء.

ومن العلماء من امتنع من أخذه، وإذا كان أكثر أموالهم الحرام حرمت معاملتهم، وما بنته الظلمة من القناطر والمساجد، والسقايات، ينبغى أن ينظر فيه، فإن كانت تلك الأعيان التى بنيت بها لمالك معين، لم يجز العبور عليها إلا للضرورة، وإن لم يعرف مالكها جاز العبور عليها، والورع الامتناع، والله أعلم.

كتاب آداب الصحبة والأخوة ومعاشرة الخلق ونحو ذلك

اعلم: أن الألفة ثمرة حسن الخُلُق، والتفرق ثمرة سوء الخلق؛ لأن حسن الخلق يوجب التحابب والتوافق، وسوء الخلق يثمر التباغض والتدابر، ولا يخفى ما فى حسن الخلق من الفضل، والأحاديث دالة على ذلك.

فقد روى من حديث أبى الدرداء ﷺ، عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: **«ما من شىء أثقل فى ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن»** رواه الترمذى وصححه.[1]

وفى حديث آخر: «إن من أحبكم إلىَّ وأقربكم منى مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً، وإن من أبغضكم إلىَّ وأبعدكم منى مجلساً مساويكم أخلاقاً».[2]

وسئل النبى صلى الله عليه وآله وسلم: عن أكثر ما يدخل الناس الجنة؟ فقال: «تقوى الله وحسن الخلق»[3].

وأما المحبة فى الله تعالى، ففى «الصحيحين»[4] من حديث أبى هريرة ﷺ، عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: **«سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله»**، فذكر منهم: «ورجلان تحابا فى الله اجتمعا على ذلك وتفرقا عليه».

وفى حديث آخر يقول الله عز وجل: **«حقت محبتى للمتحابين فىَّ، وحقت محبتى للمتباذلين فىَّ، وحقت محبتى للمتزاورين فىَّ»**.[5]

---

(١) **صحيح**: أخرجه الترمذى (٢٠٠٣) البر والصلة، وأحمد (٢٦٩٧١)، عن عطاء عن أم الدرداء، عن أبى الدرداء، عن النبى ﷺ. وصححه الألبانى.

(٢) **صحيح**: أخرجه الترمذى (٢٠١٨) البر والصلة، من طريق مبارك بن فضالة قال: حدثنى عبد ربه بن سعيد، عن محمد بن المنكدر، عن جابر، عن النبى ﷺ. وقال أبو عيسى: «وفى الباب عن أبى هريرة، وهذا حديث حسن غريب من هذا الوجه، وروى بعضهم هذا الحديث عن المبارك بن فضالة، عن محمد بن المنكدر، عن جابر، عن النبى ﷺ. ولم يذكر فيه: عبد ربه بن سعيد، وهذا أصح». قال الألبانى: «ومداره فى الحالين على ابن فضالة، وهو صدوق يدلس، وقد صرح بالتحديث كما ترى، فهو حسن الإسناد». وللحديث شاهد، صححه الألبانى كما فى الصحيحة (٧٩١).

(٣) **إسناده حسن**: أخرجه الترمذى (٢٠٠٤) البر والصلة، عن أبى هريرة، وقال أبو عيسى: «حديث صحيح غريب»، وحسّن إسناده الألبانى فى صحيح الترمذى، وأخرجه أحمد (٩٤٠٣).

(٤) **صحيح**: أخرجه البخارى (٦٦٠) الأذان، ومسلم (١٠٣١) الزكاة عن أبى هريرة ﷺ.

(٥) **صحيح**: انظر صحيح الجامع (٤٣٢١)، (٤٣٣١)، (٥٠١١) للألبانى.

وفى حديث آخر: «**أوثق عرى الإيمان، أن تحب فى الله وتبغض فى الله**»[1]، والأحاديث فى ذلك كثيرة.

واعلم: أن من يحب فى الله يبغض فى الله، فإنك إذا أحببت إنساناً لكونه مطيعاً لله، فإذا عصى الله أبغضته فى الله، لأن من أحب لسبب أبغض لوجود ضده، ومن اجتمعت فيه خصال محمودة ومكروهة، فإنك تحبه من وجه وتبغضه من وجه.

فينبغى أن تحب المسلم لإسلامه، وتبغضه لمعصيته، فتكون معه على حالة متوسطة بين الانقباض والانبساط، فأما ما يجرى منه مَجْرَى الهفوة التى يعلم أنه نادم عليها، فالأولى حينئذ الإغماض والستر، فإذا أصر على المعصية فلابد من إظهار أثر البغض بالإعراض عنه والتباعد، وتغليظ القول له على حسب غلظ المعصية وخفتها.

واعلم: أن المخالف لأمر الله تعالى على أقسام:

أحدها: أن يكون كافراً، فإن كان حربياً فهو مستحق للقتل والإرقاق، وليس بعد هذين إهانة، وإن كان ذمياً فلا يجوز إيذاؤه إلا بالإعراض عنه، والتحقير له بالاضطرار له إلى أضيق الطريق، وترك البداءة بالسلام. فإن سلم قيل له: وعليك.

والأولى الكف عن مخالطته ومعاملته ومؤاكلته، ومن المكروه الاسترسال إليه والانبساط كما يفعل بالأصدقاء.

القسم الثانى: المبتدع، فإن كان ممن يدعو إلى بدعة، وكانت البدعة بحيث يكفر بها فأمره أشد من الذمى، لأنه لا يقر بجزية، ولا يسامح بعقد ذمة، وإن كان ممن لا يكفر بها، فأمره بينه وبين الله تعالى أخف من أمر الكافر لا محالة، ولكن الأمر فى الإنكار عليه أشد منه على الكافر، لأن شر الكافر غير متعد، لأنه لا يُلتفت إلى قوله، بخلاف المبتدع الذى يدعو إلى بدعته لأنه يزعم أن ما يدعو إليه حق، فيكون سبباً لغواية الخلق فشره متعد، فإظهار بغضه والانقطاع عنه ومعاداته وتحقيره والتشنيع عليه ببدعته وتنفير الناس عنه أشد.

فأما المبتدع العامى الذى لا يقدر أن يدعو ولا يخاف الاقتداء به، فأمره أهون، والأولى أن يتلطف به فى النصح، فإن قلوب العوام سريعة التقلب، فإن لم ينفع النصح وكان فى الإعراض عنه تقبيح لبدعته فى عينه، تأكد استحباب الإعراض عنه، وإن علم أن ذلك لا

(١) **حسن**: حسّنه الألبانى بمجموع طرقه، وانظر الصحيحة (٩٩٨).

يؤثر لجمود طبعه ورسوخ اعتقاده فى قلبه فالإعراض عنه أولى، لأن البدعة إذا لم يبالغ فى تقبيحها شاعت بين الخلق وعم فسادها.

القسم الثالث: العاصى بفعله لا باعتقاده، فإن كانت بحيث يتأذى بها غيره، كالظلم والغضب وشهادة الزور والغيبة والنميمة ونحو ذلك، فالأولى الإعراض عنه وترك مخالطته والانقباض عن معاملته، وكذلك الحكم فيمن يدعو غيره إلى الفساد، كالذى يجمع بين الرجال والنساء ويهيئ أسباب الشرب لأهل الفساد، فهذا ينبغى إهانته ومقاطعته والإعراض عنه.

فأما الذى يفسق فى نفسه بشرب خمر أو زنا أو سرقة أو ترك واجب، فالأمر فيه أخف، ولكنه فى وقت مباشرته إن صودف، وجب منعه بما يمتنع به، فإن كان النصح يرده وكان أنفع له نُصح، وإلا أغلظ له.

فصل فى بيان الصفات المشروطة فيمن تختار صحبته

روينا عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «**المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل**»[(1)].

واعلم: أنه لا يصلح للصحبة كل أحد، ولابد أن يتميز المصحوب بصفات وخصال يرغب بسببها فى صحبته، وتشترط تلك الخصال بحسب الفوائد المطلوبة من الصحبة، وهى إما دنيوية كالانتفاع بالمال والجاه، أو بمجرد الاستئناس بالمشاهدة والمحاورة، وليس ذلك غرضنا، وإما دينية، وتجتمع فيها أغراض مختلفة، منها الاستفادة بالعلم والعمل، ومنها الاستفادة من الجاه تحصيناً عن إيذاء من يكدر القلب ويصد عن العبادة، ومنها الاستفادة من المال للاكتفاء به عن تضييع الأوقات فى طلب القوت، ومنها الاستعانة فى المهمات، فتكون عدة فى المصائب وقوة فى الأحوال، ومنها انتظار الشفاعة فى الآخرة، كما قال بعض السلف: استكثروا من الإخوان، فإن لكل مؤمن شفاعة. فهذه فوائد تستدعى كل فائدة شروطاً لا تحصل إلا بها.

وفى الجملة، فينبغى أن يكون فيمن تُؤْثَر صحبته خمس خصال:

أن يكون عاقلاً، حسن الخلق، غير فاسق، ولا مبتدع، ولا حريص على الدنيا.

---

(1) **حسن**: أخرجه أبو داود (٤٨٣٣)، والترمذى (٢٣٧٨)، وأحمد (٧٩٦٨)، عن زهير بن محمد الخراسانى، عن موسى بن وردان، عن أبى هريرة عن النبى ﷺ. وقال أبو عيسى: «حديث حسن غريب» وزهير ضعيف، وللحديث شاهد أخرجه ابن عساكر، حسّنه به، وانظر الصحيحة للألبانى (٩٢٧).

أما العقل، فهو رأس المال، ولا خير فى صحبة الأحمق، لأنه يريد أن ينفعك فيضرك، ونعنى بالعاقل الذى يفهم الأمور على ما هى عليه، إما بنفسه، وإما أن يكون بحيث إذا أفهم فهم.

وأما حسن الخلق، فلابد منه، إذ رب عاقل يغلبه غضب أو شهوة فيطيع هواه فلا خير فى صحبته.

وأما الفاسق فإنه لا يخاف الله تعالى، ومن لا يخاف الله تعالى لا تؤمن غائلته ولا يوثق به.

وأما المبتدع فيخاف من صحبته بسراية بدعته.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: عليك بإخوان الصدق تعش فى أكنافهم، فإنهم زينة فى الرخاء وعدة فى البلاء، وضَعْ أمر أخيك على أحسنه حتى يجيئك ما يقليك منه، واعتزل عدوك، واحذر صديقك إلا الأمين، ولا أمين إلا من يخشَ الله، ولا تصحب الفاجر فتتعلم من فجوره، ولا تطلعه على سرك، واستشر فى أمرك الذين يخشون الله تعالى.

قال يحيى بن معاذ: بئس الصديق تحتاج أن تقول له: اذكرنى فى دعائك، وأن تعيش معه بالمداراة أو تحتاج أن تعتذر إليه.

ودخل جماعة على الحسن البصرى وهو نائم، فجعل بعضهم يأكل من فاكهة فى البيت، فقال: رحمك الله، هذا والله فعل الإخوان.

وقال أبو جعفر لأصحابه: أيدخل أحدكم يده فى كم أخيه فيأخذ منه ما يريد؟ قالوا: لا، قال: فلستم بإخوان كما تزعمون.

ويروى أن فتحاً الموصلى جاء إلى صديق له يقال له: عيسى التمار، فلم يجده فى المنزل، فقال للخادم: أخرجى لى كيس أخى، فأخرجته، فأخذ منه درهمين، وجاء عيسى إلى منزله فأخبرته الجارية بذلك، فقال: إن كنت صادقة، فأنت حرة، فنظر فإذا هى قد صدقت، فعتقت.

فصل فى بيان ما على الإنسان لأخيه من الحقوق

الحق الأول: قضاء الحاجات والقيام بها، وذلك درجات: أدناها: القيام بالحاجة عند السؤال والقدرة، لكن مع البشاشة والاستبشار.

واوسطها: القيام بالحوائج من غير سؤال.

واعلاها: تقديم حوائجه على حوائج النفس.

وقد كان بعض السلف يتفقد عيال أخيه بعد موته أربعين سنة فيقضى حوائجهم.

الحق الثانى: على اللسان بالسكوت تارة، وبالنطق أخرى.

أما السكوت، فهو أن يسكت عن ذكر عيوبه فى حضوره وغيبته، وعن الرد عليه ومماراته ومناقشته، وعن السؤال عما يكره ظهوره من أحواله. ولا يسأله إذا لقيه: إلى أين؟ فربما لا يريد إعلامه بذلك، وأن يكتم سره ولو بعد القطيعة، ولا يقدح فى أحبابه وأهله، ولا يبلغه قدح غيره فيه.

الحق الثالث: وينبغى أن يسكت عن كل ما يكرهه، إلا إذا وجب عليه النطق فى أمر بمعروف أو نهى عن المنكر، ولم يجد رخصة فى السكوت، فإن مواجهته بذلك إحسان إليه فى المعنى.

واعلم: أنك إن طلبت منزَّهاً عن كل عيب لم تجد، ومن غلبت محاسنه على مساويه فهو الغاية.

وقال ابن المبارك: المؤمن يطلب المعاذير، والمنافق يطلب الزلات.

وقال الفضيل: الفتوة: الصفح عن زلات الإخوان.

وينبغى أن تترك إساءة الظن بأخيك، وأن تحمل فعله على الحسن مهما أمكن، وقد قال النبى صلى الله عليه وآله وسلم: **«وإياكم والظن، فإن الظن اكذب الحديث»**[1].

واعلم: أن سوء الظن يدعو إلى التجسس المنهى عنه، وأن ستر العيوب والتغافل عنها شيمة أهل الدين.

واعلم: أنه لا يكمل إيمان المرء حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه، وأقل درجات الأخوة أن يعامل أخاه بما يحب أن يعامله به، ولاشك أنك تنتظر من أخيك أن يستر عورتك، وأن يسكت عن مساويك، فلو ظهر لك منه ضد ذلك اشتد عليك فكيف تنتظر منه ما لا تعزم عليه له؟

ومتى التمست من الإنصاف ما لا تسمح به دخلت فى قول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ (المطففين: ٢-٣). ومنشأ التقصير فى ستر العورة والمغرى بكشفها الحقدُ والحسد.

واعلم: أن من أشد الأسباب لإثارة الحقد والحسد بين الإخوان المماراة، ولا يبعث عليها إلا إظهار التميز بزيادة الفضل والعقل واحتقار المردود عليه، ومَنْ مارى أخاه، فقد نسبه إلى الجهل والحمق، أو إلى الغفلة والسهو عن فهم الشىء على ما هو عليه، وكل ذلك

(١) **صحيح**: أخرجه البخارى (٦٠٦٦) النكاح، ومسلم (٢٥٦٣) البر والصلة.

استحقار، وهو يوغر الصدر، ويوجب المعاداة وهو ضد الأخوة.

الحق الرابع: على اللسان بالنطق فإن الأخوة كما تقتضى السكوت عن المكروه، تقتضى النطق بالمحبوب بل هو أخص بالأخوة، لأن من قنع بالسكوت صحب أهل القبور، وإنما يراد الإخوان ليستفاد منهم لا ليتخلص منهم، لأن السكوت معناه كف الأذى، فعليه أن يتودد إليه بلسانه، ويتفقده فى أحواله، ويسأل عما عرض له، ويظهر شغل قلبه بسببه، ويبدى السرور بما يسر به.

وفى الصحيح من رواية الترمذى: **«إذا أحب أحدكم أخاه فليعلمه»**.[١]

ومن ذلك: أن يدعوه بأحب أسمائه إليه، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ثلاث يصفين لك ود أخيك: تسلم عليه إذا لقيته، وتوسع له فى المجلس، وتدعوه بأحب أسمائه إليه.

ومن ذلك: أن تثنى عليه بما تعرف من محاسن أحواله عند من يؤثر الثناء عنده، وكذلك الثناء على أولاده وأهله وأفعاله، حتى فى خلقه وعقله وهيئته وخطه وتصنيفه وجميع ما يفرح به من غير إفراط ولا كذب.

وكذلك ينبغى أن تبلغه ثناء من أثنى عليه مع إظهار الفرح به، فإن إخفاء ذلك محض الحسد.

ومن ذلك: أن تشكره على صنيعه فى حقك، وأن تذب عنه فى غيبته إذا قصد بسوء، فحق الأخوة التشمير فى الحماية والنصرة.

وفى الحديث الصحيح: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يُسْلِمه»[٢]، ومتى أهمل الذب عن عرضه يكون قد أسلمه، ولك فى ذلك معياران:

أحدهما: أن تقدِّر أن الذى قيل فيه، قد قيل فيك وهو حاضر، فتقول ما تحب أن يقوله.

الثانى: أن تقدر أنه حاضر وراء جدار يتسمع عليك، فما تحرك فى قلبك من نصرته فى حضوره ينبغى أن يتحرك فى غيبته. ومن لم يكن مخلصاً فى إخائه فهو منافق.

ومن ذلك: التعليم والنصيحة، فليس حاجة أخيك إلى العلم بأقل من حاجته إلى المال، وإذا كنت غنياً بالعلم فعليك مواساته وإرشاده إلى كل ما ينفعه فى الدين والدنيا.

---

(١) **صحيح**: أخرجه الترمذى (٢٣٩٢)، وقال «حسن صحيح غريب»، وصححه الألبانى، وانظر الصحيحة (٤١٧)، (٢٥١٥).

(٢) **صحيح**: أخرجه البخارى (٢٤٤٢) المظالم والغصب، ومسلم (٢٥٨٠) البر والصلة عن ابن عمر.

وينبغي أن يكـون نصحك إياه سراً، والفرق بيـن التوبيخ والنصيحـة الإعلان والإسرار، كما أن الـفرق بين المداراة والمداهنة بالـغرض الباعث على الإغـضاء، فإن أغضيت لـسلامة دينك، ولما ترى فيه إصـلاح أخيك بـالإغضاء، فـأنت مدارٍ، وإن أغـضيت لحظ نفـسك واجتلاب شهواتك وسلامة جاهك فأنت مداهن.

ومن ذلك: العفو عن الزلات، فإن كـانت زلته في دينه فتلطَّفْ في نصحـه مهما أمكن، ولا تترك زجره ووعظه، فإن أبى فالمصارمة.

الحق الخامس: الدعاء للأخ في حيـاته وبعد موته بكل ما تدعو به لـنفسك. وفي أفراد مسلم من حـديث أبي الدرداء، أن النبي صلى الله عليـه وآله وسلم قال: «**دعوة المرء المسلم لأخيه بظهر الغيب مستجابة، عند رأسه ملك موكل كلما دعا لأخيه بخير قال الملك الموكل به: آمين، ولك بمثل**». [1]

وكان أبو الدرداء رضي الله عنه يدعو لخلق كثير من إخوانه يسميهم بأسمائهم.

وكان أحمد بن حنبل –رحمه الله– يدعو في السحر لستة نفر.

وأما الدعاء بعد الموت، فقال عمرو بن حريث: إذا دعا العبد لأخيه الميت، أتى بها ملك قبره، فقال: يا صاحب القبر الغريب، هذه هدية من أخ عليك شفيق.

الحق السادس: الوفاء والإخلاص، ومعنى الوفاء: الـثبات على الحب إلى الموت، وبعد موت الأخ مع أولاده وأصدقائه، وقد أكرم النبي صلـى الله عليه وآله وسلم عجوزاً وقال: «**إنها كانت تغشانا في أيام خديجة، وإن حسن العهد من الإيمان**»[2].

ومن الوفاء: أن لا يتغير على أخيه في التواضع، وإن ارتفع شأنه واتسعت ولايته وعظم جاهه.

واعلم: أنه ليس من الوفاء موافقة الأخ فيما يخالف الدِّين، فقد كان الشافعي رحمه الله آخى محمد بن عبـد الحكم، وكان يقربه ويقبل عليه، فلما احتـضر قيل له: إلى من نجلس

---

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم (٢٧٣٣) الذكر والدعـاء، وأبو داود (١٥٣٤) الصلاة، وابن ماجـه (٢٨٩٥) المناسك، وأحمد (٢١٢٠٠).

(٢) **حسن**: حسّنه الألباني عن عائشة، وانظر صحيح الجامع (٢٠٥٦)، والصحيحة (٢١٦)، وقال الألباني: «أخرجه ابن الأعرابي في «معجمه» (ق ٧٥/ ٢)، وعنه القضاعي في «مسند الشهاب» (ق ٨٢/ ١)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ١٥-١٦)، والبيهقي في «الشعب» (٦/ ٥١٧/ ٩١٢٢) من طريق صالح بن رستم عن ابن أبي مليكة عن عائشة قالت «الحديث».

بعدك يا أبا عبد الله؟ فاستشرف له محمد بن عبد الحكم وهو عند رأسه ليومئ إليه، فقال: إلى أبى يعقوب البويطى فانكسر لها محـمد، ومال أصحابه إلى البويطى، ومع أن محمداً كان قد حمل مذهبه، لكن البويطى كان أقرب إلى الزهد والورع، فنصح الشافعى -رحمه الله- المسلمين وترك المداهنة، فانقلب ابن الحكم عن مذهبه، وصار من أصحاب مالك.

ومن الوفاء: أن لا يسمع بلاغات الناس على صديقه، ولا يصادق عدو صديقه.

الحق السابع: التخـفيف وترك التـكلف والتكليـف، وذلك أن لا يكلف أخاه مـا يشق عليه، بل يروح سره عن مهماته وحاجاته، ولا يستمد من جاهه ولا ماله، ولا يكلفه التفقد لأحواله والقيـام بحقوقه والتواضع له، بل يكون قـصده بمحبته الله وحده، والتـبرك بدعائه والاستئناس بلقـائه، والاستعانة على دينه، والتـقرب إلى الله تعالى بالقيام بـحقوقه، وتمام التخفيف بِطَىِّ بساط الاحتشام، حتى لا يستحى منه فيما لا يستحى فيه من نفسه.

قال جعفر بن محمد: أثقل إخوانى علىَّ من يتكلف لى وأتحفظ منه، وأخفهم على قلبى من أكون معه كما أكون وحدى.

وقال بعض الحكماء: من سقطت كلفته دامت ألفته، ومن تمام هذا الأمر أن ترى الفضل لإخوانك عليك، لا لنفسك عليهم، فتنزل نفسك معهم منزلة الخادم.

فصل فى جملة من آداب المعاشرة للخلق

ولنذكر فى آخر هذا الباب جملة من آداب المعاشرة للخلق:

فمن حسن المعـاشرة أن تتوقر من غير كـبر، وتتواضع فى غير ذلة، وأن تـلقى الصديق والعدو بوجه الرضى من غـير ذل لهم ولا خوف منهم، وتتحفظ فى مجـالسك من تشبيك أصابعك، وإدخال أصبعك فى أنفك، وكثرة بصاقك، والتثاؤب.

واصغِ إلى محـدثك، ولا تسأله الإعادة، ولا تحـدث بإعجابك بولـدك وجاريتك، ولا تتصنع تصنع المرأة فى التزيين، ولا تتبذل تبذل العبد.

وخوِّف أهلك فى غير عنف، ولِنْ لهم من غير ضعف.

ولا تهازل أمتك وعبدك، فيسقط وقارك، ولا تكثر الالتفات إلى ورائك.

ولا تجالس السلطان، فإن فعلت فاحذر الذنوب والغيبة، وصن سره، واحذر المداعبة عنده،

وتحفظ من الجشاء بحضرته والتخلل، وإن قربك فكن منه على حذر، وإن استرسل إليك فلا تأمن انقلابه عليك، وارفق به رفقك بالصبى، وكلمه بما يشتهيه، ولا تدخل بينه وبين أهله وحشمه.

وإياك وصديق العافية. ولا تجعل مالك أكرم من عرضك.

وإذا دخلت مجلساً فاجلس فيما هو أقرب للتواضع.

ولا تجلس على الطريق، فإذا جلست فغُض البصر، وانصر المظلوم، وأرشد الضال.

ولا تبصق فى جهة القبلة ولا عن يمينك، ولكن عن يسارك تحت قدمك اليسرى.

واحذر مجالسة العوام ،فإن فعلت فعليك بالتغافل عما يجرى من سوء أخلاقهم وترك الخوض فى حديثهم.

واحذر كثرة المزاح، فإن اللبيب يحقد عليك فى المزاح، والسفيه يجترئ عليك والله أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه.

باب فى حقوق المسلم والرحم والجوار والمملوك ونحو ذلك

فمن حقوق المسلم: أن تسلم عليه إذا لقيته، وتجيبه إذا دعاك، وتشمته إذا عطس، وتعوده إذا مرض، وتشهد جنازته إذا مات، وتبر قسمه، وتنصح له إذا استنصحك[1]، وتحفظه بظهر الغيب إذا غاب، وتحب له ما تحب لنفسك، وتكره له ما تكره لنفسك. وجميع هذا منقول فى الآثار.

ومنها: أن لا تؤذى أحداً من المسلمين بقول ولا فعل، وأن تتواضع للمسلمين، فلا تتكبر عليهم، ولا تسمع بلاغات الناس بعضهم فى بعض، ولا تبلغ بعضهم ما تسمع من بعض.

ومنها: أن لا تزيد فى الهجرة على ثلاثة أيام لمن تعرفه، للحديث المشهور فى ذلك.[2]

وفى حديث آخر عن أبى هريرة رضي الله عنه عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال: **«لا يحل لمؤمن أن يهجر مؤمناً فوق ثلاثة أيام، فإذا مرت به ثلاثة أيام فلقيه فليسلم عليه، فإن رد عليه**

---

(١) **صحيح** : أخرجه البخارى (١٢٤٠) الجنائز، ومسلم (٢١٦٢) السلام، عن أبى هريرة رضي الله عنه عن النبى ﷺ : **«حق المسلم على المسلم خمس»**. وعند مسلم أيضاً (٢١٦٢): **«حق المسلم على المسلم ست»**.

(٢) **صحيح** : أخرج البخارى (٦٠٦٥) الأدب، ومسلم (٢٥٥٩) البر والصلة عن أنس رضي الله عنه عن النبى ﷺ : **«لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث»**.

السلام، فقد اشتركا فى الأجر، وإن لم يرد عليه فقد برئ المسلّم من الهجرة. (1)

واعلم: أن هذه الهجرة إنما هى فيما يتعلق بالدنيا، أما حق الدين، فإن هجران أهل البدع والأهواء والمعاصى ينبغى أن تدوم، ما لم تظهر منهم التوبة والرجوع إلى الحق.

ومنها: أن يحسن إلى كل من يقدر أن يحسن إليه من المسلمين ما استطاع، وأن لا يدخل على أحد منهم إلا بإذنه، ويستأذن ثلاثاً فإن لم يأذن انصرف.

ومنها: أن يخالق الناس بخلق حسن، وذلك أن يعامل كلاً منهم بحسب طريقته، فإنه متى لقى الجاهل بالعلم، واللاهى بالفقه، والغبى بالبيان، أذى وتأذى.

ومنها: أن يوقر المشايخ ويرحم الصبيان، وأن يكون مع الخلق كافة طلق الوجه رقيقاً، وأن يفى لهم بالوعد، وينصف الناس من نفسه، ولا يأتى إليهم إلا ما يحب أن يؤتى إليه.

قال الحسن: أوحى الله إلى آدم عليه السلام أربع كلمات، وقال: فيهن جماع الأمر لك ولولدك: واحدة لى، وواحدة لك، وواحدة بينى وبينك، وواحدة بينك وبين الخلق. فأما التى لى: فتعبدنى لا تشرك بى شيئاً. وأما التى لك: فعملك أجزيك به أفقر ما تكون إليه. وأما التى بينى وبينك: فعليك الدعاء وعلىَّ الإجابة. وأما التى بينك وبين الناس: فتصحبهم بالذى تحب أن يصحبوك به.

ومنها: زيادة توقير ذوى الهيئات.

ومنها: إصلاح ذات البين، وستر عورات المسلمين.

واعلم: أنه من تأمل ستر الله تعالى على العصاة فى الدنيا اقتدى بلطفه، فإنه جعل الشهادة فى الزنى أن يشهد أربعة من العدول أنهم شهدوا ذلك كالميل فى المكحلة، وهذا لا يتفق، ومن هذا أثر كرمه فى الدنيا يرجى منه ذلك فى الآخرة.

ومنها: أن يتقى مواضع التهم، صيانة لقلوب الناس عن سوء الظن به، وألسنتهم عن غيبته.

---

(1) **حسن لغيره:** أخرجه أبو داود (٤٩١٢)، والبخارى فى «الأدب المفرد» (٤١٤) من طريق محمد بن هلال قال: حدثنى أبى عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال: فذكره.

وقال الألبانى: (وهذا سند ضعيف من أجل هلال وهو ابن أبى هلال المدنى. قال الذهبى: «لا يعرف») وضعفه الألبانى فى «غاية المرام» (٤٠٥) وفى «صحيح الترغيب والترهيب» قال الألبانى: «حسن لغيره».

ومنها: أن يشفع لكل من له حاجة من المسلمين إلى من له عنده منزلة، ويسعى فى قضاء حوائجهم.

ومنها: أن يبدأ بالسلام على كل مسلم قبل أن يكلمه، ومن السنة المصافحة. فقد روى عن أنس ﷺ، عن النبى ﷺ أنه قال: **«ما من مسلمين يلتقيان، فأخذ أحدهما بيد صاحبه، إلا كان حقاً على الله عز وجل أن يحضر دعاءهما، وأن لا يفرق بين أيديهما حتى يغفر لهما»**[(١)].

وفى حديث آخر: **«إذا صافح المؤمن المؤمن نزلت عليهما مائة رحمة، تسعة وتسعون لأبشهما وأحسنهما خلقاً»**[(٢)].

ولا بأس بتقبيل يد المعظم فى الدين، ولا بأس بالمعانقة. وأما الأخذ بالركاب لتوقير العلماء، فقد فعل ذلك ابن عباس بزيد بن ثابت ﷺ، والقيام على سبيل الإكرام لأهل الفضل حسن، وأما الانحناء فمنهى عنه.[(٣)]

ومنها: أن يصون عرض أخيه المسلم ونفسه وماله عن ظلم الغير، ويناضل دونه وينصره.

ومنها: أنه إذا ابتلى بذى شر، فينبغى أن يجامله ويتقيه، لحديث عائشة ﷺ.[(٤)]

وقال محمد ابن الحنفية: ليس بحكيم من لم يعاشر بالمعروف من لا يجد من معاشرته بداً، حتى يجعل الله عز وجل له فرجاً.

ومنها: أن يجتنب مخالطة الأغنياء، ويختلط بالمساكين، ويحسن إلى الأيتام.

ومنها: عيادة مرضاهم.

---

(١) **حسن**: أخرجه أحمد (١٢٠٤٣): ثنا محمد بن بكر: ثنا ميمون بن سياه عن أنس بن مالك عن النبى ﷺ. وقال الهيثمى فى «المجمع» (٨/ ٣٦): «رواه أحمد والبزار وأبو يعلى، ورجال أحمد رجال الصحيح، غير ميمون بن عجلان، وثقه ابن حبان ولم يضعفه أحد». وانظر الصحيحة للألبانى (٥٢٥).

(٢) **ضعيف**: ذكره ابن الجوزى فى «الموضوعات» (٢/ ٢٧٢)، والشوكانى فى «الفوائد المجموعة» (١/ ٢٢٦) عن أبى هريرة من طريق محمد بن عبد الله الأشنانى. والأشنانى وضاع كما فى تنزيه الشريعة (٢/ ٢٤٥).

(٣) **حسن**: أخرجه الترمذى (٢٧٢٨)، وابن ماجه (٣٧٠٢)، وحسنه الألبانى عن أنس بن مالك قال: قال رجل: يا رسول الله الرجل منا يلقى أخاه أو صديقه أينحنى له؟ قال: **«لا»** قال: أفيلتزمه ويقبلهُ؟ قال: **«لا»**، قال: أفيأخذ بيده ويصافحه؟ قال: **«نعم»**.

(٤) **صحيح**: أخرجه البخارى (٦٠٣٢) عن عائشة، قول النبى ﷺ: **«إن شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة مَنْ تركه الناس اتقاء شره»**.

ومن آداب العائد: أن يضع يده على المريض، ويسأله كيف هو، ويخفف الجلوس، ويظهر الرقة، ويدعو له بالعافية، ويغض البصر عن عورات المكان.

ويستحب للمريض أن يفعل ما أخرجه مسلم فى أفراده، من حديث عثمان بن أبى العاص رضي الله عنه أنه شكا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وجعاً يجده فى جسده منذ أسلم، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ضع يدك على الذى تألم من جسدك وقل: بسم الله ثلاثاً، وقل سبع مرات: أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر». (١)

وجملة آداب المريض: حسن الصبر، وقلة الشكوى والتضجر، والفزع إلى الدعاء، والتوكل على الله سبحانه.

ومنها: أن يشيع جنائزهم، ويزور قبورهم. والمقصود من التشييع: قضاء حق المسلمين والاعتبار. قال الأعمش: كنا نحضر الجنائز، فلا ندرى من نعزى لحزن القوم كلهم.

والمقصود من زيارة القبور: الدعاء، والاعتبار، وترقيق القلب.

ومن آداب تشييع الجنائز: المشى، ولزوم الخشوع، وترك الحديث، وملاحظة الميت والتفكر فى الموت والاستعداد له.

وأما حقوق الجار: فاعلم أن الجوار يقتضى حقاً وراء ما تقتضيه أخوة الإسلام فيستحق ما يستحقه كل مسلم وزيادة، وجاء فى الحديث: «الجيران ثلاثة: جار له حق واحد، وهو أدنى الجيران حقاً، وجار له حقان، وجار له ثلاثة حقوق. فالجار الذى له ثلاثة حقوق: الجار المسلم ذو الرحم، فله حق الجوار، وحق الإسلام، وحق الرحم. وأما الذى له حقان فالجار المسلم، له حق الإسلام، وحق الجوار. وأما الذى له حق واحد: فالجار المشرك». (٢)

واعلم: أنه ليس حق الجوار كف الأذى فقط، بل احتمال الأذى والرفق، وابتداء الخير، وأن يبدأ جاره بالسلام، ولا يطيل معه الكلام، ويعوده فى المرض، ويعزيه فى المصيبة، ويهنئه فى الفرح، ويصفح عن زلاته، ولا يطلع إلى داره، ولا يضايقه فى وضع الخشب على جداره، ولا فى صب

---

(١) **صحيح:** أخرجه مسلم (٢٢٠٢) السلام، وابن ماجه (٣٥٣٢) عن عثمان بن أبى العاص.

(٢) **ضعيف:** ضعفه الألبانى فى الضعيفة، وقال: «أخرجه البزار (٢/ ٣٨٠)، والطبرانى فى «مسند الشاميين» (ص ٤٧٦)، وأبو نعيم فى «الحلية» (٥/ ٢٠٧) عن عبد الرحمن بن فضيل عن عطاء الخراسانى عن الحسن عن جابر بن عبد الله مرفوعاً. وقال أبو نعيم: «حديث غريب» وقال الألبانى: «وهو مسلسل بالعلل: الأولى: عنعنة الحسن البصرى، فإنه كان مدلساً. والثانية: عطاء الخراسانى، وهو مدلس أيضاً وسيئ الحفظ».

الماء فى ميزابه، ولا فى طرح التراب فى فنائه، ولا يتبعه النظر فيما يحمله إلى داره، ويستر ما ينكشف من عوارته، ولا يتسمع عليه كلامه، ويغض طرفه عن حرمه، ويلاحظ حوائج أهله إذا غاب.

فصل فى حقوق الأقارب والرحم

وأما حقوق الأقارب والرحم، ففى الحديث الصحيح، من رواية عائشة، أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال: **«الرحم معلقة بالعرش، تقول: من وصلنى وصله الله، ومن قطعنى قطعه الله»**. (١)

وفى حديث آخر من أفراد البخارى: **«ليس الواصل بالمكافئ، ولكن الواصل الذى إذا قطعت رحمه وصلها»**. (٢)

وفى حديث آخر من أفراد مسلم أن رجلاً قال: يا رسول الله، إن لى قرابة أصلهم ويقطعونى، وأحسن إليهم ويسيئون إلىَّ، وأحلم عنهم ويجهلون علىَّ، قال: **«لئن كنت كما قلت، فكأنما تُسِفُّهم المَلَّ، ولا يزال معك من الله ظهير عليهم ما دمت على ذلك»**(٣). والمعنى أنك منصور عليهم، وقد انقطع احتجاجهم عليه بحق القرابة، كما ينقطع كلام من سف الملّ، وهو الرماد الحار، والأحاديث فى ذلك كثيرة مشهورة فى صلة الرحم، وفى حقوق الوالدين، وفى تأكيد حق الأم.

وأما حقوق الولد، فاعلم أنه لما كانت الطباع تميل إلى الولد لم يحتج إلى تأكيد الوصية به، إلا أنه قد يغلب هوى الوالد للولد، فيترك تعليمه وتأديبه. وقد قال الله تعالى: ﴿قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ (التحريم: ٦).

قال المفسرون: معناه: علموهم وأدبوهم. وينبغى للوالد أن يحسن اسم ابنه ويعق عنه، فإذا بلغ سبع سنين أمره بالصلاة وختنه، فإذا بلغ زوّجه.

وأما حقوق المملوك، فأن يطعمه ويكسوه، ولا يكلفه ما لا يطيق، ولا ينظر إليه بعين الازدراء، وأن يعفو عن زلته، وليتذكر عند ذلك زلل نفسه، فيعفو رجاء أن يعفو الله تعالى عنه، والله أعلم، وصلى الله على معلم الخير.

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخارى (٥٩٨٩) الأدب، ومسلم (٢٥٥٥) البر والصلة.

(٢) **صحيح**: أخرجه البخارى (٥٩٩١) الأدب.

(٣) **صحيح**: أخرجه مسلم (٢٥٥٨)، وأحمد (٧٩٣٢)، من طريق شعبة عن العلاء بن عبد الرحمن، عن أبيه عن أبى هريرة رضي الله عنه.

كتاب آداب العزلة والمخالطة

اختلف الناس فى العزلة والمخالطة، أيتهما أفضل؟ مع أن كل واحدة منهما لا تنفك عن فوائد وغوائل، وأكثر الزهاد اختاروا العزلة.

وممن ذهب إلى اختيار العزلة: سفيان الثورى، وإبراهيم بن أدهم، وداود الطائى، والفضيل، وبشر الحافى، فى آخرين.

وممن ذهب إلى استحباب المخالطة: سعيد بن المسيب، وشريح، والشعبى، وابن المبارك، والشافعى، وأحمد بن حنبل.

ولكل طائفة فيما ذهبت إليه حجج، ونحن نشير إلى ذلك.

أما حجة الأولين: فقد روى فى الصحيحين[١] من حديث أبى سعيد قال: قيل: يا رسول الله، أى الناس خير؟ قال: **«رجل يجاهد بنفسه وماله، ورجل فى شعب من الشعاب يعبد ربه ويدعُ الناس من شره».**

وفى حديث عقبة بن عامر ﵁ قال: قلت: يا رسول الله ما النجاة؟ قال: **«املك عليك لسانك، وليسعك بيتك، وابكِ على خطيئتك»**.[٢]

وقال عمر بن الخطاب ﵁: خذوا بحظكم من العزلة.

وقال سعد بن أبى وقاص ﵁: لوددت أن بينى وبين الناس باباً من حديد، لا يكلمنى أحد ولا أكلمه حتى ألقى الله سبحانه.

وقال ابن مسعود ﵁: كونوا ينابيع العلم، مصابيح الليل، أحلاس البيوت، جدد القلوب، خلقان الثياب، تعرفون فى أهل السماء، وتخفون على أهل الأرض.

وقال أبو الدرداء ﵁: نِعم صومعة المرء المسلم بيته، يكف لسانه، وفرجه، وبصره، وإياكم ومجالس الأسواق، فإنها تلهى وتلغى.

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخارى (٢٧٨٦) الجهاد والسير، ومسلم (١٨٨٨) الإمارة، عن أبى سعيد الخدرى.

(٢) **صحيح**: أخرجه ابن المبارك فى «الزهد» (١٣٤)، وعنه أحمد (٢١٧٣٢)، والترمذى (٢٤٠٦) من طريق عبيد الله ابن زحر عن علىّ بن يزيد عن القاسم عن أبى أمامة عن عقبة بن عامر الجهنى. قال الترمذى: «حديث حسن» وضعف إسناده الألبانى لضعف ابن زحر وابن يزيد الألهانى، وحسنه لطرقه. وانظر الصحيحة (٨٨٨).

وقال داود الطائي: فِر من الناس كما تفر من الأسد.

وقال أبو مهلهل: أخذ بيدى سفيان الثورى وأخرجنى إلى الجبانة، فاعتزلنا ناحية، فبكى ثم قال: يا أبا مهلهل، إن استطعت أن لا تخالط فى زمانك أحداً فافعل، وليكن همك مرمة جهازك.

وأما حجة من اختار المخالطة: فمن ذلك قول النبى صلى الله عليه وآله وسلم: **«المؤمن الذى يخالط الناس ويصبر على أذاهم، خيرٌ من الذى لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم»** [1] واحتجوا بأشياء غير ذلك ضعيفة لا تقوم بها حجة على ذلك، منها قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا﴾ (آل عمران: ١٠٥)، وهذا ضعيف، لأن المراد تفرق الآراء والمذاهب فى أصل الشريعة، واحتجوا أيضاً بقوله صلى الله عليه وآله وسلم: **«لا هجرة فوق ثلاث»**[2] قالوا: العزلة هجر بالكلية، وهذا ضعيف لأن المراد به قطع الكلام والسلام والمخالطة المعتادة.

فصل فى ذكر فوائد العزلة وغوائلها وكشف الحق فى فضلها

اعلم: أن اختلاف الناس فى هذا أيضاً هو كاختلافهم فى فضيلة النكاح والعزوبة، وقد ذكرنا أن ذلك يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص، فكذلك نقول فيما نحن فيه، فلنذكر أولاً فوائد العزلة، وهى ست:

الفائدة الأولى: الفراغ للعبادة، والاستئناس بمناجاة الله سبحانه وتعالى، فإن ذلك يستدعى فراغاً، ولا فراغ مع المخالطة، فالعزلة وسيلة إلى ذلك خصوصاً فى البداية.

قيل لبعض الحكماء: إلى أى شيء أفضى بهم الزهد والخلوة؟ قال: إلى الأنس بالله.

وقال أويس القرنى رحمه الله: ما كنت أرى أن أحداً يعرف ربه فيأنس بغيره.

واعلم: أن من تيسر له بدوام الذكر الأنس بالله، أو بدوام الفكر تحقيق معرفة الله، فالتجرد لذلك أفضل من كل ما يتعلق بالمخالطة.

الفائدة الثانية: التخلص بالعزلة عن المعاصى التى يتعرض لها الإنسان غالباً بالمخالطة، وهى أربعة:

---

(١) **صحيح:** أخرجه الترمذى (٢٥٠٧) صفة القيامة، وابن ماجه (٤٠٣٢)، وأحمد (٥٠٠٢) عن الأعمش، عن يحيى بن وثاب، عن شيخ من أصحاب النبى ﷺ عن النبى ﷺ. وقال أبو عيسى: «قال ابن أبى عدى: كان شعبة يرى أنه ابن عمر»، وقدسى عند ابن ماجه، وصححه الألبانى فى صحيح الترمذى.

(٢) **صحيح:** وقد سبق ص ٩٧.

أحدها: الغيبة، فإن عادة الناس التمضمض بالأعراض والتفكه بها، فإن خالطتهم ووافقتهم أثمت وتعرضت لسخط الله تعالى، وإن سكت كنت شريكاً، فإن المستمع أحد المغتابين، وإن أنكرت ذلك أبغضوك واغتابوك، فازدادوا غيبة إلى الغيبة، وربما خرجوا إلى الشتم.

الثانية: الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فإن من خالط الناس لم يخلُ عن مشاهدة المنكرات، فإن سكت عصى الله، وإن أنكر تعرض لأنواع من الضرر، وفى العزلة سلامة من هذا.

الثالثة: الرياء، وهو الداء العضال الذى يعسر الاحتراز منه، وأول ما فى مخالطة الناس إظهار التشوق إليهم، ولا يخلو ذلك من الكذب، إما فى الأصل، وإما فى الزيادة، وقد كان السلف يحترزون فى جواب قول القائل: كيف أصبحت، وكيف أمسيت؟ كما قال بعضهم وقد قيل له: كيف أصبحت؟ قال: أصبحنا ضعفاء مذنبين، نأكل أرزاقنا، وننتظر آجالنا.

واعلم: أنه إذا كان سؤال السائل لأخيه: كيف أصبحت؟ لا يبعثه عليه شفقة ولا محبة، كان تكلفاً ورياء، وربما سأله وفى القلب ضغائن وحقد يورث أن يعلم فساد حاله، وفى العزلة الخلاص عن هذا، لأنه مَنْ لقى الخلق ولم يخالقهم بأخلاقهم، مقتوه واستثقلوه واغتابوه، ويذهب دينهم فيه، ويذهب دينه ودنياه فى الانتقام منهم.

الرابعة: مسارقة الطبع من أخلاقهم الرديئة، وهو داء دفين، قلما يتنبه له العقلاء فضلاً عن الغافلين، وذلك أنه قل أن يجالس الإنسان فاسقاً مدة، مع كونه منكراً عليه فى باطنه، إلا ولو قاس نفسه إلى ما قبل مجالسته لوجد فرقاً فى النفور عن الفساد، لأن الفساد يصير بكثرة المباشرة هيناً على الطبع، ويسقط وقعه واستعظامه له، ومهما طالت مشاهدة الإنسان الكبائر من غيره، احتقر الصغائر من نفسه، كما أن الإنسان إذا لاحظ أحوال السلف فى الزهد والتعبد، احتقر نفسه، واستصغر عبادته فيكون ذلك داعية إلى الاجتهاد، وبهذه الدقيقة يعرف سر قول القائل: عند ذكر الصالحين تنزل الرحمة.

ومما يدل على سقوط وَقْع الشيء من القلب بسبب تكرره ومشاهدته، أن أكثر الناس إذا رأوا مسلماً قد أفطر فى رمضان، استعظموا ذلك، حتى يكاد يفضى إلى اعتقادهم فيه الكفر، وقد يشاهدون من يؤخر الصلاة عن أوقاتها، فلا ينفرون عنه نفورهم عن تأخير الصوم، مع أن ترك صلاة واحدة تخرج إلى الكفر، ولا سبب لذلك إلا أن الصلاة تتكرر، والتساهل فيها يكثر، وكذلك لو لبس الفقيه ثوباً من حرير، أو خاتماً من ذهب، لاشتد إنكار الناس لذلك، وقد يشاهدونه فى مجلس طويل لا يتكلم إلا بما هو اغتياب للناس،

فلا يستعظمون ذلك، والغيبة أشد من لبس الحرير، ولكن لكثرة سماعها، ومشاهدة المغتابين، سقط عن القلوب وقعها، فافطن لهذه الدقائق واحذر مجالسة الناس، فإنك لا تكاد ترى منهم إلا ما يزيد فى حرصك على الدنيا، وفى غفلتك عن الآخرة، وتهون عليك المعصية، وتضعف رغبتك فى الطاعات، فإن وجدت مجلساً يذكر الله فيه، فلا تفارقه فإنه غنيمة المؤمن.

الفائدة الثالثة: الخلاص من الفتن والخصومات، وصيانة الدين عن الخوض فيها، فإنه قلما تخلو البلاد من العصبية والخصومات، والمعتزل عنهم سليم.

وقد روى ابن عمرو ﷺ أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم ذكر الفتن، ووصفها وقال: **«إذا رأيت الناس قد مرجت عهودهم، وخفت أماناتهم، فكانوا هكذا»**، وشبك بين أصابعه، فقلت: ما تأمرنى؟ فقال: **«الزم بيتك، واملك عليك لسانك، وخذ ما تعرف، ودعْ ما تنكر، وعليك بأمر الخاصة، ودعْ عنك أمر العامة»**[1]. وقد روى غير ذلك من الأحاديث فى معناه.

الفائدة الرابعة: الخلاص من شر الناس، فإنهم يؤذونك مرة بالغيبة، ومرة بالنميمة، ومرة بسوء الظن، ومرة بالتهمة، ومرة بالأطماع الكاذبة، ومن خالط الناس لم ينفك من حاسد وعدو، وغير ذلك من أنواع الشر التى يلقاها الإنسان من معارفه، وفى العزلة خلاص من ذلك، كما قال بعضهم:

عدوّك من صديقك مستفادٌ ... فلا تستكثرنَّ من الصِّحابِ

فإنَّ الداءَ أكثرَ ما تراهُ ... يكونُ منَ الطَّعامِ أو الشَّرابِ

قال بعضهم: فإن الناس كانوا دواءً يتداوى به فصاروا داءً لا دواء له.

وقال عمر ﷺ: فى العزلة راحة من خلطاء السوء.

وقال إبراهيم بن أدهم: لا تتعرف إلى من لا تعرف، وأنكر مَنْ تعرف.

وقال رجل لأخيه: أصحبك إلى الحج؟ فقال: دعنا نعش فى ستر الله، فإنا نخاف أن يرى بعضنا من بعض ما نتماقت عليه.

---

(١) **صحيح**: أخرجه أبو داود (٤٣٤٢) الملاحم، وابن ماجه (٣٩٥٧) الفتن، وأحمد (٧٠٠٩) عن محمد بن مطرف عن أبى حازم عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبى ﷺ. وأخرجه أبو داود (٤٣٤٣) الملاحم، وأحمد (٦٩٤٨)، من طريق عكرمة عن عبد الله بن عمرو، وصححه الألبانى فى صحيح أبى داود.

وهذه فائدة أخرى فى العزلة، وهى بقاء الستر على الدين والمروءة وسائر العورات.

الفائدة الخامسة: أن ينقطع طمع الناس عنك، وطمعك عنهم.

أما طمعهم، فإن رضاهم غاية لا تدرك، فالمنقطع عنهم قاطع لطمعهم فى حضور ولائمهم وإملاكاتهم، وغير ذلك.

وقد قيل: من عمَّ الناس بالحرمان رضوا عنه كلهم.

وأما انقطاع طمعك، فإن من نظر إلى زهرة الدنيا تحرك حرصه، وانبعث بقوة الحرص طمعه، ولا يرى إلا الخيبة فى أكثر المطامع فيتأذى به.

وفى الحديث: **«انظروا إلى من دونكم، ولا تنظروا إلى من فوقكم، فإنه أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم»**[1].

وقال الله تعالى: ﴿وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ (طه: ١٣١).

الفائدة السادسة: الخلاص من مشاهدة الثقلاء والحمقى، ومقاساة أخلاقهم، وإذا تأذى الإنسان بالثقلاء، لم يلبث، أن يغتابهم، فإن آذوه بالقدح فيه كافأهم، فانجر الأمر إلى فساد الدين، وفى العزلة سلامة من ذلك.

فصل فى آفات العزلة

اعلم: أن من المقاصد الدينية والدنيوية ما يستفاد من الاستعانة بالغير، ولا يحصل ذلك إلا بالمخالطة.

ومن فوائد المخالطة: التعلم والتعليم، والنفع والانتفاع، والتأديب والتأدب، والاستئناس والإيناس، ونيل الثواب فى القيام بالحقوق، واعتياد التواضع، واستفادة التجارب من مشاهدة هذه الأحوال، والاعتبار بها، فهذه فوائد الخلطة، ولنفصّلها:

الفائدة الأولى: التعلم والتعليم، وقد ذكرنا فضلهما فى كتاب العلم، فأما مَنْ تعلم الفرض ورأى أنه لا يتأتى منه الخوض فى العلوم، ورأى الاشتغال بالعبادة، فليعتزل، وإن كان يقدر على التبرز فى علوم الشرع فالعزلة فى حقه قبل التعلم غاية الخسران.

---

(١) **صحيح:** أخرجه مسلم (٢٩٦٣)، والترمذى (٢٥١٣) صفة القيامة، وأحمد (٧٤٠٠) عن أبى هريرة ﷺ.

ولهذا قال الربيع بن خثيم: تفقه ثم اعتزل، والعلم أصل الدين، ولا خير فى عزلة العوام.

سئل بعض العلـماء: ما تقول فى عزلة الجاهـل؟ فقال: خبال ووبال، فقيـل له: فالعالم؟ فقال: ما لك ولها، دعها، معها حذاؤها وسقاؤها، ترد الماء، وتأكل الشجر حتى يلقاها ربها.

وأما التعليم، ففيه ثواب عظيم إذا صحت النية فيه، ومتى كان القصد إقامة الجاه والاستكثار من الأتباع، فهو هلاك الـدين، وقد سبق ذلك فى كتاب العلم، والغـالب فى هذا الزمان سوء القصد من المتعلمين، فيقتضى الدين الاعـتزال عنهم، فإن صودف طالب من الله الخير ومتعلم ومتقرب إليه لم يجز الاعتزال عنه، ولا يحل كتـمان العلم، ولا ينبغى أن يغتر بقول من قال: تعلمنا العلم لغير الله فأبى أن يكون إلا الله، فإنه أشار بهذه إلى علوم القرآن والحديث ومعرفة سير الأنبياء والصـحابة، وذلك يتضمن التخويف والتحذيـر، وهو سبب لإثارة الخوف من الله سبحـانه، فإن لم يؤثر فـى الحال أثر فى المآل، فأمـا علم الكلام وعلم الخـلاف، فإنه لا يرد الراغب فى الدنيا إلى الله تعالى، بل لا يزال صاحبه متمادياً فى حرصه إلى آخر عمره.

الفائدة الثانية: النفع والانتفاع، أما الانتفاع بالنـاس، فبالكسب والمعاملة، والمحتاج إلى ذلك مضطـر إلى ترك العزلة، وأمـا إن كان معه مـا يقنعه، فالـعزلة أفضل، إلا أن يقـصد التصدق بكسـبه، فذلك أفضل من العزلة، إلا أن تكـون العزلة مفيدة له معرفـة الله تعالى والأنس به، عن كشف وبصيرة، لا عن أوهام وخيالات فاسدة.

وأما النفع: فهو أن ينفع الناس، إما بماله أو ببدنه لقضاء حوائجهم، ومن قدر على ذلك مع القيـام بحدود الشرع، فـهو أفضل من الـعزلة إن كان لا يشـتغل فى عزلتـه إلا بنوافل الصلوات والأعمال البدنية، وإن كان ممن انفـتح له طريق العمل بالقلب بدوام ذكر أو فكر، فذاك الذى لا يعدل به غيره البتة.

الفائدة الثالثة: التأديب والتـأدب، ونعنى به الارتياض بمقاسـاة الناس، والمجاهدة فى تحمل أذاهم، وكسر النفس، وقهر الشهـوات إن لم تكسر جمحت، وذلك أفضل من العزلة فى حق من لم تتهذب أخلاقه.

وينبغـى أن يفهم أن الرياضة لا تـراد لنفسهـا، كما لا يراد ذلك من رياضـة الدابة عين الرياضة، بل المراد منها أن تتـخذ مركباً تقطع عليه المراحل، والبدن مطيـة للقلب يسلك بها طريق الآخرة، وفيها شـهوات إن لم تكسر جمحت براكبها فى الطـريق، فمن اشتغل طول عمره بالرياضة كان كمن اشتغل طول عمره بريـاضة الدابة ولم يركبها، ولم يستفد منها إلا

الخلاص من عـضها ورفـسها، وهـى لعمرى فـائدة، ولكن ليـست معظـم المقصود، قـيل لراهب: يا راهب، فقال: لسـت براهب، إنما أنا كلب عقور، حبست نفـسى حتى لا أعقر الناس، هذا حسن بالإضافة إلى من يعقر، لكن لا ينبغى أن يقتصر عليه.

وأما التأديب: فـهو أن يؤدب غيره، ويتطرق إلـيه من دفائن الآفات ما يتـطرق إلى نشر العلم على ما ذكر.

الفائدة الرابعة: الاستئناس والإيناس، وقد يكون مستحـباً كالاستئناس بأهل التقوى وقد يقصد به ترويح القلوب من كرب الوحدة، فينـبغى أن يكون الاستئناس فى بعض الساعات بمن لا يفسد بقيتها، وليحرص أن يكون حديثه عند اللقاء فى أمور الدين.

الفائدة الخامسة: فى نيل الثواب وإنالته.

أما الأول: فبحضور الجـنائز، وعيادة المرضى، وحضور العيدين، أما الجـمعة فلابد منه، وحور الجماعة فى سـائر الصلوات وحضور الإملاكات، والدعوات، ففيـها ثواب من جهة إدخال السرور على المؤمن.

وأما الثانى: فـهو أن يفتح بابه للناس ليـعزوه أو يهنئوه أو يعودوه، فإنـهم ينالون بذلك ثواباً، وكذلك إن كان من العلماء فأذن لهم فى زيارته.

ولكن ينبغى أن يزن ثواب هذه المخالطة بآفاتها، فيرجح العزلة أو المخالطة، وقد كان أكثر السلف يؤثرون العزلة عليها.

الفائدة السادسة: التواضع، ولا يقدر على ذلك فى الوحدة، فـقد يكون الكبر سبباً فى اختياره العزلة، ويمنعـه فى المحافل التقصير فى إكرامه وتقديمه، وربمـا ترفع عن مخالطتهم لارتفاع محله عند نفسه، أو نحو ذلك.

وعلامة مَنْ هذه صـفته أن يحب أن يزار ولا يحب أن يزور، ويفرح بتـقرب السلاطين والعوام إليه واجتماعهم على بابه، وتقبـيل يده، فالعزلة بهذا السبب جهل، لأن التواضع لا ينقص من منصب الكبير.

فإذا عرفت فـوائد العزلة وغوائلها تحقـقت أن الحكم عليها مطلـقاً بالتفضيل نفـياً وإثباتاً خطأ، بل ينـبغى أن ينظر إلى الـشخص وحاله، وإلى الخـليط وحاله، وإلى البـاعث على مخالطتـه، وإلى الفائت بسبب مخالطتـه من الفوائد، ويقاس الفائت بالحـاصل، فعند ذلك يتبين الحق ويتضح الأفضل.

فقد قال الشافعي رحمه الله: الانقباض عن الناس مكسبة للعداوة، والانبساط إليهم مجلبة للسوء، فكن بين القبض والبسط، ومن ذكر سوى هذا فهو قاصر، وإنما هو إخبار عن حاله، فلا يجوز أن يحكم بها على غيره المخالف له في الحال.

فإن قيل: **فما آداب العزلة؟**

قلنا: ينبغي للمعتزل أن ينوي بعزلته كف شره عن الناس، ثم طلب السلامة من شر الأشرار، ثم الخلاص من آفة القصور عن القيام بحقوق المسلمين، ثم تجريد الهمة لعبادة الله تعالى أبداً، فهذه آداب بيّنة.

ثم ليكن في خلواته مواظباً على العلم والعمل، والذكر والفكر، فيجتني ثمرة العزلة، وليمنع الناس عن أن يكثروا غشيانه وزيارته ليصفو وقته، وليكف عن السؤال عن أخبارهم، وعن الإصغاء إلى أراجيف البلد وما الناس مشغولون به، فإن جميع ذلك ينغرس في القلب حتى ينبعث في أثناء الصلاة، فوقوع الأخبار في السمع كوقوع البذر في الأرض، وليقنع باليسير من المعيشة، وإلا اضطره التوسع إلى مخالطة الناس.

وليكن صبوراً على ما يلقاه من أذى الناس، ولا يصغي إلى الثناء عليه بالعزلة، ولا القدح فيه بترك الخلطة، فإن ذلك يؤثر في القلب فيقف عن السير في طريق الآخرة.

وليكن له جليس صالح يستريح إليه ساعة عن كد المواظبة، ففي ذلك عون على بقية الساعات، ولا يتم الصبر في العزلة إلا بقطع الطمع عن الدنيا، ولا ينقطع إلا بقصر أمله، فيقدر أنه إذا إذا أصبح لا يمسي، وإذا أمسى لا يصبح، فيسهل عليه صبر يوم.

وليكن كثير الذكر للموت ووحدة القبر متى ضاق عليه قلبه من الوحدة، وليتحقق أن من لم يحصل في قلبه من ذكر الله ومعرفته ما يأنس به، لم يطق وحشة الوحدة بعد الموت، وأن من أنس بذكر الله ومعرفته لم يزل الموت أنسه، لأن الموت لا يهدم محل الأنس والمعرفة، كما قال الله تعالى في حق الشهداء: ﴿بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[آل عمران: ١٦٩] وكل متجرد لله في جهاد نفسه، فهو شهيد، كما ورد عن بعض الصحابة أنه قال: رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر[1].

---

(١) **منكر**: من حديث جابر، وهو من قول إبراهيم بن أبي عبلة أحد التابعين من أهل الشام، وانظر الضعيفة للألباني (٢٤٦٠).

كتاب، آداب السفر

السفر وسيلة إلى الخلاص من مهروب عنه، أو الوصول إلى مرغوب إليه.

والسفر سفران: سفر بظاهر البدن عن الوطن، وسفر بسير القلب عن أسفل سافلين إلى ملكوت السماوات، وهذا أشرف السفرين، فإن الواقف على الحالة التى نشأ عليها عقيب الولادة، الجامد على ما تلقفه بالتقليد من الآباء، لازم درجة القصور، قانع برتبة النقص، ومستبدل بمتسع الفضاء عرضه السماوات والأرض ظلمة السجن وضيق الحبس.

ولمْ أرَ فى عيوبِ النَّاسِ شيئاً ... كنَقْصِ القَادرينَ عَلَى التَّمامِ

إلا أن هذا السفر لما كان مقتحمه فى خطر خطير، اندرست مسالكه.

فأما سفر البدن: فهو أقسام، وله فوائد وآفات عظيمة، فإنه يضاهى النظر فى العزلة والمخالطة، وقد ذكرنا منهاج ذلك.

فالفوائد الباعثة عليه لا تخلو من هرب أو طلب، فالهرب إما من أمر له نكاية فى الأمور الدنيوية، كالطاعون إذا ظهر ببلد، أو كخوف فتنة أو خصومة، أو غلاء سعر.

وإما أمر له نكاية فى الدين، كمن ابتلى فى بلده بجاه أو مال أو اتساع أسباب، فصده عن التجرد لله تعالى، فيؤثر الغربة والخمول ويجتنب السعة والجاه، وكمن يُدعى إلى بدعة أو إلى ولاية عمل لا تحل مباشرته، فيطلب الفرار منه.

وأما المطلوب، فهو إما دنيوى كالمال والجاه، أو دينى كالعلم بأمور دينه، أو بأخلاقه فى نفسه، أو بآيات الله فى أرضه، وقلَّ مذكور بالعلم محصِّل من زمان الصحابة ﷺ إلى زماننا إلا وحصَّل العلم بالسفر وسافر لأجله.

وأما علمه بنفسه وأخلاقه، فذلك أيضاً مهم، فإن سلوك الآخرة لا يمكن سلوكها إلا بتحسين الخلق وتهذيبه، وإنما سمى السفر سفراً، لأنه يُسْفِر عن الأخلاق.

وفى الجملة: فالنفس فى الوطن لا تظهر خبائث أخلاقهم لاستئناسها بما يوافق طبعها من المألوفات المعهودة، فإذا حُمّلت وعثاء السفر، وصُرفت عن مألوفاتها المعتادة، وامتحنت بمشاق الغربة، انكشفت غوائلها، ووقع الوقوف على عيوبها.

وأما آيات الله فى أرضه، ففى مشاهدتها فوائد للمستبصر:

ففيها قطع متجاورات، وفيها الجبال والبرارى والقفار والبحار، وأنواع الحيوان والنبات، وما من شىء إلا وهو شاهد لله بالوحدانية، ومسبح بلسان ذلق لا يعرفه إلا من ألقى السمع وهو شهيد.

وإنما نعنى بالسمع: سمع الباطن، فبه يدرك نطق لسان الحال، وما من ذرة فى السموات والأرض إلا ولها أنواع شاهدات لله سبحانه بالوحدانية.

وقد ذكرنا أن من فوائد السفر الهرب من الولاية والجاه وكثرة العلائق، لأن الدين لا يتم إلا بقلب فارغ عن غير الله، ولا يتصور فراغ القلب من الدنيا عن مهمات الدنيا والحاجات الضرورية، ولكن يتصور تخفيفها وتقليلها، وقد نجا المخفون وهلك المثقلون، والمخف الذى ليست الدنيا أكبر همه.

فصل فى السفر المباح

ومن أقسام السفر أن يكون مباحاً، كسفر التفرج والتنزه، فأما السياحة فى الأرض لا لمقصود، ولا إلى مكان معروف، فإنه منهى عنه.

فقد روينا من حديث طاووس أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال: **«لا رهبانية، ولا تبتل، ولا سياحة فى الإسلام»**[1].

وقال الإمام أحمد بن حنبل: ما السياحة من الإسلام فى شىء، ولا من فعل النبيين، ولا الصالحين. ولأن السفر يشتت القلب، فلا ينبغى للمريد أن يسافر إلا فى طلب علم أو مشاهدة شيخ يقتدى به فى سيرته.

وللسفر آداب معروفة مذكورة فى مناسك الحج وغيرها.

من ذلك: أن يبدأ برد المظالم وقضاء الديون، وإعداد النفقة لمن تلزمه نفقته، ورد الودائع.

ومنها: أن يختار رفيقاً صالحاً، ويودع الأهل والأصدقاء.

---

(١) (لا رهبانية فى الإسلام) قال ابن حجر «كشف الخفاء» (٢/ ٥١٠): «لم أر بهذا اللفظ في حديث سعد بن أبى وقاص عند البيهقى (إن الله أبدلنا بالرهبانية الحنيفة السمحة)». والنهى عن التبتل ورد في حديث سعد بن هشام بن عامر قال: أتيت عائشة قلت: «فإنى أريد أن أتبتل. قالت: لا تفعل أما تقرأ ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ فقد تزوج رسول الله ﷺ وقد ولد له». أخرجه أحمد (٢٤٠٨٠).

ومنها: أن يصلى صلاة الاستخارة، وأن يكون سفره يوم الخميس بكرة.

ومنها: أن لا يمشى منفرداً، وأن يكون أكثر سيره بالليل، ولا يهمل الأذكار والأدعية إذا وصل منزلاً أو علا جبلاً أو هبط وادياً.

ومنها: أن يستصحب معه ما فيه مصلحته، كالسواك، والمشط، والمرآة، والمكحلة، ونحو ذلك.

فصل فيما لابد للمسافر منه

ينبغى له أن يتزود للدنيا والآخرة، أما زاد الدنيا، فالمطعم والمشرب وما يحتاج إليه.

ولا ينبغى أن يقول: أخرج متوكلاً فلا أحمل زاداً، فهذا جهل، فإن حَمْل الزاد لا يناقض التوكل.

وأما زاد الآخرة، فهو العلم الذى يحتاج إليه فى طهارته وصلاته وعبادته، وتعلم رخص السفر، كالقصر والجمع والفطر، ومدة مسح السفر على الخفين، والتيمم، والتنفل للماشى، وكل ذلك مذكور فى كتب الفقه بشروط.

ولابد للمسافر من معرفة ما يتجدد بسبب السفر، وهو علم القبلة والأوقات، فإن ذلك فى السفر آكد من الحضر.

ويستدل على القبلة بالنجوم والشمس والقمر والرياح والمياه والجبال والمجرة على ما هو مبين فى موضعه، ويعتبر الجبال بأن وجودها جميعها مستقبلة البيت.

وأما المجرة، فتكون أول الليل ممتدة على كتف المصلى اليسرى إلى القبلة، ثم يلتوى رأسها حتى تصير فى آخر الليل على كتفه اليمنى، وتسمى المجرة: سُرُج السماء.

وأما معرفة أوقات الصلوات الخمس، فلابد منها، ووقت الظهر يدخل بزوال الشمس، فلينصب المسافر عوداً مستقيماً، وليعلم علامات على رأس الظل، ولينظر، فإن رآه فى النقصان علم أنه لم يدخل وقت الظهر، فإذا أخذ فى الزيادة علم أنه قد زالت الشمس ودخل الوقت، وهو أول وقت الظهر، وآخره إذا صار ظل كل شىء مثله، ثم يدخل أول وقت العصر، وآخره إلى أن يصير ظل كل شىء مثليه.

وعن الإمام أحمد: أن آخره ما لم تصفر الشمس، ثم يذهب وقت الاختيار، ويبقى وقت الجواز إلى غروب الشمس، وباقى الأوقات معروفة، والله أعلم.

كتاب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

اعلم: أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر هو القطب الأعظم فى الدين، وهو المهم الذى بعث الله به النبيين، ولو طوى بساطه، لاضمحلت الديانة، وظهر الفساد، وخربت البلاد.

قال الله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (آل عمران: ١٠٤)، وفى هذه الآية بيان أنه فرض على الكفاية لا فرض عين، لأنه قال: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ﴾، ولم يقل: كونوا كلكم آمرين بالمعروف، فإذا قام به من يكفى سقط عن الباقين، واختص الفلاح بالقائمين المباشرين له. وفى القرآن العظيم آيات كثيرة فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

وعن النعمان بن بشير ﷺ قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: **«مثل القائم على حدود الله والواقع فيها والمداهن فيها، كمثل قوم ركبوا سفينة فأصاب بعضهم أسفلها وأوعرها وشرها، وأصاب بعضهم أعلاها، فكان الذين فى أسفلها إذا استقوا الماء مروا على من فوقهم فآذوهم، فقالوا: لو خرقنا فى نصيبنا خرقاً فاستقينا منه ولم نؤذ من فوقنا، فإن تركوهم وأمرهم هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا جميعاً»**[(١)].

فصل فى مراتب الإنكار وبعض ما ورد فيه

فقد جاء فى الحديث المشهور من رواية مسلم، أن النبى ﷺ قال: **«من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»**. [(٢)]

وفى حديث آخر: **«أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر»**[(٣)].

وفى حديث آخر: «إذا رأيت أمتى تهاب الظالم أن تقول له: إنك ظالم، فقد تودع منهم»[(٤)]

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخارى (٢٤٩٣) الشركة، وأحمد (١٧٨٩٧)، والترمذى (٢١٧٣) الفتن.

(٢) **صحيح**: أخرجه مسلم (٤٩) الإيمان، والترمذى (٢١٧٢)، والنسائى (٥٠٠٨)، وأبو داود (١١٤٠) عن أبى سعيد الخدرى.

(٣) **صحيح**: أخرجه الترمذى (٢١٧٤) الفتن، وابن ماجه (٤٠١١) الفتن، والنسائى (٤٢٠٩)، وأحمد (١٨٣٥١)، وأبو داود (٤٣٤٤)، وانظر الصحيحة للألبانى (٤٩١).

(٤) **ضعيف**: أخرجه أحمد (٦٤٨٥)، والحاكم (٤/٩٦)، من طريق أبى الزبير عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً. وقال الحاكم: «صحيح الإسناد» ووافقه الذهبى. وقال الألبانى: «أبا الزبير لم يسمع من ابن عمرو كما قال ابن معين وأبو حاتم». وقال: «فإنى أقطع بضعف هذا الإسناد والله أعلم»، وانظر الضعيفة (٥٧٧).

وقام أبو بكر ﷺ، فحمد الله تعالى وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس، إنكم تقرؤون هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ (المائدة:١٠٥)، وإنا سمعنا رسول الله صلي الله عليه وآله وسلم يقول: **«إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعذاب منه»**[١].

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: **«لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، أو ليسلطن الله شراركم على خياركم فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم»**[٢].

فصل فى أركانه وشروطه ودرجاته وآدابه ونحو ذلك

اعلم: أن أركان الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أربعة:

أحدها: أن يكون المنكر مكلفاً مسلماً قادراً، وهذا شرط لوجوب الإنكار.

فإن الصبى المميز، له إنكار المنكر، ويثاب على ذلك، لكن لا يجب عليه.

وأما عدالة المنكر، فاعتبرها قوم، وقالوا: ليس للفاسق أن يحتسب، وإنما استدلوا بقوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ (البقرة:٤٤) وليس لهم فى ذلك حجة.

واشترط قوم كون المنكر مأذوناً له من جهة الإمام أو الوالى، ولم يجيزوا لآحاد الرعية الحسبة، وهذا فاسد، لأن الآيات والأخبار عامة تدل على أن كل من رأى منكراً فسكت عنه عصى، فالتخصيص بإذن الإمام تحكم.

ومن العجب أن الروافض زادوا على هذا فقالوا: لا يجوز الأمر بالمعروف ما لم يخرج الإمام المعصوم، وهؤلاء أخس رتبة من أن يتكلموا، لكن جوابهم أن يقال لهم إذا جاؤوا إلى القاضى طالبين حقوقهم: نصرتكم أمر بالمعروف، واستخراج حقوقكم مَنْ يد من ظلمكم نهى عن المنكر، ولم يجئ زمان ذلك؛ لأن الإمام لم يخرج بعد.

فإن قيل: فى الأمر بالمعروف إثبات سلطة وولاية على المحكوم عليه، ولذلك لم يثبت للكافر على المسلم، مع كونه حقاً، فينبغى أن لا يثبت لآحاد الرعية إلا بتفويض من السلطان.

---

(١) **صحيح**: أخرجه الترمذى (٣٠٥٧)، وقال أبو عيسى: «حديث حسن صحيح، وقد رواه غير واحد عن إسماعيل ابن أبى خالد نحو هذا الحديث مرفوعاً وروى بعضهم عن إسماعيل، عن قيس، عن أبى بكر قوله ولم يرفعوه». وصححه الألبانى فى صحيح الترمذى.

(٢) **صحيح**: أخرجه الترمذى (٢١٦٩) عن عبد الله الأنصارى عن حذيفة بن اليمان عن النبى ﷺ وصححه الألبانى فى صحيح الترمذى.

قلنا: أما الكافر فممنوع من ذلك لما فيه من السلطة والعز، وأما آحاد المسلمين فيستحقون هذا العز بالدين والمعرفة.

واعلم أن الحسبة لها خمس مراتب:

الأولى: التعريف.

الثانية: الوعظ بالكلام اللطيف.

الثالثة: السب والتعنيف، ولسنا نعني بالسب الفحش، بل نقول له: يا جاهل يا أحمق، ألا تخاف من الله تعالى! ونحو ذلك.

والرابعة: المنع بالقهر، ككسر الملاهي وإراقة الخمر.

والخامسة: التخويف والتهديد بالضرب، أو مباشرة الضرب له حتى يمتنع عما هو عليه، فهذه المرتبة تحتاج إلى الإمام دون ما قبلها، لأنه ربما جر إلى فتنة.

واستمرار عادات السلف على الحسبة على الولاة قاطع بإجماعهم على الاستغناء عن التفويض.

فإن قيل: هل تثبت الحسبة للولد على الوالد، والعبد على السيد، والزوجة على الزوج، والرعية على الراعي؟

قلنا: أصل الولاية ثابت للكل، وقد رتبنا للحسبة خمس مراتب:

فللولد من ذلك الحسبة بالتعريف، ثم بالوعظ والنصح باللطف.

وله من الرتبة الخامسة: أن يكسر العود، ويريق الخمر، ونحو ذلك، وهذا الترتيب ينبغي أن يجري في العبد والزوجة.

وأما الرعية مع السلطان، فالأمر فيه أشد من الولد، فليس معه إلا التعريف والنصح.

شروط الحسبة

ويشترط كون المنكر قادراً على الإنكار، فأما العاجز، فليس عليه إنكار إلا بقلبه، ولا يقف سقوط الوجوب على العجز الحسي، بل يلتحق به خوف مكروه يناله، فذلك في معنى العجز.

وكذلك إذا علم أن إنكاره لا ينفع، فينقسم إلى أربعة أحوال:

أحدها: أن يعلم أن المنكر يزول بقوله أو فعله من غير مكروه يلحقه، فيجب عليه الإنكار.

الحالة الثانية: أن يعلم أن كلامه لا ينفع وأنه إن تكلم ضرب، فيرتفع الوجوب عنه.

الحالة الثالثة: أن يعلم أن إنكاره لا يفيد، لكنه لا يخاف مكروهاً، فلا يجب عليه الأمر لعدم الفائدة، لكن يستحب لإظهار شعائر الإسلام والتذكير بالدين.

الحالة الرابعة: أن يعلم أنه يصاب بمكروه، ولكن يبطل المنكر بفعله، مثل أن يكسر العود، ويريق الخمر، ويعلم أنه يضرب عقيب ذلك، فيرتفع الوجوب عنه، ويبقى مستحباً لقوله فى الحديث: «**أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر**».[1]

ولا خلاف أنه يجوز للمسلم الواحد أن يهجم على صفوف الكفار ويقاتل، وإن علم أنه يُقتل، لكن إن علم أنه لا نكاية له فى الكفار، كالأعمى يطرح نفسه على الصف، حرم ذلك، وكذلك لو رأى فاسقاً وحده وعنده قدح خمر وبيده سيف، وعلم أنه لو أنكر عليه لشرب الخمر لضرب عنقه، لم يَجُز له الإقدام على ذلك، لأن هذا لا يؤثر فى الدين أثراً يفديه بنفسه، وإنما يستحب له الإنكار إذا قدر على إبطال المنكر، وظهر لفعله فائدة، كمن يحمل فى صف الكفار ونحوه.

وإن علم المنكر أنه يضرب معه غيره من أصحابه، لم تجز له الحسبة، لأنه عجز عن دفع المنكر إلا بإفضائه إلى منكر آخر، وليس ذلك من القدرة فى شىء. ولسنا نعنى بالعلم فى هذه المواضيع إلا غلبة الظن، فمن غلب على ظنه أنه يصيبه مكروه، لم يجب عليه الإنكار، وإن غلب على ظنه أنه لا يصيبه مكروه وجب، ولا اعتبار بحالة الجبان، ولا بالشجاع المتهور، بل الاعتبار بالمعتدل الطبع، السليم المزاج. ونعنى بالمكروه: الضرب أو القتل، ، وكذلك نهب المال، والإشهار فى البلد مع تسويد الوجه، فأما السب والشتم، فليس بعذر فى السكوت، لأن الآمر بالمعروف يلقى ذلك فى الغالب.

الركن الثانى: أن يكون ما فيه الحسبة منكراً موجوداً فى الحال ظاهراً، فمعنى كونه منكراً أن يكون محذور الوقوع فى الشرع، والمنكر أعم من المعصية، إذ مَنْ رأى صبياً أو مجنوناً يشرب الخمر، فعليه أن يريق خمره ويمنعه، وكذلك لو رأى مجنوناً يزنى بمجنونة أو بهيمة، فعليه أن يمنعه.

وقولنا: موجوداً فى الحال، احتراز ممن شرب الخمر وفرغ من شربها، ونحو ذلك، فإن ذلك ليس إلى الآحاد، وفيه أيضاً احتراز عما سيوجد فى ثانى الحال، كمن يعلم بقرينة

---

(١) تقدم ص (١١٣).

حاله أنه عازم على الشرب الليلة، فلا حسبة عليه إلا بالوعظ.

وقولنا: ظاهراً، احتراز ممن تستر بالمعصية فى داره وأغلق بابه، فإنه لا يجوز أن يتجسس عليه، إلا أن يظهر ما يعرفه من هو خارج الدار، كأصوات المزامير والعيدان، فلمن سمع ذلك أن يدخل ويكسر الملاهى، فإن فاحت رائحة الخمر، فالأظهر جواز الإنكار.

ويشترط فى إنكار المنكر أن يكون معلوماً كونه منكراً بغير اجتهاد، فكل ما هو فى محل الاجتهاد، فلا حسبة فيه، فليس للحنفى أن ينكر على الشافعى أكله متروك التسمية، ولا للشافعى أن ينكر على الحنفى شربه يسير النبيذ الذى ليس بمسكر.

الركن الثالث: فى المنكر عليه، ويكفى فى صفته أن يكون إنساناً، ولا يشترط كونه مكلفاً كما بيّنا قبله من أنه ينكر على الصبى والمجنون.

الركن الرابع: نفس الاحتساب، وله درجات وآداب:

الدرجة الأولى: أن يعرف المنكر، فلا ينبغى له أن يسترق السمع على دار غيره ليسمع صوت الأوتار، ولا يتعرض للشم ليدرك رائحة الخمر، ولا أن يمس ما قد ستر بثوب ليعرف شكل المزمار، ولا أن يستخبر جيرانه ليخبروه بما يجرى، بل لو أخبره عدلان ابتداء أن فلاناً يشرب الخمر، فله إذ ذاك أن يدخل وينكر.

الدرجة الثانية: التعريف، فإن الجاهل يقدم على الشىء لا يظنه منكراً، فإذا عرف أقلع عنه، فيجب تعريفه باللطف، فيقال له: إن الإنسان لا يولد عالماً، ولقد كنا جاهلين بأمور الشرع حتى علّمنا العلماء، فلعل قريتك خالية من أهل العلم. فهكذا يتلطف به ليحصل التعريف من غير إيذاء. ومن اجتنب محذور السكوت عن المنكر، واستبدل عنه محذور الإيذاء للمسلم مع الاستغناء عنه، فقد غسل الدم بالبول.

الدرجة الثالثة: النهى بالوعظ والنصح والتخويف بالله، ويورد عليه الأخبار الواردة بالوعيد، ويحكى له سيرة السلف، ويكون ذلك بشفقة ولطف من غير عنف ولا غضب، وهاهنا آفة عظيمة ينبغى أن يتوقاها، وهو أن العالم يرى عند التعريف عز نفسه بالعلم، وذل غيره بالجهل.

ومثال ذلك: مثال من يخلّص غيره من النار بإحراق نفسه، وهو غاية الجهل، ومذلة عظيمة، وغرور من الشيطان، ولذلك محك ومعيار، فينبغى أن يمتحن به المحتسب نفسه، وهو أن يكون امتناع ذلك الإنسان عن المنكر بنفسه، أو باحتساب غيره عليه، أحب إليه من

امتناعه قال عنه باحتسابه، فإن كانت الحسبة شاقة عليه، ثقيلة على نفسه، وهو يود أن يكفى بغيره، فليحتسب، فإن باعثه هو الدين، وإن كان الأمر بالعكس، فهو متبع هوى نفسه، متوسل إلى إظهار جاهه بواسطة إنكاره، فليتق الله وليحتسب أولاً على نفسه.

وقيل لداود الطائى: أرأيت رجلاً دخل على هؤلاء الأمراء فأمرهم بالمعروف ونهاهم عن المنكر؟ قال: أخاف عليه السوط. قيل: هو يقوى على ذلك، قال: أخاف عليه السيف، قيل: هو يقوى على ذلك، قال: أخاف عليه الداء الدفين: العجب.

الدرجة الرابعة: السب والتعنيف بالقول الغليظ الخشن، وإنما يعدل إلى هذا عند العجز عن المنع باللطف، وظهور مبادئ الإصرار، والاستهزاء بالوعظ والنصح، ولسنا نعنى بالسب: الفحش والكذب، بل نقول له: يا فاسق، يا أحمق، ، يا جاهل، ألا تخاف الله، قال الله تعالى حكايةً عن إبراهيم عليه السلام: ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (الأنبياء: ٦٧).

الدرجة الخامسة: التغيير باليد، ككسر الملاهى، وإراقة الخمر، وإخراجه من الدار المغصوبة، وفى هذه الدرجة أدبان:

أحدهما: أن لا يباشر التغيير ما لم يعجز عن تكليف المنكر عليه ذلك، فإذا أمكنه أن يكلفه الخروج عن الأرض المغصوبة، فلا ينبغى أن يجره ولا يدفعه.

والثانى: أن يكسر الملاهى كسراً يبطل صلاحيتها للفساد، ولا يزيد على ذلك، ويتوقى فى إراقة الخمور كسر الأوانى إن وجد إليه سبيلاً، وإن لم يقدر إلا بأن يرمى ظروفها بحجر أو نحوه، فله ذلك، وتسقط قيمة الظروف، ولو ستر الخمر ببدنه، لكنا نقصد بدنه بالضرب ليتوصل إلى إراقة الخمر، ولو كانت الخمر فى قوارير ضيقة الرؤوس، بحيث أنه إذا اشتغل بإراقتها طال الزمان وأدركه الفساق فمنعوه، فله كسرها، فهذا عذر، وكذلك إن كان يضيع الزمان فى صبها، وتتعطل أشغاله، فله كسرها ولو لم يحذر من الفساق.

فإن قيل: فهل يجوز الكسر زجراً، وهل الجر بالرجل فى الإخراج من الدار المغصوبة زجراً؟

قلنا: إنما يجوز مثل ذلك للولاة، ولا يجوز لآحاد الرعية، لخفاء وجه الاجتهاد فيه.

الدرجة السادسة: التهديد والتخويف كقوله: دع عنك هذا وإلا فعلت بك كذا وكذا، وينبغى أن يقدم هذا على تحقيق الضرب إذا أمكن تقديمه.

والأدب فى هذه الرتبة أن لا يهدد بوعيد لا يجوز تحقيقه، كقوله: لأنهبن دارك،

ولأسبين زوجتك، لأنه إن قال ذلك عن عزم، فهو حرام، وإن قاله عن غير عزم، فهو كذب.

الدرجة السابعة: مباشرة الضرب باليد والرِّجل وغير ذلك مما ليس فيه إشهار سلاح، وذلك جائز للآحاد بشرط الضرورة والاقتصار على قدر الحاجة، فإذا اندفع المنكر فينبغى أن يكف.

الدرجة الثامنة: أن لا يقدر على الإنكار بنفسه ويحتاج إلى أعوان يشهرون السلاح، فإنه ربما يستمد الفاسق أيضاً بأعوانه ويؤدى إلى القتال، فالصحيح أن ذلك يحتاج إلى إذن الإمام، لأنه يؤدى إلى الفتن وهيجان الفساد.

وقيل: لا يشترط فى ذلك إذن الإمام.

فصل فى صفات المحتسب

وقد ذكرنا آداب المحتسب مفصلة، وجملتها ثلاث صفات فى المحتسب.

الأول: العلم بمواقع الحسبة وحدودها ومواقعها، ليقتصر على حد الشرع.

والثانى: الورع، فإنه قد يعلم شيئاً ولا يعمل به لغرض من الأغراض.

والثالث: حسن الخلق، وهو أصل ليتمكن من الكف، فإن الغضب إذا هاج لم يكفِ مجرد العلم والورع فى قمعه ما لم يكن فى الطبع خلق حسن.

قال بعض السلف: لا يأمر بالمعروف إلا رفيق فيما يأمر به، رفيق فيما ينهى عنه، حليم فيما يأمر به، حكيم فيما ينهى عنه، فقيه فيما يأمر به، فقيه فيما ينهى عنه.

ومن الآداب: تقليل العلائق، وقطع الطمع عن الخلق لتزول المداهنة، فقد حكى عن بعض السلف أنه كان له سنور، وكان يأخذ لسنوره فى كل يوم من قصاب فى جواره شيئاً من الغدد. فرأى على القصاب منكراً، فدخل الدار فأخرج السنور، ثم جاءه فأنكر على القصاب، فقال: لا أعطيك بعد هذا شيئاً لسنورك، فقال: ما أنكرت عليك إلا بعد إخراج السنور وقطع الطمع منك، وهذا صحيح، فإن لم يقطع الطمع من الناس من شيئين لم يقدر على الإنكار عليهم:

احدهما: من لطف ينالونه به.

والثانى: من رضاهم عنه وثنائهم عليه.

وأما الرفق فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فمتعين، قال الله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا﴾ (طه: ٤٤).

وروى أن أبا الدرداء رضي الله عنه مر على رجل قد أصاب ذنباً والناس يسبونه، فقال: أرأيتم لو وجدتموه فى قليب، ألم تكونوا مستخرجيه؟ قالوا: بلى، قال: فلا تسبوا أخاكم، واحمدوا الله الذى عافاكم. فقالوا: أفلا تبغضه؟ فقال: إنما أبغض عمله، فإذا تركه، فهو أخى.

ومر فتى يجر ثوبه، فهمَّ أصحاب صلة بن أشيم أن يأخذوه بألسنتهم أخذاً شديداً، فقال صلة: دعونى أكفكم أمره، ثم قال: يا بن أخى، إن لى إليك حاجة. قال: ما هى؟ قال: أحب أن ترفع إزارك، قال: نعم ونعمى عين فرفع إزاره، فقال صله لأصحابه: هذا كان أمثل مما أردتم، فإنكم لو شتمتوه وآذيتموه لشتمكم.

ودعى الحسن إلى عرس، فجيء بجام من فضة فيه خبيص، فتناوله وقلبه على رغيف، فأصاب منه، فقال رجل: هذا نهى فى سكون. والله أعلم.

باب فى المنكرات المألوفة فى العادات

وفى الإنكار على الأمراء والسلاطين، وأمرهم بالمعروف

ولنذكر فى ذلك فصلين:

الفصل الأول:

اعلم: أن المنكرات المألوفة فى العادات لا يمكن حصرها، لكنا نشير إلى جمل يستدل بها على أمثالها، فمن ذلك:

منكرات المساجد:

مما يشاهد كثيراً فى المساجد إساءة الصلاة بترك الطمأنينة فى الركوع والسجود، وكذلك كل ما يقدح فى صحة الصلاة، من نجاسة على ثوب المصلى لا يراها، أو انحراف عن القبلة بسبب عمى أو ظلام.

ومن ذلك: اللحن فى القراءة.

واشتغال المعتكف بإنكار هذه الأشياء وتعريفها أفضل له من نافلة يقتصر عليها.

ومن ذلك: تراسيل المؤذنين فى الأذان وتطويلهم مد كلماته.

ومن ذلك: أن يكون على الخطيب ثوب حرير أو بيده سيف مذهب.

ومن ذلك: ما يجرى من القصاص فى المساجد من الكذب، والأشياء المنهى عنها، كالخوض فى الكلام الموجب للفتن، ونحو ذلك.

ومن ذلك: أن يكون الرجال مختلطين بالنساء، فينبغى إنكار ذلك عليهم.

ومنها: الحِلَق يوم الجمعة لبيع الأدوية والأطعمة، والتعويذات، وقيام السُّؤَّال، وإنشادهم الأشعار، ونحو هذا. فهذه منها ما هو حرام، ومنها ما هو مكروه.

منكرات الأسواق:

ومن ذلك: الكذب فى المرابحة، وإخفاء العيب، فمن قال: اشتريت هذه السلعة بعشرة، وأربح فيها درهماً، وكان كاذباً، فهو فاسق.

ويجب على من عرف ذلك أن يخبر المشترى بكذبه، فإن سكت مراعاةً للبائع، كان شريكاً له فى الخيانة. وكذلك إذا علم العيب، لزمه أن يبينه للمشترى، وكذلك التفاوت فى الميزان والذراع، يجب على كل من عرفه تغييره، إما بنفسه، أو برفعه إلى الوالى حتى يغيره.

ومنها: الشروط الفاسدة، واستعمال الربا،وبيع الملاهى، والصور المجسمة، ونحو ذلك.

منكرات الشوارع:

ومن ذلك: بناء دكان متصلة بالأبنية المملوكة، وإخراج الأجنحة، وغرس الأشجار إذا كان ذلك يؤدى إلى تضييق الطريق والإضرار بالمارة. فأما وضع الحطب والطعام فى الطريق بمقدار ما ينقل إلى البيوت فجائز، فإن ذلك يشترك الكافة فى الحاجة إليه.

ومن المنكرات: ربط الدواب على الطريق بحيث تضيق وتؤذى الناس، فيجب المنع من ذلك، إلا إذا كان بمقدار الحاجة للنزول والركوب.

ومن ذلك: تحميل الدواب من الأحمال ما لا تطيق، وكذلك طرح الكناسة على جواد الطريق، وتبديد قشور البطيخ، أو رش الماء بحيث يخشى منه الزلق، والماء الذى يجتمع على الطريق من ميزاب معين فعلى صاحبه -على الخصوص- كسح الطريق. فأما إن كان من المطر، فذلك حسبة عامة فعلى الولاة تكليف الناس القيام بها، وليس لآحاد الناس فى ذلك إلا الوعظ.

منكرات الحمامات:

من ذلك: صور الحيوانات على باب الحمام أو داخله، ويكفى فى زوال ذلك أن تشوه وجوه الصور، بحيث يبطل به تصويرها، ومن لم يقدر على الإنكار، لم يجز له الدخول إلا للضرورة، وليعدل إلى حمام آخر.

ومن ذلك: كشف العورات، والنظر إليها، وكشف المدلك عن الفخذ، وما تحت السرة، لتنحية الوسخ أو مس العورة.

ومنها غمس اليد والأوانى النجسة فى المياه القليلة، فإن فعل ذلك مالكى، لم ينكر عليه، بل يتلطف به، ويقول له: يمكنك أن لا تؤذينى بتفويت الطهارة علىَّ.

منكرات الضيافة:

من ذلك: فرش الحرير للرجال، والبخور فى مجمرة فضة أو ذهب، والشرب فيهما، واستعمال ماء الورد منهما، وكذلك تعليق الستور وفيها الصور، وسماع القينات والأوتار، واطلاع النساء على الشباب الذين تخاف فتنتهم، فكل ذلك منكر يجب تغييره، ومن عجز عن تغييره لزمه الخروج.

وأما الصور على النمارق والبسط، فليس بمنكر، وكذلك الفرش الحرير، والذهب للنساء فإنه جائز، ولا رخصة فى تثقيب آذان الصبية لأجل تعليق حلق الذهب، فإن ذلك جرح مؤلم لا يجوز، وفى المخانق والأسورة كفاية عن ذلك، والاستئجار على ذلك غير صحيح، والأجرة المأخوذة عليه حرام.

ومن ذلك أن يكون فى الضيافة مبتدع يتكلم فى بدعته، فلا يجوز الحضور معه إلا لمن يقدر على الرد عليه، وإن لم يتكلم المبتدع جاز الحضور مع إظهار الكراهة له والإعراض عنه، وإن كان هناك مضحك بالفحش والكذب، لم يجز الحضور، وعند الحضور يجب الإنكار، فإن كان ذلك مزحاً لا كذب فيه ولا فحش، أبيح ما يَقلّ من ذلك، فأما اتخاذه صناعة وعادة فيمنع منه.

المنكرات العامة:

من تيقن أن فى السوق منكراً يجرى على الدوام، أو فى وقت معين وهو قادر على تغييره، لم يجز له أن يسقط ذلك عنه بالقعود فى بيته، بل يلزمه الخروج، فإن قدر على تغيير البعض لزمه. وحق على كل مسلم أن يبدأ بنفسه، فيصلحها بالمواظبة على الفرائض، وترك المحرمات، ثم يعلم ذلك أهله وأقاربه، ثم يتعدى إلى جيرانه وأهل محلته، ثم إلى أهل بلده، ثم إلى السواد كذلك إلى أقصى العالم، فإن قام بذلك الأقرب، سقط عن الأبعد، وإلا خرج به كل قادر عليه.

الفصل الثانى: فى أمر الأمراء والسلاطين بالمعروف ونهيهم عن المنكر

وقد ذكرنا درجات الأمر بالمعروف، والجائز من ذلك مع السلاطين القسمان الأولان، وهما: التعريف والوعظ، فأما تخشين القول، نحو: يا ظالم، يا من لا يخاف الله، فإن كان ذلك يحرك فتنة يتعدى شرها إلى الغير، لم يجز، وإن لم يخف إلا على نفسه، فهو جائز عند جمهور العلماء، والذى أراه المنع من ذلك، لأن المقصود إزالة المنكر، وحمل السلطان بالانبساط عليه على فعل المنكر أكبر من المنكر الذى قصد إزالته، وذلك أن قوت السلاطين التعظيم، فإن سمعوا من آحاد الرعية: يا ظالم، يا فاسق، رأوا غاية الذل، فلم يصبروا على ذلك.

قال الإمام أحمد رحمه الله: لا تتعرضن بالسلطان، فإن سيفه مسلول، فأما ما جرى من السلف من التعرض لأمرائهم، فإنهم كانوا يهابون العلماء، فإذا انبسطوا عليهم احتملوهم فى الأغلب.

وقد جمعت مواعظ السلف للخلفاء والأمراء فى كتاب «المصباح المضىء» وأنا أنتخب منه هاهنا حكايات:

• قال سعيد بن عامر لعمر بن الخطاب ﷺ: إنى موصيك بكلمات من جوامع الإسلام ومعالمه: اخشَ الله فى الناس، ولا تخشَ الناس فى الله، ولا يخالف قولك فعلك، فإن خير القول ما صدّقه الفعل، وأحبَّ لقريب المسلمين وبعيدهم ما تحب لنفسك وأهل بيتك، وخُضْ الغمرات إلى الحق حيث علمته، ولا تخفْ فى الله لومة لائم. قال: ومن يستطع ذلك يا أبا سعيد؟ قال: من ركب فى عنقه مثل الذى ركب فى عنقك.

• وقال قتادة: خرج عمر بن الخطاب ﷺ من المسجد ومعه الجارود، فإذا امرأة برزة على الطريق، فسلم عليها، فردت عليه، أو سلمت عليه، فرد السلام عليها، فقالت: هيه يا عمر، عهدتك وأنت تسمى عميراً فى سوق عكاظ تصارع الصبيان، فلم تذهب الأيام حتى سميت عمر، ثم لم تذهب الأيام حتى سميت أمير المؤمنين. فاتقِ الله فى الرعية، واعلم أنه من خاف الموت خشى الفوت، فبكى عمر ﷺ، فقال الجارود: هيه، لقد تجرأتِ على أمير المؤمنين وأبكيتيه.

فقال عمر: دعها، أما تعرف هذه؟ هى خولة بنت حكيم التى سمع الله قولها من فوق سماواته، فعمر -والله- أحرى أن يسمع كلامها.

• ودخل شيخ من الأزد على معاوية، فقال: اتقِ الله يا معاوية، واعلم أنك كل يوم يخرج عنك، وفى كل ليلة تأتى عليك لا تزداد من الدنيا إلا بُعداً، ومن الآخرة إلا قرباً، وعلى أثرك طالب لا تفوته، وقد نصب لك علم لا تجوزه، فما أسرع ما تبلغ العلم، وما أوشك أن يلحقك الطالب، وإنا وما نحن فيه وأنت زائل، والذى نحن صائرون إليه باقٍ، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

• ودخل سليمان بن عبد الملك الأموى المدينة، فأقام بها ثلاثاً، فقال: ما ها هنا رجل ممن أدرك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يحدثنا؟

فقيل له: هاهنا رجل يقال له: أبو حازم، فبعث إليه، فجاء.

فقال سليمان: يا أبا حازم، ما هذا الجفاء؟ فقال له أبو حازم: وأى جفاء رأيت منى؟ فقال له: أتانى وجوه المدينة كلهم ولم تأتنى؟! فقال: ما جرى بينى وبينك معرفة آتيك عليها. قال: صدق الشيخ، يا أبا حازم، ما لنا نكره الموت؟ قال: لأنكم عمرتم دنياكم وخربتم آخرتكم، فأنتم تكرهون أن تنتقلوا من العمران إلى الخراب. قال: صدقت يا أبا حازم، فكيف القدوم على الله تعالى؟ قال: أما المحسن فكالغائب يقدم على أهله فرحاً مسروراً، وأما المسىء فكالآبق يقدم على مولاه خائفاً محزوناً. فبكى سليمان وقال: ليت شعرى، ما لنا عند الله يا أبا حازم؟ فقال أبو حازم: اعرض نفسك على كتاب الله، فإنك تعلم ما لك عند الله. قال: يا أبا حازم، وأنى أصيب تلك المعرفة من كتاب الله؟ قال: عند قوله: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ (الانفطار: ١٣-١٤) قال: يا أبا حازم، فأين رحمة الله؟ قال: ﴿قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (الأعراف: ٥٦). قال: يا أبا حازم، من أعقل الناس؟ قال: من تعلَّم الحكمة وعلمها الناس. قال: فمن أحمق الناس؟ قال: من حط نفسه فى هوى رجل وهو ظالم، فباع آخرته بدنيا غيره. قال: يا أبا حازم، فما أسمع الدعاء؟ قال: دعاء المخبتين. قال: فما أزكى الصدقة؟ قال: جهد المقل.

قال: يا أبا حازم، ما تقول فيما نحن فيه؟ قال: اعفنى من هذا. قال سليمان: نصيحة تلقيها. قال أبو حازم: إن ناساً أخذوا هذا الأمر عنوة من غير مشاورة للمسلمين، ولا إجماع من رأيهم، فسفكوا فيه الدماء على طلب الدنيا، ثم ارتحلوا عنها، فليت شعرى، ما قالوا؟ وما قيل لهم؟ فقال بعض جلسائه: بئس ما قلت يا شيخ، فقال أبو حازم: كذبت، إن الله أخذ ميثاق العلماء ليبيننه للناس ولا يكتمونه. قال سليمان: يا أبا حازم، أصحبنا

تصيب منا ونصيب منك. قال: أعوذ بالله من ذلك. قال: ولم؟ قال: أخاف أن أركن إليكم شيئاً قليلاً، فيذيقنى ضعف الحياة، وضعف الممات. قال فأشر علىَّ. قال: اتقِ الله أن يراك حيث نهاك، أو يفقدك حيث أمرك.

قال: يا أبا حازم، ادعُ لنا بخير. فقال: اللهم إن كان سليمان وليك فيسّره للخير، وإن كان غير ذلك، فخذ إلى الخير بناصيته. فقال سليمان: يا غلام، هات مائة دينار، ثم قال: خذ هذا يا أبا حازم. قال: لا حاجة لى به، لى ولغيرى فى هذا المال أسوة، فإن سويت بيننا وإلا فلا حاجة لى فيه، إنى أخاف أن يكون لما سمعت من كلامى. فكأن سليمان أعجب بأبى حازم، فقال الزهرى: إنه لجارى منذ ثلاثين سنة، ما كلمته قط، فقال أبو حازم: إنك نسيت الله فنسيتنى. قال الزهرى: أتشتمنى؟ قال سليمان: بل أنت شتمت نفسك، أما علمت أن للجار على الجار حقاً؟ قال أبو حازم: إن بنى إسرائيل لما كانوا على الصواب كانت الأمراء تحتاج إلى العلماء، وكانت العلماء تفر بدينها منهم، فلما رأى ذلك قوم من أذلة الناس تعلموا ذلك العلم، وأتوا به الأمراء، واجتمع القوم على المعصية، فسقطوا وانتكسوا، ولو كان العلماء يصونون دينهم وعلمهم، لم تزل الأمراء تهابهم. قال الزهرى: كأنك إياى تريد وبى تعرِّض؟ قال: هو ما تسمع.

• وحكى أن أعرابياً دخل على سليمان بن عبد الملك، فقال: يا أمير المؤمنين، إنى مكلمك بكلام فاحتمله وإن كرهته، فإن وراءه ما تحب إن قبلته. قال: قل، قال: يا أمير المؤمنين إنه قد اكتنفك رجال قد ابتاعوا دنياك بدينهم، ورضاك بسخط ربهم، خافوك فى الله ولم يخافوه فيك، خربوا الآخرة وعمروا الدنيا، فهم حرب للآخرة، سلم للدنيا، فلا تأمنهم على ما ائتمنك الله عليه، فإنهم لم يألوا الأمانة تضييعاً والأمة خسفاً، وأنت مسؤول عما اجترحوا، وليسوا بمسؤولين عما اجترحت، فلا تصلح دنياهم بفساد آخرتك، فإن أعظم الناس غبناً بائع آخرته بدنيا غيره. فقال سليمان: أما أنت فقد سللت لسانك، وهو أقطع من سيفك. فقال: أجل يا أمير المؤمنين، لك لا عليك. قال: فهل من حاجة فى ذات نفسك؟ قال: أما خاصة دون عامة فلا، ثم قام فخرج. فقال سليمان: لله دره ما أشرف أصله، وأجمع قلبه، وأذرب لسانه، وأصدق نيته، وأورع نفسه، هكذا فليكن الشرف والعقل.

• وقيل: وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله لأبى حازم: عظنى. فقال: اضطجع ثم اجعل الموت عند رأسك، ثم انظر ما تحب أن يكون فيك تلك الساعة فخذ فيه الآن، وما تكره أن يكون فيك تلك الساعة فدعه الآن.

● وقال محمد بن كعب لعمر بن عبد العزيز: يا أمير المؤمنين، إنما الدنيا سوق من الأسواق، منها خرج الناس بما يضرهم وما ينفعهم، وكم من قوم غرهم منها مثل الذى أصبحنا فيه، حتى أتاهم الموت، فاستوعبهم فخرجوا منها ملومين لم يأخذوا منها لما أحبوا من الآخرة عدة، ولا لما كرهوا منها جنة، واقتسم ما جمعوا من لم يحمدهم، وصاروا إلى من لا يعذرهم، فنحن محقوقون يا أمير المؤمنين أن ننظر إلى تلك الأعمال التى نغبطهم بها فنخلفهم فيها، وإلى الأعمال التى نتخوف عليهم فيها فنكف عنها، فاتق الله، وافتح الأبواب، وسهّل الحجاب، وانصر المظلوم، ورد الظالم. ثلاث من كن فيه استكمل الإيمان بالله عز وجل: إذا رضى لم يدخله رضاه فى الباطل، وإذا غضب لم يخرجه غضبه من الحق، وإذا قدر لم يتناول ما ليس له.

● ودخل عطاء بن أبى رباح على هشام بن عبد الملك الأموى، فرحب به وسهّل، وقال: ما حاجتك يا أبا محمد؟ وكان عنده أشراف الناس يتحدثون، فسكتوا، فذكره عطاء بأرزاق أهل الحرمين وأعطياتهم. فقال: نعم، يا غلام اكتب لأهل المدينة وأهل مكة بعطاء أرزاقهم، ثم قال: يا أبا محمد هل من حاجة غيرها؟ فقال: نعم: فذكره بأهل الحجاز، وأهل نجد، وأهل الثغور، ففعل مثل ذلك، حتى ذكره بأهل الذمة أن لا يكلفوا ما لا يطيقون، فأجابه إلى ذلك، ثم قال له بعد ذلك: هل من حاجة غيرها؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، اتق الله فى نفسك، فإنك خلقت وحدك، وتموت وحدك، وتحشر وحدك، وتحاسب وحدك، لا والله ما معك ممن ترى أحد.

قال: فأكب هشام يبكى، وقام عطاء. فلما كان عند الباب إذا رجل قد تبعه بكيس ما ندرى ما فيه، أدراهم أم دنانير؟ وقال: إن أمير المؤمنين قد أمر لك بهذا، فقال: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الشعراء: ١٢٧) ثم خرج ولا والله ما شرب عندهم حسوة ماء فما فوقها.

● وعن محمد بن علىّ قال: إنى لحاضر مجلس أبى جعفر المنصور، وفيه ابن أبى ذئب، وكان والى المدينة الحسن بن زيد، فأتى الغفاريون فشكوا إلى أبى جعفر المنصور شيئاً من أمر الحسن بن زيد، فقال الحسن: يا أمير المؤمنين، سل عنهم ابن أبى ذئب. قال: فسأله عنهم، فقال: أشهد أنهم أهل تحطم فى أعراض الناس. فقال أبو جعفر: قد سمعتم؟ فقال الغفاريون: يا أمير المؤمنين، فسله عن الحسن بن زيد. فسأله، فقال: أشهد أنه يحكم بغير الحق. فقال: قد سمعت يا حسن. قال: يا أمير المؤمنين، سله عن نفسك. فقال: ما تقول فىَّ؟ قال: أو يعفينى أمير المؤمنين؟ فقال: والله لتخبرنى. فقال: أشهد أنك أخذت هذا المال من غير حقه، وجعلته فى غير أهله. فوضع يده فى قفا ابن أبى ذئب، وجعل يقول له: أما

والله لولا أنا لأخذتْ أبناء فارس والروم والديلم والترك بهذا المكان منك. فقال ابن أبى ذئب: قد ولى أبو بكر وعمر فأخذا بالحق وقسما بالسوية، وأخذا بأقفاء فارس والروم، فخلاه أبو جعفر، وقال: والله لولا أنى أعلم أنك صادق لقتلتك. فقال: والله يا أمير المؤمنين إنى أنصح لك من ابنك المهدى.

● وعن الأوزاعى رحمه الله قال: بعث إلىَّ المنصور وأنا بالساحل فأتيته، فلما وصلت إليه وسلمت عليه استجلسنى، ثم قال: ما الذى أبطأ بك يا أوزاعى؟

قلت: وما الذى تريد يا أمير المؤمنين؟ قال: أريد الأخذ عنكم والاقتباس منكم.

قلت: فانظر يا أمير المؤمنين أن تسمع شيئاً ثم لا تعمل به، فصاح بى الربيع، وأهوى بيده إلى السيف، فانتهره المنصور، وقال: هذا مجلس مثوبة لا مجلس عقوبة، فطابت نفسى وانبسطت فى الكلام، فقلت: يا أمير المؤمنين، حدثنى مكحول عن عطية بن بسر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أيما والٍ مات غاشاً لرعيته حرم الله عليه الجنة»[1].

يا أمير المؤمنين، كنت فى شغل شاغل من خاصة نفسك عن عامة الناس الذين أصبحت تملكهم: أحمرهم، وأسودهم، ومسلمهم، وكافرهم، وكل له عليك نصيب من العدل، فكيف بك إذا انبعث منهم فئام وراء فئام، ليس منهم أحد إلا وهو يشكو بلية أدخلتها عليه، أو ظلامة سقتها إليه.

يا أمير المؤمنين، حدثنى مكحول الشامى عن زياد بن جارية، عن حبيب بن مسلمة، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم دعا إلى القصاص من نفسه -فى خدشٍ خدشه- أعرابياً لم يتعمده، فأتاه جبريل فقال: يا محمد إن الله تعالى لم يبعثك جباراً ومتكبراً، فدعا صلى الله عليه وآله وسلم الأعرابى، فقال: «اقتص منى»، فقال الأعرابى: قد أحللتك، بأبى أنت وأمى، وما كنت لأفعل ذلك أبداً ولو أتيت على نفسى. فدعا له بخير.

يا أمير المؤمنين، رُض نفسك لنفسك، وخذ لها الأمان من ربك.

يا أمير المؤمنين، إن الملك لو بقى لمن قبلك لم يصل إليك، وكذلك لا يبقى لك كما لم يبقَ لغيرك.

---

(١) **صحيح**: أخرجه ابن أبي الدنيا في مواعظ الخلفاء، كما قال العراقي في تخريج الإحياء: صحيح. خرجه الألباني عن معقل بن يسار كما في الصحيحة (٢٦٣١).

يا أميـر المؤمنين، جاء في تأويل هـذه الآية عن جدك: ﴿مَا لِهَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾(الكهف:٤٩) قال: الصغيرة: التبسم، والكبـيرة: الضحك، فكيف بما عملته الأيدى، وحصدته الألسن.

يا أميـر المؤمنين، بلغنى أن عـمر بن الخطاب ﷺ قـال: لو ماتت سخلة عـلى شاطئ الفرات ضيعة، لخشيت أن أسأل عنها، فكيف بمن حرم عدلك وهو على بساطك؟

يا أمير المؤمنين، جـاء فى تأويل هذه الآية عن جدك: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ﴾(ص:٢٦) قال: إذا قعد الخصـمان بين يديك، وكان لك فى أحدهما هوى، فلا تتمنين فى نفسك أن يكون الحـق له، فيفلج على صاحبه، فأمحوك من نبوتى، ثم لا تكون خـليفتى، يا داود: إنما جعلت رسلى إلى عبـادى رعاء كرعاء الإبل لعلمهم بالرعاية، ورفقهم بالسياسة، ليجبروا الكسير، ويدلوا الهزيل على الكلأ والماء.

يا أمير المؤمنين، إنك قد بليت بأمـر لو عرض على السموات والأرض والجبال لأبين أن يحملنه وأشفقن منه.

يا أمير المؤمـنين، حدثنى يزيد بن جابـر عن عبد الرحمن بن أبى عـمرة الأنصارى: أن عمر بن الخطاب ﷺ استعمل رجلاً من الأنصار على الـصدقة، فرآه بعد أيام مقيماً، فقال له: ما منعك من الخروج إلى عملك؟ أما علمت أن لك مثل أجر المجاهدين فى سبيل الله؟ قال: لا. قـال: وكيف ذلك؟ قال: لأنه بـلغنى أن رسول اللـه صلى الله عليـه وآله وسلم قال: «ما من وال يلـى شيئاً من أمور الناس، إلا أتى يـوم القيامة مغلولـة يداه إلى عنقه لا يفكها إلا عدله، يوقف علـى جسر جهنم، ينتفض به ذلك الجسر انتـفاضة تزيل كل عضو منه عن موضعه، ثم يعاد فيحاسب، فإن كان محسناً نجا بإحسانه، وإن كان مسيئاً انخرق به ذلك الجسر فهوى به فى النار سبعين خريفاً»(1). فقال له: ممن سمعت هذا؟ فقال: من أبى ذر وسلمان ﷺ، فأرسل إليهما عمر فسألهـما، فقالا: نعم، سمعناه من رسول الله صلى الله عليـه وآله وسلم. فقال عـمر: واعمراه من يتـولاها بما فيها؟ فـقال أبو ذر ﷺ: من سلت الله أنفه، وألصق خده بالأرض. فأخذ المنديل -يـعنى المنصور- فوضعه على وجهه، ثم بكى وانتحب حتى أبكانى.

---

(١) **ضعيف**: انظر نحوه عن بشر بن عاصم فى «الطبرانى الكبير» (١٢١٩)، ونحوه عند ابن عساكر، كما فى تخريج السيوطى للجامع، وانظر الضعيفة (٢٢٦٩) للألبانى.

ثم قلت: يا أمير المؤمنين، قد سأل جدك العباس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إمارة على مكة أو الطائف أو اليمن، فقال له النبى صلى الله عليه وآله وسلم: **«يا عم، نفس تنجيها خير من إمارة لا تحصيها»**[1] نصيحة منه لعمه وشفقة منه عليه، وأخبره أنه لا يغنى عنه من الله شيئاً إذ أوحى إليه: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾[الشعراء: ٢١٤] فقال: **«يا عباس، ويا صفية، ويا فاطمة، إنى لست أغنى عنكم من الله شيئاً، لى عملى ولكم عملكم»**[2]، وقد قال عمر ابن الخطاب: «لا يقيم أمر الناس إلا حصيف العقل، لا تأخذه فى الله لومة لائم»، وذكر تمام كلامه للمنصور، ثم قال: فهى نصيحة، والسلام عليك.

ثم نهض فقال: إلى أين؟ فقال: إلى الوطن بإذن أمير المؤمنين. فقال: أذنت لك، وشكرت لك نصيحتك، وقبلتها بقبولها، والله الموفق للخير، والمعين عليه، وبه أستعين، وعليه أتوكل، وهو حسبى ونعم الوكيل، فلا تخلنى من مطالعتك إياى بمثلها، فإنك المقبول القول غير المتهم فى النصيحة.

قلت: أفعل إن شاء الله. قال محمد بن مصعب فأمر له بمال يستعين به على خروجه، فلم يقبله، وقال: أنا فى غنى عنه، وما كنت لأبيع نصيحتى بعرض الدنيا كلها، وعرف المنصور مذهبه فلم يجد عليه فى رده.

ولما حج الرشيد قيل له: يا أمير المؤمنين، قد حج شيبان. قال: اطلبوه لى، فأتوه به، فقال: يا شيبان، عظنى، قال: يا أمير المؤمنين، أنا رجل ألكن، لا أفصح بالعربية، فجئنى بمن يفهم كلامى حتى أكلمه. فأتى برجل يفهم كلامه، فقال له بالنبطية: قل له: يا أمير المؤمنين، إن الذى يخوفك قبل أن تبلغ المأمن، أنصح لك من الذى يؤمنك قبل أن تبلغ الخوف، قال له: أى شىء تفسير هذا؟ قال له: يا أمير المؤمنين الذى يقول لك: اتق الله فإنك رجل مسؤول عن هذه الأمة، استرعاك الله عليها، وقلدك أمورها، وأنت مسؤول عنها، فاعدل فى الرعية، واقسم بالسوية، وانفذ فى السرية، واتق الله فى نفسك، هذا الذى يخوفك، فإذا بلغت المأمن أمنت، هذا أنصح لك ممن يقول: أنتم أهل بيت مغفور لكم، وأنتم قرابة نبيكم وفى شفاعته، فلا يزال يؤمنك حتى إذا بلغت الخوف عطبت، قال: فبكى هارون حتى رحمه من حوله، ثم قال: زدنى، قال: حسبك.

(١) **ضعيف**: أخرجه ابن أبي الدنيا في «مواعظ الخلفاء» معضلاً بغير إسناد، ورواه البيهقي من حديث جابر متصلاً، ومن رواية ابن المنكدر مرسلاً، وقال: هذا هو المحفوظ مرسلاً، انظر «المغنى عن حمل الأسفار».

(٢) **صحيح**: أخرجه البخارى (٤٧٧١) تفسير القرآن، ومسلم (٢٠٦) الإيمان عن أبي هريرة ﷺ.

• وعن علقمة بن مرثد، قال: لما قدم عـمر بن هبيرة العراق، أرسل إلى الحسن وإلى الشعبى، فـأمر لهما ببيت، فـكانا فيه نحواً من شهـر، ثم دخل عليهما وجلـس معظماً لهما، فقال: إن أمـير المؤمنين يزيد بن عبد الملك يكتب إلىَّ كتـباً، أعرف أن فى إنفاذها الهلكة، فـإن أطعته عصيت الـله، وإن عصيته أطعت الـله، فهل تريان فى متـابعتى إياه فرجاً؟ فـقال الحسن: يا أبا عمـرو، أجب الأمير، فتكـلم الشعبى، فانـحط فى أمر ابن هبيرة، كأنه عذره، فقال: ما تقول أنت يا أبا سعـيد؟ قال: أيها الأمير، فقد قال الشعبى ما قد سمـعت. فقال: ما تقول أنت؟ قـال: أقول: يا عمر بن هبـيرة، ويوشك أن ينزل بك ملك من مـلائكة الله تعالى فظ غـليظ لا يعصى الله مـا أمره، فيخرجك مـن سعة قصرك إلى ضيق قبرك.

يا عمر بن هبيـرة، إن تتقِ الله يعصمك من يزيد بن عبد الملـك، ولن يعصمك يزيد بن عبد الملك من الله تعالى.

يا عمر بن هبيـرة، لا تأمن أن ينظر الله إليك على أقبح ما تعـمل فى طاعة يزيد بن عبد الملك، فيغلق به باب المغفرة دونك.

يا عمر بن هـبيرة، لقد أدركت ناساً من صـدر هذه الأمة، كانوا عن الدنيا وهـى مقبلة عليهم أشد إدباراً من إقبالكم عليها وهى مدبرة عنكم.

يا عمر بن هبيرة، إنى أخوّفك مقاماً خوّفكه الله تعالى فقال: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ (إبراهيم: ١٤).

يا عمر بن هـبيرة، إن تكُ مع الله فى طاعـته، كفاك يزيد بن عبـد الملك، وإن تكُ مع يزيد بن عبد الملك على معاصى الله، وكَّلك الله إليه. فبكى عمر بن هبيرة وقام بعبرته.

فلما كان من الغد أرسل إليهما بإذنهما وجوائزهما، وأكثر فيها للحسن، وكان فى جائزة الشعبى بعض الإقتار، فخرج الشعبى إلى المسجد، فقال: أيها الناس، مَنْ استطاع منكم أن يؤثر الله تعالى على خلقه، فليفعل، فوالذى نفسـى بيده، ما علم الحسن شيئاً منه فجهلته، ولكنى أردت وجه ابن هبيرة، فأقصانى الله منه.

• ودخل محمد بن واسع -رحمه الله- على بلال بن أبى بردة فى يوم حار وبلال فى حبشه، وعنده الثلج، فقال له: يا أبا عبد الله، كيف ترى بيتنا هذا؟ قال: إن بيتك لطيب، والجنة أطيب منه، وذكر النار يلهى عنه. قال: ما تقول فى القدر؟ قال: جيرانك أهل القبور، ففكر فيهم، فإن فيهم شغلاً عن القدر. قال: ادعُ الله لى. قال: وما تصنع بدعائى؟ وعلى بابك كذا وكذا يقولون: إنك ظلمتهم، يرفع دعاؤهم قبل دعائى، لا تظلم، فلا تحتاج لدعائى.

فهذا مختصر من أخبار من وعظ الأمراء، فمن أراد الزيادة، فلينظر فى «المصباح المضىء».

وهذه كانت سير العلماء وعاداتهم فى الأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، وقلة مبالاتهم بسطوات السلاطين؛ إيثاراً لإقامة حق الله تعالى على تقاتهم، إلا أن السلاطين كانوا يعرفون حق العلم وفضله فيصبرون على بعض هؤلاء المواعظ.

والذى أراه الآن، الهرب من السلاطين، فهو الأولى، فإن قدر لقاء، اقتنع بلطف الموعظة فحسب.

ولذلك سببان:

أحدهما: يتعلق بالواعظ، وهو سوء قصده وميله إلى الدنيا والرياء، فلا يخلص له وعظه.

والثانى: يتعلق بالموعوظ، فإن حب الدنيا قد شغل الأكثرين عن ذكر الآخرة، وتعظيمهم الدنيا أنساهم تعظيم العلماء، وليس لمؤمن أن يذل نفسه.

آخر كتاب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وذكر المصنف قبل ذلك كتاباً فى السماع والوَجد، فلنذكر شيئاً منه هاهنا مختصراً.

كتاب السماع والوجد

اعلم: أن السماع الذى نعنى به الغناء من أكبر ما تطرق به إبليس إلى فساد القلوب، وغر به خلقاً لا يحصون من العلماء والزهاد، فضلاً عن العوام، حتى ادعوا حضور القلب مع الله عند سماع الأغانى المطربة، وظنوا أن ما أوجبه السماع من طرب القلوب وانزعاجها، وجد يتعلق بالآخرة.

وإذا أردت أن تعرف الحق، فانظر فى القرن الأول، هل فعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شيئاً من ذلك أو أصحابه، ثم انظر إلى أقوال التابعين وتابعيهم، وفقهاء الأمة: كمالك، وأبى حنيفة، والشافعى، وأحمد رحمهم الله، فكلهم ذموا الغناء، حتى قال مالك: إذا اشترى جارية، فوجدها مغنية، كان له ردها، وسئل عن الغناء، قال: إنما يفعله عندنا الفساق.

وسئل الإمام أحمد عن رجل مات وخلف ولداً وجارية مغنية، فاحتاج الصبى إلى بيعها، فقال: تباع على أنها ساذجة لا مغنية، فقيل له: إنها تساوى ثلاثين ألفاً إذا كانت مغنية، وإذا بيعت ساذجة ربما ساوت عشرين ديناراً، فقال: لا تباع إلا على أنها ساذجة وقد أطبق الفقهاء على الزجر عن الغناء.

ومن المتأخرين أبو الطيب الطبرى من كبار أصحاب الشافعى، وصنف كتاباً، وبالغ فى النهى عنه، وإنما تعلق بإباحته قوم مفتونون، قالوا: قد أجازه قوم من السلف.

وقد سمع أحمد بن حنبل قول قوّال، فقال: لا بأس بهذا، فينبغى أن يتأمل الذى أفتى بجوازه ما هو، وليس إلا الأشعار الزهدية وما يشبهها، من غير ضرب بقضيب، أو آلة تطرب، ولا ضمٌّ إلى ذلك تصفيق ولا رقص.

وعلى هذا يحمل حديث عائشة فى الجاريتين المغنيتين لما غنتا بما تقاولته الأنصار يوم بعاث[1] فإن ذلك لا يطرب.

ومعلوم أنه لم يكن للأوائل ما أحدثه الأواخر من الدف والصنج والشبابة والشعر

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (٩٥٠) الجمعة، ومسلم (٨٩٢) صلاة العيدين.

الرقيق، فإن هذه الأشياء تثير دفائن الهوى الكامنة فى النفوس وتزعج، فيحسب الجاهل هذا الانزعاج معلقاً بالآخرة، وهيهات.

ولَيْتَهم قالوا: إن هذا مـباح من اللهو فنستريح إليه، وإنما يظنونـه قربة، ويسمون الطرب المخرج عن حد العقل وجداً، وربما أوجد الطرب مـا لا يحل، من تمزيق الثياب، والتخبط، وكل هذا بمعزل عن طريق السلف، وغير خافٍ أنه ضلال عن الجادة، فلا ينبغى للإنسان أن يغالط نفسه، وإنما الوجـد الصحيح وجد القلب عند سماع القرآن العظـيم والوعظ، فحينئذ يثور من البـاطن خوف من الوعيد، وشوق مـن الوعد، وندم على التفريـط، وجميع هذه الحركات الباطنة توجب سكون الظاهر، لا الجمز والتصفيق، ولم يضيق علينا القرآن والوعظ وأشعـار الزهد، حـتى نحتـاج فى إحضـار القلوب إلى بـاب الله تعـالى أن نذكر سـلمى وسعدى، ولا ننكر أنه قـد يتفق فى بعض تلك الأشعار مـا يصلح أن يوجد إشارة، إلا أن الأغلب منها إمالة القلوب إلى الهوى الدنيوى.

ومثل من أراد أن يـأخذ منها للآخـرة، كمثل من قال: أنـا أنظر إلى الأمرد المستـحسن لأتعجب من صنعة القـادر، فإنه قد أخطأ الطريق، لأن ما تستلبه الشـهوة والطبع عند النظر يكدر طريق الفكر ويشغل عنه، فلذلك نمنعه ونـقول: انظر إلى ما لا مكدر فيه قوله تعالى: ﴿ **أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا** ﴾(ق: ٦). ومن قال: إنه لا يؤثر عندى ما يؤثر عند غيـرى من انجذاب الطبع إلى الهـوى، كان مدعياً ما يـخالف الجبلة، فلا يـلتفت إلى دعواه، وقد بـالغت فى الكشف عن هذا كـله فى كتابى المسـمى بـ«تلبيس إبـليس» فلم أر التطويل هاهنا، والله أعلم. وصلى الله على سـيد الأولين والآخرين وحبيب رب العالمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

كتاب آداب المعيشة وأخلاق النبوة

اعلم: أن آداب الظواهر عنوان آداب البواطن، وحركات الجوارح ثمرات الخواطر، والأعمال نتائج الأخلاق، والآداب رشح المعارف، وسرائر القلوب هى مغارس الأفعال ومنابعها، وأنوار السرائر هى التى تشرق على الظواهر فتزينها وتحليها.

ومن لم يخشع قلبه لم تخشع جوارحه، ومن لم يكن صدره مشكاة الأنوار الإلهية، لم يَفُض على ظاهره جمال الآداب النبوية.

وقد أسلفنا جملة من الآداب بما يغنى عن إعادتها هاهنا، لكن نقتصر فى هذا الباب على شيء من آداب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأخلاقه؛ لنجمع مع جمع الآداب تأكيد الإيمان بمشاهدة أخلاقه الكريمة التى يشهد آحادها بأنه أكرم الخلق وأعلاهم رتبة وأجلهم قدراً، فكيف بمجموعها؟

سئلت عائشة رضي الله عنها عن خلق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقالت: كان خلقه القرآن[1]، يغضب لغضبه ويرضى لرضاه، ولما كمل الله تعالى خلقه أثنى عليه فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم: ٤)، فسبحان مَنْ أعطى ثم أثنى.

وهذه جملة من محاسن أخلاقه صلى الله عليه وآله وسلم، وصفته:

كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أحلم الناس، وأعطف الناس، وأسخى الناس.

وكان يخصف النعل، ويرقع الثوب، ويخدم فى مهنة أهله.

وكان أشد حياء من العذراء فى خدرها.

وكان يجيب دعوة المملوك، ويعود المرضى، ويمشى وحده، ويردف خلفه، ويقبل الهدية، ويأكلها، ويكافئ عليها، ولا يأكل الصدقة، ولا يجد من الدّقل ما يملأ بطنه، ولم يشبع من خبز بر ثلاثة أيام متواليات.

وكان يعصب على بطنه الحجر من الجوع.

وكان يأكل ما حضر، وما عاب طعاماً قط.

---

(١) أخرجه أحمد (٢٤٠٨٠) وأبو داود (١٣٤٢) عن عائشة رضي الله عنها، وصححه الألبانى.

وكان لا يأكل متكئاً، ويأكل مما يليه.

وكان أحب الطعام إليه اللحم، ومن الشاة الكتف، ومن البقول الدباء، ومن الصباغ الخل، ومن التمر العجوة.

وكان يلبس ما وجد، مرة برد حبرة يمانية ومرة جبة صوف.

ويركب تارة بعيراً، وتارة بغلة، وتارة حماراً، ويمشى مرة راجلاً حافياً.

وكان يحب الطيب، ويكره الريح الخبيثة.

ويكرم أهل الفضل، ويتألف أهل الشرف.

ولا يجفو على أحد، ويقبل معذرة المعتذر إليه.

يمزح ولا يقول إلا حقاً، يضحك فى غير قهقة، لا يمضى عليه وقت فى غير عمل لله تعالى، أو فيما لابد منه من صلاح نفسه.

وما لعن امرأة ولا خادماً قط.

وما ضرب أحداً بيده قط، إلا أن يجاهد فى سبيل الله.

وما انتقم لنفسه إلا أن تنتهك حرمات الله.

وما خُيِّر بين شيئين إلا اختار أيسرهما، إلا أن يكون مأثماً أو قطيعة رحم، فيكون أبعد الناس منه.

وقال أنس ﷺ: خدمتُه عشر سنين، فما قال لى: أف قط، ولا قال لشىء فعلته: لم فعلته، ولا لشىء لم أفعله: ألا فعلت كذا؟

ومن صفته فى التوراة: محمد رسول الله، عبدى المختار، ليس بفظ، ولا غليظ، ولا صخاب فى الأسواق، ولا يجازى بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح.

وكان من خلقه أن يبدأ بالسلام من لقيه، ومن فارقه بحاجة صابره حتى يكون هو المنصرف. وما أخذ أحد يده فأرسل يده حتى يرسلها الآخذ.

وكان يجلس حيث ينتهى به المجلس مختلطاً بأصحابه كأنه أحدهم، فيأتى الغريب فلا يدرى أيهم هو حتى يسأل عنه.

وكان طويل السكوت، فإذا تكلم لم يسرد كلامه، بل يتثبت فيه ويكرره ليفهم.

وكان يعفو مع القدرة، ولا يواجه أحداً بما يكره.

وكان أصدق الناس لهجة، وأوفاهم ذمة، وأليـنهم عريكة، وأكرمهم عشرة، ومن رآه بديهة هابه، ومن خالطه معرفة أحبه، وكان أصحابه إذا تكلموا فى أمر الدنيا تحدث معهم، وكانوا يتذاكرون أمر الجاهلية فيضحكون ويبتسم صلى الله عليه وآله وسلم.

وكان أشجع الناس، قال بعض أصحابه: كنا إذا احمرت الحدق، واشتد البأس اتقينا برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولم يكن بالطويل البائن ولا بالقصير، كان ربعة من القوم. وكان أزهر اللون ولم يكن بالآدم. وكان رجل الشعر، ليس بالسبط ولا الجعد القطط، وكان شعره إلى شحمة أذنه.

وكان واسع الجبهة، أزج الحواجب، أدعج العينين، أهدب الأشفار، أقنى العرنين، سهل الخدين، كث اللحية، كأن عنقه جيد دمية، عريض الصدر، سواء البطن والصدر، رحب الراحة، طويل الزندين، كفه ألين من الحرير صلى الله عليه وآله وسلم.

وأما معجزاته صلى الله عليه وآله وسلم:

فإن من شاهد أحواله وسمع أخباره المشتملة على أخلاقه وأفعاله وآدابه وبدائع تدبيره لمصالح الخلق ومحاسن إشارته فى تفصيل ظاهر الشرع الذى تعجز العقلاء والفصحاء عن إدراك أوائل دقائقها فى طول أعمارهم، لم يبق عنده ريب فى أن ذلك لم يكن محتسباً بحيلة، وأنه لا يتصور ذلك إلا بالاستمداد من تأييد سماوى وقوة إلهية، وإن ذلك لا يصح للبس ولا كذاب، بل كانت شمائله وأحواله شواهد قاطعة بصدقه.

ومن أعظم معجزاته، وأوضح دلالته: القرآن العزيز، الذى عجز الخلائق عن الإتيان بمثله، ومعجز كل نبى انقضى بذهابه، وهذا المعجز باق أبداً.

ومن معجزاته: انشقاق القمر، ونبع الماء من بين أصابعه، وإطعام الخلق الكثير من الطعام اليسير، ورميه بحصيات يسيرة فوصلت إلى أعين الخلق الكثير، وحنين الجذع إليه كما يحن العشار، وإخباره بالمغيبات فكانت كما قال، ورد عين قتادة بيده فكانت أحسن عينيه، وتفل فى عين علىّ عليه السلام وهو أرمد فصح من وقته، إلى غير ذلك من المعجزات التى شاعت ولم يوجد سبيل إلى كتمانها، نسأل الله أن يوفقنا للاقتداء بأخلاقه وصفاته، إنه كريم مجيب، والله أعلم، والحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد بن عبد الله وآله الطيبين الطاهرين وسلم. هذا آخر الربع الثانى.

الربـع الثـالـث: ربـع المهلكـات

كتاب شـرح عجـائـب القلـوب

اعلم: أن أشرف ما فى الإنسان قلـبه، فإنه العالم بالله، العامل له، الـساعى إليه، المقرب المكاشف، بما عنده، وإنما الجوارح أتباع، وخدم له، يستخدمها القلب استخدام الملوك للعبيد.

ومن عرف قلبـه عرف ربه، وأكثر الناس جاهلـون بقلوبهم ونفوسهم، والـله يحول بين المرء وقلبه، وحـيلولته أن يمنعه من مـعرفته ومراقبتـه فمعرفة القلب وصـفاته أصل الدين، وأساس طريق السالكين.

فصل فى مداخل إبليس فى قلب الإنسان

اعلم: أن القلب بأصل فطرته قابل للهدى، وبما وضع فيه من الشهوة والهوى، مائل عن ذلك، والتطـارد فيه بين جنـد الملائكة والشيـاطين دائم، إلى أن ينـفتح القلب لأحـدهما، فيتـمكن، ويستوطن، ويكـون اجتياز الثانى اخـتلاساً، كما قـال تعالى: ﴿مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾ (الناس:٤)، وهو الذى إذا ذُكر الله خنس، وإذا وقعت الغفلة انبسط، ولا يطرد جند الشياطين من القلب إلا ذكر الله تعالى، فإنه لا قرار له مع الذكر.

واعلم: أن مثل القلب كمثل حصن، والشيطان عدو يريد أن يدخل الحصن، ويملكه ويستولى عليه، ولا يمكن حفظ الحصن إلا بحراسة أبوابه، ولا يقدر على حراسة أبوابه مَنْ لا يعرفها، ولا يتوصل إلى دفع الشيطان إلا بمعرفة مداخله، ومداخل الشيطان وأبوابه صفات العبد، وهى كثيرة، إلا أنا نشير إلى الأبواب العظيمة الجارية مَجْرى الدروب التى لا تضيق عن كثرة جنود الشيطان.

فمن أبوابه العظيمة: الحسد، والحـرص، فمتى كان العـبد حريصاً على شـىء، أعماه حرصه وأصمه، وغطى نور بصيرته التى يعرف بها مداخل الشيطان.

وكذلك إذا كان حسـوداً، فيجد الشيطان حينـئذ الفرصة، فيحسّن عـند الحريص كل ما يوصله إلى شهوته، وإن كان منكراً أو فاحشاً.

ومن أبوابه العظيمة: الغضب، والشهوة، والحدة، فإن الغضب غَوْل العقل، وإذا ضعف جند العقل هجم حـينئذ جند الشيطان فلعب بالإنسان. وقـد روى أن إبليس يقول: إذا كان العبد حديداً، قلبناه كما يقلب الصبيان الكرة.

ومن أبوابه: حب التزيين في المنزل والثياب والأثاث، فلا يزال يدعو إلى عمارة الدار وتزيين سقوفها وحيطانها، والتزين بالثياب، والأثاث، فيخسر الإنسان طول عمره في ذلك.

ومن أبوابه: الشبع، فإنه يقوى الشهوة، ويثقل الطاعة.

ومنها: الطمع في الناس، فإن من طمع في شخص، بالغ بالثناء عليه بما ليس فيه، وداهنه، ولم يأمره بالمعروف، ولم ينهه عن المنكر.

ومن أبوابه: العجلة، وترك التثبت، وقد قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: **«العجلة من الشيطان، والتأني من الله تعالى»**.[1]

ومن أبوابه: حب المال، ومتى تمكن من القلب أفسده، وحمله على طلب المال من غير وجهه، وأحوجه إلى البخل، وخوّفه الفقر، فمنع الحقوق اللازمة.

ومن أبوابه: حمل العوام على التعصب في المذاهب، دون العمل بمقتضاها.

ومن أبوابه أيضاً: حمل العوام على التفكير في ذات الله تعالى، وصفاته، وفي أمور لا تبلغها عقولهم حتى يشككهم في أصل الدين.

ومن أبوابه: سوء الظن بالمسلمين، فإن من حكم على مسلم بسوء ظنه احتقره وأطلق فيه لسانه ورأى نفسه خيراً منه، وإنما يتوشح سوء الظن بخبث الظان، لأن المؤمن يطلب المعاذير للمؤمن، والمنافق يبحث عن عيوبه.

وينبغي للإنسان أن الاحتراز عن مواقف التهم، لئلا يساء به الظن، فهذا طرف من ذكر مداخل الشيطان، وعلاج هذه الآفات سد المداخل بتطهير القلب من الصفات المذمومة، وسيأتي الكلام على هذه الصفات إن شاء الله تعالى مفصلاً.

إذا قُلعت من القلب أصول هذه الصفات، بقي للشيطان بالقلب خطرات واجتيازات من غير استقرار، فيمنعه من ذلك ذكر الله تعالى، وعمارة القلب بالتقوى.

ومثل الشيطان كمثل كلب جائع يقرب منك، فإن لم يكن بين يديك لحم وخبز، فإنه

---

(١) **ضعيف**: أخرجه الترمذي (٢٠١٢) البر والصلة، من طريق عبد المهيمن بن عباس بن سهل بن سعد الساعدي، عن أبيه، عن جده، قال: قال رسول الله ﷺ ... الحديث. وقال أبو عيسى: هذا حديث غريب. وقد تكلم بعض أهل العلم في عبد المهيمن بن عباس بن سهل، وضعفه من قبل حفظه، والأشج بن عبد القيس اسمهُ: المنذر بن عائذ، والحديث ضعفه الألباني في ضعيف الترمذي.

ينزجر بأن تقول له: اخسأ، وإن كان بين يديك شيء من ذلك وهو جائع، لم يندفع عنك بمجرد الكلام، فكذلك القلب الخالى عن قوت الشيطان ينزجر عنه بمجرد الذكر.

فأما القلب الذى غلب عليه الهوى، فإنه يدفع الذكر إلى حواشيه، فلا يتمكن الذكر من سويداء قلبه، فيستقر الشيطان فى السويداء.

وإذا أردت مصداق ذلك، فتأمل هذا فى صلاتك، وانظر إلى الشيطان كيف يحدِّث قلبك فى مثل ذلك الموطن، بذكر السوق، وحساب المعاملين، وتدبير أمر الدنيا.

واعلم: أنه قد عفى عن حديث النفس، ويدخل فى ذلك ما هممت به، ومن ترك ذلك خوفاً من الله تعالى وندم على همه كتبت له حسنة، وإن تركه لعائق، رجونا له المسامحة، إلا أن يكون عزماً، فإن العزم على الخطيئة خطيئة، بدليل قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**إذا التقى المسلمان بسيفهما فالقاتل والمقتول فى النار**» قيل: فما بال المقتول؟ قال: «**إنه كان حريصاً على قتل صاحبه**»[1]. وكيف لا تقع المؤاخذة بالعزم، والأعمال بالنيات، وهل الكبر والرياء والعجب إلا أمور باطنة؟ ولو أن إنساناً رأى على فراشه أجنبية، ظنها زوجته لم يأثم بوطئها، ولو رأى زوجته، وظنها أجنبية أثم بوطئها، وكل هذا متعلق بعقد القلب.

فصل فى ثبات القلوب على الخير

وقد ورد الحديث أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم كان كثيراً ما يدعو ويقول: «**يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك**»[2]، «**يا مصرف القلوب اصرف قلوبنا إلى طاعتك**».[3]

وفى حديث آخر: «**مثل القلب كمثل ريشة بأرض فلاة تقلبها الرياح**»[4].

واعلم: أن القلوب فى الثبات على الخير والشر والتردد بينهما ثلاثة:

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخارى (٣١) الإيمان، ومسلم (٢٨٨٨) عن الأحنف بن قيس عن أبى بكرة ﷺ.

(٢) **صحيح**: أخرجه الترمذى (٢١٤٠)، وأحمد (١١٦٩٧) وعن أنس، (٣٥٣٢) عن أم سلمة، وابن ماجه (١٩٩)، وأحمد (١٧١٧٨) عن النواس بن سمعان.

(٣) **صحيح**: أخرجه مسلم (٢٦٥٤) القدر، وأحمد (٦٥٣٣) عن عبد الله بن عمرو.

(٤) **صحيح لغيره**: أخرجه ابن ماجه (٨٨)، و«السنة» لابن أبى عاصم (٢٢٨)، وإسناده ثقات غير يزيد الرقاشى، واسمه يزيد بن أبان وهو ضعيف، وأخرجه ابن أبى عاصم (٢٢٧) عن يزيد بن هارون، عن الجريرى، عن غنيم ابن قيس عن أبى موسى، وإسناده صحيح، رجاله كلهم ثقات على شرط مسلم. وبه يصح الحديث. وانظر للألبانى: «ظلال الجنة فى تخريج السنة».

القلب الأول: قلب عُمّـر بالتقوى، وزُكّى بالـرياضة، وطُهّر عن خبـائث الأخلاق، فتقدح فيه خواطر الخير من خزائن الغيب، فعند ذلك يمده بجنود لا ترى، ويهديه إلى خيرات أخرى.

القلب الثانى: قلب مـخذول، مشحـون بالهوى، مندس بـالخبائث، ملـوث بالأخلاق الذميمـة، فيقوى فيه سـلطان الشيطان لاتساع مـكانه، ويضعف سلطان الإيمـان، ويمتلئ القلب بدخان الهوى، فيعدم النور، ويصير كالـعين الممتلئة بالدخان، لا يمكنها النظر، ولا يؤثر عنده زجر ولا وعظ.

والقلب الثالث: قلب يبتدئ فيه خاطر الهوى، فيدعوه إلى الشر، فيلحقه خاطر الإيمان، فيدعوه إلى الخير.

مثـالـه: أن يحمل الشيطـان حملة على العقل، ويقوى داعى الهـوى ويقول: أما ترى فلاناً وفلاناً كيف يطلقون أنفسهم فى هواها، حتى يعد جماعة من العلماء، فتميل النفس إلى الشـيطان، فيحـمل الملك حمـلة على الشيـطان، ويقول: هل هلـك إلا من نسى العاقبة، فلا تغتر بغفلة الناس عن أنفسهم، أرأيت لو وقفوا فى الصيف فى الشمس ولك بيت بارد، أكنت توافقهـم أم تطلب المصلحة؟ أفتخالفهم فى حر الـشمس، ولا تخالفهم فيما يـؤول إلى النار؟ فتميل النـفس إلى قول الملك، ويقع التردد بـين الجندين، إلى أن يغلب على القلب مـا هو أولى به، فمن خُلق للخير يُسّر له، ومن خُـلق للشر يُسّر له: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ (الأنعام: ١٢٥). اللهم وفقنا لمـا تحبه وترضاه والله أعلم، وصلى الله عـلى محمد خير الأنبياء والمرسلين، أحمده بحمده.

كتاب رياضة النفس وتهذيب الخُلُق ومعالجة أمراض القلب

اعلم: أن الخلق الحسن صفة الأنبياء والصِّدِّيقين، وأن الأخلاق السيئة سموم قاتلة، تنخرط بصاحبها فى سلك الشيطان، وأمراض تفوت حياة الأبد، فينبغى أن تعرف العلل ثم التشمير فى معالجتها، ونحن نشير إلى جمل من الأمراض، وكيفية معالجتها فى الجملة من غير تفصيل، فإن ذلك يأتى مبيناً إن شاء الله تعالى.

وذلك فى فصول:

الفصل الأول: فى فضيلة حسن الخُلُق وذم سوء الخُلُق

وقد ذُكر شيء من ذلك فى آداب الصحبة.

واعلم: أن الناس قد تكلموا فى حسن الخلق متعرضين لثمرته لا لحقيقته، ولم يستوعبوا جميع ثمراته، بل ذكر كل منهم ما يسّره الله أن يذكره، وكشف الحقيقة فى ذلك أن يقال: كثيراً ما يستعمل حسن الخَلق مع الخُلق، فيقال: فلان حسن الخَلق والخُلق. أى حسن الظاهر والباطن، فالمراد بالخَلق الصورة الظاهرة، والمراد بالخُلق: الصورة الباطنة، وذلك أن الإنسان مركب من جسد ونفس. فالجسد مدرك بالبصر، والنفس مدركة بالبصيرة، ولكل واحدة منهما هيئة وصورة، إما جميلة أو قبيحة، والنفس المدركة بالبصيرة أعلم قدراً وأعظم قدراً من الجسد المدرك بالبصر، ولذلك عظم الله سبحانه وتعالى أمره فإنه أضافه إلى نفسه فقال: ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾(ص: ٧١-٧٢)، فنبه على أن الجسد منسوب إلى الطين، والروح منسوب إليه سبحانه وتعالى، فالخُلق عبارة عن هيئة للنفس راسخة تصدر عنها الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية، فإن كانت الأفعال جميلة سميت خلقاً حسناً، وإن كانت قبيحة سميت خلقاً سيئاً.

وقد زعم بعض من غلبت عليه البطالة فاستثقل الرياضة، أن الأخلاق لا يتصور تغييرها، كما لا يتصور تغيير صورة الظاهر.

والجواب: أنه لو كانت الأخلاق لا تقبل التغيير لم يكن للمواعظ والوصايا معنى، وكيف تنكر تغيير الأخلاق ونحن نرى الصيد الوحشى يُستأنس، والكلب يُعلَّم ترك أكل الصيد، والفرس تُعلَّم حسن المشى وجودة الانقياد، إلا أن بعض الطباع سريعة القبول للصلاح، وبعضها مستصعبة.

وأما خيال من اعتقد أن ما فى الجبلَّة لا يتغير، فاعلم أنه ليس المقصود قمع هذه الصفات بالكلية، وإنما المطلوب من الرياضة رد الشهوة إلى الاعتدال الذى هو وسط بين الإفراط والتفريط، وأما قمعها بالكلية فلا، كيف والشهوة إنما خلقت لفائدة ضرورية فى الجبلّة، ولو انقطعت شهوة الطعام لهلك الإنسان. أو شهوة الوقاع لانقطع النسل، ولو انعدم الغضب بالكلية، لم يدفع الإنسان عن نفسه ما يهلكه. وقد قال الله تعالى: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ﴾ (الفتح: ٢٩) ولا تصدر الشدة إلا عن الغضب، ولو بطل الغضب لامتنع جهاد الكفار، وقال تعالى: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾ (آل عمران: ١٣٤)، ولم يقل الفاقدين الغيظ.

وكذلك المطلوب فى شهوة الطعام الاعتدال دون الشره والتقلل، قال الله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا﴾ (الاعراف: ٣١) إلا أن الشيخ المرشد للمريد إذا رأى له ميلاً إلى الغضب والشهوة، حسن أن يبالغ فى ذمهما على الإطلاق ليرده إلى التوسط، ومما يدل على أن المراد من الرياضة الاعتدال أن السخاء خلق مطلوب شرعاً، وهو وسط بين طرفى التقتير والتبذير وقد أثنى الله عليه بقوله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ (الفرقان: ٦٧).

وقد عرفت أن حسن الخلق يرجع إلى اعتدال قوة العقل واعتدال قوة الغضب والشهوة.

واعلم: أن هذا الاعتدال: تارة يحصل بكمال الفطرة منحة من الخلق، فكم من صبى يخلق صادقاً سخياً حليماً، وتارة يحصل بالاكتساب، وذلك بالرياضة، وهى حمل النفس على الأعمال الجالبة للخُلُق المطلوب، فمن أراد تحصيل خلق الجود، فليتكلف فعل الجواد من البذل ليصير ذلك طبعاً له.

وكذلك من أراد التواضع تكلف أفعال المتواضعين، وكذلك جميع الأخلاق المحمودة فإن للعادة أثراً فى ذلك، كما أن من أراد أن يكون كاتباً تعاطى فعل الكتابة، أو فقهياً تعاطى فعل الفقهاء من التكرار، حتى ينعطف على قلبه صفة الفقه، إلا أنه لا ينبغى أن يطلب تأثير ذلك فى يومين أو ثلاثة، وإنما يؤثر مع الدوام، كما لا يطلب فى النمو علو القامة فى يومين أو ثلاثة، وللدوام تأثير عظيم.

وكما لا ينبغى أن يستهان بقليل الطاعات، فإن دوامها يؤثر، وكذلك لا يستهان بقليل الذنوب.

وكما أن تعاطى أسباب الفضائل يؤثر فى النفس، ويغير طبعها، فكذلك مساكنة الكسل أيضاً يصير عادة، فيحرم بسببه كل خير. وقد تكتسب الأخلاق الحسنة بمصاحبة أهل الخير، فإن الطبع لص يسرق الخير والشر.

قلت: ويؤيد ذلك قوله صلى الـله عليه وآله وسلم: «**المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل**».[1]

الفصل الثاني: في بيان الطريق إلى تهذيب الأخلاق

قد عرفت أن الاعـتدال في الأخلاق هو الصحـة في النفس، والميل عن الاعـتدال سقم ومرض، فاعلـم أن مثال النفس في عـلاجها كالبدن فـي علاجه، فكما أن البـدن لا يخلق كاملاً، وإنما يكمل بالتـربية بالغذاء، كذلك النفس تخلق ناقصة قـابلة للكمال، وإنما تكمل بالتزكية وتهذيب الأخلاق، والتغذية بالعلم.

وكما أن البدن إذا كان صحيحاً، فشأن الطبيب العمل على حفظ الصحة، وإن كان مريضاً، فشأنه جلب الصحة إلـيه، كذلك النفس إذا كانت زكية طاهرة مهذبة الأخـلاق، فينبغي أن يسعى لحفظها وجلب مزيد القوة إليها، وإن كانت عديمة الكمال، فينبغي أن يسعى بجلب ذلك إليها.

وكما أن العلة الموجبة لمرض البدن لا تعـالج إلا بضدها، إن كانت من حرارة فبالبرودة، وإن كانت مـن البرودة فبـالحرارة، فكذلـك الأخلاق الرذيلة الـتي هي من مرض الـقلب، علاجهـا بضدها، فيـعالج مرض الجهل بـالعلم، ومرض البـخل بالسخاء، ومـرض الكبر بالتواضع، ومرض الشره بالكف عن المشتهى.

وكما أنـه لابد من احتمال مـرارة الدواء، وشدة الصبر عـن المشتهيـات لصلاح الأبدان المريضة، فكذلك لابد مـن احتمال مرارة المجاهدة، والصبر علـى مداواة مرض القلب، بل أولى، فإن مرض البدن يخلص منه بالموت، ومرض القلب عذاب يدوم بعد الموت أبداً.

وينبغي للذي يطب نفوس المريدين أن لا يهجم عليهم بالرياضة في فن مخصوص، حتى يعرف أخلاقهم وأمراضهم، إذ ليس علاج كل المرضى واحداً، فإذا رأى جاهلاً بالشرع علّمه أولاً الطهارة والصلاة والعـبادة، وإذا رأى متكبراً حمله على ما يـوجب التواضع، أو شديد الغضب ألزمه الحلم.

وأشد حاجة الرائض لنفـسه، قوة العزم، فمتى كان متردداً بُعـد فلاحه، ومتى أحس من نفسه ضعف العـزم تصبر، فإن نقصت عزيمتهـا عاقبها لئلا تعاود، كمـا قال رجل لنفسه: تتكلمين فيما لا يعنيك؟ لأعاقبنك بصوم سنة.

---

(١) سبق تخريجه ص (٩١).

الفصل الثالث: فى علامات مرض القلب وعوده إلى الصحة وبيان الطريق إلى معرفة الإنسان عيوب نفسه

اعلم: أن كل عضو خُلِق لفعل خاص، فعلامة مرضه أن يتعذر عليه ذلك الفعل، أو يصدر منه مع نوع من الاضطراب، فمرض اليد تعذّر البطش، ومرض العين تعذّر الإبصار، ومرض القلب أن يتعذر عليه فعله الخاص به الذى خُلِق لأجله، وهو العلم والحكمة والمعرفة، وحب الله تعالى وعبادته، وإيثار ذلك على كل شهوة.

فلو أن الإنسان عرف كل شىء ولم يعرف الله سبحانه وتعالى، كان كأنه لم يعرف شيئاً.

وعلامة المعرفة: الحب، فمن عرف الله أحبه، وعلامة المحبة أن لا يُؤثِر عليه شيئاً من المحبوبات، فمن عنده شىء أحب إليه من الله تعالى فقلبه مريض، كما أن المعدة التى تؤثر أكل الطين على أكل الخبز -وقد سقطت عنها شهوة الخبز- مريضة.

ومرض القلب خفى قد لا يعرفه صاحبه، فلذلك يغفل عنه، وإن عرفه صعب عليه الصبر على مرارة دوائه، لأن دواءه مخالفة الهوى، وهو نزع الروح، وإن وجد الصبر لم يجد طبيباً حاذقاً يعالجه، فإن الأطباء هم العلماء، والمرض قد استولى عليهم، والطبيب المريض قلما يلتفت إلى علاجه، فلهذا صار الداء عضالاً، والمرض مزمناً، واندرس هذا العلم، وأُنكر طبُّ القلوب، ومرضها بالكلية، وأقبل الناس على أعمال ظاهرها عبادات، وباطنها عادات، فهذه علامة أصل المرض.

وأما علامات عوده إلى الصحة بعد المعالجة، فهو أن ينظر إلى العلة، فإن كان يعالج داء البخل، فعلاجه بذل المال، ولكنه لا يسرف، ويصير إلى حد التبذير، فيحصل داء آخر فيكون كمن يعالج البرودة بالحرارة الغالبة حتى تغلب الحرارة، فيكون داء أيضاً، بل المطلوب الاعتدال.

وإذا أردت أن تعرف الوسط، فانظر إلى نفسك، فإن كان إمساك المال وجمعه ألذ عندك، وأيسر عليك من بذله لمستحقه، فاعلم أن الغالب عليك خلق البخل، فعالج نفسك على البذل، وإن صار البذل للمستحق ألذ عندك، وأخف عليك من الإمساك، فقد غلب عليك التبذير، فارجع إلى المواظبة على الإمساك، ولا تزال تراقب نفسك، وتستدل على خلقك بتيسير الأفعال وتعسيرها، حتى تنقطع علاقة قلبك عن المال، فلا تميل إلى بذله ولا إمساكه، بل يصير عندك كالماء، فلا تطلب فيه إمساكه لحاجة محتاج، أو بذله لحاجة محتاج، فكل قلب صار كذلك، فقد أتى الله بقلب سليم فى هذا المقام.

ويجب أن يكون سليماً عن سائر الأخلاق، حتى لا تكون له علاقة بشيء من الدنيا، حتى ترتحل النفس عن الدنيا منقطعة العلائق منها، غير ملتفتة إليها، ولا متشوقة إلى أسبابها، فحينئذ ترجع إلى ربها رجوع النفس المطمئنة.

ولما كان الوسط الحقيقى بين الطرفين فى غاية الغموض، بل هو أدق من الشَّعرَ، وأحد من السيف، فلا جرم من استوى على الصراط المستقيم فى الدنيا، جاز على مثل هذا الصراط فى الآخرة، ولأجل عسر الاستقامة أُمر العبد أن يقول فى كل يوم مرات: ﴿اهْدنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (الفاتحة:٦)، ومن لم يقدر على الاستقامة، فليجتهد على القرب من الاستقامة فإن النجاة بالعمل الصالح.

ولا تصدر الأعمال الصالحة إلا عن الأخلاق الحسنة، فليتفقد كل عبد صفاته وأخلاقه، وليشتغل بعلاج واحد بعد واحد، وليصبر ذو العزم على مضض هذا الأمر، فإنه سيحلو كما يحلو الفطام للطفل بعد كراهته له، فلو رد إلى الثدى لكرهه، ومن عرف قصر العمر بالنسبة إلى مدة حياة الآخرة حمل مشقة سفر أيام لتنعم الأبد، فعند الصباح يحمدَ القوم السرى.

بيان بما يعرف به العبد عيوب نفسه

واعلم: أن الله تعالى إذا أراد بعبد خيراً بصره بعيوب نفسه، فمن كانت له بصيرة، لم تخفَ عليه عيوبه، وإذا عرف العيوب أمكنه العلاج، ولكن أكثر الناس جاهلون بعيوبهم، يرى أحدهم القذى فى عين أخيه ولا يرى الجذع فى عينه.

فمن أراد الوقوف على عيب نفسه، فله فى ذلك أربع طرق:

الطريقة الأولى: أن يجلس بين يدى شيخ بصير بعيوب النفس، مطلع على خفايا الآيات ويحكمه فى نفسه، ويتبع إشاراته فى مجاهدته، وهذا شأن المريد مع شيخه، والتلميذ مع أستاذه، يعرفه عيوب نفسه وطرق علاجها، وهذا قد عز فى هذا الزمان وجوده، فمن وقع به فقد وقع بالطبيب الحاذق فلا ينبغى أن يفارقه.

الطريقة الثانية: أن يطلب صديقاً صدوقاً بصيراً متديناً، وينصبه رقيباً على نفسه لينبهه على المكروه من أخلاقه وأفعاله.

وقد كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ يقول: رحم الله امرءاً أهدى إلينا عيوبنا.

وسأل سلمان ﷺ لما قدم عليه: عن عيوبه، فقال: سمعت أنك جمعت بين إدامين على مائدة، وأن لك حلتين: حلة بالليل، وحلة بالنهار، فقال: هل بلغك غير هذا؟ قال: لا، قال: أما هذان فقد كُفيتهما.

وكان عمر رضي الله عنه يسأل حذيفة: هل أنا من المنافقين؟ وهذا لأن كل من علت مرتبته في اليقظة زاد اتهامه لنفسه، إلا أنه عز فى هذا الزمان وجود صديق على هذه الصفة، لأنه قل فى الأصدقاء من يترك المداهنة، فيخبر بالعيب، أو يترك الحسد، فلا يزيد على قدر الواجب.

وقد كان السلف يحبون من ينبههم على عيوبهم، ونحن الآن فى الغالب أبغض الناس إلينا من يعرفنا عيوبنا. وهذا دليل على ضعف الإيمان، فإن الأخلاق السيئة كالعقارب، ولو أن منبهاً نبهنا على أن تحت ثوب أحدنا عقرباً لتقلدنا له منة، واشتغلنا بقتلها، والأخلاق الرديئة أعظم ضرراً من العقارب على ما لا يخفى.

الطريقة الثالثة: أن يستفيد معرفة عيوب نفسه من ألسنة أعدائه، فإن عين السخط تبدى المساوئ، ولعل انتفاع الإنسان بعدو مشاجر يذكر عيوبه، أكثر من انتفاعه بصديق مشاحن مداهن يُخفى عنه عيوبه، إلا أن الطبع مجبول على تكذيب العدو، وحمل ما يقوله على الحسد، ولكن البصير لا يخلو عن الانتفاع بقول أعدائه.

الطريقة الرابعة: أن يخالط الناس، فكل ما يراه مذموماً فيما بينهم، يجتنبه فإن المؤمن مرآة المؤمن، فيرى من عيوب غيره عيوب نفسه.

فصل فى شهوات النفوس

وقد ذكرنا أن شهوات النفوس لم توضع إلا لفائدة، إذ لولا شهوة المطعم ما حصل تناول الغذاء، ولولا شهوة الجماع لانقطع النسل، وإنما المذموم فضول الشهوات وطغيانها، وثمة قوم لم يفهموا هذا القدر، فأخذوا يتركون كل ما تشتهيه النفس، وهذا ظلم لها بإسقاط حقها، فإن لها حقاً بدليل قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**إن لنفسك عليك حقاً**»[1] حتى إن قائلاً منهم يقول: لى كذا وكذا سنة أشتهى كذا، فلا أتناوله، وهذا انحراف عن الحق وخلاف سنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فإنه كان يتناول المشتهى من الحلو والعسل وغيرهما، فلا يلتفت إلى زاهد قل علمه، فحرم نفسه حظها من المشتهى على الإطلاق، فإنه إلى الظلم أقرب منه إلى العدل، وإنما يترك المشتهى إذا صعبت الطريق إليه، مثل أن لا يحصل إلا بوجه مكروه، أو يخاف من تناوله انحلال عزمه، فتطمع النفس فى استدامته، أو يحذر من ذلك زيادة شبع، فيثقله عن عبادته، فأما تناوله فى بعض الأوقات لتقوية النفس، فذلك كالطب للمريض، يُمدح ولا يُذم، ولا بأس بالرفق بالنفس لتقوى على السلوك.

(١) **صحيح**: أخرجه البخارى (١٩٦٨) الصوم، والترمذى (٢٤١٣) الزهد، عن عون بن أبي جحيفة عن أبيه، وأخرجه أبو داود (١٣٦٩)، وأحمد (٢٥٧٧٦)، عن عائشة رضي الله عنها، وصححه الألبانى فى صحيح أبى داود.

بيان علامات حسن الخلق

ربما جاهد المريد نفسه حتى ترك الفواحش والمعاصي، ثم ظن أنه قد هذَّب نفسه، وحسَّن خلقه، واستغنى عن المجاهدة، وليس كذلك، فإن حسن الخلق هو مجموع صفات المؤمنين، وقد وصفهم الله تعالى فقال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ② الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ③ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ (الأنفال: ٢-٤)، وقال: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (التوبة: ١١٢)، وقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ إلى قوله: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾ (المؤمنون: ١-١٠) وقال: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ (الفرقان: ٦٣) إلى آخر السورة، فمن أشكل عليه حاله، فليعرض نفسه على هذه الآيات، ووجود جميع هذه الصفات علامة حسن الخلق، وفقْد جميعها علامة سوء الخلق، ووجود بعضها دون البعض يدل على البعض دون البعض فليشتغل بحفظ ما وجده وتحصيل ما فقده.

وقد وصف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المؤمن بصفات كثيرة، وأشار بها إلى محاسن الأخلاق. ففي «الصحيحين» من حديث أنس ﷺ، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: **«والذي نفسي بيده لا يؤمن عبد حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»**.[1]

وفيهما أيضاً من حديث أبي هريرة ﷺ، عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: **«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت»**.[2]

وفي حديث آخر: **«أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم أخلاقاً»**.[3]

ومن حسن الخلق: احتمال الأذى، ففي «الصحيحين»[4] أن أعرابياً جذب رداء النبي صلى الله عليه وآله وسلم حتى أثرت حاشيته في عاتقه صلى الله عليه وآله وسلم، ثم قال:

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (١٣) الإيمان، ومسلم (٤٥) الإيمان.

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (٦٠١٨) الأدب، ومسلم (٤٧) الإيمان.

(٣) **حسن صحيح**: أخرجه الترمذي (١١٦٢) الرضاع، وأبو داود (٤٦٨٢)، وأحمد (٧٣٥٤)، عن أبي هريرة، وصححه الألباني. وقال أبو عيسى: «وفي الباب عن عائشة، وابن عباس، حديث أبي هريرة هذا، حديث حسن صحيح». وانظر الصحيحة (٢٨٤) للألباني.

(٤) **صحيح**: أخرجه البخاري (٣١٤٩) فرض الخمس، ومسلم (١٠٥٧) عن أنس.

يا محمد مر لى من مال الله الذى عندك، فالتفت إليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ثم ضحك، ثم أمر له بعطاء. وكان إذا آذاه قومه قال: **«اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون»**.[1]

وكان أويس القرنى إذا رماه الصبيان بالحجارة يقول: يا إخوتاه، إن كان ولابد، فارمونى بالصغار لئلا تدموا ساقى فتمنعونى من الصلاة.

وخرج إبراهيم بن أدهم إلى بعض البرارى، فاستقبله جندى فقال: أين العمران؟ فأشار إلى المقبرة، فضرب رأسه فشجه، فلما أخبر أنه إبراهيم، جعل يقبل يده ورجله، فقال: إنه لما ضرب رأسى، سألت الله له الجنة، لأنى علمت أنى أؤجر بضربه إياى فلم أحب أن يكون نصيبى منه الخير، ونصيبه منى الشر. واجتاز بعضهم فى سكة، فطرح عليه رماد من السطح، فجعل أصحابه يتكلمون. فقال: من استحق النار فصولح على الرماد، ينبغى له أن لا يغضب.

فهذه نفوس ذُللت بالرياضة، فاعتدلت أخلاقهم، ونقيت عن الغش بواطنها، فأثمرت الرضى بالقضاء، ومن لم يجد من نفسه بعض هذه العلامات التى وجدها هؤلاء، فينبغى أن يدوام الرياضة ليصل بعض ما وصلوا.

فصل فى رياضة الصبيان فى أول النشوء

اعلم: أن الصبى أمانة عند والديه، وقلبه جوهرة ساذجة، وهى قابلة لكل نقش وصورة، وهى قابلة لكى شىء فإن عود الخير نشأ عليه، وشاركه أبواه ومؤدبه فى ثوابه، وإن عُوِّد الشر نشأ عليه، وكان الوزر فى عنق وليه، فينبغى أن يصونه ويؤدبه ويهذبه، ويعلمه محاسن الأخلاق، ويحفظه من قرناء السوء، ولا يعوّده التنعم، ولا يحبب إليه أسباب الزينة والرفاهية فيضيع عمره فى طلبها إذا كبر.

بل ينبغى أن يراقبه من أول عمره، فلا يستعمل فى رضاعه وحضانته إلا امرأة صالحة متدينة تأكل الحلال، فإن اللبن الحاصل من الحرام لا بركة فيه، فإذا بدت فيه مخايل التمييز وأولها الحياء، وذلك علامة النجابة وهى مبشرة بكمال العقل عند البلوغ، فهذا يستعان على تأديبه بحيائه.

وأول ما يغلب عليه من الصفات شره الطعام، فينبغى أن يُعلّمه آداب الأكل، ويعوده أكل الخبز وحده فى بعض الأوقات؛ لئلا يألف الإدام فيراه كالحتم، ويقبح عنده كثرة الأكل، بأن

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخارى (٣٤٧٧) أحاديث الأنبياء، ومسلم (١٧٩٢) الجهاد والسير، عن عبد الله بن مسعود.

يشبه الكثير الأكـل بالبهائم، ويحبب إليه الثياب البيـض دون الملونة والإبريسم، ويقرر عنده أن ذلك من شأن النســاء والمخنثين، ويمنعه من مـخالطة الصبيان الذين عُـوّدوا التنعم، ثم يشـغله فى المكـتب بتعـليم القـرآن والحديث وأحـاديث الأخيـار، ليغـرس فى قلبـه حب الصالحين، ولا يحفظ من الأشعار التى فيها ذكر العشق.

ومتى ظهر من الـصبى خلق جميل وفعل مـحمود، فينبغى أن يكرم عـليه، ويجازى بما يفرح بـه، ويمدح بين أظهـر الناس، فإن خالف ذلـك فى بعض الأحوال تغـوفل عنه ولا يكاشف، فإن عاد عـوتب سراً وخُوّف من اطلاع الناس عليه، ولا يكثر عـليه العتاب، لأن ذلك يُهوّن عليه سماع الملامة، وليكن حافظاً هيبة الكلام معه.

وينبغـى للأم أن تخوّفه بالأب، ويـنبغى أن يمنع الـنوم نهاراً، فإنه يـورث الكسل، ولا يمنع النوم ليلاً، ولكنه يمنع الفرش الوطيئة لتتصلب أعضاؤه.

ويتعود الخشونة فى المفرش والملبس والمطعم.

ويعود المشى والحركة والرياضة لئلا يغلب عليه الكسل.

ويمنع أن يفتخر على أقرانه بشىء مما يملكه أبواه، أو بمطعمه أو ملبسه.

ويعود التواضع والإكرام لمن يعاشره.

ويمنع أن يأخذ شيئاً من صبى مثله، ويعلم أن الأخذ دناءة، وأن الرفعة فى الإعطاء.

ويقبح عنده حب الذهب والفضة.

ويعود أن لا يبصق فى مجلسه، ولا يتمخط، ولا يتثاءب بحضرة غيره، ولا يضع رجلاً على رجل، ويمنع من كثرة الكلام.

ويعود أن لا يتكلم إلا جواباً، وأن يحسن الاستماع إذا تكلم غيره ممن هو أكبر منه، وأن يقوم لمن هو فوقه ويجلس بين يديه.

ويمنع من فحش الكلام، ومن مخالطة مَنْ يفعل ذلك، فإن أصل حفظ الصبيان حفظهم من قرناء السوء.

ويحســن أن يفسح له بعـد خروجه مـن المكتب فى لعب جـميل، ليـستريح بـه من تعب التأديب، كما قيل: روِّح القلوبَ تعِ الذكرَ. وينبغى أن يُعلَّم طاعة والديه ومعلمه وتعظيمهم.

وإذا بلغ سبـع سنين أُمر بالصـلاة، ولم يسامح فى ترك الطـهارة ليتعـود، ويُخوّف من الكذب والخيانة، وإذا قارب البلوغ، ألقيت إليه الأمور.

واعلم: أن الأطعمة أدوية، والمقصود منها تقوية البدن على طاعة الله تعالى، وأن الدنيا لا بقاء لها، وأن الموت يقطع نعيمها، وهو منتظر فى كل ساعة، وأن العاقل من تزود لآخرته، فإن كان نشوؤه صالحاً ثبت هذا فى قلبه، كما يثبت النقش فى الحجر.

قال سهل بن عبد الله التسترى: كنت ابن ثلاث سنين، وأنا أقوم بالليل أنظر إلى صلاة خالى محمد بن سوار، فقال لى خالى يوماً: ألا تذكر الله الذى خلقك؟ قلت: كيف أذكره؟ قال: قل بقلبك ثلاث مرات من غير أن تحرك لسانك: الله معى، الله ناظر إلىَّ، الله شاهدى. فقلت ذلك ليالى، ثم أعلمته، فقال: قلها فى كل ليلة إحدى عشرة مرة. فقلت ذلك، فوقع فى قلبى حلاوته، فلما كان بعد سنة، قال لى خالى: احفظ ما علمتك، ودم عليه إلى أن تدخل قبرك، فلم أزل على ذلك سنين، فوجدت له حلاوة فى سرى، ثم قال لى خالى: يا سهل من كان الله معه، وهو ناظر إليه، وشاهد عليه، هل يعصيه؟ إياك والمعصية، ومضيت إلى المكتب وحفظت القرآن، وأنا ابن ست سنين أو سبع، ثم كنت أصوم الدهر، وقوتى من خبز الشعير، ثم بعد ذلك كنت أقوم الليل كله وله فضائل عظيمة ذكرها القشيرى عن سهل بن عبد الله، وأن أمه خلَّفت له عشرين درهماً أنفقها فى عشرين سنة، كل سنة درهم واحد، وله مناقب جزيلة رحمه الله تعالى.

فصل فى شروط الرياضة

واعلم: أن من شاهد الآخرة بقلبه مشاهدة يقين، أصبح بالضرورة مريداً لها، زاهداً فى الدنيا، فإن من كان معه خرزة، فرأى جوهرة نفيسة، لم يبق له رغبة فى الخرزة، فإذا قيل له: بعها بالجوهرة، أسرع فى ذلك.

واعلم: أن من رزقه الله تعالى الانتباه لذلك، فإن عليه لسلوك الرياضة شرطاً لابد من تقديمه، ومعتصماً لابد من التمسك به، وحصناً لابد من التحصن به.

فأما الشرط، فهو رفع الحجاب بترك الذنوب.

وأما المعتصم، فشيخ يدله على الطريق؛ لئلا تختطفه الشياطين فى السبل.

وأما الحصن، فالخلوة. وعليه من الوظائف مخالفة الهوى، وكثرة الذكر والاقتصاد فى الأوراد.

ومنتهى الرياضة أن يجد قلبه مع الله أبداً، ولا يمكن ذلك إلا بأن يخلو عن غيره، ولا يخلو إلا بطول المجاهدة، فهذا منهاج رياضة المريد وتربيته فى التدريج، فأما تفصيل الرياضة فى كل صفة، فسيأتى إن شاء الله تعالى، والله أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً.

كتاب كسر الشهوتين: شهوة البطن، وشهوة الفرج

شهوة البطن من أعظم المهلكات، وبها أخرج آدم عليه السلام من الجنة، ومن شهوة البطن تحدث شهوة الفرج والرغبة فى المال، ويتبع ذلك آفات كثيرة، كلها من بطر الشبع.

وفى الحديث، أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال: **«المؤمن يأكل فى معى واحد، والكافر يأكل فى سبعة أمعاء»**.(١)

وفى حديث آخر: **«ما ملأ ابن آدم وعاءً شراً من بطنه، حسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة، فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه»**.(٢)

وقال عقبة الراسبى: دخلت على الحسن وهو يتغدى، فقال: هلمَّ، فقلت: أكلتُ حتى لا أستطيع، فقال: سبحان الله أو يأكل المسلم حتى لا يستطيع أن يأكل؟!

وقد بالغ جماعة من الزهاد فى التقلل من الأكل والصبر على الجوع، وقد بينا عيب ما سلكوا فى غير هذا الكتاب، ومقام العدل فى الأكل رفع اليدين مع بقاء شيء من الشهوة، ونهاية المقام الحسن قوله صلى الله عليه وآله وسلم: **«ثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه»**.

فالأكل فى مقام العدل يصح البدن وينفى المرض، وذلك أن لا يتناول الطعام حتى يشتهيه، ثم يرفع يده وهو يشتهيه، والدوام على التقلل من الطعام يضعف القوى، وقد قلل أقوام مطاعمهم حتى قصروا عن الفرائض، وظنوا بجهلهم أن ذلك فضيلة، وليس كذلك، ومن مدح الجوع، فإنما أشار إلى الحالة المتوسطة التى ذكرناها.

وطريق الرياضة فى كسر شهوة البطن: أن من تعود استدامة الشبع، فينبغى له أن يقلل من مطعمه يسيراً مع الزمان إلى أن يقف على حد التوسط الذى أشرنا إليه، وخير الأمور أوساطها، فالأولى تناول ما لا يمنع من العبادة، ويكون سبباً لبقاء القوة، فلا يحس المتناول بجوع ولا شبع، فحينئذ يصح البدن، وتجتمع الهمة، ويصفو الفكر، ومتى زاد فى الأكل أورثه كثرة النوم، وبلادة الذهن، وذلك بتكثير البخار فى الدماغ حتى يغطى مكان الفكر، وموضع الذكر، ويجلب أمراضاً أخر.

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخارى (٥٣٩٧) الأطعمة، ومسلم (٢٠٦٢) الأشربة، عن أبى هريرة، وفى الباب عن ابن عمر، وأبى موسى.

(٢) سبق تخريجه ص (٦٣).

وليحذر من ترك شيئاً من الشهوات أن تتطرق إليه آفة الرياء، وقد كان بعضهم يشترى الشهوة ويعلقها فى بيته وهو زاهد فيها يستر بها زهده، وهذا هو الزهد فى الزهد، بإظهار ضده، وهو عمل الصِّدّيقين، لأنه يجرّع نفسه كأس الصبر مرتين، والثانية أمر.

وأما شهوة الفرج: فاعلم أن شهوة الوقاع سلطت على الآدمى لفائدتين:

إحداهما: بقاء النسل، **والثانية:** ليدرك لذة يقيس عليها لذات الآخرة، فإن لم يدرك جنسه بالذوق، لا يعظم إليه الشوق، إلا أنه إذا لم ترد هذه الشهوة إلى الاعتدال، جلبت آفات كثيرة، ومحناً، ولولا ذلك ما كان النساء حبائل الشيطان.

وفى الحديث أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال: **«ما تركت فى الناس بعدى فتنة اضر على الرجال من النساء»**.[1]

وقال بعض الصالحين: لو ائتمننى رجل على بيت مال، لظننت أن أؤدى إليه الأمانة، ولو ائتمننى على زنجية أخلو بها ساعة واحدة، ما ائتمنت نفسى عليها.

وعن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال: **«لا يخلو رجل بإمراة فإن ثالثهما الشيطان»**.[2]

وقد ينتهى الإفراط فى هذه الشهوة، حتى تصرف همة الرجل إلى كثرة التمتع بالنساء فيشغله عن ذكر الآخرة، وربما آل إلى الفواحش، وقد تنتهى بصاحبها إلى العشق، وهو أقبح الشهوات، وأجدرها أن نستحيى منه وقد يقع عند كثير من الناس عشق المال، والجاه، واللعب بالنرد، والشطرنج، والطنبور، ونحو ذلك، فتستولى هذه الأشياء على القلوب فلا يصبرون عنها.

ويسهل الاحتراز عن ذلك فى بدايات الأمور، فإن آخرها يفتقر إلى علاج شديد، وقد لا ينجع، ومثاله من يصرف عنان الدابة عند توجهها إلى باب تريد دخوله، فما أهون منعها بصرف عنانها، ومثال من يعالجه بعد استحكامه مثال من يتركها حتى تدخل الباب وتجاوزه، ثم يأخذ بذنبها يجرها إلى وراء، وما أعظم التفاوت بين الأمرين، والله أعلم.

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخارى (٥٠٩٦) النكاح، ومسلم (٢٧٤٠) الذكر والدعاء، عن أسامة بن زيد.

(٢) **صحيح**: أخرجه البخارى (٣٠٠٦) الجهاد والسير، ومسلم (١٣٤١) الحج، عن أبى معبد عن ابن عباس.

كتاب آفات اللسان وفضيلة الصمت

آفاته كثيرة متنوعة، ولها فى القلب حلاوة، ولها بواعث من الطبع، ولا نجاة من خطرها إلا بالصمت، فلنذكر أولاً فضيلة الصمت، ثم نتبعه بذكر الآفات مفصلة إن شاء الله تعالى.

اعلم: أن الصمت يجمع الهمة ويفرغ الفكر.

وفى الحديث، أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال: **«من يضمن لى ما بين لحييه، وما بين رجليه اضمن له الجنة»**. (١)

وفى حديث آخر: **«لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه»**. (٢)

وفى حديث معاذ فى آخره: **«كف عليك هذا»** فقلت: يا رسول الله، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ قال: **«ثكلتك امك يا معاذ وهل يكب الناس فى النار على وجوههم، أو قال: على مناخرهم، إلا حصائد ألسنتهم؟»**. (٣)

وفى حديث آخر: **«من كف لسانه ستر الله عورته»**. (٤)

وقال ابن مسعود: ما شيء أحوج إلى طول سجن من لسانى.

وقال أبو الدرداء: أنصف أذنيك من فيك، فإنما جعلت لك أذنان وفم واحد، لتسمع أكثر مما تتكلم به.

وقال مخلد بن الحسين: ما تكلمت منذ خمسين سنة بكلمة أريد أن أعتذر منها.

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخارى (٦٤٧٤) الرقاق، والترمذى (٢٤٠٨) الزهد، وأحمد (٢٢٣١٦) عن أبى حازم عن سهل بن سعد نحوه. وصححه الألبانى، وقال أبو عيسى: «وفى الباب عن أبى هريرة، وابن عباس»، وانظر الضعيفة (٢٣٠٢) للألبانى.

(٢) **حسن**: أخرجه أحمد (١٢٦٣٦) عن على بن مسعدة عن قتادة عن أنس. ورواه ابن أبى الدنيا فى «الصمت»، وحسنه الألبانى فى صحيح الترغيب (٢٥٥٤).

(٣) **صحيح**: أخرجه الترمذى (٢٦١٦) الإيمان، وابن ماجه (٣٩٧٣) الفتن، وأحمد (٢١٥١١) عن معاذ بن جبل، وصححه الألبانى وانظر الصحيحة (٣٢٨٤).

(٤) **ضعيف**: ضعفه الألبانى، وانظر ضعيف الجامع (٥٥٨٠)، والضعيفة (٥٨٨) للألبانى.

ذكر آفات الكلام:

الآفة الأولى: الكلام فيما لا يعنى.

واعلم: أن من عرف قدر زمانه، وأنه رأس ماله، لم ينفقه إلا فى فائدة، وهذه المعرفة توجب حبس اللسان عن الكلام فيما لا يعنى، لأنه من ترك ذكر الله تعالى، واشتغل فيما لا يعنى، كان كمن قدر على أخذ جوهرة، فأخذ عوضها مدرة، وهذا خسران العمر.

وفى الحديث الصحيح، أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه».(١)

وقيل للقمان الحكيم: ما بلغ من حكمتك؟ قال: لا أسأل عما كفيته، ولا أتكلم بما لا يعنينى.

وقد روى أنه دخل على داود عليه السلام وهو يسرد درعاً، فجعل يتعجب مما رأى، فأراد أن يسأله عن ذلك، فمنعته حكمته فأمسك، فلما فرغ داود عليه السلام، قام ولبس الدرع ثم قال: نعم الدرع للحرب. فقال لقمان: الصمت حكمة وقليل فاعله.

الآفة الثانية: الخوض فى الباطل، وهو الكلام فى المعاصى، كذكر مجالس الخمر، ومقامات الفساق.

وأنواع الباطل كثيرة. وعن أبى هريرة، عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: **«إن العبد ليتكلم بالكلمة يَزِلّ بها فى النار أبعد مما بين المشرق والمغرب»**(٢). وقريب من ذلك الجدال والمراء، وهو كثرة الملاحاة للشخص لبيان غلطه وإفحامه، والباعث على ذلك الترفع.

فينبغى للإنسان أن ينكر المنكر من القول، ويبين الصواب، فإن قبل منه، وإلا ترك المماراة، هذا إذا كان الأمر معلقاً بالدين، فأما إذا كان فى أمور الدنيا، فلا وجه للمجادلة فيه، وعلاج هذه الآفة بكسر الكبر الباعث على إظهار الفضل، واعلم أن أعظم من المراء الخصومة، فإنها أمر زائد على المراء.

---

(١) **صحيح** : أخرجه الترمذى (٢٣١٧)، وابن ماجه (٣٩٧٦)، من طريق الزهرى عن أبى سلمة عن أبى هريرة. وقال أبو عيسى: «حديث غريب لا نعرفه من حديث أبى سلمة عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ إلا من هذا الوجه». وأخرجه الترمذى (٢٣١٨) من طريق مالك بن أنس عن الزهرى، عن على بن حُسين عن النبى ﷺ ، وقال أبو عيسى: «وهكذا روى غير واحد من أصحاب الزهرى، عن على بن حسين عن النبى ﷺ نحو حديث مالك مرسلاً، وهذا عندنا أصح من حديث أبى سلمة عن أبى هريرة، وعلى بن حسين لم يدرك على بن أبى طالب». وانظر تصحيح الألبانى فى صحيح الترمذى.

(٢) **صحيح** : أخرجه البخارى (٦٤٧٨) الرقاق، ومسلم (٢٩٨٨) الزهد والرقائق.

وعن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم»[1] وهذه الخصـومة نعنى بهـا الخصومة بالـباطل أو بغيـر علم، فأما من لـه حق، فالأولى أن يصدف عن الخصومة مـهما أمكن؛ لأنها: توغر الصدر، وتهيـج الغضب، وتورث الحقد، وتخرج إلى تناول العرض.

الآفة الثالثة: التقعر فى الكلام، وذلك يكون بالتشدق، وتكلف السجع.

وعن أبى ثعلـبة قال: قال رسول الـله صلى الله عليـه وآله وسلم: «**إن من أبغضكم إلىَّ وأبعدكم منى يوم القيامة مساويكم أخلاقاً الثرثارون والمتشدقون والمتفيقهون**»[2].

ولا يدخل فى كـراهة السجع والتصـنع ألفاظ الخطيب، والـتذكير من غـير إفراط، ولا إغراب، لأن المقصود من ذلك تحريك القلوب، وتشويقها، وقبضها وبسطها ونحو ذلك.

الآفة الرابعة: الفحش والسب والبـذاء، ونحو ذلك، فإنه مذموم منـهى عنه، ومصدره الخبث واللؤم.

وفى الحديث: «**إياكم والفحش، فإن الله لا يحب الفحش ولا التفحش**»[3].

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «**الجنة حرام على كل فاحش أن يدخلها**»[4].

وفى حديث آخر: «**ليس المؤمن بالطعان، ولا اللعان، ولا الفاحش، ولا البذىء**»[5].

واعلم: أن الفحش والبذاء هو التعـبير عن الأمور المستقبحة بالعبـارات الصريحة، وأكثر ما يكون ذلك فى ألفـاظ الجماع وما يتـعلق به، فإن أهل الخيـر يتحاشون عن تلـك العبارات ويكنون عنها ويدلون عليها بالرموز فيذكرون ما يقاد بها ويتعلق بها.

ومن الآفات: الغناء وقد سبق فيه كلام فى غير هذا الموضع.

الآفة الخامسة: المزاح، أما اليسير منه، فلا ينهى عنه إذا كان صدقاً.

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخارى (٢٤٥٧) المظالم والغصب، ومسلم (٢٦٦٨) العلم.

(٢) **صحيح**: أخرجه أحمد (١٧٢٧٨)، وابن حبان (١٩١٧ - ١٩١٨) «موارد»، وصححه الألبانى عن أبى ثعلبة الخشنى، وفى الباب عن جابر، وانظر صحيح الجامع (١٥٣٥) أخرجه الترمذى (٢٠١٨) البر والصلة، وحسنه الألبانى.

(٣) **صحيح**: أخرجه أحمد (٦٤٥١) عن شعبة عن عمرو بن مرة عن عبد الله بن الحارث عن أبى كثير عن عبد الله ابن عمرو بن العاص عن النبى ﷺ، ورواه أبو هريرة وعنه أورده المنذرى فى «الترغيب والترهيب»، وصححه الألبانى فيه (٢٦٠٣)، وعزاه المنذرى لابن حبان فى «صحيحه» والحاكم، وقال الحاكم: صحيح الإسناد.

(٤) **ضعيف**: انظر ضعيف الجامع للألبانى (٢٦٦٧).

(٥) **صحيح**: أخرجه أحمد (٣٨٢٩)، والترمذى (١٩٧٧)، عن عبد الله بن مسعود، وصححه الألبانى، وانظر الصحيحة (٣٢٠).

فإن النبى صلى الله عليه وآله وسلم كان يمزح، ولا يقول إلا حقاً، فإنه قال لرجل: **«يا ذا الأذنين»**[١]، وقال لآخر: **«إنا حاملوك على ولد الناقة»**[٢] وقال للعجوز: **«إنه لا يدخل الجنة عجوز»** ثم قرأ: **﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً ۝٣٥ فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا﴾** (الواقعة: ٣٥-٣٦)[٣]، وقال لأخرى: **«زوجك الذى فى عينيه بياض؟»**.[٤]

فقد اتفق فى مزاحه صلى الله عليه وآله وسلم ثلاثة أشياء:

أحدها: كونه حقاً.

والثانى: كونه مع النساء والصبيان، ومن يحتاج إلى تأديبه من ضعفاء الرجال.

والثالث: كونه نادراً، فلا ينبغى أن يحتج به من يريد الدوام عليه، فإن حكم النادر ليس كحكم الدائم، ولو أن إنساناً دار مع الحبشة ليلاً ونهاراً ينظر إلى لعبهم، واحتج بأن النبى صلى الله عليه وآله وسلم وقف لعائشة وأذن لها أن تنظر إلى الحبشة، لكان غالطاً، لندور ذلك، فالإفراط فى المزاح والمداومة عليه منهى عنه، لأنه يسقط الوقار، ويوجب الضغائن والأحقاد، إذ من الصغائر ما يصير كبيرة بالإصرار، ومن المباحات ما يصير صغيرة بالإصرار، وأما اليسير كما تقدم، من نحو نوع مزاح النبى صلى الله عليه وآله وسلم، فإن فيه انبساطاً وطيب نفس.

الآفة السادسة: السخرية والاستهزاء، ومعنى السخرية: الاحتقار والاستهانة، والتنبيه على العيوب والنقائص على وجه يضحك منه، وقد يكون ذلك بالمحاكاة فى الفعل والقول، وقد يكون بالإشارة والإيماء، وكل ذلك ممنوع منه الشرع، ورد النهى عنه فى الكتاب والسنة.

الآفة السابعة: إفشاء السر، وإخلاف الوعد، والكذب فى القول واليمين، وكل ذلك منهى عنه، إلا ما رخص فيه من الكذب لزوجته، وفى الحرب، فإن ذلك يباح.

وضابطه أن كل مقصود محمود لا يمكن التوصل إليه إلا بالكذب، فهو فيه مباح إن كان ذلك المقصود مباحاً، وإن كان المقصود واجباً، فهو واجب، فينبغى أن يحترز عن الكذب مهما أمكن.

---

(١) **صحيح**: أخرجه الترمذى (١٩٩٢) البر والصلة، وأبو داود (٥٠٠٢)، وأحمد (١١٧٥٤)، وصححه الألبانى فى صحيح الترمذى.

(٢) **صحيح**: أخرجه الترمذى (١٩٩١) البر والصلة، وأبو داود (٤٩٩٨) الأدب، وقال أبو عيسى: «حسن صحيح غريب»، وصححه الألبانى.

(٣) **صحيح**: صححه الألبانى، وانظر التخريج فى «الصحيحة» (٢٩٨٧).

(٤) انظر «المغنى عن حمل الأسفار».

وتباح المعاريض، لقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**إن فى المعاريض لمندوحة عن الكذب**»[1]، وإنما تصلح المعاريض عند الحاجة إليها، فأما مع غير الحاجة، فمكروهة لأنها تشبه الكذب.

فمن المعـاريض: ما روينا عن عبـد الله بن رواحة ﷺ أنه أصاب جارية لـه، فعلمت امرأته، فأخـذت شفرة، ثم أتت فوافقتـه قد قام عنها، فقـالت: أفعلتها؟ فقـال: ما فعلت شيئاً، قالت: لتقرأن القرآن أو لأبعجنك بها، فقال ﷺ:

وَفِينَا رَسُـولُ اللَّهِ يَتْـلُو كِتَـابَهُ ... إِذَا انْشَقَّ مَعْرُوفٌ مِنَ الفَجْرِ سَاطِعُ

يَبِيتُ يُجَافِي جَنْبَهُ عَنْ فِرَاشِـهِ ... إِذَا اسْتَثْقَلَتْ بِالكَافِرِينَ المَضَاجِعِ

أَرَانَا الهُدَى بَعْدَ العَمَى فَقُلُوبُنَـا ... بِـهِ مُوقِنَـاتٌ أَنَّ مَـا قَـالَ وَاقِـعِ

قالت: آمنت بالله وكذبت بصرى.

وكان النخعى إذا طُلب قال للجارية: قولى لهم: اطلبوه فى المسجد.

الآفة الثامنة: الغيبة، وقد ورد الكتاب العزيز بالنهى عنها، وشبّه صاحبها بآكل الميتة.

وفى الحديث: «**إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام**»[2].

وعن أبى برزة الأسلمى قال: قال رسول الـله صلى الله عليه وآله وسلم: «**يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه: لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من تتبع عورة أخيه تتبع الله عورته، ومن تتبع الله عورته يفضحه ولو فى جوف بيته**»[3].

وفى حديث آخر: «**إياكم والغيبة، فإن الغيبة أشد من الزنا، إن الرجل قد يزنى ويشرب، ثم يتوب، ويتوب الله عليه، وإن صاحب الغيبة لا يغفر الله له حتى يغفر له صاحبه**»[4].

وقال علىّ بن الحسين ﷺ: إياك والغيبة، فإنها إدام كلاب الناس.

---

(١) **ضعيف مرفوعاً**: أورده ابن عدى فى «الكامل» (٣/ ٩١)، وصاحب «كشف الخفاء» (١/ ٢٧٠) وضعفه الألبانى أيضاً، من طريق داود بـن الزبرقان عن سعيد بن قتادة عن زرارة بن أبى أوفى عن عمران بـن حصين، وداود بن الزبرقان ضعيف جداً، وقد خـولف فى إسناده، وصححه الألبانى عن عمران بن حصيـن موقوفاً، وانظر صحيح الأدب المفرد وانظر الضعيفة (١٠٩٤).

(٢) **صحيح**: أخرجه البخارى (٦٧) العلم، (١٦٧٩) عن أبى بكرة ﷺ.

(٣) **حسن صحيح**: أخرجـه أبو داود (٤٨٨٠) الأدب، وأحمد (١٩٢٧٧) عن أبـى برزة، وقال الألبانـى: «حسن صحيح». وأخرجه الترمذى عن ابن عمر (٢٠٣٢)، وصححه الألبانى.

(٤) **ضعيف**: ضعفه الألبانى فى ضعيف الجامع (٢٢٠٤)، والضعيفة (١٨٤٦).

والأحاديث والآثار فى ذلك كثيرة مشهورة.

ومعنى الغيبة: أن تذكر أخاك الغائب بما يكرهه إذا بلغه، سواء كان نقصاً فى بدنه، كالعمش، والعور، والحول، والقرع، والطول، والقصر، ونحو ذلك.

أو فى نسبه، كقولك: أبوه نبطى، أو هندى، أو فاسق، أو خسيس، ونحو ذلك.

أو فى خلقه كقولك، هو سيئ الخلق بخيل متكبر ونحو ذلك.

أو فى ثوبه، كقولك: هو طويل الذيل، واسع الكم، وسخ الثياب.

والدليل على ذلك، أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم سئل عن الغيبة قال: **«ذكرك أخاك بما يكره»**. قال: أرأيت إن كان فى أخى ما أقول يا رسول الله؟ قال: **«إن كان فى أخيك ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته»**. [١]

واعلم: أن كل ما يفهم منه مقصود الذم، فهو داخل فى الغيبة، سواء كان بكلام أو بغيره، كالغمز، والإشارة والكتابة بالقلم، فإن القلم أحد اللسانين.

وأقبح أنواع الغيبة، غيبة القراء المتزهدين المرائين، مثل أن يذكر عندهم إنسان فيقولون: الحمد لله الذى لم يبتلنا بالدخول على السلطان، والتبذل فى طلب الحطام، أو يقولون: نعوذ بالله من قلة الحياء، أو نسأل الله العافية، فإنهم يجمعون بين ذم المذكور ومدح أنفسهم.

وربما قال أحدهم عند ذكر إنسان: ذاك المسكين قد بلى بآفة عظيمة، تاب الله علينا وعليه، فهو يظهر الدعاء ويخفى قصده.

واعلم: أن المستمع للغيبة شريك فيها، ولا يتخلص من إثم سماعها إلا أن ينكر بلسانه، فإن خاف فبقلبه، وإن قدر على القيام، أو قطع الكلام بكلام آخر، لزمه ذلك.

وقد روى عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «من أذل عنده مؤمن وهو يقدر أن ينصره فلم ينصره أذله الله عز وجل على رؤوس الخلائق»[٢].

---

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم (٢٥٨٩) البر والصلة، والترمذى (١٩٣٤) البر والصلة، وأبو داود (٤٨٧٤) الأدب، وأحمد (٧١٠٦)، عن العلاء عن أبيه عن أبى هريرة رضي الله عنه، وقال أبو عيسى: «وفى الباب عن أبى برزة وابن عمر وعبد الله بن عمرو. قال أبو عيسى: وهو حديث «حسن صحيح».

(٢) **ضعيف**: أخرجه أحمد (١٥٥٥٥)، والطبرانى «الكبير» (٦/ ٧٣)، من طريق ابن لهيعة عن موسى بن جبير عن أبى أمامة عن سهل بن حنيف عن أبيه عن النبى ﷺ. وابن لهيعة ضعيف، والحديث ضعفه الألبانى فى ضعيف الجامع (٥٣٨٠).

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «**من حمى مؤمناً من منافق يعيبه، بعث الله ملكاً يحمى لحمه يوم القيامة من نار جهنم**»[1].

ورأى عمر بن عتبة مولاه مع رجل وهو يقع فى آخر، فقال له: ويلك نزّه سمعك عن استماع الخنا، كما تنزّه نفسك عن القول به، فالمستمع شريك القائل، إنما نظر إلى شر ما فى وعائه، فأفرغه فى وعائك، ولو ردت كلمة سفيه فى فيه لسعد بها رادها كما شقى بها قائلها.

وقد وردت أحاديث فى حق المسلم على المسلم، تقدمت فى كتاب الصحبة.

فصل في بيان الأسباب الباعثة على الغيبة وذكر علاجها

أما الأسباب التى تبعث على الغيبة فكثيرة:

منها: تشفى الغيظ، بأن يجرى من إنسان فى حق آخر سبب يوجب غيظه، فكلما هاج غضبه تشفى بغيبة صاحبه.

السبب الثانى: من البواعث على الغيبة: موافقة الأقران، ومجاملة الرفقاء، ومساعدتهم، فإنهم إذا كانوا يتفكهون فى الأعراض، رأى هذا أنه إذا أنكر عليهم، أو قطع كلامهم، استثقلوه، ونفروا عنه، فيساعدهم ويرى ذلك من حسن المعاشرة.

الثالث: إرادة رفع نفسه بتنقيص غيره، فيقول: فلان جاهل، وفهمه ركيك، ونحو ذلك، غرضه أن يثبت فى ضمن ذلك فضل نفسه، ويريهم أنه أعلم منه.

وكذلك الحسد فى ثناء الناس على شخص وحبهم له وإكرامهم، فيقدح فيه ليقصد زوال ذلك.

الرابع: اللعب والهزل، فيذكر غيره بما يضحك الناس به على سبيل المحاكاة، حتى إن بعض الناس يكون كسبه من هذا.

وأما علاج الغيبة: فليعلم المغتاب أنه بالغيبة متعرض لسخط الله تعالى ومقته، وأن حسناته تنقل إلى المغتاب إليه، وإن لم يكن له حسنات نقل إليه من سيئات خصمه، فمن استحضر ذلك لم يطلق لسانه بالغيبة.

---

(1) **حسن**: أخرجه أبو داود (٤٨٨٣)، وأحمد (١٥٢٢٢)، والطبرانى «الكبير» (٢٠/ ١٩٤) عن سهل بن معاذ بن أنس الجهنى، عن أبيه، عن النبى ﷺ، وحسنه الألبانى فى صحيح أبى داود.

وينبغى إذا عرضت له الغيبة أن يتفكر فى عيوب نفسه، ويشتغل بإصلاحها، ويستحى أن يعيب وهو معيب، كما قال بعضهم:

فإنْ عِبْتَ قوماً بالذي فيكَ مثْلُه فكيف يعيبُ النَّاسِ مَنْ هو أعورُ

وإنْ عِبْتَ قوماً بالذي ليس فيهم فذلك عِنْدَ اللَّهِ والنَّاسِ أكبرُ

وإن ظن أنه سليم من العيوب، فليتشاغل بالشكر على نعم الله عليه، ولا يلوث نفسه بأقبح العيوب وهو الغيبة، وكما لا يرضى لنفسه بغيبة غيره له، فينبغى أن لا يرضاها لغيره من نفسه.

فلينظر فى السبب الباعث على الغيبة، فيجتهد على قطعه، فإن علاج العلة يكون بقطع سببها. وقد ذكرنا بعض أسبابها، فيعالج الغضب بما سيأتى فى كتاب الغضب، ويعالج موافقة الجلاّس بأن يعلم أن الله تعالى يغضب على من طلب رضى المخلوقين بسخطه، بل ينبغى أن يغضب على رفقائه، وعلى نحو هذا معالجة البواقى.

فصل فى حصول الغيبة بسوء الظن

وقد تحصل الغيبة بالقلب، وذلك سوء الظن بالمسلمين.

والظن ما تركن إليه النفس، ويميل إليه القلب، فليس لك أن تظن بالمسلم شراً، إلا إذا انكشف من أمره ما لا يحتمل التأويل، فإن أخبرك بذلك عَدْلٌ، فمال قلبك إلى تصديقه، كنت معذوراً، لأنك لو كذبته كنت قد أسأت الظن بالمخبر، فلا ينبغى أن تحسن الظن بواحد وتسيئه بآخر، بل ينبغى أن تنظر، هل بينهما عداوة وحسد؟ فتتطرق التهمة حينئذ بسبب ذلك، ومتى خطر لك خاطر سوء على مسلم، فينبغى أن تزيد فى مراعاته وتدعو له بالخير، فإن ذلك يغيظ الشيطان ويدفعه عنك، فلا يلقى إليك خاطر السوء خيفة من اشتغالك بالدعاء والمراعاة.

وإذا تحققت هفوة مسلم بحجة، فانصحه فى السر.

واعلم: أن من ثمرات سوء الظن التجسس، فإن القلب لا يقنع بالظن، بل يطلب التحقيق فيشتغل بالتجسس، وذلك منهى عنه، لأنه يوصل إلى هتك ستر المسلم، ولو لم ينكشف لك، كان قلبك أسلم للمسلم.

بيان الأعذار المرخصة في الغيبة وكفارة الغيبة

اعلم: أن المرخص فى ذكر مساوئ الغير، وهو غرض صحيح فى الشرع، لا يمكن التوصل إليه إلا به، فيدفع بذلك إثم الغيبة، وهو أمور:

أحدها: التظلم، فإن للمظلوم أن يذكر الظالم إذا استعداه إلى مَنْ يستوفى حقه.

الثانى: الاستعانة على تغيير المنكر، ورد العاصى إلى منهاج الصلاح.

الثالث: الاستفتاء، مـثل أن يقول للمفتى: ظلمنى فلان، أو أخـذ حقى، فكيف طريقى فى الخلاص، فالتعـيين مباح، والأولى التعريض، وهو أن يقول: مـا تقول فى رجل ظلمه أبوه أو أخوه ونحو ذلك؟

والدليل على إباحة التعيين حديث هند بنت عتبة حين قالت: إن أبا سفيان رجل شحيح[١] ولم ينكر عليها النبى صلى الله عليه وآله وسلم.

الأمر الرابع: تحذير المسلمين، مثل أن ترى متفقـهاً يتردد إلى مبتدع أو فاسق، وتخاف أن يتعدى إليه ذلك، فلك أن تكشف له الحال.

وكذلك إذا عرفت من عبدك السرقة أو الفسق، فتذكر ذلك للمشترى.

وكذلك المسـتشار فى التزويـج وإيداع الأمانة، له أن يذكر مـا يعرفه على قصـد النصح للمستشير، لا على قصد الوقيعة، إذا علم أنه لا ينزجر إلا بالتصريح بعيبه فله أن يصرح به.

الخامس: أن يكون معروفـاً بلقب، كالأعرج، والأعمش، فلا إثم عـلى مَنْ يذكره به، وإن وجد عن ذلك معدلاً كان أولى.

السادس: أن يكون مجاهراً بالفسق، ومصادرة الناس، وكان ممن يتظاهر به فلا إثم.

وقد روى عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: **«مَنْ ألقى جلباب الحياء فلا غيبة له»**[٢].

وقيل للحسن: الفاجر المعلن بفجوره، ذِكْرِى له بما فيه غيبة؟ قال: لا، ولا كرامة.

وأما كفارة الغيبة: فاعلم أن المغتاب قد جنى جنايتين:

إحداهما: على حق الله تعالى، إذ فعل ما نهاه عنه، فكفارة ذلك التوبة والندم.

والجناية الثانية: على عرض المخلـوق، فإن كانت الغيـبة قد بلغت الرجل، جـاء إليه واستحله، وأظهر له الندم على فعله.

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخارى (٢٢١١) البيوع، ومسلم (١٧١٤) الأقضية. عن عائشة رضي الله عنها.

(٢) **ضعيف جداً**: ضعفه الألبانى من طريق رواد بن الجراح أبى عاصم العسقلانى: ثنا أبو سعد الساعدى عن أنس مرفوعاً، وقال البيهقى: «ليس بالقوى»، وانظر الضعيفة (٥٨٥).

وقد روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: **«من كانت عنده مظلمة لأخيه، من مال أو عرض، فليأته فليستحلها منه قبل أن يؤخذ وليس عنده درهم ولا دينار، فإن كانت له حسنات أخذ من حسناته فأعطيها هذا، وإلا أخذ من سيئات هذا فألقى عليه»**[1].

وإن كانت الغيبة لم تبلغ الرجل، جعل مكان استحلاله الاستغفار له، لئلا يخبره بما لا يعلمه، فيوغر صدره.

وقد ورد فى الحديث: **«كفارة من اغتبته أن تستغفر له»**[2].

وقال مجاهد: كفارة أكلك لحم أخيك أن تثنى عليه وتدعو له بخير، وكذلك إن كان قد مات.

بيان حد النميمة وما يجب فى ردها

الآفة التاسعة: من آفات اللسان: النميمة، وفى الحديث أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال: **«لا يدخل الجنة قتات»**، وهو النمام.[3]

واعلم: أن النميمة تطلق فى الغالب على نقل قول إنسان فى إنسان، مثل أن يقول: قال فيك فلان كذا وكذا، وليست مخصوصة بهذا، بل حدها كشف ما يكره كشفه، سواء كان من الأقوال أو الأعمال، حتى لو رآه يدفن مالاً لنفسه فذكره، فهو نميمة. وكل من نقلت إليه النميمة، مثل أن يقال له: قال فيك فلان كذا وكذا، أو فعل فى حقك كذا، ونحو ذلك، فعليه ستة أشياء:

الأول: أن لا يصدِّق الناقل، لأن النمام فاسق مردود الشهادة.

الثانى: أن ينهاه عن ذلك وينصحه.

الثالث: أن يبغضه فى الله، فإنه بغيض عند الله.

الرابع: أن لا يظن بأخيه الغائب السوء.

الخامس: أن لا يحمله ما حكى له على التجسس والبحث، لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ (الحجرات: ١٢).

السادس: أن لا يرضى لنفسه ما نهى النمام عنه، فلا يحكى نميمته.

ويروى أن سليمان بن عبد الملك قال لرجل: بلغنى أنك وقعت فىَّ، وقلت كذا وكذا.

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخارى (٦٥٣٤) الرقاق، وأحمد (١٠١٩٥) عن أبى هريرة.

(٢) **ضعيف**: ضعفه الألبانى فى الضعيفة (١٥١٩)، وقال: «ضعيف. روى عن أنس من طرق».

(٣) **صحيح**: أخرجه البخارى (٦٠٥٦) الأدب، ومسلم (١٠٥) الإيمان عن حذيفة رضي الله عنه.

فقال الرجل: ما فعلت، فقال سليمان: إن الذى أخبرنى صادق، فقال: لا يكون النمام صادقاً، فقال سليمان: صدقت، اذهب بسلام.

وقال يحيى بن أبى كثير: يفسد النمام فى ساعة ما لا يفسد الساحر فى شهر.

وقد حكى أن رجلاً ساوم ليشترى عبداً، فقال مولاه: إنى أبرأ لك من النميمة والكذب، فقال: نعم، أنت برىء منهما، فاشتراه. فجعل يقول لمولاه: إن امرأتك تبغى وتفعل، وإنها تريد أن تقتلك، ويقول للمرأة: إن زوجك يريد أن يتزوج عليك ويتسرى، فإن أردت أن أعطفه عليك، فلا يتزوج ولا يتسرى، فخذى الموسى واحلقى شعرة من حلقه إذا نام، وقال للزوج: إنها تريد أن تقتلك إذا نمت. قال: فذهب فتناوم لها، فجاءت بموسى لتحلق شعرة من حلقه، فأخذ بيدها فقتلها، فجاء أهلها فاستعدوا عليه فقتلوه.

الآفة العاشرة: كلام ذى اللسانين الذى يتردد بين المتعادين، وينقل كلام كل واحد إلى الآخر، ويكلم كل واحد بكلام يوافقه، أو يعده أنه ينصره، أو يثنى على الواحد فى وجهه ويذمه عند الآخر.

وفى الحديث: «**إن شر الناس ذو الوجهين الذى يأتى هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه**»(١).

واعلم: أن هذا فيمن لم يضطر إلى ذلك، فأما إذا اضطر إلى مداراة الأمراء جاز.

ومتى قدر أن لا يظهر موافقتهم لم يجز له. قال أبو الدرداء رضي الله عنه: إنا لنكشر فى وجوه أقوام، وإن قلوبنا لتلعنهم.(٢)

الآفة الحادية عشرة: المدح، وله آفات:

منها: ما يتعلق بالمادح، **ومنها:** ما يتعلق بالممدوح.

فأما آفات المادح: فقد يقول ما لا يتحققه، ولا سبيل للاطلاع عليه، مثل أن يقول: إنه ورع وزاهد، وقد يفرط فى المدح فينتهى إلى الكذب، وقد يمدح من ينبغى أن يُذم. وقد روى فى حديث: «**إن الله تعالى يغضب إذا مُدح الفاسق**».(٣)

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخارى (٧١٧٩) الأحكام، ومسلم (٢٥٢٦) البر والصلة، عن أبى هريرة رضي الله عنه.

(٢) **صحيح موقوفاً**: أخرجه البخارى تعليقاً فى باب المداراة مع الناس عن أبى الدرداء.

(٣) **ضعيف**: ضعفه الألبانى فى «ضعيف الجامع» (١٧٤٦) عن أنس.

وقال الحسن: من دعا لظالم بالبقاء، فقد أحب أن يُعصى الله.

وأما الممدوح: فإنه يحدث فيه كبراً أو إعجاباً، وهما مهلكان، ولهذا قال النبى صلى الله عليه وآله وسلم لما سمع رجلاً يمدح رجلاً: **«ويلك، قطعت عنق صاحبك»**[1]... الحديث وهو مشهور. وقد روينا عن الحسن قال: كان عمر رضي الله عنه قاعداً ومعه الدرة والناس حوله، إذ أقبل الجارود، فقال رجل: هذا سيد ربيعة، فسمعها عمر رضي الله عنه ومَنْ حوله، وسمعها الجارود، فلما دنا منه خفقه بالدرة، فقال: ما لى ولك يا أمير المؤمنين؟ قال: ما لى ولك، أما سمعتها؟ قال: سمعتها فمه؟ قال: خشيت أن يخالط قلبك منها شىء فأحببت أن أطأطئ منك.

ولأن الإنسان إذا أثنى عليه بالخير رضى عنه نفسه، وظن أنه قد بلغ المقصود، فيفتر عن العمل، ولهذا قال: «قطعت عنق صاحبك..».

فأما إذا سلم المدح من هذه الآفات لم يكن به بأس، فقد أثنى النبى صلى الله عليه وآله وسلم على أبى بكر وعمر رضي الله عنهما وغيرهما من الصحابة رضي الله عنهم.

وعلى الممدوح أن يكون شديد الاحتراز من آفة الكبر والعجب، والفتور عن العمل، ولا ينجو من هذه الآفات إلا أن يعرف نفسه، ويتفكر فى أن المادح لو عرف منه ما يعرف من نفسه ما مدحه.

وقد روى أن رجلاً من الصالحين أثنى عليه، فقال: اللهم إن هؤلاء لا يعرفونى وأنت تعرفنى.

الآفة الثانية عشرة: الخطأ فى فحوى الكلام فيما يرتبط فى أمور الدين، لاسيما فيما يتعلق بالله تعالى، ولا يقدر على تقويم اللفظ بذلك إلا العلماء الفصحاء، فمن قصر فى علم أو فصاحة، لم يخلُ كلامه عن الزلل، لكن يعفو الله عنه لجهله.

مثال ذلك: ما روى عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: **«لا يقل أحدكم: ما شاء الله وشئت، ولكن ليقل: ما شاء الله ثم شئت»**[2] وذلك لأن فى العطف المطلق تشريكاً وتسوية،

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخارى (٢٦٦٢) الشهادات، ومسلم (٣٠٠٠) الزهد والرقائق عن أبى بكرة.

(٢) **حسن صحيح**: أخرجه ابن ماجه (٢١١٧) الكفارات، وصححه الألبانى فى «الصحيحة» (١٣٦، ١٣٩) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وقريب من ذلك إنكاره على الخطيب قوله: **«ومن يعصهما فقد غوى»**، وقال: **«قل: ومن يعص الله ورسوله»**[1].

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: **«لا يقل أحدكم: عبدى وأمتى، كلكم عبيد الله، وكل نسائكم إماء الله، ولكن ليقل: غلامى وجاريتى»**.[2]

وقال النخعى: إذا قال الرجل للرجل: يا حمار يا خنزير، قيل له يوم القيامة: أرأيتنى خلقته حماراً، أو أرأيتنى خلقته خنزيراً.

فهذا وأمثاله مما يدخل فى الكلام، ولا يمكن حصره، ومن تأمل ما أوردناه فى آفات اللسان، علم أنه إذا أطلق لسانه لم يسلم، وعند ذلك يعرف سر قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «من صمت نجا»[3]، لأن هذه الآفات مهالك وهى على طريق المتكلم، فإن سكت سلم.

فصل فى السؤال عن صفات الله عز وجل

الآفة الثالثة عشرة: سؤال العوام: عن صفات الله سبحانه وتعالى وكلامه.

اعلم: أن الشيطان يخيل إلى العامى أنك بخوضك فى العلم تكون من العلماء وأهل الفضل، فلا يزال يحبب إليه ذلك حتى يتكلم بما هو كفر وهو لا يدرى، قال النبى صلى الله عليه وآله وسلم: «يوشك الناس أن يسألوا، حتى يقولوا: **هذا الله خلق الخلق، فمن خلق الله؟»**[4] فسؤال العوام عن غوامض العلم أعظم الآفات، إذ بحثهم عن معانى الصفات مما يفسدهم لا مما يصلحهم، إذ الواجب عليهم التسليم، فالأولى بالعامى الإيمان بما ورد به القرآن، ثم التسليم لما جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من غير بحث، واشتغالهم بالعبادات، فإن اشتغالهم بالبحث عن أسرار العلم، كبحث سائمة الدواب عن أسرار الملك والله أعلم.

---

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم (٨٧٠) الجمعة، والنسائى (٣٢٧٩) النكاح، وأبو داود (١٠٩٧) الصلاة، وأحمد (١٧٧٨٣) عن عدى بن حاتم.

(٢) **صحيح**: أخرجه مسلم (٢٢٤٩) الألفاظ من الأدب وغيرها، وأحمد (٩٦٤٨) عن العلاء عن أبيه عن أبى هريرة.

(٣) **صحيح**: أخرجه الترمذى (٢٥٠١) صفة القيامة، وأحمد (٦٤٤٥) عن عبد الله بن عمرو. وفى إسناده ابن لهيعة ولكن رواه عن بعض العبادلة الذين حديثهم عنه صحيح، فرواه عنه عبد الله بن المبارك فى «الزهد»، وعبد الله بن وهب، فالحديث كما قال الألبانى: صحيح. انظر الصحيحة (٥٣٦).

(٤) **صحيح**: أخرجه البخارى (٧٢٩٦) الاعتصام، ومسلم (١٣٦) الإيمان، عن أنس بن مالك.

كتاب ذم الغضب والحقد والحسد

اعلم: أن الغضب شعلة من النار، وأن الإنسان ينزع فيه عند الغضب عرقٌ إلى الشيطان اللعين، حيث قال: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ (الأعراف: ١٢) فإن شأن الطين السكون والوقار، وشأن النار التلظى والاشتعال، والحركة والاضطراب.

ومن نتائج الغضب: الحقد والحسد، ومما يدل على ذم الغضب قول النبى صلى الله عليه وآله وسلم للرجل الذى قال له: أوصنى، قال: «**لا تغضب**»، فردد عليه مراراً، قال: «**لا تغضب**»[(١)].

وفى حديث آخر أن ابن عمر رضي الله عنهما سأل النبى صلى الله عليه وآله وسلم: ماذا يبعدنى من غضب الله عز وجل؟ قال: «**لا تغضب**».[(٢)]

وفى المتفق عليه من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ما تعدون بالصرعة فيكم؟ قلت: الذى لا تصرعه الرجال. قال: «**ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب**».[(٣)]

وعن عكرمة فى قوله تعالى: ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا﴾ (آل عمران: ٣٩) قال: السيد الذى يملك نفسه عند الغضب ولا يغلبه غضبه.

وقيل إن ذا القرنين لقى ملكاً من الملائكة فقال: علمنى علماً أزداد به إيماناً ويقيناً، قال: لا تغضب، فإن الشيطان أقدر ما يكون على ابن آدم حين يغضب، فرد الغضب بالكظم، وسكنه بالتؤدة، وإياك والعجلة، فإنك إذا عجلت أخطأت حظك، وكن سهلاً ليناً للقريب والبعيد، ولا تكن جباراً عنيداً.

وقيل إن إبليس -لعنه الله- بدا لموسى عليه السلام، فقال: يا موسى إياك والحدة، فإنى ألعب بالرجل الحديد كما يلعب الصبيان بالكرة، وإياك والنساء، فإنى لم أنصب فخاً قط أثبت فى نفسى من فخ أنصبه بامرأة، وإياك والشح، فإنى أفسد على الشحيح الدنيا والآخرة.

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخارى (٦١١٦) الأدب، والترمذى (٢٠٢٠) البر والصلة، وأحمد (٩٦٨٢) عن أبى هريرة رضي الله عنه.
وقال أبو عيسى: «وفى الباب عن أبى سعيد، وسليمان بن صُرَد. وهذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه».

(٢) **حسن**: أخرجه أحمد (٦٥٩٧)، وابن حبان (١٩٧١) «موارد»، وفى إسناده ابن لهيعة عن دراج، وحسنه الألبانى كما فى «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٧٤٧) عن ابن عمر.

(٣) **صحيح**: أخرجه مسلم (٢٦٠٨) عن عبد الله بن مسعود.

وكان يقال: اتقوا الغضب، فإنه يفسد الإيمان كما يفسد الصبر العسل، والغضب عدو العقل.

وحقيقة الغضب: غليان دم القلب لطلب الانتقام، فمتى غضب الإنسان ثارت نار الغضب ثوراناً يغلى به دم القلب، وينتشر فى العروق، ويرتفع إلى أعالى البدن، كما يرتفع الماء الذى يغلى فى القدر، ولذلك يحمر الوجه والعين والبشرة، وكل ذلك يحكى لون ما وراءه من حمرة الدم، كما تحكى الزجاجة لون ما فيها، وإنما ينبسط الدم إذا غضب على من دونه واستشعر القدرة عليه.

فإن كان الغضب صدر ممن فوقه، وكان معه يأس من الانتقام، تولد منه انقباض الدم من ظاهر الجلد إلى جوف القلب، فصار حزناً، ولذلك يصفر اللون، وإن كان الغضب من نظير يشك فيه، تردد الدم بين انقباض وانبساط، فيحمر ويصفر ويضطرب، فالانتقام هو قوة لقوة الغضب. والناس فى قوة الغضب على درجات ثلاث: إفراط، وتفريط، واعتدال.

فلا يحمد الإفراط فيها، لأنه يخرج العقل والدين عن سياستهما، فلا يبقى للإنسان مع ذلك نظر ولا فكر ولا اختيار.

والتفريط فى هذه القوة أيضاً مذموم، لأنه يبقى لا حمية له ولا غيرة، ومَنْ فقد الغضب بالكلية، عجز عن رياضة نفسه، إذ الرياضة إنما تتم بتسلط الغضب على الشهوة، فيغضب على نفسه عند الميل إلى الشهوات الخسيسة، ففقد الغضب مذموم، فينبغى أن يطلب الوسط بين الطريقين.

واعلم: أنه متى قويت نار الغضب والتهبت، أعمت صاحبها، وأصمته عن كل موعظة، لأن الغضب يرتفع إلى الدماغ، فيغطى على معادن الفكر، وربما تعدى إلى معادن الحس، فتظلم عينه حتى لا يرى بعينه، وتسود الدنيا فى وجهه، ويكون دماغه على مثال كهف أضرمت فيه نار، فاسود جوُّه، وحمى مستقره، وامتلأ بالدخان، وكان فيه سراج ضعيف فانطفأ، فلا يثبت فيه قدم، ولا تسمع فيه كلمة، ولا ترى فيه صورة، ولا يقدر على إطفاء النار، فكذلك يفعل الغضب بالقلب والدماغ، وربما زاد الغضب فقتل صاحبه.

ومن آثار الغضب فى الظاهر: تغيير اللون، وشدة الرعدة فى الأطراف، وخروج الأفعال عن الترتيب، واستحالة الخلقة، وتعاطى فعل المجانين، ولو رأى الغضبان صورته فى حال غضبه وقبحها لسكن الغضب من تلك الحال، ومعلوم أن قبح الباطن أعظم.

فصل في بيان الأسباب المهيجة للغضب وذكر علاج الغضب

قد عرفت أن علاج كل علة بحسم مادتها وإزالة أسبابها.

فمن أسبابه: العجب، والمزاح، والمماراة، والمضادة، والغدر، وشدة الحرص على فضول المال والجاه، وهذه أخلاق رديئة مذمومة شرعاً، فينبغي أن يقابل كل واحد من هذه بما يضاده، فيجتهد على حسم مواد الغضب وقطع أسبابه.

وأما إذا هاج الغضب فيعالج بأمور:

أحدها: أن يتفكر في الأخبار الواردة في فضل كظم الغيظ، والعفو، والحلم، والاحتمال، كما جاء في البخاري من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: أن رجلاً استأذن على عمر رضي الله عنه، فأذن له فقال له: يا بن الخطاب، والله ما تعطينا الجزل، ولا تحكم بيننا بالعدل، فغضب عمر رضي الله عنه، حتى همَّ أن يوقع به. فقال الحر بن قيس: يا أمير المؤمنين إن الله عز وجل قال لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (الأعراف:١٩٩) وإن هذا من الجاهلين، فو الله ما جاوزها عمر رضي الله عنه حين تلاها عليه، وكان وقّافاً عند كتاب الله عز وجل.(١)

الثاني: أن يخوّف نفسه عقاب الله تعالى، وهو أن يقول: قدرة الله عليَّ أعظم من قدرتي على هذا الإنسان، فلو أمضيت فيه غضبي، لم آمن أن يمضي الله عز وجل غضبه عليَّ يوم القيامة فأنا أحوج ما أكون إلى العفو. وقد قال الله تعالى في بعض الكتب: يا بن آدم! اذكرني عند الغضب، أذكرك حين أغضب، ولا أمحقك فيمن أمحق.

والثالث: أن يحذر نفسه عاقبة العداوة، والانتقام، وتشمير العدو في هدم أعراضه، والشماتة بمصائبه، فإن الإنسان لا يخلو من المصائب، فيخوّف نفسه ذلك في الدنيا إن لم يخفْ من الآخرة، وهذا هو تسليط شهوة على غضب، ولا ثواب عليه، لأنه تقديم لبعض الحظوظ على بعض، إلا أن يكون محذوره أن يتغير عليه أمر يعينه على الآخرة، فيثاب على ذلك.

الرابع: أن يتفكر في قبح صورته عند الغضب على ما تقدم، وأنه يشبه حينئذ الكلب الضاري، والسبع العادي، وأنه يكون مجانباً لأخلاق الأنبياء والعلماء في عاداتهم، لتميل نفسه إلى الاقتداء بهم.

الخامس: أن يتفكر في السبب الذي يدعوه إلى الانتقام، مثل أن يكون سبب غضبه أن

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (٤٦٤٢) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

يقول له الشيطان: إن هذا يـحمل منك على العجز، والذلة والمهانة وصـغر النفس، وتصير حقيراً فى أعين النـاس، فليقل لنفسه: تأنفين من الاحتمـال الآن، ولا تأنفين من خزى يوم القيامة والافتضاح إذا أخذ هذا بيدك وانتقم منك، وتحذرين من أن تصغرى فى أعين الناس، ولا تحذرين من أن تصغرى عند الله تعالى وعند الملائكة والنبيين.

وينبغى أن يكظم غيـظه، فذلك يعظمه عند الله تعالى، فمـا له وللناس؟ أفلا يجب أن يكون هو القائم يوم القيامة إذا نودى: ليقـم مَنْ وقع أجره على الله، فلا يقوم إلا مَنْ عفا، فهذا وأمثاله ينبغى أن يقرره على قلبه.

السادس: أن يعلم أن غضبه إنما كان من شيء جـرى على وفق مراد الله تعالى، لا على وفق مراده، فكيف يـقدم مراده على مراد الله تعـالى، فينبغى معـرفتها قبل الوقـوع لتعرف الخلاص منه عند الوقوع، هذا ما يتعلق بالقلب.

وأما المعـالجة بالعمل، فـينبغى له السكون، والـتعوذ، وتغيـير الحال، فإن كان قـائماً جلس، وإن كان جالساً اضـطجع، وقد أمرنا بالوضوء أيضاً عند الغـضب، فهذه الأمور وردت فى الأحاديث.

أما الحكمة فى الوضــوء عند الغضب، فقد بيّنها فى الحـديث. كما روى أبو وائل قال: كنا عند عروة بن محمد، فكلمه رجل بكلام، فغضب غضباً شديداً، فقام وتوضأ، ثم جاء فقال: حدثنى أبى عن جدى عطية -وكانت له صحبة- قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: **«إن الغضب من الشيطان، وإن الشيطان خلق من النار، وإنما تطفأ النار بالماء، فإذا غضب أحدكم فليتوضأ»**[(١)].

وأما الجلوس والاضطجاع، فيمكن أن يكون إنمـا أمر بذلك ليقرب من الأرض التى منها خُلق، فيذكـر أصله فيذل، ويمكن أن يكون ليـتواضع بِذُلّه، لأن الغضب ينشـأ من الكبر، بدليل ما روى أبو سعيد، عن النبى صلى الـله عليه وآله وسلم أنه ذكر الغضب وقال: «من وجد شيئاً من ذلك، فليلصق خده بالأرض»[(٢)].

وقيل: غضب المهدى علـى رجل، فدعا بالسيّاط فلما رأى شبيـب شدة غضبه، وإطراق

---

(١) **ضعيف**: أخرجه أبو داود (٤٧٨٤) الأدب، وأحمد (١٧٥٢٤)، وضعفه الألبانى، وانظر ضعيف الجامع (١٥١٠).

(٢) **ضعيف**: أخرجه الترمذى (٢١٩١) الفتن، وأحمد (١١١٩٣) عن علىّ بن زيد، عن أبى نضرة، عن أبى سعيد الخدرى، وضعفه الألبانى فى ضعيف الترمذى.

الناس، فلم يتكلموا بشىء، قال: يا أمير المؤمنين، لا تَغضبن لله بأشد مما غضب لنفسه، فقال: خلوا سبيله.

فصل فى كظم الغيظ

قال الله تعالى: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾ (آل عمران: ١٣٤) فذكر ذلك فى معرض المدح.

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: **«من كظم غيظاً وهو قادر على أن ينفذه، دعاه الله على رؤوس الخلائق حتى يخيره من أى الحور شاء»**(١).

وروى عن عمر رضي الله عنه أنه قال: مَنْ اتقى الله لم يشف غيظه، ومن خالف الله لم يفعل ما يريد، ولولا يوم القيامة لكان غير ما ترون.

فصل فى الحلم

روى أبو هريرة رضي الله عنه، عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: **«إنما العلم بالتعلم، والحلم بالتحلم»**. (٢)

«اطلبوا العلم، واطلبوا مع العلم السكينة والحلم، لينوا لمن تُعَلِّمون ولمن تُعَلَّمون منه، ولا تكونوا من جبابرة العلماء، فيغلب جهلكم حلمكم».

وقال صلى الله عليه وآله وسلم لأشج عبد قيس: **«إن فيك خلقين يحبهما الله ورسوله: الحلم والأناة»**. (٣)

وشتم رجل ابن عباس رضي الله عنهما، فلما قضى مقالته، فقال: يا عكرمة، انظر هل للرجل حاجة فنقضيها؟ فنكس الرجل رأسه واستحيى.

وأسمع رجل معاوية كلاماً شديداً، فقيل له: لو عاقبته؟ فقال: إنى لأستحى أن يضيق حلمى عن ذنب أحد من رعيتى.

وقسم معاوية بن أبى سفيان نطعاً، فبعث منها إلى شيخ من أهل دمشق فلم يعجبه،

---

(١) **صحيح**: أخرجه الترمذى (٢٠٢١) البر والصلة، وأبو داود (٤٧٧٧)، وابن ماجه (٤١٨٦) الزهد، وأحمد (١٥٢١٠)، وصححه الألبانى، وانظر الصحيحة (١٧٥٠).

(٢) **حسن**: حسنه الألبانى، وانظر صحيح الجامع (٢٣٢٨) عن أبى هريرة رضي الله عنه.

(٣) **حسن**: أخرجه مسلم (١٧) الإيمان، وأبو داود (٥٢٢٥)، والترمذى (٢٠١١)، وأحمد (١٠٧٩١).

فجعل عـليه يميناً أن يضرب رأس مـعاوية، فأتى معـاوية فأخبره، فقال لـه معاوية: أوفِ بنذرك وارفق بى يا شيخ.

وجاء غلام لأبى ذر وقد كـسّر رِجل شاة له، فقال له: من كسّـر رِجل هذه الشاة؟ قال: أنا فعلته عمداً لأغيظك، فتضربنى، فتأثم، فقال: لأغيظن من حرضك على غيظى، فأعتقه.

وشتم رجل عدى بن حـاتم وهو ساكت، فلما فرغ من مقالتـه قال: إن كان بقى عندك شىء فقلْ قبل أن يأتى شباب الحى، فإنهم إن سمعوك تقول هذا لسيدهم لم يرضوا.

ودخل عمر بن عبد العزيز المسجد ليلةً فى الظلـمة، فمر برجل نائم فعثر به، فرفع رأسه، وقال: أمجنون أنت؟ فقال عمر: لا، فهمَّ به الحراس، فقال عمر: مه، إنما سألنى أمجنون؟ فقلت له: لا.

ولقى رجل على بن الحسين ﷺ، فسبه، فثارت إليه العبيد، فقال: مهلاً، ثم أقبل على الرجل فقـال: ما ستر عنك من أمرنـا أكثر، ألك حاجة نعـينك عليها؟ فاسـتحى الرجل، فألقى عليه خميصة كانت عليـه، وأمر له بألف درهم، فكان الرجل بعد ذلك يقول: أشهد أنك من أولاد الرسول.

وقال رجل لوهب بن منبه: إن فلاناً شتمك، فقال: ما وجد الشيطان بريداً غيرك.

فصل فى العفـو والرفق

اعلم: أن معنى العفو أن تستحق حقاً فتسقطه، وتؤدى عنه من قصاص أو غرامة، وهو عين الحلم والكظم. قال الله تعالى: ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ (آل عمران: ١٣٤)، وقال: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ (الشورى: ٤٠)، وفى الحديث أن النـبى صلى الله عليه وآلـه وسلم، قال: **«ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً، وما تواضع أحد إلا رفعه الله»**.[(١)]

وعن عقبة بن عامر، قال: قـال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: **«يا عقبة بن عـامر، الا اخبـرك بأفضل اخلاق أهل الدنيا والآخرة؟ تصل من قطعك، وتعطى مـن حرمك، وتعفو عـمن ظلمك»**.[(٢)] وروى أن منادياً ينادى يوم القيامة: ليـقم من وقع أجره على الله؛ فلا يقوم إلا من عفا عمن ظلمه.

---

(١) سبق تخريجه ص (٣٣).

(٢) **ضعيف**: أخرجه أحـمد (١٦٨٨٣)، وابن عدى «الكامل» (٥/ ١٦٥)، عن عـثمان بن أبى العاتـكة عن على بن يزيد عن القاسم عن أبى أمامة عن عقبة بن عامـر مرفوعاً به، وفى «مسند الفردوس» (٥/ ٣٩٢)، وعثمان بن أبى العاتكة ضعيف، وللحديث شواهد يتقوى بها من حديث علىّ وأبى هريرة.

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: **«إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطى عليه ما لا يعطى على العنف»**.[1]

وفى «الصحيحين» من حديث عائشة رضي الله عنها، عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: **«إن الله عز وجل يحب الرفق فى الأمر كله»**.[2]

وفى حديث آخر: **«من يُحرَم الرفق يُحرَم الخير»**[3] والله أعلم، وصلى الله على النبى أحمد.

باب في الحقد والحسد

اعلم: أن الغيظ إذا كُظم لعجز عن التشفى فى الحال رجع إلى الباطن، فاحتقن فيه فصار حقداً.

وعلامته دوام بغض الشخص واستثقاله والنفور منه، فالحقد ثمرة الغضب، والحسد من نتائج الحقد.

وعن الزبير بن العوام رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: **«دب إليكم داء الأمم قبلكم الحسد والبغضاء»**[4].

وفى «الصحيحين»[5] عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: **«لا تباغضوا، ولا تقاطعوا، ولا تحاسدوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً»**.

وفى حديث آخر عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: **«إن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب»**[6].

وفى حديث آخر أنه قال: **«يطلع عليكم من هذا الفج رجل من أهل الجنة، فطلع رجل»**، فسئل عن

---

(١) **صحيح**: أخرجه الطبرانى «الأوسط» (٣/٢٠٧)، «والصغير» (١/١٤٥). من طريق سعيد بن أبى عروبة عن قتادة عن أنس. وانظر صحيح الجامع (١٧٧١).

(٢) **صحيح**: أخرجه البخارى (٦٩٢٧) استتابة المرتدين، ومسلم (٢٥٩٣) البر والصلة.

(٣) **صحيح**: أخرجه مسلم (٢٥٩٢) البر والصلة، وأبو داود (٤٨٠٩)، وابن ماجه (٣٦٨٧)، وأحمد (١٨٧٦٧).

(٤) **حسن**: أخرجه الترمذى (٢٥١٠) صفة القيامة، وأحمد (١٤١٥)، من طريق يحيى بن أبى كثير، عن يعيش بن الوليد، وحسنه الألبانى، وانظر «الإرواء» (٢٣٨).

(٥) **صحيح**: أخرجه البخارى (٦٠٦٤) الأدب، ومسلم (٢٥٦٣) البر والصلة عن أبى هريرة رضي الله عنه.

(٦) **ضعيف**: أخرجه أبو داود (٤٩٠٣) عن إبراهيم بن أبى أسيد عن جده عن أبى هريرة مرفوعاً، وقال الألبانى: «ورجاله موثوقون غير جد إبراهيم وهو مجهول لأنه لم يسم»، وضعفه الألبانى فى الضعيفة (١٩٠٢).

عمله، فقال: إنى لا أجد لأحد من المسلمين فى نفسى غشاً ولا حسداً على خير أعطاه الله إياه»[1].

وروينا أن الله تبارك وتعالى يقول: «الحاسد عدو نعمتى، متسخط لقضائى، غير راضٍ بقسمتى بين عبادى».

وقال ابن سيرين: ما حسدت أحداً على شىء من أمر الدنيا، لأنه إن كان من أهل الجنة، فكيف أحسده على شىء من أمر الدنيا، وهو يصير إلى الجنة، وإن كان من أهل النار، فكيف أحسده على شىء من أمر الدنيا، وهو يصير إلى النار.

وقال إبليس -لعنه الله- لنوح عليه السلام: إياك والحسد، فإنه صيرنى إلى هذه الحال.

بيان حقيقة الحسد وحكمه وعلاجه

واعلم: أن الله تعالى إذا أنعم على أخيك نعمة، فلك فيها حالتان:

إحداهما: أن تكره تلك النعمة وتحب زوالها، فهذه الحالة تسمى حسداً، فالحسد حده: كراهة النعمة وحب زوالها من المنعَم عليه.

والحالة الثانية: أن لا تكره وجودها، ولا تحب زوالها، ولكنك تشتهى لنفسك مثلها، فهذا يسمى غبطة.

قال المصنف رحمه الله:

قلت: واعلم أنى ما رأيت أحداً حقق الكلام فى هذا كما ينبغى، ولابد لى من كشفه فأقول:

اعلم: أن النفس قد جُبلت على حب الرفعة، فهى لا تحب أن يعلوها جنسها، فإذا علا عليها، شق عليها وكرهته، وأحبت زوال ذلك ليقع التساوى، وهذا أمر مركوز فى الطباع، وقد روى أبو هريرة ﷺ، عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: **«ثلاث لا ينجو منهن أحد: الظن، والحسد، والطيرة، وسأحدثكم ما المخرج من ذلك، إذا ظننت فلا تحقق، وإذا تطيرت فامض، وإذا حسدت فلا تبغ»**[2].

وعلاج الحسد، تارة بالرضى بالقضاء، وتارة بالزهد فى الدنيا، وتارة بالنظر فيما يتعلق بتلك النعم من هموم الدنيا وحساب الآخرة، فيتسلى بذلك، ولا يعمل بمقتضى ما فى

---

(١) **إسناده صحيح**: أخرجه أحمد (١٢٢٨٦) عن أنس بن مالك به، وصحح إسناده الألبانى عن أنس، وانظر لذلك الضعيفة (١/ ٢٥).

(٢) انظر تخريج «غاية المرام» للألبانى (٣٠٢).

النفس أصلاً، ولا ينطق، فإذا فعل ذلك لم يضره ما وضع فى جبلته.

فأما من يحسد نبياً على نبوتـه، أو عالماً على علمه، فيؤثر أن لا يرزق ذلك أو يزول عنه، فهذا لا عـذر له، ولا تجبل عليـه إلا النفوس الكافـرة أو الشريرة، فأما إن أحـب أن يسبق أقرانه، ويطلع على ما لم يدركوه، فإنه لا يأثم بذلك، فإنه لم يؤثر زوال ما عندهم عنهم، بل أحب الارتفاع عـنهم ليزيد حظه عنـد ربه، كما لو استـبق عبدان إلى خدمـة مولاهما، فأحب أحدهما أن يستبق. وقد قال الله تعالى: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ (المطففين: ٢٦).

وفى «الصحيحيـن» من حديث ابن عمر ﷺ، عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: **«لا حسد إلا فى اثنتين: رجل آتاه الله عز وجل القرآن، فهو يقوم به آناء الليل، وآناء النهار، ورجل آتاه الله مالاً، فهو ينفقه فى الحق، آناء الليل وآناء النهار»** (١)

والحسد له أسباب:

أحدها: العداوة، والتكبر، والعجب، وحب الرياسـة، وخبث النفس وبخلها، وأشدها: العداوة والبغضاء، فإن من آذاه إنسان بسبب من الأسـباب، وخالفه فى غرضه، أبغضه قلبه ورسخ فى نفسه الحقد.

والحقد يقتضى التشفى والانتقام، فمهما أصاب عدوه من البلاء فرح بذلك، وظنه مكافأة من الله تـعالى له، ومهـما أصابتـه نعمة سـاءه ذلك، فالحسـد يلزم البغـض والعداوة ولا يفارقهما، وإنما غـاية التشفى أن لا يبغى، وأن يكره ذلك من نفسه، فـأما أن يبغض إنساناً فيستوى عنده مسرته ومساءته، فهذا غير ممكن.

وأما الكبر، فهو أن يصيب بعض نظرائه مـالاً أو ولاية، فيخاف أن يتكبر عليه ولا يطيق تكبره، وأن يكون من أصاب ذلـك دونه، فلا يحتمل ترفعه عليه أو مـساواته. وكان حسد الكفار لرسول الله صلى الله عليه وآلـه وسلم قريباً من ذلك. قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ (الزخرف: ٣١)، وقال فى حق المؤمنين: ﴿أَهَؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنْ بَيْنِنَا﴾ (الأنعام: ٥٣)، وقال فى آية أخرى: ﴿مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ (يس: ١٥)، وقال: ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾ (المؤمنون: ٣٤)، فعجـبوا وأنفوا من أن يفـوز برتبة الرسالة بشر مثلهم فحسدوهم.

وأما حب الرياسة وطلب الجاه، فمثاله أن الرجل الذى يريد أن يكون عدم النظير فى فن

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخارى (٧٥٢٩) العلم، ومسلم (٨١٥) صلاة المسافرين.

من الفنون، إذا غلب عليه حب الثناء، واستفزه الفرح بما يمدح به، من أنه أوحد العصر، وفريد الدهر فى فنه، إذا سمع بنظير له فى أقصى العالم، ساءه ذلك وأحب موته، أو زوال النعمة التى بها يشاركه فى علم، أو شجاعة، أو عبادة، أو صناعة، أو ثروة، أو غير ذلك، وليس ذلك إلا لمحض الرياسة بدعوى الانفراد.

وقد كان علماء اليهود ينكرون معرفة النبى صلى الله عليه وآله وسلم، ولا يؤمنون خوفاً من بطلان رئاستهم.

وأما خبث النفس وشحها على عباد الله، فإنك تجد من الناس من لا يشتغل برئاسة ولا تكبر، وإذا وصف عنده حسن حال عبد من عباد الله تعالى فيما أنعم عليه به، شق عليه ذلك، وإذا وصف له اضطراب أمور الناس وإدبارهم، وتنغيص عيشهم، فرح به، فهو أبداً يحب الإدبار لغيره، ويبخل بنعمة الله على عباده، كأنهم يأخذون ذلك من ملكه وخزانته.

وقد قال بعض العلماء: البخيل من يبخل بمال نفسه، والشحيح الذى يبخل بمال غيره، فهذا يبخل بنعمة الله على عباده الذين ليس بينهم وبينه عداوة ولا رابطة، وهذا ليس له سبب إلا خبث النفس ورداءة الطبع، وهذا معالجته شديدة، لأنه ليس له سبب عارض، فيعمل على إزالته، بل سببه خبث الجبلة، فيعسر إزالته، فهذه أسباب الحسد.

فصل فى سبب كثرة الحسد

واعلم: إنما يكثر الحسد بين أقوام تكثر بينهم الأسباب التى ذكرناها، يقع ذلك غالباً بين الأقران، والأمثال، والإخوة، وبنى العم، لأن سبب التحاسد توارد الأغراض على مقاصد يحصل التناقض فيها، فيثور التنافر والتباغض.

ولذلك ترى العالم يحسد العالم دون العابد، والعابد يحسد العابد دون العالم، والتاجر يحسد التاجر، والإسكاف يحسد الإسكاف، ولا يحسد البزاز إلا أن يكون سبب آخر، لأن مقصد كل واحد من هؤلاء غير مقصد الآخر.

فأصل العداوة التزاحم على غرض واحد، والغرض الواحد لا يجمع متباعدين، إذ لا رابطة بين شخصين فى بلدين، ولا يكون بينهما محاسدة إلا من اشتد حرصه على الجاه، وأحب الصيت فى جميع الأطراف، فإنه يحسد كل مَنْ فى العالم ممن يساهمه فى الخصلة التى يفاخر بها.

ومنشأ جميع ذلك حب الدنيا، فإن الدنيا هى التى تضيق على المتزاحمين، وأما الآخرة، فلا ضيق فيها، فإن من أحب معرفة الله تعالى، وملائكته، وأنبياءه، وملكوت أرضه

وسماءه، لم يحسد غيره إذا عرف ذلك، لأن المعرفة لا تضيق على العارفين، بل المعلوم الواحد يعرفه ألف ألف عالم، ويفرح بمعرفته غيره، فلذلك لا يكون بين علماء الدين محاسدة، لأن مقصودهم معرفة الله سبحانه، وهو بحر واسع لا ضيق فيه، وغرضهم المنزلة عند الله، ولا ضيق فيما عند الله، لأن أجل ما عند الله من النعيم لذة لقائه، وليس فيه ممانعة ولا مزاحمة. ولا يضيق بعض الناظرين على بعض، بل يزيد الأنس بكثرتهم، إلا أنه إذا قصد العلماء بالعلم المال والجاه تحاسدوا.

والفرق بين العلم والمال، أن المال لا يحل فى يد ما لم يرتحل عن يد أخرى، والعلم مستقر فى قلب العالم، ويحل فى قلب غيره بتعليمه من غير أن يرتحل عن قلبه، ولا نهاية له، فمن عوَّد نفسه الفكر فى جلال الله وعظمته وملكه، صار ذلك عنده ألذ من كل نعيم، لأنه لم يكن ممنوعاً عنه ولا مزاحماً فيه، فلا يكون فى قلبه حسد لأحد من الخلق، لأن غيره لو عرف مثل معرفته لم ينقص من لذته شىء، فقد عرفت أنه لا حسد إلا فى المتوارد على مقصود يضيق عن الوفاء بالكل.

ولهذا لا ترى الناس يتحاسدون على النظر إلى زينة السماء، لأنها واسعة الأقطار، وافية بجميع الأبصار، فعليك إن كنت شفيقاً على نفسك أن تطلب نعيماً لا زحمة فيه، ولذة لا تتكدر، ولا يوجد ذلك فى الدنيا إلا فى معرفة الله تعالى، ومعرفة صفاته، وعجائب ملكوته، ولا ينال ذلك إلا بهذه المعرفة أيضاً، فإن كنت لا تشتاق إلى معرفة الله سبحانه، ولم تجد لذتها، وضعفت فيها رغبتك، فلستَ برجل، إنما هذا شأن الرجال، لأن الشوق بعد الذوق، ومن لم يذق لم يعرف، ومن لم يعرف لم يشتق، ومن لم يشتق لم يطلب، ومن لم يطلب لم يدرك، ومن لم يدرك بقى من المحرومين.

بيان علاج الحسد العلمى والعملى

واعلم: أن الحسد من الأمراض العظيمة للقلوب، ولا تداوى أمراض القلوب إلا بالعلم والعمل، والعلم النافع لمرض الحسد هو أن تعرف حقيقة أن الحسد ضرر عليك فى الدين والدنيا، وأنه لا يضر المحسود فى الدين ولا فى الدنيا، بل ينتفع به، والنعمة لا تزول عن المحسود بحسدك، ولو لم تكن تؤمن بالبعث لكان مقتضى الفطنة إن كنت عاقلاً أن تحذر من الحسد، لما فيه من ألم القلب مع عدم النفع، فكيف وأنت تعلم ما فيه من العذاب فى الآخرة.

وبيان قولنا: أن المحسود لا ضرر عليه فى الدين ولا فى الدنيا، بل ينتفع بحسدك فى الدين والدنيا، لأن ما قدره الله له من نعمة لابد أن تدوم إلى أجله إذا قدره الله عليه، ولا ضرر عليه فى الآخرة، لأنه لا يأثم هو بذلك، بل ينتفع به، لأنه مظلوم من جهتك. لاسيما إذا أخرجت الحسد إلى القول والفعل.

وأما منفعته فى الدنيا، فهو أن من أهم أغراض الخلق غم الأعداء، ولا عذاب أعظم مما أنت فيه من العذاب – أى الحسد.

فإذا تأملت ما ذكرناه، علمت أنك عدو لنفسك، وهو صديق لعدوك، فما مثلك إلا كمثل من يرمى حجراً عدوه ليصيب مقتله فلا يصيبه، ويرجع الحجر على عينه اليمنى فيقلعها، فيزيد غضبه، فيعود ويرميه بحجر أشد من الأول، فيرجع الحجر على عينه الأخرى فيعميها، فيزداد غيظه، فيرميه الثالثة، فيعود الحجر على رأسه فيشدخه، وعدوه سالم يضحك منه، فهذه الأدوية العلمية، فإذا تفكر الإنسان فيها، أخمدت نار الحسد من قلبه.

وأما العمل النافع فيه، فهو أن يتكلف نقيض ما يأمر به الحسد. فإذا بعثه على الحقد والقدح فى المحسود، كلف نفسه المدح له، والثناء عليه. وإن حمله على الكبر، ألزم نفسه التواضع له. وإن بعثه على كف الإنعام عنه، ألزم نفسه زيادة فى الإنعام.

وقد كان جماعة من السلف إذا بلغهم أن شخصاً اغتابهم، أهدوا إليه هدية.

فهذه أدوية نافعة للحسد جداً، إلا أنها مُرّة، وربما يُسهّل شربها أن يعلم أنه إذا كان لا يكون كل ما تريد، فأرد ما يكون، وهذا هو الدواء الكلى، والله أعلم، وصلى الله على أحمد وعلى أصحابه وسلم.

كتاب ذم الدنيا

الآيات الواردة فى القرآن العزيز بعيب الدنيا، والتزهيد فيها، وضرب الأمثال لها كثيرة، كقوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (١٤) قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَلِكُمْ﴾ (آل عمران: ١٤-١٥)، وقوله: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ (آل عمران: ١٨٥)، وقوله: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ (يونس: ٢٤)، وقوله: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ﴾ (الحديد: ٢٠)، وقوله: ﴿وَإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (الزخرف: ٣٥)، وقوله: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٢٩) ذَلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ﴾ (النجم: ٢٩-٣٠).

وأما الأحاديث التى فى ذمها، ففى «الصحيحين»[١] من رواية المستورد بن شداد، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: **«ما الدنيا فى الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه هذه فى اليم، فلينظر بما ترجع؟»**.

وفى حديث آخر: **«الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر»** رواه مسلم.[٢]

وفى حديث آخر: **«لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافراً شربة ماء»**. رواه الترمذى وصححه.[٣]

وفى حديث آخر: **«الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ما كان لله منها»**.[٤]

وروى أبو موسى، عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: **«من أحب دنياه، أضر**

---

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم (٢٨٥٨) الجنة وصفة نعيمها، والترمذى (٢٣٢٣) الزهد، وابن ماجه (٤١٠٨) الزهد، وأحمد (١٧٥٤٧) عن المستورد بن شداد.

(٢) **صحيح**: أخرجه مسلم (٢٩٥٦) الزهد والرقائق، والترمذى (٢٣٢٤) الزهد، وابن ماجه (٤١١٣) الزهد، وأحمد (٨٠٩٠) عن أبى هريرة ﷺ.

(٣) **صحيح**: أخرجه الترمذى (٢٣٢٠) الزهد، وصححه الألبانى عن أبى حازم عن سهل بن سعد، وانظر الصحيحة (٩٤٠).

(٤) **حسن**: أخرجه الترمذى (٢٣٢٢) الزهد، وابن ماجه (٤١١٢) عن علىّ بن ثابت عن عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان عن عطاء بن قرة عن عبد الله بن ضمرة عن أبى هريرة عن النبى ﷺ: **«ألا إن الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه وعالم أو متعلم»** وقال أبو عيسى: «حديث حسن غريب». وحسنه الألبانى فى صحيح الترمذى.

بآخرته، ومن أحب آخرته أضر بدنياه، فآثروا ما يبقى على ما يفنى»[1] .

وكتب الحسن إلى عمر بـن عبد العزيز فى ذم الدنيا كتاباً طويلاً فيـه: أما بعد فإن الدنيا دار ظعن ليست بدار مـقام، وإنما أنزل إليها آدم عقوبـة، فاحذرها يا أمير المؤمنيـن، فإن الزاد منها تركها، والغنى فيها فقرها، تذل من أعزها، وتفقر من جمعها، كالسم يأكله من لا يعرفه وهو حتفه، فاحذر هذه الدار الغرارة الخيالة الخداعـة، وكن أسرَّ ما تكون فيها، أحْذَر ما تكون لها، سرورها مشوب بالحزن، وصفوها مشوب بالكدر، فلـو كان الخالق يخبر عنها خيراً، ولم يضرب لها مثـلاً لكانت قد أيقظت النـائم، ونبهت الغافل، فـكيف وقد جاء من الله عـز وجل عنها زاجر، وفيها واعظ، فما لها عند الله سبحانه وتعالى قدر ولا وزن، وما نظر إليها منذ خلقها.

ولقد عرضت على نبينا محمد صلى الله عليـه وآله وسلم مفاتيحها وخزائنها، لا ينقصه عند الله جناح بعوضة، فأبى أن يقبلها، إذ كره أن يحب ما أبغض خالقه، أو يرفع ما وضع مليكه، زواها الله عن الصالحين اختياراً، وبسطها لأعدائه اغتراراً، أفيظن المغرور بها المقتدر عليها أنه أكرم بها؟! ونسى ما صنع الله بمـحمد صلى الله عليه وآله وسلم حين شد علـى بطنه الحجر، والله ما أحد من الناس بسط له فى الدنيا، فلم يخفْ أن يكون قد مُكر به إلا كان قد نقص عقله، وعجز رأيه، وما أمسك عن عبد فلم يظن أنه قد خير له فيها، إلا كان قد نقص عقله وعجز رأيه.

وقال مالك بن دينار: اتقوا السحارة، فإنها تسحر قلوب العلماء، يعنى الدنيا.

ومن أمثلة الـدنيا: قال يونس بن عبـيد: شبهت الدنـيا كرجل نائم، فرأى فى مـنامه ما يكرهه وما يحب، فبينما هو كذلك انتبه.

ومثل هذا قولهم: الناس نيام، فإذا ماتوا انتبهوا.

والمعنى أنهم ينتبهون بالموت وليس فى أيديهم شىء مما ركنوا إليه وفرحوا به.

قيل: إن عيسى عليه السلام رأى الدنيا فى صورة عجوز هتماء عليها من كل زينة. فقال لها: كم تزوجت؟ قالـت: لا أحصيهم. قال: فكلهم مات عنك أو كـلهم طلقك؟ قالت:

---

(١) **صحيح لغيره** : أخرجه أحمد (١٩٥٨٥)، والحاكم (٤/ ٣٥٤)، وابن حبان (٢٤٧٣) «موارد»، والقضاعى «مسند الشهاب» (١/ ٢٥٨)، والبيـهقي «السنن الكبرى» (٣/ ٣٧٠)، وعبد بن حمـيد في «مسنده» (١/ ١٩٨)، من طرق عن عمرو بن أبي عمرو عن المطلب بن حنطب عن أبى موسى عن النبى ﷺ وقال الحاكم: «صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه»، وصححه الألبانى فى «صحيح موارد الظمآن» بقوله: «صحيح لغيره».

بل كلهم قتلتُ، فقال عيسى عليه السلام: بؤساً لأزواجك الباقين، كيف لا يعتبرون بأزواجك الماضين، كيف تهلكينهم واحداً بعد واحد، ولا يكونون منك على حذر.

وروى عن ابن عباس ﷺ قال: يؤتى بالدنيا يوم القيامة فى صورة عجوز شمطاء زرقاء أنيابها بادية، مشوّه خلقها، فتشرف على الخلق، فيقال: هل تعرفون هذه؟ فيقولون: نعوذ بالله من معرفة هذه. فيقال: هل ترون هذه الدنيا التى تشاجرتم عليها، وبها تقاطعتم الأرحام، وبها تحاسدتم وتباغضتم واغتررتم، ثم تقذف فى جهنم، فتنادى: يا رب أين أتباعى وأشياعى؟ فيقول: ألحقوا بها أتباعها وأشياعها.

وعن العلاء بن زياد، قال: رأيت فى النوم عجوزاً كبيرة عليها من كل زينة، والناس عاكفون عليها متعجبون، ينظرون إليها، فقلت: من أنت ويلك؟ قالت: أما تعرفنى؟ قلت: لا، قالت: أنا الدنيا. فقلت: أعوذ بالله من شرِّك. قالت: إن أحببت أن تعاذ من شرى فأبغض الدرهم.

وقال بعضهم: رأيت الدنيا فى النوم عجوزاً مشوهة الخلقة حدباء.

مثال آخر: واعلم أن أحوالك ثلاث: حال لم تكن فيها شيئاً، وهو قبل أن توجد.

وحال أخرى، وهى من ساعة موتك إلى ما لا نهاية له فى البقاء السرمدى، فإن لنفسك وجوداً بعد خروجها من بدنك، إما فى الجنة أو النار، وهو الخلود الدائم.

وبين هاتين الحالتين حالة متوسطة، وهى أيام حياتك فى الدنيا، فانظر إلى مقدار ذلك، وانسبه إلى الحالتين، تعلم أنه أقل من طرفة عين فى مقدار عمر الدنيا.

ومن رأى الدنيا بهذه العين لم يركن إليها، ولم يبالِ كيف انقضت أيامه بها فى ضرر، وضيق، أو سعة ورفاهية، ولهذا لم يضع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لبنة على لبنة، ولا قصبة على قصبة. وقال: **«ما لى وللدنيا؟! إنما مثلى ومثل الدنيا كراكب، استظل تحت شجرة، ثم راح وتركها»**. (١)

وقال عيسى عليه السلام: الدنيا قنطرة، فاعبروها ولا تعمروها. هذا مثل واضح، فإن

---

(١) **صحيح** : أخرجه أحمد (٣٧٠٩)، والترمذي (٢٣٧٧)، وابن ماجه (٤١٠٩)، والطيالسي (٢٧٧)، والقضاعى «مسند الشهاب» (٢/ ٢٩٠)، وأبو يعلى (٤٩٩٨)، والطبراني في «الأوسط» (٩٣٠٧)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٤٣٠٣)، عن عمرو بن مرة عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ. وقال أبو عيسى: «حسن صحيح». وصحح إسناده أحمد شاكر، وصححه الألباني كما في «صحيح الترمذي»، وقال أبو عيسى: «وفي الباب عن ابن عمر وابن عباس».

الحياة الدنيا مَعْبَر إلى الآخرة، والمهد هو الركن الأول على أول القنطرة، واللحد هو الركن الثانى على آخر القنطرة.

ومن الناس من قطع نصف القنطرة، ومن الناس من قطع ثلثها، ومنهم من لم يبق له إلا خطوة واحدة وهو غافل عنها، وكيفما كان فلابد من العبور، فمن وقف يبنى على القنطرة ويزينها وهو يُستَحث للعبور عليها، فهو فى غاية الجهل والحمق.

وقيل: مثل طالب الدنيا، مثل شارب ماء البحر، كلما ازداد شرباً، ازداد عطشاً حتى يقتله.

وكان بعض السلف يقول لأصحابه: انطلقوا حتى أريكم الدنيا، فيذهب بهم إلى مزبلة فيقول: انظروا إلى ثمارهم ودجاجهم وعسلهم وسمنهم.

مثال آخر: روى عن الحسن قال: بلغنى عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: **«إنما مثلى ومثلكم ومثل الدنيا كمثل قوم سلكوا مفازة غبراء، حتى إذا لم يدروا ما سلكوا منها أكثر أو ما بقى، أنفذوا الزاد وخسروا الظهر، وبقوا بين ظهرانى المفازة، لا زاد ولا حمولة، فأيقنوا بالهلكة، فبينما هم كذلك، إذ طلع عليهم رجل فى حلة يقطر رأسه، فقالوا: إن هذا قريب عهد بريف، وما جاء هذا إلا من قريب، فلما انتهى إليهم قال: يا هؤلاء، علام أنتم؟ قالوا: على ما ترى. قال: أرأيتكم إن هديتكم إلى ماء رواء، ورياض خضر ما تعملون؟ قالوا: لا نعصيك شيئاً. قال: عهودكم ومواثيقكم بالله. قال: فأعطوه عهودهم ومواثيقهم بالله لا يعصونه شيئاً. قال: فأوردهم ماء ورياضاً خضراً، فمكث فيهم ما شاء الله، ثم قال: يا هؤلاء، الرحيل. قالوا: إلى أين؟ قال: إلى ماء ليس كمائكم، وإلى رياض ليست كرياضكم، فقال أكثر القوم: والله ما وجدنا هذا حتى ظننا أن لن نجده، وما نصنع بعيش خير من هذا؟ وقالت طائفة قليلة: ألم تعطوا هذا الرجل عهودكم ومواثيقكم بالله لا تعصونه؟ وقد صدقكم فى أول حديثه، فوالله ليصدقنكم فى آخره. قال: فراح فيمن اتبعه، وتخلف بقيتهم، فظهر عليهم عدو، فأصبحوا بين أسير وقتيل»**. [1]

وفى «الصحيحين»[2] من حديث أبى موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: **«إنما مثلى ومثل ما بعثنى الله به، كمثل رجل أتى قومه فقال: يا قوم، إنى رأيت الجيش بعينى، وأنا النذير العريان، فالنجاء، فأطاعه طائفة من قومه، فأدلجوا وانطلقوا على مهلتهم، فنجوا، وكذبته طائفة منهم، فأصبحوا مكانهم. فصبَّحهم الجيش فى مكانهم، فأهلكهم واجتاحهم، فذلك مثل مَنْ أطاعنى واتبع ما جئت به، ومثل مَنْ عصانى وكذب بما جئت به من حق»**.

---

(١) انظر «كنز العمال» (١٠١٥).

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٦٠٠١) (٦٧٤٠)، ومسلم (٤٢٣٣) الرقاق.

فصل في بيان حقيقة الدنيا والمذموم منها والمحمود

قد سمع خلق كثير ذم الدنيا مطلقاً، فاعتقدوا أن الإشارة إلى هذه الموجودات التى خلقت للمنافع، فأعرضوا عما يصلحهم من المطاعم والمشارب.

وقد وضع الله فى الطباع توقان النفس إلى ما يصلحها، فكلما تاقت منعوها، ظناً منهم أن هذا هو الزهد المراد، وجهلاً بحقوق النفس، وعلى هذا أكثر المتزهدين، وإنما فعلوا ذلك لقلة العلم، ونحن نصدع بالحق من غير محاباة فنقول:

اعلم: أن الدنيا عبارة عن أعيان موجودة للإنسان، فيها حظ، وهى الأرض وما عليها، فإن الأرض مسكن الآدمى، وما عليها ملبس ومطعم ومشرب ومنكح، وكل ذلك علف لراحلة بدنه السائر إلى الله عز وجل، فإنه لا يبقى إلا بهذه المصالح، كما لا تبقى الناقة فى طريق الحج إلا بما يصلحها، فمن تناول منها ما يصلحه على الوجه المأمور به مدح، ومن أخذ منها فوق الحاجة بكف الشره وقع فى الذم، فإنه ليس للشره فى تناول الدنيا وجه؛ لأنه يخرج عن النفع إلى الأذى، ويشغل عن طلب الآخرة فيفوت المقصود، ويصير بمثابة من أقبل يعلف الناقة، ويرد لها الماء، ويغير عليها ألوان الثياب، وينسى أن الرفقة قد سارت، فإنه يبقى فى البادية فريسة للسباع هو وناقته.

ولا وجه أيضاً للمقصرين فى تناول الحاجة، لأن الناقة لا تقوى على السير إلا بتناول ما يصلحها، فالطريق السليم هى الوسطى، وهى أن يؤخذ من الدنيا قدر ما يحتاج إليه من الزاد للسلوك، وإن كان مشتهى، فإن إعطاء النفس ما تشتهيه عون لها وقضاء لحقها. وقد كان سفيان الثورى يأكل فى أوقات من طيب الطعام، ويحمل معه فى السفر الفالوذج.

وكان إبراهيم بن أدهم يأكل من الطيبات فى بعض الأوقات، ويقول: إذا وجدنا أكلنا أكل الرجال، وإذا فقدنا صبرنا صبر الرجال.

ولينظر فى سيرة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وصحابته، فإنهم ما كان لهم إفراط فى تناول الدنيا، ولا تفريط فى حقوق النفس.

وينبغى أن يتلمح حظ النفس فى المشتهَى، فإن كان فى حظها حفظها وما يقيمها ويصلحها وينشطها للخير، فلا يمنعها منه، وإن كان حظها مجرد شهوة ليست متعلقة بمصالحها المذكورة فذلك حظ مذموم، والزهد فيه يكون.

كتاب فى ذم البخل والحرص والطمع
وذم المال ومدحه ومدح القناعة والسخاء، ونحو ذلك

اعلم: أن المال لا يذم لذاته بل يقع الذم لمعنى من الآدمى، وذلك المعنى إما شدة حرصه أو تناوله من غـير حله، أو حبسـه عن حقه، أو إخراجه فـى غير وجهه، أو المفـاخرة به، ولهذا قال الله تعالى: ﴿أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ (الانفال: ٢٨).

وفى «سنن التـرمذى» عن النبى صلـى الله عليه وآله وسـلم أنه قال: **«ما ذئبان جائعان ارسلا فى غنم، بأفسد من حرص المرء على المال والشرف لدينه»**.(١)

وقد كان السلف يخافون من فتنة المال. وكان عمر ﷺ إذا رأى الفتوح يبكى، ويقول: ما حبس اللـه هذا عن نبيه صلى الله علـيه وآله وسلم وعن أبى بكر لشر أراده الـله بهما، وأعطاه عمر إرادة الخير له.

وقال يحيى بن معاذ: الدرهم عقرب، فإن لم تحسن رقيته فلا تأخذه، فإنه إن لدغك قتلك سمه. قيل: ما رقيته؟ قال: أخذه من حله ووضعه فى حقه. وقال: مصيبتان للعبد فى ماله عند موته لا تسمع الخلائق بمثلهما، قيل: ما هما؟ قال: يُؤخذ منه كله، ويُسأل عنه كله.

بيـان فـى مـدح المـال

قد بيّنا أن المال لا يذم لذاتـه بل ينبغى أن يمدح، لأنه سبب للتوصـل إلى مصالح الدين والدنيا، وقد سماه الله تعالى خـيراً، وهو قوام الآدمى. قال الله تعالى: ﴿وَلا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾ (النساء: ٥).

وقال سعيد بن المسـيب رحمه الله: لا خير فيمن لا يريد جـمع المال من حله، يكف به وجهه عن الناس، ويصل به رحمه، ويعطى منه حقه.

وقال أبو إسحاق السبيعى: كانوا يرون السعة عوناً على الدين.

وقال سفيان: المال فى زماننا هذا سلاح المؤمنين. .

---

(١) **صحيح**: أخرجه الترمـذى (٢٣٧٦) الزهد، وأحمد (١٥٣٦٧)، من طريق عبد الله بـن المبارك عن زكريا بن أبى زائدة، عن محمد بن عبد الرحمن بن سعد بن زُرارة، عن ابن كعب بن مالك عن أبيه. وصححه الألبانى فى صحيح الترمـذى، وقال أبو عيسى: «حسن صحيح. ويُروى فى هذا البـاب عن ابن عمر، عن النبى ﷺ، ولا يصح إسناده».

بيان آفات المال وفوائده

وحاصل الأمر، أن المال مثل حية فيها سم وترياق، فترياقه فوائده، وغوائله سمومه، فمن عرف فوائده وغوائله، أمكنه أن يتحرز من شره، ويستدر من خيره.

أما فوائده، فتنقسم إلى دنيوية ودينية:

أما الدنيوية، فالخلق يعرفون لذتها، ولولا ذلك لم يتهالكوا فى طلبها.

وأما الدينية، فتنحصر فى ثلاثة أنواع:

احدها : أن ينفقه على نفسه، إما فى عبادة، كالحج والجهاد، وإما فى الاستعانة على العبادة، كالمطعم والملبس والمسكن وغيرها من ضرورات المعيشة، فإن هذه الحاجات إذا لم تتيسر، لم يتفرغ القلب للدين والعبادة، وما لا يتوصل إلى العبادة إلا به، فهو عبادة، فأخذ الكفاية من الدنيا للاستعانة على الدين من الفوائد الدينية، ولا يدخل فى هذا التنعم والزيادة على الحاجة، فإن ذلك من حظوظ الدنيا.

النوع الثانى: ما يصرفه إلى الناس، وهو أربعة أقسام:

أحدها: الصدقة، وفضائلها كثيرة مشهورة.

القسم الثانى: المروءة، ونعنى بها صرف المال إلى الأغنياء والأشراف فى ضيافة وهدية وإعانة ونحو ذلك، وهذا من الفوائد الدينية، إذ به يكتسب العبد الإخوان والأصدقاء.

القسم الثالث: وقاية العرض نحو بذل المال لدفع هجو الشعراء، وثَلْب السفهاء، وقطع ألسنتهم، وكف شرهم، فهو من الفوائد الدينية، فإن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال: «وما وقى الرجل به عرضه فهو صدقة»(1). وهذا لأنه يمنع المغتاب من معصية الغيبة، ويحرز مما يثير كلامه من العداوة التى تحمل فى الانتقام على مجاوزة حدود الشريعة.

القسم الرابع: ما يعطيه أجراً على الاستخدام، فإن الأعمال التى يحتاج إليها الإنسان لتهيئة أسبابها كثيرة، ولو تولاها بنفسه ضاعت أوقاته، وتعذر عليه سلوك سبيل الآخرة

---

(1) **إسناده ضعيف :** أخرجه البيهقى «الكبرى» (١٠/ ٢٤٢)، وأبو يعلى (٢٠٤٠) عن محمد بن المنكدر عن جابر ﷺ، وقال فى «المجمع» (٣/ ١٣٦): «فى إسناده مسور بن الصلت وهو ضعيف»، وانظر ضعيف الجامع (٤٢٥٤) للألبانى.

بالفكر والذكر اللذين همـا أعلى مقامات السالكين، ومن لا مال له يفتـقر إلى أن يتولى خدمة نفسه بـنفسه، فكل ما يتـصور أن يقوم به غيرك، ويـحصل بذلك غرضك، فإن تـشاغلك به غبن، لأن احتياجك إلى التشاغل بما لا يقوم به غيرك من العلم والعمل والذكر والفكر أشد.

النوع الثالث: ما لا يـصرفه الإنسـان إلى معـين، لكن يحـصل به خيـراً عاماً، كـبناء المساجد، والقـناطر، والوقوف المؤبدة، فهذه جـملة فوائد المال فى الدين، سوى مـا يتعلق بالحظوظ العاجلة، من الخلاص من ذل السؤال، وحقـارة الفقر، والعز بين الخلق، والكرامة فى القلوب، والوقار.

وأما غوائل المال وآفاته، فتنقسم أيضاً إلى دينية ودنيوية:

أما الدينية فثلاث فئات:

الأولى: أنه يجر إلى المعاصى غالباً، لأن من استشعر القدرة على المعصية، انبعثت داعيته إليها.

والمال نوع من القدرة يـحرك داعيته إلى المعـاصى، ومتى يئس الإنسان من المعـصية، لم تتحرك داعيته إليها.

ومن العصمة أن لا تجد، فصاحب القدرة إن اقتحم ما يشتهى هلك، وإن صبر لقى شدة فى معاناة الصبر مع القدرة، وفتنة السراء أعظم من فتنة الضراء.

الثانية: أنه يجره إلى التنعم فى المـباحات، حتى تصير له عادة وإلفاً، فـلا يصبر عنها، وربما لم يقدر على استدامـتها إلا بكسب الحلال، فيقتحم الشبـهات، ويترقى إلى آفات من المداهنة والنفـاق، لأن من كثر ماله خالـط الناس، وإذا خالطهم لم يسلم مـن نفاق وعداوة وحسد وغيبة، وكل ذلك من الحاجة إلى إصلاح المال.

الثالثة: وهى التى لا ينفك عنها أحد، وهو أن يلهيه ماله عن ذكر الله تعالى، وهذا هو الداء العضـال، فإن أصل العبادات ذكـر الله تعالى، والتفـكير فى جلاله وعظمـته، وذلك يستدعى قلباً فارغاً.

وصاحب الضيعة يمسى ويـصبح متفكراً فى خصومة الفلاحين ومحاسـبتهم وخيانتهم، ويتفكر فـى منازعة شركائه فى الحـدود والماء، وأعوان السلطان فى الخـراج، والأجراء على التقصير فى العمارة ونحو ذلك.

وصاحب التجارة يمسى ويصبح متفكراً فى خيانة شريكه، وتقصيره فى العمل، وتضييعه المال.

وكذا سائر أصناف المال، حتى صاحب المال المجموع المكنوز يفكر فى كيفية حفظه، وفى الخوف عليه.

ومن له قوت يوم فهو فى سلامة من جميع ذلك، وهذه الآفات الدنيوية سوى ما يقاسيه أرباب الأموال فى الدنيا من الخوف والحزن والهم والغم والتعب.

فإذاً ترياق المال أخذ القوت منه، وصرف الباقى إلى الخيرات، وما عدا ذلك سموم وآفات.

بيان ذم الحرص والطمع ومدح القناعة واليأس مما فى أيدى الناس

واعلم: أن الفقر محمود، ولكن ينبغى للفقير أن يكون قانعاً، منقطع الطمع عن الخلق، غير ملتفت إلى ما فى أيديهم، ولا حريص على اكتساب المال كيف كان، ولا يمكنه ذلك إلا بأن يقنع بقدر الضرورة من المطعم والملبس.

وقد روى فى «صحيح مسلم» عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: **«قد أفلح من أسلم، ورزق كفافاً، وقنعه الله بما آتاه»**.[1]

وقال سليمان بن داود عليهما السلام: قد جربنا العيش كله، لينه من شديده، فوجدناه يكفى منه أدناه.

وفى حديث جابر رضي الله عنه، عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال: «القناعة مال لا ينفد».[2]

وقال أبو حازم: ثلاث من كن فيه كمل عقله: من عرف نفسه، وحفظ لسانه، وقنع بما رزقه الله عز وجل.

---

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم (١٠٥٤) الزكاة، وأحمد (٦٥٣٦)، والترمذى (٢٣٤٨) الزهد، وقال أبو عيسى: «حديث حسن صحيح».

(٢) **موضوع**: أخرجه الطبرانى «الأوسط» (٦٩٢٢) (٧/ ٨٤)، وفى إسناده خالد بن إسماعيل المخزومى، وهو متروك كما قال الهيثمى فى «المجمع» (١٠/ ٢٥٦)، وله طريق آخر يرويه عبد الله بن إبراهيم بن أبى عمرو المدنى الغفارى: حدثنى المنكدر بن محمد بن المنكدر، عن أبيه، عن جابر به، أخرجه العقيلى فى الضعفاء (١٩٧). وقال العلامة الألبانى: «الغفارى هذا متروك، ونسبه ابن حبان إلى الوضع». وقال الحاكم: «يروى عن جماعة من الضعفاء أحاديث موضوعة». قال الألبانى: «ومن هؤلاء الضعفاء شيخه. المنكدر بن محمد بن المنكدر». والحديث حكم الألبانى عليه بالوضع فى «الضعيفة» (٣٩٠٧).

وقرأ بعض الحكماء: أنت أخو العز ما التحفت بالقناعة.

أما الحرص، فقد نهى عنه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: **«أيها الناس، أجملوا فى الطلب، فإنه ليس للعبد إلا ما كتب له»**[(١)].

ونهى عن الطمع فقال: **«أجمع اليأس مما فى أيدى الناس»**.[(٢)]

وقال بعض السلف: لو قيل للطمع: مَنْ أبوك؟ قال: الشك فى المقدور، ولو قيل له: ما حرفتك؟ قال: اكتساب الذل، ولو قيل له: ما غايتك؟ قال: الحرمان.

وقيل: الطمع يذل الأمير، واليأس يعز الفقير.

بيان علاج الحرص والطمع والدواء الذى تكتسب به صفة القناعة

اعلم: أن هذا الدواء مركب من ثلاثة أركان:

الصبر، والعلم، والعمل، ومجموع ذلك خمسة أمور:

الأول: الاقتصاد فى المعيشة، والرفق فى الإنفاق، فمن أراد القناعة فينبغى أن يسد عن نفسه أبواب الخروج وما أمكنه، ويرد نفسه إلى ما لابد منه، فيقنع بأى طعام كان، وقليل من الإدام، وثوب واحد، ويوطن نفسه على ذلك، وإن كان له عيال، فيرد كل واحد إلى هذا القدر.

قال النبى صلى الله عليه وآله وسلم: **«ما عال من اقتصد»**[(٣)] وفى حديث آخر: **«التدبير**

---

(١) **صحيح**: انظر صحيح الجامع (٢٠٨٥)، (٢٧٤٢)، (٧٣٢٣).

(٢) **حسن**: أخرجه ابن ماجه (٤١٧١) الزهد، والبخارى فى «التاريخ» كما فى «الصحيحة» للألبانى، وأبو نعيم فى الحلية (١/ ٣٦٢) من طريق عثمان بن جبير، مولى أبى أيوب، عن أبى أيوب عن النبى ﷺ . قال الألبانى: «وهذا سند ضعيف، لجهالة عثمان بن جبير». قال فى «الميزان»: «ما روى عنه سوى عبد الله بن عثمان بن خثيم حسب». وحسنه الألبانى بشواهده فى «الصحيحة» (٤٠١).

(٣) **ضعيف**: أخرجه أحمد (٤٠٤٨)، وابن أبى شيبة (٥/ ٣٣١) رقم (٢٦٦٠٤)، والبيهقى فى «الشعب» كما فى الضعيفة عن سكين بن أبى الفرات العبدى -هو ابن عبد العزيز-: نا إبراهيم الهجرى، عن أبى الأحوص، عن عبد الله بن مسعود مرفوعاً. ومن هذا الوجه رواه الطبرانى (١٠١١٨) (١٠/ ١٠٨) فى الكبير، وفى الأوسط (٥٠٩٤) (٥/ ٢٠٦). قال الألبانى: «وهذا سند ضعيف، من أجل الهجرى هذا، فإنه لين الحديث». ورواه الطبرانى (٣/ ١٧١/ ٢)، وابن عدى (١١٥/ ١) عن خالد بن يزيد عن أبى روق، عن الضحاك بن مزاحم، عن ابن عباس مرفوعاً، كما فى الضعيفة (٤٤٥٩). قال الألبانى: «وهذا ضعيف أيضاً لانقطاعه، فإن الضحاك لم يلق ابن عباس. وخالد بن يزيد، هو ابن عبد الرحمن بن أبى مالك الدمشقى، قال الحافظ: «ضعيف مع كونه فقيهاً، وقد اتهمه ابن معين»، وانظر «الضعيفة» للألبانى (٤٤٥٩).

نصف العيش»[(١)]. وفى حديث آخر: **«ثلاث منجيات: خشية الله تعالى فى السر والعلانية، والقصد فى الغنى والفقر، والعدل فى الرضى والغضب»**.[(٢)]

الثانى: أنه إذا تيسر له فى الحال ما يكفيه، فلا يكون شديد الاضطراب لأجل المستقبل ويعينه على ذلك قصر الأمل، واليقين بأن رزقه لابد أن يأتيه، وليعلم أن الشيطان يعده الفقر.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: **«إن روح القدس نفث فى روعى، أنه ليس من نفس تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها، فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب، ولا يحملنكم استبطاء الرزق أن تطلبوه بمعاصى الله عز وجل، فإنه لا يدرك ما عند الله إلا بطاعته»**.[(٣)]

وإذا انسد عنه باب كان ينتظر الرزق منه، فلا ينبغى أن يضطرب قلبه، فإن فى الحديث: **«أبى الله أن يرزق عبده المؤمن إلا من حيث لا يحتسب»**.[(٤)]

---

(١) **ضعيف**: رواه القضاعى فى «مسند الشهاب» (٤/ ١) عن إسحاق بن إبراهيم الشامى، قال: نا على بن حرب، قال: نا موسى بن داود الهاشمى، قال: نا ابن لهيعة عن محمد بن عبد الرحمن بن نوفل عن عامر بن عبد الله بن الزبير عن أبيه عن علىّ عليه السلام مرفوعاً هكذا فى «الضعيفة» (١٥٦٠) وقال الألبانى: «وهذا إسناد ضعيف، ابن لهيعة -واسمه عبد الله- ضعيف». وقال الألبانى أيضاً: «والحديث رواه الديلمى فى «مسند الفردوس» من حديث أنس بن مالك، قال المناوى: «قال العراقى: فيه خلاد بن عيسى، جهله العقيلى، ووثقه ابن معين». وانظر «الضعيفة» (١٥٦٠).

(٢) **حسن بشواهده**: ذكره أبو الشيخ فى «التوبيخ» عن أنس كما فى «الفتح الكبير» (٥٥٥٨)، وحسنه الألبانى فى «المشكاة» (٥١٢٢).

(٣) **حسن**: حسنه الألبانى بشواهده فى «الصحيحة» (٢٨٦٦) من طريق إسماعيل بن أبى خالد عن (عبد الملك بن عمير) وزبيد اليامى عن عبد الله بن مسعود مرفوعاً. وقال الألبانى: «وهذا إسناد رجاله ثقات رجال الشيخين، لكنه منقطع من الوجهين، أما زبيد فإنه لم يدرك ابن مسعود يقيناً». وأما عبد الملك فإنه ولد فى السنة التى مات ابن مسعود فيها، أو بعدها بسنة. وقال الألبانى: «ورواه الحاكم (٢/ ٤) من طريق سعيد بن أبى هلال عن سعيد ابن أبى أمية الثقفى عن يونس بن بكير عن ابن مسعود مرفوعاً به. وهذا إسناد مظلم». وقال الألبانى أيضاً بعد سياق شواهد له: «وبالجملة فالحديث حسن على أقل الأحوال» راجع «الصحيحة» (٢٨٦٦).

(٤) **منكر**: قال الألبانى: «أخرجه الحاكم فى «تاريخه» بإسناده عن عمر بن خلف المخزومى: حدثنا عمر بن راشد عن عبد الرحمن بن حرملة عن سعيد بن المسيب عن أبى هريرة .... وقال الحاكم: «هذا حديث غريب الإسناد والمتن، وعبد الرحمن بن حرملة المدينى عزيز الحديث جداً. قال الألبانى: «وهو مختلف فيه، وإنما الآفة عن عمر بن راشد». ومن طريق الحاكم أخرجه الديلمى (١/ ١/ ٨٠) وأورده ابن الجوزى فى «الموضوعات» (٢/ ١٥٢-١٥٣) من طريق ابن حبان [راجع «الضعيفة» للألبانى (١٤٩٠)] وأخرجه القضاعى (٥٨٥) عن علىّ، وفى إسناده عمر بن راشد.

الثالث: أن يعرف ما فى القناعة من عز الاستغناء، وما فى الطمع والحرص من الذل.

وليس فى القناعة إلا الصبر عن المشتبهات والفضول، مع ما يحصل له من ثواب الآخرة، ومن لم يؤثر عز نفسه على شهوته، فهو ركيك العقل، ناقص الإيمان.

الرابع: أن يكثر تفكره فى تنعم اليهود والنصارى وأراذل الناس والحمقى منهم، ثم ينظر إلى أحوال الأنبياء والأولياء والصالحين، ويسمع أحاديثهم، ويطالع أحوالهم، ويخير عقله بين مشابهة أراذل العالمين، أو الاقتداء بمن هو أعز أصناف الخلق عند الله تعالى، حتى يهون عليه الصبر على القليل والقناعة باليسير، وأنه إن تنعم بالأكل فالبهيمة أكثر أكلاً منه، وإن تنعم بالوطء فالعصفور أكثر سفاداً منه.

الخامس: أن يفهم ما فى جمع المال من الخطر، كما ذكرناه فى آفات المال، وينظر إلى ثواب الفقر، ويتم ذلك بأن ينظر أبداً إلى من دونه فى الدنيا، وإلى من فوقه فى الدين، كما جاء فى الحديث من رواية مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: **«انظروا إلى مَنْ هو أسفل منكم، ولا تنظروا إلى مَنْ هو فوقكم، فإنه أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم»**.(1)

عماد الأمر: الصبر وقصر الأمل، وأن يعلم أن غاية صبره فى الدنيا أيام قلائل لتمتع دائم، فيكون كالمريض الذى يصبر على مرارة الدواء لما يرجو من الشفاء، والله أعلم.

فصل فى فضيلة السخاء

ينبغى لمن فقد المال أن يستعمل القناعة كما ذكرنا، ولمن وجده أن يستعمل السخاء والإيثار واصطناع المعروف، فإن السخاء أخلاق الأنبياء، وهو أصل من أصول النجاة.

وعن جابر ﷺ عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: **«قال جبريل عليه السلام: قال الله عز وجل: الإسلام دين ارتضيته لنفسى، ولن يصلحه إلا السخاء وحسن الخلق، فأكرموه بهما ما استطعتم - وفى رواية: ما صحبتموه»**.(2)

وفى حديث آخر: عن ابن عباس ﷺ أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال: **«تجافوا**

---

(1) **صحيح**: سبق تخريجه ص (١٠٦).

(2) **ضعيف**: أخرجه الطبرانى «الأوسط» (٨٩٢٠) (٨/٣٧٥)، والقضاعى فى «مسند الشهاب» (١٤٦١) (٣/٣٢٩) بلفظة «ما صحبتموه» من طريق إبراهيم بن أبى بكر ابن المنكدر عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله عن النبى ﷺ وضعفه الألبانى فى «الضعيفة» (٣٣١٧).

عن ذنب السخىّ، فإن الله تعالى آخذ بيده كلما عثر.[١]

وفى حديث آخر: «**الجنة دار الأسخياء، وما جُبل ولى الله إلا على السخاء**»[٢].

وعن أنس ﷺ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**إن بدلاء أمتى لم يدخلوا الجنة بعبادة ولا بصيام، ولكن دخلوها بسخاء النفس، وسلامة الصدر، والنصح للمسلمين**».[٣]

وفى حديث آخر: «**عليكم باصطناع المعروف، فإنه يمنع مصارع السوء**».[٤]

وقال ابن السماك: عجبت ممن يشترى المماليك بماله، كيف لا يشترى الأحرار بمعروفه؟!

ومن حكايات الأسخياء:

● قد صح عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أنه كان أجود بالخير من الريح المرسلة[٥] وأنه ما سئل شيئاً قط فقال: لا[٦]. وأن رجلاً سأله، فأعطاه غنماً بين جبلين، فأتى الرجل قومه، فقال: يا قوم، أسلموا، فإن محمداً يعطى عطاء من لا يخشى الفقر.[٧]

---

(١) **ضعيف**: رواه الطبرانى فى «الأوسط» (٥٧١٠)، والخرائطى فى «مكام الأخلاق» (٦٢٦)، وأبو نعيم «الحلية» (٤/١٠)، والقضاعى (١/٤٢٣) من طرق عن الفضيل بن عياض عن ليث عن مجاهد عن ابن عباس به. قال الألبانى: ليث -وهو ابن أبى سليم- كان اختلط» فعلة الحديث ليث بن أبى سليم. وأخرجه الطبرانى «الأوسط» (١١٩٩)، وأبو نعيم (٥/٥٩)، من حديث الأعمش عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله مرفوعاً. وقال الطبرانى: «لم يروه عن الأعمش إلا محمد بن حميد، تفرد به بشر -وهو ابن عبيد الله الدارس-». قال الألبانى: «وهو ضعيف جداً» ولحديث عبد الله متابعاً فى «الحلية» (٤/١٠٨) وهو ضعيف أيضاً والحديث ضعفه الألبانى كما فى «الضعيفة» (٢٨٧٠) وقال فى «الضعيفة»: «وروى من حديث أبى هريرة مرفوعاً نحوه». وقال: «وبالجملة فطرق الحديث كلها واهية».

(٢) **ضعيف**: أورده العجلونى «كشف الخفاء» (١/٤٠٣)، وقال: «رواه الخرائطى وابن عدى والخطيب والقضاعى عن عائشة ﷺ. قال الدارقطنى: لا يصح. وقال الذهبى: منكر. وعده ابن الجوزى فى الموضوعات».

(٣) **منكر**: رواه ابن عدى فى «الضعفاء» (٦/٢٨٩)، من طريق محمد بن عبد العزيز الدينورى عن عثمان بن الهيثم عن عوف عن أنس ﷺ. ومحمد بن عبد العزيز الدينورى قال فيه صاحب اللسان: «وهو منكر الحديث ضعيف ذكره بن عدى وذكر له مناكير». ورواه أبو بكر ابن لال فى «مكارم الأخلاق» عن أنس، وفى «الفردوس» (٨٨٤)، وللخرائطى فى «المكارم» من حديث أبى سعيد نحوه، كما فى «الفوائد المجموعة».

(٤) **حسن**: أخرجه الطبرانى «الكبير» (٨/٢٦١) من طريق عيسى بن شعيب عن حفص بن سليمان عن يزيد بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبى أمامة عن النبى ﷺ. وقال الشوكانى «الفوائد المجموعة» (١/٤١٩): «أخرجه الطبرانى فى الكبير بسند حسن». وحسنه الألبانى فى «صحيح الجامع» (٣٧٩٧).

(٥) **صحيح**: أخرجه البخارى (٦) بدء الوحى، ومسلم (٢٣٠٨) الفضائل عن ابن عباس ﷺ.

(٦) **صحيح**: أخرجه البخارى (٦٠٣٤) الأدب، ومسلم (٢٣١١) الفضائل، عن جابر ﷺ.

(٧) **صحيح**: أخرجه مسلم (٢٣١٢) الفضائل، وأحمد (١٢٣٧٩) عن أنس ﷺ بلفظ: «ليعطى عطاء ما يخاف الفقر».

• وقيل: كان لعثمان بن عفان على طلحة رضي الله عنهما خمسون ألف درهم، فخرج إلى المسجد، فقال له طلحة: قد تهيأ مالك فاقبضه، فقال: هو لك يا أبا محمد معونة على مروءتك.

• وجاء أعرابى إلى طلحة، فسأله، وتقرب إليه برحم، فقال: إن هذه الرحم، ما سألنى بها أحد قبلك، فأعطاه ثلاثمائة ألف درهم.

• وقال عروة: رأيت عائشة رضي الله عنها تقسم سبعين ألفاً، وهى ترقع درعها، وروى أنها قسمت فى يوم ثمانين ومائة ألف بين الناس، فلما أمست قالت: يا جارية علىَّ فطورى، فجاءتها بخبز وزيت. فقالت لها أم درة: أما استطعت فيما قسمت اليوم أن تشترى لنا بدرهم لحماً نفطر عليه!؟ فقالت: لو ذكرتنى لفعلت.

• واشترى عبد الله بن عامر من خالد بن عقبة داره التى فى السوق بتسعين ألف درهم، فلما كان الليل، سمع بكاء أهل خالد، فقال لأهله: ما لهؤلاء؟ قالوا: يبكون على فقد دارهم، قال: يا غلام، ائتهم، فأعلمهم أن الدار والمال لهم جميعاً.

• وبعث رجل إلى عبد الله أنه قد وُصف لى لبن البقر، فابعث لى بقرة أشرب من لبنها. فبعث إليه بسبعمائة بقرة ورعاتها، وقال: القرية التى كانت ترعى فيها لك.

• ودخل علىّ بن الحسن على محمد بن أسامة بن زيد فى مرضه، فجعل يبكى، فقال: ما شأنك؟ قال: علىَّ دين، قال: كم هو؟ قال: خمسة عشر ألف دينار، أو بضعة عشر ألف دينار. قال: فهى علىَّ.

• وجاء رجل إلى معن بن زائدة، ولا يعرفه معن، فسأله، فقال: يا غلام ناقتى الفلانية وألف دينار، فدفعها إليه وهو لا يعرفه.

• وبلغنا عن معن أن شاعراً أقام ببابه مدة فلم يتهيأ له لقاؤه، فقال لبعض خدمه: إذا دخل الأمير البستان فعرفنى، قال: فلما دخل عرفه، فكتب الشاعر بيتا على خشبة، وألقاها فى الماء الذى يدخل البستان، فلما بصر معن بالخشبة، أخذها فإذا فيها مكتوب:

أيا جودَ مَعْنٍ ناجِ مَعْناً بحاجَتِي   فما لِيَ إلىَ مَعْنٍ سِواكَ شَفيعُ

فقال: مَنْ صاحب هذه؟ فدعا الرجل، فقال له: كيف قلت؟ فقال له البيت، فأمر له بعشر بدر من مال، فأخذها ووضع الأمير الخشبة تحت بساطه فلما كان اليوم الثانى أخرجها من تحت البساط، وقرأ ما فيها، ودعا الرجل، فدفع إليه مائة ألف درهم أخرى، فلما أخذها الرجل، خاف أن يعود فيستعيدها منه، فخرج، فلما كان اليوم الثالث، قرأ ما فيها، فدعا الرجل فطلب

فلم يوجد. فقال معن: حق عليَّ أن أعطيه حتى لا يبقى فى بيت مالى درهم ولا دينار.

- ومرض قيس بن سعد بن عبادة، فاستبطأ إخوانه، فقيل له: إنهم يستحيون مما لك عليهم من الدين. فقال: أخزى الله مالاً يمنع الإخوان من الزيارة، ثم أمر منادياً ينادى: مَنْ كان عليه لقيس حق، فهو منه فى حل، قال: فانكسرت درجته بالعشى لكثرة من عاده.

- وقام رجل إلى سعيد بن العاص يسأله، فأمر له بمائة ألف درهم، فبكى، فقال سعيد: ما يبكيك؟ قال: أبكى على الأرض أن تأكل مثلك، فأمر له بمائة ألف أخرى.

فصل فى البخل وذمه

عن أبى سعيد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**خصلتان لا تجتمعان فى مؤمن: البخل وسوء الخلق**». [1]

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «**لا يجتمع الشح والإيمان فى قلب عبد أبداً**». [2]

وفى أفراد مسلم، عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أنه كان يقول: «**اللهم إنى أعوذ بك من الجبن والبخل**». [3]

وروى جابر بن عبد الله رضي الله عنه، قال: قال النبى صلى الله عليه وآله وسلم لبنى سلمة: «**من سيدكم؟** قالوا: جد بن قيس على أننا نبخِّله، قال: **وأى داء أدوأ من البخل؟ بل سيدكم بشر بن البراء ابن معرور**» وهى أصح من ذكر عمرو بن الجموح، وغلط بعض الرواة فقال: البراء بن معرور، البراء مات قبل الهجرة. [4]

---

(١) **ضعيف**: أخرجه البخارى «الأدب المفرد» (٢٨٢)، والترمذى (١٩٦٢) البر والصلة، والقضاعى (٣١٩) عن صدقة ابن موسى عن مالك بن دينار عن عبد الله بن غالب عن أبى سعيد الخدرى مرفوعاً. وقال الترمذى: «حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث صدقة بن موسى». وقال الألبانى: «وهو ضعيف لسوء حفظه». والحديث ضعفه الألبانى كما فى «الضعيفة» (١١١٩).

(٢) **صحيح**: أخرجه النسائى (٣١١٠) الجهاد، وأحمد (٩٤٠٠)، عن صفوان بن أبى يزيد عن حصين بن اللجلاج عن أبى هريرة رضي الله عنه. وصححه الألبانى فى «صحيح النسائى».

(٣) **صحيح لغيره**: أخرجه النسائى (٥٤٤٣) الاستعاذة، وأبو داود (١٥٣٩)، وابن ماجه (٣٨٤٤) الدعاء، عن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه، وقال الألبانى: «صحيح لغيره». وأخرجه أبو داود (١٥٥٥) عن غسان بن عوف عن الجريرى، عن أبى نضرة، عن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه، وضعفه الألبانى فى «ضعيف أبى داود».

(٤) **صحيح**: أخرجه البخارى فى «الأدب المفرد»، وصححه الألبانى فى «صحيح الأدب المفرد» رقم (٢٩٦).

وعن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «**ثلاث مهلكات: شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه**».[1]

قال الخطابى: الشح فى المنع أبلغ من البخل.

وقال سلمان الفارسى: إذا مات السخى، قالت الأرض والحفظة: رب تجاوز عن عبدك بسخائه فى الدنيا، وإذا مات البخيل قالت: اللهم احجب هذا العبد عن الجنة، كما حجب عبادك عما جعلت فى يديه من الدنيا.

وقال بعض الحكماء: من كان بخيلاً ورث ماله عدوه.

ووصف أعرابى رجلاً فقال: لقد صغر فى عينى لعظم الدنيا فى عينه.

وذم أعرابى قوماً فقال: يصومون عن المعروف ويفطرون على الفواحش.

من حكايات البخلاء:

• روى عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان الحباحب رجلاً من أجل العرب، وكان بخيلاً، وكان لا يوقد ناراً بليل كراهة أن يراها راء فينتفع بضوئها، فإذا احتاج إلى إيقادها فأوقد ثم بصر بمستضىء بها أطفأها.

• وقيل: كان مروان بن أبى حفصة من أبخل الناس، فخرج يريد الخليفة المهدى، فقالت له امرأته: ما لى عليك أن رجعت بالجائزة؟

قال: إن أعطيت مائة ألف درهم أعطيتك درهماً، فأعطى ستين ألف درهم فأعطاها أربعة دوانق.

• وقيل: كان بعض البخلاء موسراً كثير المال، وكان ينظر فى دقائق الأشياء فاشترى شيئاً من الحوائج، ودعا حمالاً وقال: بكم تحمل هذه الحوائج؟ قال: بحبة، قال: أبخس. قال: ما أقل من حبة؟ لا أدرى ما أقول. قال: نشترى بالحبة جزراً، فنجلس جميعاً فنأكله.

فصل فى فضل الإيثار وبيانه

اعلم أن السخاء والبخل درجات:

فأرفع درجات السخاء الإيثار، وهو أن تجود بالمال مع الحاجة إليه.

---

(١) سبق تخريجه ص (١٨٨) رقم (٢).

وأشد درجات البخل، أن يبخل الإنسان على نفسه، وذلك يؤثر على نفسه مع الحاجة إليه، فكم من بخيل يمسك المال، ويمرض فلا يتداوى، ويشتهى الشهوة فيمنعه منها البخل.

فكم بين من يبخل على نفسه مع الحاجة، وبين من يؤثر على نفسه مع الحاجة، فالأخلاق عطايا يضعها الله عز وجل حيث يشاء.

وليس بعد الإيثار درجة فى السخاء. وقد أثنى الله تعالى على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالإيثار، فقال: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ (الحشر: ٨) وكان سبب نزول هذه الآية قصة أبى طلحة، لما آثر ذلك الرجل المجهود بقوته وقوت صبيانه، وحكايته مشهورة.(١)

• واستشهد باليرموك عكرمة بن أبى جهل، وسهيل بن عمرو، والحارث بن هشام، وجماعة من بنى المغيرة، فأُتوا بماء وهم صرعى، فتدافعوه حتى ماتوا ولم يذقوه.

• أُتى عكرمة بالماء فنظر إلى سهيل بن عمرو ينظر إليه، فقال: ابدأ بهذا، ونظر سهيل إلى الحارث ينظر إليه، فقال: ابدأ بهذا، وكل منهم يؤثر الآخر على نفسه بالشربة، فماتوا كلهم قبل أن يشربوا، فمر بهم خالد بن الوليد فقال: بنفسى أنتم.

• وأهدى إلى الرجل من الصحابة ﷺ رأس شاة، فقال: إن أخى أحوج إليه منى، فبعث به إلى رجل، فبعث به ذلك إلى آخر، حتى تداولته سبع أبيات، فرجع إلى الأول.

• خرج عبد الله بن جعفر إلى ضيعة له، فنزل على نخل لقوم فيها غلام أسود يعمل فيها، إذ أتى الغلام بقوته، فدخل الحائط كلب، فدنا من الغلام فرمى إليه قرصاً فأكله، ثم رمى إليه قرصاً آخر فأكله، ثم رمى إليه ثالث فأكله، وعبدالله ينظر فقال: يا غلام! كم قوتك كل يوم؟ قال: ما رأيت، قال: فلم آثرت به هذا الكلب؟ قال: ما هى بأرض كلاب، جاء من مسافة بعيدة جائعاً فكرهت رده، قال: فما أنت صانع؟ قال: أطوى يومى هذا، فقال عبد الله بن جعفر: ألام على السخاء وهذا أسخى منى، فاشترى الحائط وما فيه من الآلات، واشترى الغلام وأعتقه ووهبه الحائط وما فيه رحمه الله.

• واجتمع جماعة من الفقراء فى موضع لهم وبين أيديهم أرغفة معدودة لا تكفيهم فكسروا الرغفان، وأطفؤوا السراج، وجلسوا للأكل، فلما رفع الطعام، إذا هو بحاله، لم يأكل أحد منهم شيئاً إيثاراً لأصحابه.

(١) صحيح: انظر صحيح البخارى (٣٧٩٨).

فصل فى حد البخل والسخاء

وقد تكلم الناس فى حد البخل والسخاء، فذهب قوم إلى أن حد البخل منع الواجب، وأن من أدى ما يجب عليه، فليس ببخيل، وهذا غير كافٍ، فإن من لم يسلم إلى عياله إلا القدر الذى يفرضه الحاكم، ثم يضايقهم فى زيادة لقمة أو تمرة أكلوها فإنه معدود من البخلاء، فالصحيح أن البراءة من البخل تحصل بفعل الواجب فى الشرع واللازم بطريق المروءة مع طيب القلب بالبذل.

فأما الواجب بالشرع، فهو الزكاة، ونفقة العيال.

وأما اللازم بطريق المروءة، فهو ترك المضايقة والاستقصاء عن المحقرات، فإن ذلك يستقبح، ويختلف ذلك باختلاف الأحوال والأشخاص، فقد يستقبح من الغنى ما لا يستقبح من الفقير، ويستقبح من الرجل المضايقة لأهله وأقاربه وجيرانه ما لا يستقبح من الأجانب، فالبخيل الذى يمنع ما لا ينبغى أن يمنع، إما بحكم الشرع أو لازم المروءة. ومن قام بواجب الشرع، ولازم المروءة، فقد تبرأ من البخل، لكن لا يتصف بصفة الجود ما لم يبذل زيادة على ذلك.

قال بعضهم: الجواد: هو الذى يعطى بلا مَنٍّ. وقيل: هو الذى يفرح بالإعطاء.

بيان علاج البخل

فأما علاج البخل، فاعلم أن سبب البخل حب المال.

ولحب المال سببان:

أحدهما: حب الشهوات التى لا وصول إليها إلا بالمال مع طول الأمل، وإن كان قصير الأمل وله أولاد فإنهم يقومون مقام طول الأمل فإنه يقدر بقاءهم كبقاء نفسه فيمسك لأجلهم.

الثانى: أن يحب عين المال، فمن الناس من معه ما يكفيه بقية عمره لو اقتصر على ما جرت عادته به، وتفضل معه آلاف، ويكون شيخاً لا ولد له، ثم لا تسمح نفسه بإخراج الواجب عليه، ولا بصدقة تنفعه، ويعلم أنه إذا مات أخذ ماله أعداؤه، أو ضاع إن كان مدفوناً، وهذا مرض لا يرجى علاجه.

ومثال ذلك: مثال رجل أحب شخصاً، فلما جاء رسوله، أحب الرسول ونسى محبوبه واشتغل بالرسول، فإن الدنانير رسول مبلغ إلى الحاجات، فيحب الدنانير لذاتها، وينسى الحاجات، وهذا غاية الضلال.

واعلم: أن علاج كل علة بمضادة سببها.

فيعالج حب الشهوات بالقناعة والصبر، وطول الأمل بكثرة ذكر الموت.

ويعالج التفات القلب إلى الولد، بأن من خلقه خلق الرزق معه، وكم ممن لم يرث شيئاً أحسن حالاً ممن ورث.

فليحذر أن يترك لولده الخير، ويَقْدِم على الله بشرٍّ، فإن ولده إن كان صالحاً فالله يتولاه، وإن كان فاسقاً فلا يترك له ما يستعين به على المعاصى، وليردد على سمعه ما ذكرناه فى ذم البخل ومدح السخاء.

واعلم: أنه إذا كثرت المحبوبات فى الدنيا، كثرت المصائب بفقدها، فمن عرف آفة المال لم يأنس به، ومن لم يأخذ منه إلا قدر حاجته، وأمسك ذلك لحاجته فليس ببخيل، والله أعلم.

كتاب ذم الجاه والرياء وعلاجهما وفضيلة الخمول وغير ذلك

وروى عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: **«إن اخوف ما اخاف على امتى الرياء والشهوة الخفية»**[1] . وهذه الشهوة الخفية يعجز عن الوقوف على غوائلها كبار العلماء، فضلاً عن عامة العباد، وإنما يبتلى بها العلماء والعباد المشمرون عن ساق الجد لسلوك سبيل الآخرة، فإنهم لما قهروا أنفسهم وفطموها عن الشهوات، وحملوها بالقهر على أصناف العبادات، عجزت نفوسهم عن الطمع فى المعاصى الظاهرة، الواقعة على الجوارح، فاستراحت إلى التظاهر بالعلم والعمل، ووجدت مَخْلَصاً من شدة المجاهدة فى لذة القبول عند الخلق، ونظرهم إليها بعين الوقار والتعظيم، فأصابت النفس فى ذلك لذة عظيمة، فاحتقرت فيها ترك المعاصى والشهوات، واستلانت خشونة المواظبة على العبادات لإدراكها فى الباطن لذة اللذات وشهوة الشهوات، فهو يظن أنه مخلص لله عز وجل، وقد أثبت فى ديوان المنافقين، وهذه مكيدة عظيمة لا يَسْلَم منها إلا المقربون.

ولذلك قيل: آخر ما يخرج من رؤوس الصديقين حب الرياسة، وإذا كان ذلك هو الداء الدفين، الذى هو أعظم شبكة للشيطان، وجب شرح القول فى سببه، وحقيقته، وأقسامه.

بيان ذم الجاه

اعلم: أن أصل الجاه هو حب انتشار الصيت والاشتهار، وذلك خطر عظيم، والسلامة فى الخمول. وأهل الخير لم يقصدوا الشهرة، ولم يتعرضوا لها ولا لأسبابها، فإن وقعت من قبل الله تعالى، فروا عنها، وكانوا يؤثرون الخمول، كما روى عن ابن مسعود ﷺ أنه خرج من منزله، فتبعه جماعة، فالتفت إليهم وقال: علام تتبعونى؟ فوالله لو علمتم ما أغلق عليه بابى ما اتبعنى منكم رجلان.

وفى لفظ آخر أنه قال: ارجعوا، فإنه ذلة للتابع وفتنة للمتبوع.

وكان أبو العالية -رحمه الله- إذا جلس إليه أكثر من أربعة قام.

وكان خالد بن معدان -رحمه الله- إذا عظمت حلقته، قام وانصرف كراهة الشهرة.

---

(١) **ضعيف**: أخرجه أحمد (١٦٦٧١)، وابن ماجه (٤٢٠٥)، من طريق عبادة بن نُسيّ، عن شداد بن أوس عن النبى ﷺ ، وضعفه الألبانى فى «ضعيف ابن ماجه».

وقال الزهرى رحمه الله: ما رأينا الزهد فى شىء أقل منه فى الرياسة، نرى الرجل يزهد فى المطعم والمشرب والمال، فإذا نوزع الرياسة، حامى عليها وعادى.

قال رجل لبشر الحافى رحمه الله: أوصنى، فقال: أخمل ذكرك، وطيّب مطعمك. وقال: لا يجد حلاوة الآخرة رجل يحب فى الدنيا أن يعرفه الناس.

وقد روى فى «صحيح مسلم»[1] أن عمر بن سعد انطلق إلى أبيه سعد وهو فى غنم له خارجاً من المدينة، فلما رآه قال: أعوذ بالله من شر هذا الراكب، فلما أتاه قال: يا أبت أنزلت فى إبلك وغنمك وتركت الناس يتنازعون الملك بينهم؟ فضرب سعد فى صدره وقال: اسكت، إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: **«إن الله يحب العبد التقى الغنى الخفى»**.

وعن أبى أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: **«إن أغبط أوليائى عندى لمؤمن خفيف الحاذ**[2]**، ذو حظ من الصلاة، أحسن عبادة ربه، وأطاعه فى السر، وكان غامضاً فى الناس، لا يشار إليه بالأصابع، وكان رزقه كفافاً، فصبر على ذلك»**، ثم نقر بيده، فقال: **«عجلت منيّته، قلت بواكيه، قلّ تراثه»**[3] حديث حسن.

وكان ابن مسعود رضي الله عنه يوصى أصحابه، فيقول: كونوا ينابيع العلم، مصابيح الهدى، أحلاس البيوت، سرج الليل، جدد القلوب، خلقان الثياب، تعرفون فى السماء، وتخفون على أهل الأرض.

فإن قيل: هذا فيه فضيلة الخمول، وذم الشهرة، وأى شهرة أكثر من شهرة الأنبياء، وأئمة العلماء.

قلنا: المذموم طلب الإنسان الشهرة، وأما وجودها من عند الله تعالى من غير طلب الإنسان فليس بمذموم، غير أن فى وجودها فتنة على الضعفاء، فإن مثل الضعيف كالغريق القليل الصنعة فى السباحة، إذا تعلق به أحد غرق وغرقه، فأما السابح النحرير، فإن تعلق الغرقى به سبب لنجاتهم وخلاصهم.

---

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم (٢٩٦٥)، وأحمد (١٤٤٤).

(٢) **الحاذ**: قليل المال والعيال.

(٣) **ضعيف**: أخرجه أحمد (٢١٦٩٣)، والترمذى (٢٣٤٧) الزهد، وابن ماجه (٤١١٧) الزهد، من طرق عن أبى أمامة وضعفه الألبانى بطرقه عن أبى أمامة فى «ضعيف الترمذى» و«ابن ماجه». فى إسناده على بن يزيد عند الترمذى منكر الحديث كما قال البخارى. وفى إسناد الترمذى صدقة بن عبد الله أحاديثه مناكير كما قال أحمد بن حنبل. وفى إسناد أحمد ليث بن أبى سليم قال فيه أحمد بن حنبل: «مضطرب الحديث».

فصل فى أن الجاه والمال هما ركنا الدنيا

واعلم: أن الجاه والمال هما ركنا الدنيا، ومعنى المال ملك الأعيان المنتفع بها، ومعنى الجاه ملك القلوب المطلوب تعظيمها، وطاعتها، والتصرف فيها.

فالجاه هو قيام المنزلة فى قلوب الناس، وهو اعتقاد القلوب نعتاً من نعوت الكمال فى هذا الشخص، إما من علم أو عبادة، أو نسب أو قوة، أو حسن صورة، أو غير ذلك مما يعتـقده الناس كمالاً فـبقدر ما يعـتقدون له من ذلك، تذعـن قلوبهم لطاعتـه، ومدحه وخدمته، وتوقيره.

فهذا يبين أن الجاه محبوب بالـطبع، وأنه أبلغ من حب المال، لأن المال لا يتعلق الغرض بعينه، بل لكونه وسيلة إلى المحبوبات، فاشتراك الجاه والمال فى السبب اقتضى الاشتراك فى المحبة، والجاه فى ذلك أرجح من المال.

واعلم: أن من الجاه ما يحمد وما يذم، لأن من المعلوم أنه لابد للإنسان من مال لضرورة المطعم والملبس ونحوهما، فكذلك لابد له من جـاه لضرورة المعيشة مع الخلق، لأن الإنسان لا يخلو من الحـاجة إلى سلطان يحرسـه، ورفيق يعينه، وخـادم يخدمه، فحـبه ذلك ليس بمذموم، لأن الجاه وسيلة إلى الأغراض، كالمال.

والتحقيق فى هذا أن لا يكون المال والجاه محبوبيـن لأعيانهما، ومتى طلب الإنسان قيام جاهه لأجل صفة هو متصف بها لغـرض صحيح، كقول يوسف عليه السلام: ﴿اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ (يوسف:٥٥) أو قصد إخفـاء عيب من عيوبه لئـلا تزول منزلته، كان ذلك مـباحاً، فإن طـلب المنزلة باعتـقادهم فيـه صفة ليـست فيه، كالـعلم، والورع، والنسب، فذلك محظور.

وكذلك لو حَسَّن الصلاة بين أيديهم ليعتقـدوا فيه الخشوع، فإنه يكون مرائياً بذلك، فلا يجوز تملك القلوب بتزوير، ولا تملك المال بتلبيس.

بيان عـلاج حـب الجـاه

اعلم: أن من غلب على قلبه حب الجاه، صار مقصور الهمِّ على مراعاة الخلق، مشغوفاً بالتردد إليهم، والمراءاة لهم، ولا يزال فى أقواله وأفعاله مـلتفتاً إلى ما يعظم منزلته عندهم، وذلك بذر النـفاق، وأصل الفـساد، لأن كل من طلب المـنزلة فى قلوب الـناس اضطر أن

ينافقـهم بإظهار ما هو خـالٍ عنه، ويجر ذلك إلى المـراءاة بالعبادات واقتـحام المحظورات، والتوصل إلى اقتناص القلوب.

ولذلك شبّـه الرسول صلى الله عـليه وآله وسلم حب المـال والشرف وإفسادهمـا للدِّين بذئبين ضاريين أرسلا فى غنم.(١)

فحب الجاه إذاً من المهلكات، يجب علاجـه، وعلاجه مركب من علم وعمل، أما الأول، فهـو أن يعلم أن السـبب الذى لأجلـه أحب الجاه، هو كـمال القـدرة على أشخـاص الناس وقلوبهم، وذلك إذا صفا وسلم يكون فى آخره الموت، فيـنبغى أن يتفكر فى نفسه فى الأخطار والآفات اللاحقـة لأصحاب الجاه فى الدنيا، مـن تطرق الحسد إليهم، وقـصدهم بالإيذاء، فتراهم خائفين على الدوام من زوال جاههم، محترزين من تغيير منزلتهم فى القلوب.

والقلوب أشد تغيراً من القِدْر فى غليانها، فالاشتغال بمراعاة ذلك غموم عاجلة، مكدرة بحفظ الجاه، فلا يفى مرجو الدنيا بِمَخوفها، فضلاً عما يفوت فى الآخرة، فهذا من حيث العلم.

وأما العلاج من حيث الـعمل، فهو إسقاط الجاه من قلوب الخلـق بأفعال توجب ذلك، كما روى أن بعض المـلوك قصد زيارة رجل زاهد، فلمـا قرب منه، استدعى طعـاماً وبقلاً ولبناً، وجعل يأكل بشرهٍ، ويعظم اللقمة، فلما نظر إليه الملك سقط من عينه وانصرف.

ولما أريد إبراهيم النخعى على القضاء لبس قميصاً أحمر وقعد فى السوق.

واعلم: أن انقطاع الزاهد عن الناس يوجب جاهاً له عـندهم، فإذا خاف من تلك الفتنة، فليخالطهـم على وجه السلامة، وليمشِ فى الأسواق، ولـيشترِ حاجته ويحمـلها، وليقطع طمعه من دنياهم، وقد تم مراده.

وكان بشر الحافى يجلس إلى عطار، وما كانوا يراعون نواميس المتزهدين اليوم.

فصل فى علاج حب المدح وكراهة الذم

واعلم: أن أكثر الناس إنما هلكوا لخوف مذمة الناس، وحب مدحهم، فصارت حركاتهم كلهـا على ما يوافق رضـى الناس، رجاء المدح، وخـوفاً من الذم، وذلك من المـهلكات، فوجبت معالجته.

(١) سبق تخريجه ص (١٨٣).

وطريق ذلك أن ننظر إلى الصفة التى مدحت بها، إن كانت موجودة فيك فلا يخلو: إما أن يكون مما يفرح به كالعلم والورع، أو مما لا يصلح أن يفرح به، كالجاه والمال.

أما الأول، فينبغى أن يحذر من الخاتمة، ففـى الخوف منها شغل عن الفرح بالمدح، ثم إن كنت تفرح بها على رجـاء حسن الخاتمة، فينبغى أن يكون فرحك بفـضل الله عليك بالعلم والتقوى لا بمدح الناس.

وأما القسم الثانى، وهو المدح بسبب الجاه والمال، فالفـرح بذلك، كالفرح بنبات الأرض الذى يصير عن قريب هشيماً، ولا يفرح بذلك إلا من قل عقله، وإن كنت خالياً عن الصفة التى مُدحت بها، ففرحك بالمدح غاية الجنون.

وقد ذكرنا آفـات المدح فيما تقـدم فى كتاب آفات اللـسان، فلا ينبغى أن تـفرح به، بل تكرهه، كما كان السلف يكرهونه، ويغضبون على فاعله.

وعلاج كراهية الذم: يفهم من عـلاج حب المدح، فإنه ضده، والقول الوجيـز فيه أن من ذمك، إما أن يكون صادقاً فيما قال، قاصداً للنصح لك فينبغى، أن تتقلد منته، ولا تغضب فإنه قد أهدى إليك عيوبك وإن لم يقصد بذلك النصح، فإنه يكون قد جنى هو على دينه، وانتفعـتَ أنت بقوله، لأنه عرّفك ما لـم تكن تعرف، وذكّرك من خطاياك مـا نسيت، وإن افترى عليك بما أنت منه برىء، فينبغى أن تتفكر فى ثلاثة أشياء:

أحدهما: أنك إن خلوت من ذلك العيب لم تخلُ من أمثاله، فما ستر الله عز وجل عليك من عيوبك أكثر، فاشكره إذ لم يطلعه على عيوبك ودفعه عنك بذكر ما أنت عنه برىء.

الثانى: أن ذلك كفارات لذنوبك.

الثالث: أنه إذا جنى على دينه، وتعـرض لغضب الله عليه، فينبغى أن تـسأل الله العفو عنه، كمـا روى أن رجلاً شج إبراهيم بـن أدهم، فدعا له بالمـغفرة وقال: صـرت مأجوراً بسببه، فلا أجعله معاقباً بسببى، وقد تقدمت هذه الحكاية فى فضل الحلم.

فى بيان الرياء وحقيقته وأقسامه وذمه ونحو ذلك

وقد ورد ذم الرياء فى الكتاب والسنة، من ذلك قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ﴾ (الماعون: ٤-٦)، وقوله: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ (الكهف: ١١٠).

وأما الأحاديث، فقد رُوى عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فيما يرويه عن ربه عز وجل أنه قال: **«من عمل عملاً أشرك فيه غيرى، فهو للذى أشرك، وأنا منه برىء»**. (١)

وفى حديث آخر: أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: **«إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر.** قالوا: يا رسول الله: وما الشرك الأصغر؟ قال: **الرياء، يقول الله عز وجل لهم يوم القيامة إذا جزى الناس بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون فى الدنيا، فانظروا هل تجدون عندهم جزاءً»**. (٢)

وقال بشر الحافى: لأن أطلب الدنيا بمزمار أحب إلىَّ من أن أطلبها بالدين.

واعلم: أن الرياء مشتق من الرؤية، والسمعة مشتقة من السماع، فالمرائى يُرِى الناس ما يطلب به الحظوة عندهم، وذلك أقسام:

الأول: الرياء فى الدِّين، وهو أنواع:

أحدها: أن يكون من جهة البدن، بإظهار النحول والصفار، ليريهم بذلك شدة الاجتهاد، وغلبة خوف الآخرة، وكذلك يرائى بتشعث الشعر، ليظهر أنه مستغرق فى هم الدين، لا يتفرغ لتسريح شعره.

ويقرب من هذا خفض الصوت، وإغارة العينين، وذبول الشفتين، ليدل بذلك على أنه مواظب على الصوم، ولهذا قال عيسى ابن مريم عليه السلام: إذا صام أحدكم فليدهن رأسه، ويرجل شعره. وذلك لما يخاف على الصائم من آفات الرياء، فهذا الرياء من جهة البدن لأهل الدِّين.

وأما أهل الدنيا، فيراؤون بإظهار السِّمَن، وصفاء اللون، واعتدال القامة، وحسن الوجه، ونظافة البدن.

النوع الثانى: الرياء من جهة الزى، كالإطراق حالة المشى، وإبقاء أثر السجود على الوجه، وغلظ الثياب، ولبس الصوف، وتشمير الثياب كثيراً، وتقصير الأكمام، وترك الثوب مخرقاً غير نظيف.

ومن ذلك لبس المرقعة، والثياب الزرق، تشبهاً بالصوفية مع الإفلاس من صفاتهم فى الباطن.

---

(١) **صحيح**: أخرجه ابن ماجه (٤٢٠٢) الزهد، عن العلاء بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن أبى هريرة، ومسلم (٢٩٨٥) بلفظ: **«أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معى غيرى تركته وشركه»**.

(٢) **صحيح**: أخرجه أحمد (٢٧٧٤٢)، والبيهقى فى الزهد، وصححه الألبانى، وانظر «الصحيحة» (٩٥١).

ومنه التقنع فوق العمامة، لتنصرف إليه الأعين بالتمييز بتلك العادة.

وهؤلاء طبقات، منهم من يطلب المنزلة عند أهل الصلاح، بإظهار التزهد بلبس الثياب المخرقة الوسخة الغليظة، ليرائى بذلك، ولو كلف هذا أن يلبس ثوباً وسطاً نظيفاً مما كان السلف يلبسونه، لكان عنده بمنزلة الذبح، لخوفه أن يقول الناس: قد بدا له من الزهد، وقد رجع عن تلك الطريقة.

وطبقة أخـرى: يطلبون القبول عـند أهل الصلاح، وعند أهل الدنيـا من الملوك والأمراء والتجار، فلو لبسوا الثياب الفاخرة لم تقبلهم القراء وأهل الصلاح، ولو لبسوا المخرقة الدنية لازدراتهم الملـوك والأغنياء، فهـم يريدون الجمع بين قـبول أهل الدين والـدنيا، فيطـلبون الأصواف الدقيقة، والأكسية الرقيقة والفوط الرفيعة فيلبسونها، وأقل قيمة ثوب أحدهم قيمة ثوب الغنى، ولونه وهيئته لون ثياب الصلحاء، فيلتمسون القبول عند الفريقين.

وهؤلاء لو كُلفـوا لبس خشن أو وسخ، لـكان عندهم كالذبـح، خوفاً من السـقوط فى أعين الملوك والأغنياء، ولو كلفوا لبس الرقيق ورفيع الكتان الأبيض ونحو ذلك، لعظم ذلك عليهم، خوفاً من أن تنحط منزلتهم عند أهل الصلاح، وكل مراءٍ بزى مخصوص ثقل عليه الانتقال إلى ما دونه أو فوقه خوفاً من المذمة.

وأما أهل الدنيا، فمراءاتهم بالثياب النفسية، والمراكب الحسنة، وأنواع التجمل فى الملبس والمآكل والمسكن وأثاث البـيت، وهم فى بيوتهم يلبسـون الثياب الخشنة، ويشتـد عليهم لو برزوا للناس على تلك الهيئة ما لم يبالغوا فى الزينة.

النوع الثالث: الرياء بالقول، ورياء أهل الدين بالوعظ والتـذكير وحفظ الأخبار والآثار، لأجل المحاورة، وإظهـار غزارة العلم والدلالة على شـدة العناية بأحوال السـلف، وتحريك الشفتين بالذكر فى محضر الناس، وإظهـار الغضب للمنكرات بين الناس، وخفض الصوت وترقيقه بقراءة القرآن، ليدل بذلك على الخوف والحزن ونحو ذلك.

وأما أهل الدنيا، فمراءاتهم بحفظ الأشعار والأمثال والتفاصح فى الكلام ونحو ذلك.

النوع الرابع: الرياء بالعمل، كـمراءاة المصلى بطول القيام، وتطويل الـركوع والسجود، وإظهار الخشوع، ونحو ذلك. وكذلك الصوم والغزو والحج والصدقة ونحو ذلك.

وأما أهل الدنيـا فمراءاتهم، بالتـبختر، والاختـيال، وتحريك اليدين، وتـقريب الخطى، والأخذ بأطراف الذيل، وإدارة العطفين، ليدلوا بذلك على الحشمة.

النوع الخامس: المراءاة بالأصحاب والزائرين، كالذى يتكلف أن يستزير عالماً أو عابداً، ليقال: إن فلاناً زار فلاناً، وأن أهل الدين يترددون إليه، ويتبركون به، وكذلك من يرائى بكثرة الشيوخ، ليقال: لقى شيوخاً كثيرة، واستفاد منهم، فيباهى بذلك، فهذه مجامع ما يرائى به المراؤون، يطلبون بذلك الجاه والمنزلة فى قلوب العباد.

ومنهم من يطلب مجرد الجاه، وكم من عابد اعتزل فى جبل، وراهب انزوى إلى دير، مع قطع طمعهم من مال الناس، لكنه يحب مجرد الجاه.

ومنهم من يكون قصده المال، ومنهم من قصده الثناء وانتشار الصيت.

فإن قيل: هل الرياء حرام، أم مكروه، أم مباح؟

فالجواب: أن فيه تفصيلاً، وهو إما أن يكون بالعبادات، أو بغيرها، فإن كان الرياء بالعبادات، فهو حرام، فإن المرائى بصلاته وصدقته وحجته، ونحو ذلك، عاصٍ آثم، لأنه يقصد بذلك غير الله تعالى المستحق للعبادة وحده، فالمرائى بذلك فى سخط الله.

وأما إن كان بغير العبادات، فهو كطلب المال على ما تقدم، لا يحرم من حيث إنه طلب منزلة فى قلوب العباد، ولكن كما يمكن كسب المال بتلبيسات وأسباب محظورة. فكذلك الجاه، وكما أن كسب قليل من المال وهو ما يحتاج إليه الإنسان محمود، فكذلك الجاه، وهو الذى طلبه يوسف عليه السلام فى قوله: ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ (يوسف:٥٥)، ولا نقول بتحريم الجاه وإن كثر، إلا إذا حمل صاحبه على ما لا يجوز على نحو ما ذكرنا فى المال.

وأما سعة الجاه من غير حرص على طلبه، ومن غير اغتمام بزواله وإن زال، فلا ضرر فيه، إذ لا جاه أوسع من جاه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعلماء الدين بعده، ولكن انصراف الهمم إلى طلب الجاه نقصان فى الدين، ولا يوصف بالتحريم.

وتحسين الثوب الذى يلبسه الإنسان عند الخروج إلى الناس، إنما هو ليراه الناس، وكذلك كل تجمل لأجلهم لا يقال: إنه منهى عنه.

وقد تختلف المقاصد بذلك، فإن أكثر الناس يحبون أن لا يُروا بعين نقص فى حال.

وفى أفراد مسلم، من حديث ابن مسعود ﷺ عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «**لا يدخل الجنة مَنْ كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر**»، فقال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً، ونعله حسنة، فقال: «**إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمط الناس**».[1] ومن الناس من يؤثر إظهار نعمة الله عليه، وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بذلك.

فصل فى بيان درجات الرياء

واعلم: أن بعض أبواب الرياء أشد من بعض، لأنه درجات.

أشدها وأغلظها: أن لا يكون مراده بالعبادة الثواب أصلاً، كالذى يصلى بين الناس، ولو انفرد لم يصل.

الدرجة الثانية: أن يقصد الثواب مع الرياء قصداً ضعيفاً بحيث لو كان خالياً لم يفعله، فهو قريب من القسم الأول فى كونهما ممقوتين عند الله تعالى.

الدرجة الثالثة: أن يكون قصد الرياء، وقصد الثواب متساويين، بحيث لو انفرد كل واحد منهما عن الآخر لم يبعثه على العمل، فهذا قد أفسد مثل ما أصلح، ولا يَسْلَم من الإثم.

الدرجة الرابعة: أن يكون اطلاع الناس عليه مقوياً لنشاطه، ولو لم يطلع عليه أحد لم يترك العبادة، فهذا يثاب على قصده الصحيح، ويعاقب على قصده الفاسد، وقريب من ذلك الرياء بأوصاف العبادة لا بأصلها، كالذى يصلى وغرضه تخفيف الركوع والسجود ولا يطيل القراءة، فإذا رآه الناس أحسن ذلك فهذا أيضاً من الرياء المحظور، لأنه يتضمن تعظيم الخلق، ولكنه دون الرياء بأصول العبادات.

بيان الرياء الخفى الذى هو أخفى من دبيب النمل

اعلم أن الرياء جلى وخفى.

فالجلى: هو الذى يبعث على العمل ويحمل عليه.

وأخفى منه قليلاً: رياء لا يبعث على العمل بمجرده، لكن يخفف العمل الذى أريد به وجه الله تعالى، كالذى يعتاد التهجد كل ليلة ويثقل عليه، فإذا نزل عنده ضيف نشط له

---

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم (٩١) الإيمان، والترمذى (١٩٩٩) البر والصلة.

وسهل عليه. وأخفى من ذلك أن لا يؤثر فى العمل ولا فى التسهيل، لكنه مع ذلك مستبطن فى القلب، ومتى لم يؤثر فى الدعاء إلى العمل لم يكن أن يعرف إلا بالعلامات، وأجلى علاماته أنه يُسرّ باطلاع الناس على طاعته، فرب عبد مخلص يخلص العمل، ولا يقصد الرياء بل يكرهه، ويتم العمل على ذلك، لكن إذا اطلع الناس عليه سره ذلك وارتاح له، وروّح ذلك عن قلبه شدة العبادة، فهذا السرور يدل على رياء خفى منه يرشح السرور، ولولا التفات القلب إلى الناس لما ظهر سروره عند اطلاع الناس، فيعلم أن الرياء كان مستكناً فى القلب استكنان النار فى الحجر، فأظهر منه اطلاع الناس أثر الفرح والسرور، ثم إذا استشعر تلك اللذة بالاطلاع لم يقابل ذلك بكراهة، بل قد يتحرك حركة خفيفة، ويتكلف أن يطلع عليه بالتعريض لا بالتصريح.

وقد يخفى، فلا يدعو إلى الإظهار بالنطق تعريضاً ولا تصريحاً، ولكن بالشمائل كإظهار النحول، والصفار، وخفض الصوت، ويبس الشفتين وآثار الدموع وغلبة النعاس الدالة على طول التهجد.

وأخفى من ذلك أن يختفى بحيث لا يريد الاطلاع عليه، ولا يُسرّ باطلاع طاعته، ولكنه مع ذلك إذا رأى الناس أحب أن يبدؤوه بالسلام، وأن يقابلوه بالبشاشة والتوقير، وينشطوا فى قضاء حوائجه، ويسامحوه فى المعاملة، ويوسعوا له المكان، فإن قصر فى ذلك مقصر، ثقل ذلك على قلبه، ووجد لذلك استبعاداً فى نفسه ليتقاضى الاحترام على الطاعة التى أخفاها.

ومتى لم يكن وجود العبادة كعدمها فى كل ما يتعلق بالخلق، لم يكن خالياً عن شوب خفى من الرياء، وكل ذلك يوشك أن ينقص الأجر، ولا يسلم منه إلا الصدّيقون.

وقد روينا عن وهب بن منبه، أن رجلاً من العباد قال لأصحابه: إنا قد فارقنا الأموال والأولاد مخافة الطغيان، وإنا نخاف أن يكون قد دخل علينا فى أمرنا من هذا الطغيان أكثر مما دخل على أهل الأموال فى أموالهم، إن أحدنا إذا لقى أحب أن يعظم لمكان دينه. وإن كان له حاجة أحب أن تقضى لمكان دينه، وإن اشترى شيئاً أحب أن يرخص له لمكان دينه فبلغ ذلك ملكهم فركب فى موكبه فإذا السهل والجبل قد امتلأ من الناس، فقال العابد: ما هذا؟ قيل: هذا الملك، فقال لصاحبه: ائتنى بطعام. فأتاه ببقل وزيت وقلوب الشجر، فجعل يحشو شدقيه ويأكل أكلاً عنيفاً، فقال الملك: أين صاحبكم؟ فقالوا: هذا، فقال: كيف أنت؟ قال: كالناس، فقال الملك: ما عند هذا خير، وانصرف عنه، فقال: الحمد لله الذى صرفه عنى وهو لى لائم.

ولم يزل المخلصون خائفين من الرياء الخفى، يجتهدون فى مخادعة النفس والناس عن أعمالهم الصالحة، ويحرصون على إخفائها أعظم ما يحرص الناس على إخفاء فواحشهم، كل ذلك رجاء أن يخلص عملهم ليجازيهم الله تعالى فى القيامة بإخلاصهم.

وشوائب الرياء الخفى كثيرة لا تنحصر، ومتى أدرك الإنسان من نفسه تفرقة بين أن يطلع على عبادته أو لا يطلع، ففيه شعبة من الرياء، ولكن ليس كل شوب مُحْبِطاً للأجر ومفسداً للعمل، بل فيه تفصيل.

فإن قيل: فما ترى أحداً ينفك عن السرور إذا عرفت طاعته، فالسرور مذموم كله، أو بعضه محمود، أو بعضه مذموم؟

فالجواب: أن السرور ينقسم إلى محمود ومذموم.

فالمحمود: أن يكون قصده إخفاء الطاعة والإخلاص لله، ولكن لما اطلع عليه الخلق علم أن الله تعالى أطلعهم وأظهر الجميل من أحواله، فيُسرّ بحسن صنع الله ونظره له ولطفه به، حيث كان يستر الطاعة والمعصية، فأظهر الله سبحانه عليه الطاعة، وستر عليه المعصية، ولا لطف أعظم من ستر القبيح، وإظهار الجميل، فيكون فرحه بذلك، لا بحمد الناس وقيام المنزلة فى قلوبهم، ويستدل بإظهار الله الجميل، وستر القبيح عليه فى الدنيا، أنه كذلك يفعل به فى الآخرة، فإنه قد جاء معنى ذلك فى الحديث.(1)

فأما: إن كان فرحه باطلاع الناس عليه لقيام منزلته عندهم، حتى يمدحوه ويعظموه ويقضوا حوائجه، فهذا مكروه مذموم.

فإن قيل: فما وجه حديث أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رجل: يا رسول الله، الرجل يعمل العمل فيسره، فإذا اطُّلع عليه، أعجبه ذلك، فقال: **«له أجران: أجر السر، وأجر العلانية»**.(2)

فالجواب: أن هذا الحديث ضعيف، وقد رواه الترمذى، وفسره بعض أهل العلم بأن معناه: أن يعجبه ثناء الناس عليه بالخير، لقوله عليه السلام: **«أنتم شهداء الله فى الأرض»**.(3)

وقد روى فى أفراد مسلم من حديث أبى ذر رضي الله عنه قال: قيل: يا رسول الله أرأيت

---

(1) **صحيح**: أخرج مسلم (٢٥٩٠) عن أبى هريرة رضي الله عنه عن النبى ﷺ: **«لا يستر الله على عبد فى الدنيا إلا ستره الله يوم القيامة»**.

(2) **ضعيف**: أخرجه الترمذى (٢٣٨٤) الزهد، وابن ماجه (٤٢٢٥) الزهد، وضعفه الألبانى فى «ضعيف الترمذى».

(3) **صحيح**: أخرجه البخارى (١٣٦٧) الجنائز، ومسلم (٩٤٩) الجنائز عن أنس رضي الله عنه.

الرجل يعمل العمل من الخير ويحمده الناس عليه؟ فقال: «**تلك عاجل بشرى المؤمن**».[1]

فأما: إذا أعجبه ليعلم الناس منه الخير ويكرموه عليه ، فهذا رياء.

فصل فى بيان ما يحبط العمل من الرياء وما لا يحبط

إذا عقد العبد العبادة على الإخلاص ثم ورد عليه وارد الرياء، فلا يخلو:

إما: أن يكون ورد بعد فراغه من العبادة أو قبله، فإن ورد عليه بعد الفراغ سرور بالظهور من غير إظهار منه، فهذا لا يحبط العمل، لأنه قد تم على نعت الإخلاص فلا ينعطف ما طرأ عليه بعده، لاسيما إذا لم يتكلف هو إظهاره والتحدث به، فأما إن تحدث به بعد تمامه وأظهره، فهذا مخوف، والغالب عليه أنه كان فى قلبه وقت مباشرة العمل نوع رياء، فإن سلم من الرياء نقص أجره، فإن بين عمل السر والعلانية سبعين درجة.

وإما: إذا ورد الرياء قبل الفراغ من العبادة، كالصلاة التى عقدها على إخلاص، فإن كان مجرد سرور، لم يؤثر فى العمل، وإن كان رياء باعثاً على العمل، مثل أن يطيل الصلاة ليرى مكانه، فهذا يحبط الأجر.

وإما: ما يقارن العبادة، مثل أن يبتدئ الصلاة على قصد الرياء، فإن أتمها على ذلك لم يعتد بها، وإن ندم فيها على فعله، فالذى ينبغى له أن يبتدئها، والله أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

باب فى دواء الرياء وطريقة معالجة القلب فيه

قد عرفت أن الرياء مُحبِط للأعمال، وسبب لمقت الله تعالى، وأنه من المهلكات، ومَنْ هذا حاله، فجدير بالتشمير عن ساق الجد فى إزالته.

وفى علاجه مقامان:

أحدهما: فى قلع عروقه وأصوله التى منها انشعابه.

والثانى: فى دفع ما يخطر بباله منه فى الحال.

المقام الأول: اعلم أن أصل الرياء حب الجاه والمنزلة، وإذا فصل، رجع إلى ثلاثة أصول: وهى حب لذة الحمد، والفرار من ألم الذم، والطمع فيما فى أيدى الناس.

---

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم (٢٦٤٢) البر والصلة، وابن ماجه (٤٢٢٥) الزهد، وأحمد (٢٠٨٧٢).

ويشهد لذلك ما فى «الصحيحين»[1] من حديث أبى موسى ﷺ قال: جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وآله وسلم فقال: يا رسول الله، أرأيت الرجل يقاتل شجاعة، ويقاتل حمية، ويقاتل رياء، فأى ذلك فى سبيل الله؟ فقال: **«من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا، فهو فى سبيل الله»**.

فمعنى قوله: «يقاتل شجاعة» أى: ليذكر ويحمد، ومعنى قوله: «يقاتل حمية» أى: يأنف أن يقهر أو يذم، ومعنى: «يقاتل رياء» أى: ليرى مكانه، وهذا هو لذة الجاه والمنزلة فى القلوب.

وقد لا يشتهى الإنسان الحمد، ولكنه يحذر من الذم، كالجبان بين الشجعان، فإنه يثبت ولا يفر لئلا يذم. وقد يفتى الإنسان بغير علم حذراً من الذم بالجهل، فهذه الأمور الثلاثة هى التى تحرك إلى الرياء.

وعلاجه: أن الإنسان إنما يقصد الشىء ويرغب فيه إذا ظن أنه خير له ونافع، إما فى الحال أو المآل، فإن علم أنه لذيذ فى الحال ضار فى المآل، سهل عليه اجتنابه وقطع الرغبة عنه، كمن يعلم أن العسل لذيذ، ولكن إذا بان أن فيه سماً، أعرض عنه، فكذلك قطع طريق هذه الرغبة أن تعلم ما فيها من المضرة، فإن الإنسان متى عرف مضرة الرياء وما يفوته من صلاح قلبه، ومن المنزلة فى الآخرة، وما يتعرض له من العذاب والمقت والخزى، هذا مع ما يتعرض له فى الدنيا من تشتت الهم بسبب ملاحظة قلوب الخلق، فإن رضى الناس غاية لا تدرك، فكل ما يرضى به فريق يسخط به فريق، ومن طلب رضاهم فى سخط الله، سخط الله عليه وأسخطهم عليه. ثم أى غرض له فى مدحهم وإيثار ذم الله له لأجل مدحهم؟ ولا يزيد مدحهم رزقاً ولا أجلاً، ولا ينفعه يوم فقره وفاقته. وكذلك ذمهم لِمَ يحذر منه؟ ولا يضره ذمهم شيئاً ولا يعجل أجله، ولا يؤخر رزقه، فإن العباد كلهم عجزة، لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً، ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً، فإذا قرر هذا فى نفسه، فترت رغبته فى الرياء، وأقبل على الله تعالى بقلبه، فإن العاقل لا يرغب فيما يضره ويقل نفعه.

وأما الطمع فيما فى أيدى الناس، فيزيله بأن يعلم أن الله تعالى هو المسخِّر للقلوب بالمنع والإعطاء، وأنه لا رازق سواه، ومن طمع فى الخلق لم يخلُ من الذنوب والذل والخيبة، وإن وصل إلى المراد، لم يخلُ من المنة والمهانة، فكيف يترك ما عند الله برجاء كاذب ووهم فاسد.

(١) **صحيح**: أخرجه البخارى (٧٤٥٨) التوحيد، ومسلم (١٩٠٤) الإمارة.

ومن الدواء النافع: أن يعود نفسه إخفاء العبادة، وإغلاق الأبواب دونها، كما تغلق الأبواب دون الفواحش، حتى يقنع قلبه بعلم الله واطلاعه على عبادته، ولا تنازعه النفس إلى طلب علم غير الله، فإنه لا دواء فى الرياء مثل إخفاء الأعمال، وذلك يشق فى بداية المجاهدة، فإذا صبر عليه مدة بالتكلف، سقط عنه ثقله، وأمده الله بالعون، فعلى العبد المجاهدة، ومن الله التوفيق.

المقام الثانى: فى دفع العارض من الرياء أثناء العبادة، وذلك لابد من تعلمه أيضاً، فإن من جاهد نفسه، وقلع مغارس الرياء من قلبه بالقناعة وإسقاط نفسه من أعين الناس، واحتقار مدحهم وذمهم، فإن الشيطان لا يتركه فى أثناء العبادة، بل يعارضه بخطرات الرياء، فإذا خطر له معرفة الخلق بعبادته واطلاعهم عليها، دفع ذلك بأن يقول: ما لك وللخلق علموا أو لم يعلموا، والله عالم بحالك، فأى فائدة فى علم غيره؟

فإن هاجت الرغبة إلى آفة الحمد، ذكّرها آفات الرياء والتعرض للمقت عند الله فى القيامة، وخيبته فى أحوج أوقاته إلى أعماله، فيقابل تلك الرغبة بكراهة المقت، فإن معرفة اطلاع الناس تثير شهوة، ومعرفة آفة الرياء تثير كراهة.

فصل فى بيان الرخصة فى قصد إظهار الطاعات وبيان الرخصة فى كتمان الذنوب، وكراهة اطلاع الناس على الذنب وذمهم له

أما الأول، فاعلم أن فى إسرار الأعمال فائدة الإخلاص والنجاة من الرياء، وفى الإظهار فائدة الاقتداء، وترغيب الناس فى الخير.

ومن الأعمال ما لا يمكن الإسرار به كالحج والجهاد.

والمُظهِر للعمل ينبغى أن يراقب قلبه، حتى لا يكون فيه حب الرياء الخفى، بل ينوى الاقتداء به، ولا ينبغى للضعيف أن يخدع نفسه بذلك، فإن مثال الضعيف مثال الغريق الذى يحسن سباحة ضعيفة، فنظر إلى جماعة من الغرقى فرحمهم، وأقبل عليهم فتشبثوا به، فهلكوا وهلك معهم.

فأما من قوى إيمانه وتم إخلاصه، وصغر الناس فى عينيه، واستوى عنده مدحهم وذمهم، فلا بأس بالإظهار له، لأن الترغيب فى الخير خير.

وقد روى ذلك عن جماعة من السلف أنهم كانوا يظهرون شيئاً من أحوالهم الشريفة ليقتدى بهم، كما قال بعضهم لأهله حين احتضر: لا تبكوا علىَّ، فإنى ما لفظت بخطيئة منذ أسلمت.

وقال أبو بكر ابن عياش رحمه الله لابنه: إياك أن تعصى الله تعالى فى هذه الغرفة، فإنى ختمت فيها اثنتى عشرة ألف ختمة. ونحو ذلك كثير من كلامهم، والله أعلم.

وأما الرخصة فى كتمان الذنوب، فربما ظن أحدٌ أن كتمان الخطايا رياء، وليس كذلك فإن الصادق الذى لا يرائى إذا وقعت منه معصية، كان له سترها، لأن الله تعالى يكره ظهور المعاصى ويحب سترها.

وقد روى عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: **«من ارتكب شيئاً من هذه القاذورات، فليستتر بستر الله عز وجل»**.(1)

فهذا وإن عصى بالذنب، لم يخلُ قلبه عن محبة ما أحبه الله عز وجل، وهذا ينشأ عن قوة الإيمان.

وينبغى أن يكره ظهور الذنب من غيره أيضاً، فهذا أثر الصدق فيه.

ومن ذلك أن يكره ذم الناس له، من حيث إن ذلك يشغل قلبه وعقله عن طاعة الله تعالى، فإن الطبع يتأذى بالذم، وبهذه العلة أيضاً ينبغى أن يكره المدح إذا كان يشغله عن الله تعالى، ويستغرق قلبه، ويصرفه عن الذكر، فإن هذا أيضاً من قوة الإيمان.

فصل فى ترك الطاعات خوفاً من الرياء

اعلم: أن ترك العمل خوفاً من الرياء، إن كان الباعث له على الطاعة غير الدين، فهذا ينبغى أن يترك، لأنه معصية لا طاعة فيه.

وإن كان الباعث على ذلك الدين، وكان ذلك لأجل الله تعالى خالصاً، ولكن يعترض الرياء مع عقد العبادة فلا ينبغى أن يترك العمل، لأنه وجد باعثاً دينيا فليَشْرَع فى العمل وليجاهد فى دفع الرياء بالمعالجات التى ذكرها مع إلزام النفس كراهية الرياء والإباء عن القبول.

وكذلك إذا ترك العمل خوفاً من أن يقال: إنه مراءٍ، فلا ينبغى ذلك، لأنه من مكائد الشيطان.

قال إبراهيم النخعى: إذا أتاك الشيطان وأنت فى صلاة فقال: إنك مراءٍ، فزدها طولاً.

وأما ما روى عن بعض السلف أنه ترك العبادة خوفاً من الرياء. كما روى عن إبراهيم

(1) صحيح: صححه الألبانى فى «الصحيحة» (٦٦٣).

النخعـى أن إنساناً دخل عليـه وهو يقرأ فى المصـحف، فأطبق المصحـف وترك القراءة، وقال: لا يرانى هذا أنى أقرأ كل ساعة، فيحمـل هذا على أنهم أحسوا من نفوسهم بنوع تزين فقطعوا.

فصل فى بيان ما يصح من نشاط العبد

بسبب رؤية الخلق وما لا يصح

اعلم: أن الرجل قد يـبيت مع المتهـجدين، فيـصلون أكثر الليـل، وعادته قيـام ساعة، فيوافقهم، أو يصومون فيصوم، ولولاهم ما انبعث هذا النشاط.

فربما ظن ظان أن هذا رياء، ولـيس كذلك على الإطلاق، بل فيه تفـصيل، وهو أن كل مؤمن يرغب فـى عبادة الله تعالى، ولكـن تعوقه العوائق، وتسـتهويه الغفلة، فـربما كانت مشاهدة الغـير سبباً لزوال الغفلـة واندفاع العوائق، فإن الإنسان إذا كـان فى منزله تمكن من النوم على فراش وطىء وتمتع بزوجته، فإذا بـات فى مكان غريب، اندفعت هذه الشواغل، وحصلت له أسباب باعثة على الخير، من مشاهدة العابدين.

وقد يعـسر عليه الصوم فـى منزله لكثرة المطاعـم، بخلاف غيره، ففـى مثل هذه الأحوال ينتدب الـشيطان للصد عن الطاعـة، ويقول: إذا عملت غيـر عادتك كنت مرائياً، فلا ينبغى أن يلتفت إليه، وإنما ينبغى أن ينظر إلى قصده الباطن، ولا يلتفت إلى وسواس الشيطان.

ويختبر أمره بأن يمثل القوم فى مكان يراهم ولا يرونه، فإن رأى نفسه تسخو بالتعبد فهو لله، وإن لم تسخُ كان سخاؤها عندهم رياء، وقِسْ على هذا.

فهذه جملة آفات الرياء، فكن بحّاثاً عنها، وتفقد نيتك، فإن الرياء أخفى من دبيب النمل.

بيـان مـا ينبغـى للمـريـد من القنـاعـة بعلم اللـه

اعلم: أنه ينبغى للمريد أن يلزم قلبه القناعة بعلم الله فى جميع طاعته.

وإنما يقنـع بذلك من خاف اللـه ورجاه، ولا ينبغى أن يـؤيس نفسه مـن الإخلاص بأن يقول: إنما يقـدر على الإخلاص الأقوياء، وأنا من المخلـطين، فيترك المجاهدة فـى تحصيل الإخلاص، لأن المخلط إلى ذلك أحوج.

قال إبراهيم بن أدهم: تعلمت المعرفة من راهب يقال له: سمعان، دخلت على صومعته فقلت له: منذ كم أنت فى صومعتك هذه؟ قال: منذ سبعين سنة، قلت: ما طعامك؟ قال: كل ليلة حمـصة، قلت: فما الذى يهيج مـن قلبك حتى تكفيك هذه الحـمصة؟ قال: ترى الدير الـذى بحذائك؟ قلـت: نعم، قال: إنـهم يأتونى فى كـل سنة يومـاً واحداً فيـزينون صومعتى ويطـوفون حولها يعظمونى بذلك، فكـلما تثاقلت نفسى عن العبـادة، ذكرتها عز تلك الساعة، فـأنا أحتمل جهد سنة لعز ساعـة، فاحتمل يا حنيفى جهـد ساعة لعز الأبد، فوقر فى قلبى المعرفة، فقال: أزيدك؟ قلـت: نعم، قال: انزل عن الصومعة، فنزلت فأدلى إلىَّ ركوة فيـها عشرين حـمصة، ثم قال لى: ادخل الـدير، فقد رأوا ما أدليت إلـيك فلما دخلت الدير اجتمعت النصارى، فقالوا: يا حنيفى ما الذى أدلى إليك الراهب؟ قلت: شيئاً من قوته. قالوا: ومـا تصنع به؟ نحن أحق به، ساوم به. قلت: عشـرون ديناراً، فأعطونى عشرين ديناراً، فرجعت إلى الراهب، فقال: أخـطأت، لو ساومتهم عشرين ألفاً لأعطوك، هذا عز من لا يعبده، فانظر كيف يكون عز من يعبده، يا حنيفى أقبلْ على عبادة ربك.

فقد بان بهذا أن استـشعار النفوس عز العظمة فى القلوب يكون بـاعثاً إلى الخلوة، فهذه آفة عظيمة، وعلامـة سلامته منها أن يكون الخلق عنده والبهائم بمـثابة واحدة، ويكون عمله عمل مَنْ ليس على الأرض غـيره، فإذا خطرت خطرات ضعيفة ردهـا، والله تعالى أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد.

كتاب ذم الكبر والعجب

وهما شطران :

الشطر الأول في الكبر وعلاجه

قال الله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ (الأعراف: ١٤٦)، وقال: ﴿إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ (النحل: ٢٣).

وفى الحديث الصحيح من أفراد مسلم، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: **«لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر»**. [١]

وفى «الصحيحين»[٢] عنه صلى الله عليه وآله وسلم قال: **«قالت النار: اوثرت بالمتكبرين»**.

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: **«يحشر الجبارون والمتكبرون يوم القيامة فى صورة الذر، يطؤهم الناس لهوانهم على الله عز وجل»**. [٣]

وقال سفيان بن عيينة رحمه الله: من كانت معصيته فى شهوة، فارجُ له التوبة، فإن آدم عليه السلام عصى مشتهياً فغفر له، فإذا كانت معصيته من كبر، فاخشَ عليه اللعنة، فإن إبليس عصى مستكبراً فلُعن.

وفى «الصحيحين»[٤]: أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: **«من جر ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة»**، فقال أبو بكر: يا رسول الله إن أحد شقى إزارى ليسترخى، إلا أن أتعاهد ذلك منه؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: **«إنك لست ممن يصنعه خيلاء»**.

بيان حقيقة الكبر وآفاته

واعلم: أن الكبر خلق باطن تصدر عنه أعمال هى ثمرته، فيظهر على الجوارح، وذلك الخلق هو رؤية النفس على المتكبر عليه، يعنى يرى نفسه فوق الغير فى صفات الكمال، فعند ذلك يكون متكبراً.

---

(١) سبق تخريجه ص (٢٠٥).

(٢) **صحيح**: أخرجه البخارى (٤٨٥٠) تفسير القرآن، ومسلم (٢٨٤٦) الجنة وصفة نعيمها.

(٣) **حسن**: أخرجه الترمذى (٢٤٩٢)، وأحمد (٦٦٣٩) عن عبد الله بن عمرو بن العاص وحسنه الألبانى فى صحيح الترمذى بغير هذا اللفظ.

(٤) **صحيح**: أخرجه البخارى (٣٦٦٥) المناقب، ومسلم (٢٠٨٥) اللباس والزينة، عن عبد الله بن عمر.

وبهذا ينفصل عن العجب، فإن العجب لا يستدعى غير المعجب، حتى لو قدر أن يخلق الإنسان وحده تصور أن يكون معجباً، ولا يتصور أن يكون متكبراً، إلا أن يكون مع غيره وهو يرى نفسه فوقه، فإن الإنسان متى رأى نفسه بعين الاستعظام، حقر من دونه وازدراه، وصفة هذا المتكبر: أن ينظر إلى العامة كأنه ينظر إلى الحمير استجهالاً واستحقاراً.

وآفة الكبر عظيمة، وفيه يهلك الخواص، وقلما ينفك عنه العباد، والزهاد، والعلماء.

وكيف لا تعظم آفته، وقد أخبر النبى صلى الله عليه وآله وسلم: أنه لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر.(1)

وإنما صار حجاباً دون الجنة، لأنه يحول بين العبد وبين أخلاق المؤمنين، لأن صاحبه لا يقدر أن يحب للمؤمنين ما يحب لنفسه، فلا يقدر على التواضع، ولا على ترك الحقد والحسد والغضب، ولا على كظم الغيظ وقبول النصح، ولا يَسْلَم من الازدراء بالناس واغتيابهم. فما من خلق ذميم إلا وهو مضطر إليه.

ومن شر أنواع الكبر: ما يمنع من استفادة العلم، وقبول الحق، والانقياد له.

وقد تحصل المعرفة للمتكبر، ولكن لا تطاوعه نفسه على الانقياد للحق، كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ (النمل: ١٤) ﴿فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾ (المؤمنون: ٤٧) ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ (إبراهيم: ١٠) وآيات كثيرة نحو هذا، وهذا تكبر على الله وعلى رسوله.

وقد تقدم أن التكبر على العباد هو احتقارهم واستعظام نفسه عليهم، وذلك أيضاً يدعو إلى التكبر على أمر الله تعالى، كما حمل إبليس كبره على آدم عليه السلام أن امتنع عن امتثال أمر ربه فى السجود.

وقد شرح رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الكبر فقال: **«الكبر: بطر الحق وغمط الناس»**. ومعنى (غمط الناس): الازدراء بهم، واستحقارهم. ويروى: (غمص الناس) بمعنى غمط الناس.

فصل فى تقسيم آفات الكبر

واعلم: أن العلماء والعباد فى آفة الكبر على ثلاثة درجات:

(١) سبق تخريجه ص (٢٠٥).

الأولى: أن يكون الكبر مستقراً فى قلب الإنسان منهم، فهو يرى نفسه خيراً من غيره، إلا أنه يجتهد ويتواضع، ويفعل فعل من يرى غيره خيراً من نفسه، فهذا فى قلبه شجرة الكبر مغروسة، إلا أنه قد قطع أغصانها.

الثانية: أن يظهر لك بأفعاله من الترفع فى المجالس، والتقدم على الأقران، والإنكار على من يقصر فى حقه، فترى العالم يصعر خده للناس، كأنه معرض عنهم، والعابد يعيش ووجهه كأنه مستقذر لهم، وهذان قد جهلا ما أدب الله به نبيه صلى الله عليه وآله وسلم، حين قال الله تعالى: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الشعراء: ٢١٥).

الدرجة الثالثة: أن يظهر الكبر بلسانه، كالدعاوى والمفاخر، وتزكية النفس، وحكايات الأحوال فى مَعْرض المفاخرة لغيره، وكذلك التكبر بالنسب، فالذى له نسب شريف يستحقر من ليس له ذلك النسب وإن كان أرفع منه عملاً.

قال ابن عباس: يقول الرجل للرجل: أنا أكرم منك، وليس أحد أكرم من أحد إلا بالتقوى؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (الحجرات: ١٣).

وكذلك التكبر بالمال، والجمال، والقوة، وكثرة الأتباع، ونحو ذلك، فالتكبر بالمال أكثر ما يجرى بين الملوك والتجار ونحوهم.

والتكبر بالجمال أكثر ما يجرى بين النساء، ويدعوهن إلى التنقص والغيبة، وذكر العيوب.

وأما التكبر بالأتباع والأنصار، فيجرى بين الملوك بالمكاثرة بكثرة الجنود، وبين العلماء بالمكاثرة بالمستفيدين.

وفى الجملة: فكل ما يمكن أن يعتقد كمالاً، فإن لم يكن فى نفسه كمالاً، أمكن أن يتكبر به، حتى إن الفاسق قد يفتخر بكثرة شرب الخمر والفجور، لظنه أن ذلك كمال.

واعلم: إن التكبر يظهر فى شمائل الإنسان، كصعر وجهه، ونظره شزراً، وإطراق رأسه، وجلوسه متربعاً ومتكئاً، وفى أقواله، حتى فى صوته ونغمته، وصيغته فى إيراد الكلام، ويظهر ذلك أيضاً فى مشيه وتبختره، وقيامه وقعوده وحركاته وسكناته وسائر تقلباته.

ومن خصال المتكبر: أن يحب قيام الناس له.

والقيام على ضربين:

● قيام الناس على رأسه وهو قاعد، فهذا منهى عنه، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**من احب ان يتمثل له الرجال قياماً فليتبوأ مقعده من النار**»[1]. وهذه عادة الأعاجم والمتكبرين.

● الثانى: قيام عند مجيء الإنسان، فقد كان السلف لا يكادون يفعلون ذلك.

قال أنس: لم يكن شخص أحب إلينا من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وكانوا إذا رأوه لم يقوموا لما يعلمون من كراهته لذلك.[2]

وقد قال العلماء: يستحب القيام للوالدين والإمام العادل، وفضلاء الناس[3]، وقد صار هذا كالشعار بين العلماء والأفاضل، فإذا تركه الإنسان فى حق من يصلح أن يفعل فى حقه، لم يأمن أن ينسبه إلى إهانته، والتقصير فى حقه، فيوجب ذلك حقداً.

واستحباب هذا فى حق القائم لا يمنع الذى يقام له أن يكره ذلك، ويرى أنه ليس بأهل ذلك.

ومن خصال المتكبر: أن لا يمشى إلا ومعه أحد يمشى خلفه.

ومنها: أن لا يزور أحداً تكبراً على الناس.

ومنها: أن يستنكف من جلوس أحد إلى جانبه أو مشيه معه.

وقد روى أنس ﷺ قال: إن كانت الأمة من أهل المدينة لتأخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فتنطلق به فى حاجتها.[4]

وقال ابن وهب: جلست إلى عبد العزيز بن أبى رواد، وإن فخذى لتمس فخذه فنحيت نفسى عنه، فأخذ ثيابى فجرنى إليه، وقال: لِمَ تفعلون بى ما تفعلون بالجبابرة، وإنى لا أعرف منكم رجلاً شراً منى؟!

ومنها: أن لا يتعاطى بيده شغلاً فى بيته، وهذا بخلاف ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

---

(١) **صحيح** : أخرجه أبو داود (٥٢٢٩) الأدب، والترمذى (٢٧٥٥) الأدب وحسنه، وأحمد (١٦٤٧٣)، وصححه الألبانى فى صحيح الترمذى.

(٢) **صحيح** : أخرجه الترمذى (٢٧٥٤) الأدب، عن أنس وقال: «حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه» وصححه الألبانى.

(٣) هذا من العرف الجارى ويشترط عدم دخول الكبر.

(٤) **صحيح** : أخرجه البخارى (٦٠٧٢)، وأحمد (١١٥٣٠) عن أنس ﷺ.

ومنها: أن لا يحمل متاعه من سوقه إلى بيته، وقد اشترى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شيئاً وحمله. وكان أبو بكر ﷺ يحمل الثياب إلى السوق يتجر فيها. واشترى عمر ﷺ لحماً فعلقه بيده وحمله إلى بيته. واشترى عليّ ﷺ تمراً فحمله فى ملحفة، فقال له قائل: أحمل عنك؟ قال: لا، أبو العيال أحق أن يحمل.

وأقبل أبو هريرة ﷺ يوماً من السوق وقد حمل حزمة حطب، وهو يومئذ خليفة مروان ابن الحكم، فقال لرجل: أوسع الطريق للأمير.

ومن أراد أن ينفى الكبر، ويستعمل التواضع، فعليه بسيرة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وقد سبقت الإشارة إليها فى كتاب «آداب المعيشة» والله أعلم، وصلى الله على محمد وآله وسلم، حامداً ومصلياً.

بيان معالجة الكبر واكتساب التواضع

اعلم: أن الكبر من المهلكات، ومداوته فرض عين، ولك فى معالجته مقامان:

الأول: فى استئصال أصله وقطع شجرته، وذلك بأن يعرف الإنسان نفسه ويعرف ربه، فإنه إذا عرف نفسه حق المعرفة، علم أنه أذل من كل ذليل، ويكفيه أن ينظر فى أصل وجوده بعد العدم من تراب، ثم من نطفة خرجت من مَخْرج البول، ثم من علقة، ثم من مضغة، فقد صار شيئاً مذكوراً، بعد أن كان جماداً لا يسمع ولا يبصر، ولا يحس ولا يتحرك، فقد ابتدأ بموته قبل حياته، وبضعفه قبل قوته، وبفقره قبل غناه.

وقد أشار الله تعالى إلى هذا بقوله: ﴿ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ۝١٨ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ﴾ (عبس: ١٨، ١٩)، ثم امتن عليه بقوله: ﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ﴾ (عبس: ٢٠)، وبقوله: ﴿فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ (الإنسان: ٢) فأحياه بعد الموت، وأحسن تصويره، وأخرجه إلى الدنيا، فأشبعه وأرواه، وكساه وهداه، وقوّاه.

فمَنْ هذا بدايته، فأى وجه لكبره وفخره؟

نعم، لو دام له الوجود على اختياره لجاز أن يطغى وينسى المبتدأ، ولكن قد سلط الله تعالى عليه الطباع المتضادة، والأمراض الهائلة، بينما بنيانه قد تم، إذ هو قد وهى وتهدم، لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً، بينما هو يذكر الشىء فينساه، ويستلذ الشىء فيرديه، ويروم الشىء فلا يناله، ثم لا يأمن أن يسلب حياته بغتة.

هذا أوسط حاله، وذاك أول أمره، وأما آخر أمره، فالموت الـذى يعيده جماداً كما كان، ثم يلقــى فى التراب فيـصير جيـفة منتنـة، وتبلى أعضاؤه، وتـنخر عظامـه، ويأكل الدود أجزاءه، ويعود تراباً يعمل منه الكيزان، ويعمـر منه البنيان، ثم بعد طول البلى تجمع أجزاؤه المتفرقة، ويحضر عرصة القيامة، فيرى أرضاً مبدلة، وجبالاً مسيرة، وسماء منشقة، ونجوماً منكدرة، وشمسـاً مكورة، وأحوالاً مظلمة، وجحـيماً تزفر، وصحائف تنـشر، ويقال له: ﴿ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ (الإسراء:١٤). فيقول: وما كتـابى؟ فيقال: كان قد وكل بك فى حياتك التى كنت تفرح بها وتتكبر بنعيمها ملكان يحصيان ما تنطق به وتعمل، من قليل وكثير، وقيام وقعود، وأكل وشرب، وقد نسيت ذلك، وأحصاه الله تعالى، فهلمَّ إلى الحساب عليه، وأعـد جواباً له، وإلا فأنت تساق إلى النار، فما لمـن هذه حاله التكبر؟ فإن صار إلى النار، فالبهائم أحسن حـالاً منه، لأنها تعود إلى التراب، ومن هذا حاله وهو على شـك من العفـو عن أخطائه، كـيف يتكبـر؟! ومن الذى يسلم مـن ذنب يستـحق به العقوبـة، وما مثله إلا كمـثل رجل جنى على ملك جنـاية استحق أن يضرب لأجـلها ألف سوط، فحـبس فى السجن ليخـرج فيعاقب، وهو منـتظر أن يدعى به لذلك. أفتـراه يتكبر على أهل السجن؟ وهل الدنيا إلا سجن، وهل المعاصى إلا موجبة للعقاب؟

وأما معـرفة ربه، فيكفيه أن يـنظر فى آثار قدرته وعجـائب صنعته، فتلوح لـه العظمة، وتظهر له المعرفة، فهذا هو العلاج القالع لأصل الكبر.

ومن العلاج العملى: التواضع بالفعل لـله تعالى ولعباده، وذلك بالمواظبة علـى استعمال خُلُق المتواضعيـن، وقد تقدمت الإشارة إلى طريقة رسول الله صلـى الله عليه وآله وسلم، وما كان عليه من التواضع والأخلاق الجميلة.

المقام الثانى: فيمـا يعرض من التكبـر بالأنساب، فمن اعـتراه الكبر من جهـة النسب، فليعلم أن هـذا تعزز بكمال غيره، ثم يـعلم أباه وجده، فإن أباه القريب نـطفة قذرة، وأباه البعيد جيفة مذرة، ومن اعتراه الكبر بـالجمال، فلينظر إلى باطنه نظر العقلاء، ولا ينظر إلى ظاهره نظر البهائم، ومن اعتراه من جهة القـوة، فليعلم أنه لو آلمه عرق، عاد أعجز من كل عاجز، وإن حمى يوم تُحلحل من قوته ما لا يعود فى مدة، وأن شوكة لو دخلت فى رجله لأعجزته، وبَقّة لو دخلت فى أذنه لقتلته.

ومن تكبر بسـبب الغنى، فإذا تأمل خَلْقـاً من اليهود، وجدهم أغنى مـنه، فَأُفٍ لشرف

تسبق به اليهود، ويستلبه السارق فى لحظة، فيعود صاحبه ذليلاً.

ومن تكبر بسبب العلم فليعلم أن حجة الله على العالم آكد من الجاهل، وليتفكر فى الخطر العظيم الذى هو بصدده، فإن خطره أعظم من خطر غيره، كما أن قدره أعظم من قدر غيره.

وليعلم أيضاً أن الكبر لا يليق إلا بالله سبحانه، وأنه إذا تكبر صار ممقوتاً عند الله تعالى بغيضاً عنده. وقد أحب الله منه أن التواضع، وكذلك كل سبب يعالجه بنقيضه ويستعمل التواضع.

واعلم: أن هذا الخلق كسائر الأخلاق له طرفان ووسط:

فطرفه الذى يميل إلى الزيادة يسمى تكبراً.

وطرفه الذى يميل إلى النقصان يسمى تخاسساً ومذلة.

والوسط يسمى تواضعاً، وهو المحمود، وهو أن يتواضع من غير مذلة، فخير الأمور أوساطها، فمن تقدم على أقرانه فهو متكبر، ومن تأخر عنهم، فهو متواضع، لأنه قد وضع شيئاً من قدره، فأما إذا أدخل على العالم إسكاف أو نحوه، فتنحى له عن مجلسه وأجلسه فيه، ثم قدم له نعله ومشى معه إلى الباب، فقد تخاسس وتذلل، فذلك غير محمود، بل المحمود العدل، وهو أن يعطى كل ذى حق حقه، لكن تواضعه للسوقة بالرفق فى السؤال، واللين فى الكلام، وإجابة الدعوة، والسعى فى الحاجة، ولا يحقره، ولا يستصغره، والله أعلم.

الشطر الثانى: فى العجب

روى عن أبى هريرة عن النبى صلي الله عليه وآله وسلم أنه قال: **«بينما رجل يتبختر فى بردين وقد أعجبته نفسه، خسف الله به الأرض، فهو يتجلجل[1] فيها إلى يوم القيامة»**.[2]

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: **«ثلاث مهلكات: شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه»**.[3]

وروى عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: الهلاك فى شيئين: العجب، والقنوط.

---

(١) يغوص فى الأرض.

(٢) **صحيح**: أخرجه البخارى (٥٧٨٩) اللباس، ومسلم (٢٠٨٨) اللباس والزينة.

(٣) سبق تخريجه ص (١٨٨) رقم (٢).

وإنما جمع بينهما لأن السعادة لا تنال إلا بالطلب والتشمير، والقانط لا يطلب، والمعجب يظن أنه قد ظفر بمراده فلا يسعى.

قال مطرف رحمه الله: لأن أبيت نائماً وأصبح نادماً، أحب إليَّ من أن أبيت قائماً وأصبح معجباً.

واعلم: أن العجب يدعو إلى الكبر، لأنه أحد أسبابه، فيتولد من العجب الكبر، ومن الكبر الآفات الكثيرة، وهذا مع الخَلْق. فأما مع الخالق، فإن العجب بالطاعات نتيجة استعظامها، فكأنه يمن على الله تعالى بفعلها، وينسى نعمته عليه بتوفيقه لها، ويَعْمَى عن آفاتها المفسدة لها. وإنما يتفقد آفات الأعمال من خاف ردها دون من رضيها وأعجب بها.

والعجب إنما يكون بوصف كمال من علم أو عمل، فإن انضاف إلى ذلك أن يرى حقاً له عند الله إدلالاً، فالعجب يحصل باستعظام ما عجب به، والإدلال يوجب توقع الجزاء، مثل أن يتوقع إجابة دعائه وينكر رده.

فصل في علاج العجب

اعلم: أن الله سبحانه وتعالى هو المنعم عليك بإيجادك وإيجاد أعمالك وأسباب أعمالك، فلا معنى لعجب عامل بعمله، ولا عالم بعلمه، ولا جميل بجماله، ولا غنى بغناه، إذ كل ذلك من فضل الله تعالى، وإنما الآدمى محل لفيض نعم الله تعالى، وكونه محلاً له نعمة أخرى.

فإن قلت: إن العمل حصل بقدرتك، ولا يتصور العمل إلا بوجودك ووجود عملك وإرادتك وقدرتك، فمن أين قدرتك؟ وكل ذلك من الله تعالى لا منك، فإن كان العمل بالقدرة فالقدرة مفتاحه، وهذا المفتاح بيد الله تعالى، وما لم تعط المفتاح لا يمكنك العمل، كما لو قعدت عند باب خزانة حصينة مغلقة ومفاتيحها بيد خازنها، ولو جلست على بابها لم يمكنك أن تنظر إلى شيء منها إلا أن تعطى مفتاحها.

وفي الصحيحين[1] من حديث أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: **«لن يُدخل احداً منكم عملُهُ الجنة»**، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: **«ولا انا، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل»**.

واعلم: أن العجب يكون بالأسباب التي بها يقع الكبر، وقد سبق ذكرها وعلاجها.

ومن ذلك العجب بالنسب، كما يتخيل الشريف أنه ينجو بشرف آبائه، وعلاجه أن يعلم

(1) **صحيح**: أخرجه البخاري (٥٦٧٣) المرضى، ومسلم (٢٨١٦) صفة القيامة.

أنه متى خالف آباءه، وظن أنه ملحق بهم، فقد جهل، وإن اقتدى بهم، فإنه لم يكن العجب من أخلاقهم، بل الخوف والإزراء على النفس.

وإنما شرفوا بالطاعة والخصال المحمودة، لا بنفس النسب. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (الحجرات:١٣)، وقال النبى صلى الله عليه وآله وسلم: «**يا فاطمة لا أغنى عنك من الله شيئاً**». [١] فإن قلت: إنما يرجو الشريف أن يشفع فيه ذوو قرابته.

فالجواب: أن كل المسلمين يرجون الشفاعة، وقد يشفع فى الشخص بعد إحراقه بالنار، وقد يقوى الذنب فلا تنجى الشفاعة.

وفى «الصحيحين»[٢] من حديث أبى هريرة رضي الله عنه أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال: «**لا ألفين أحدكم يجىء يوم القيام على رقبته بعير له رغاء، فيقول: يا رسول الله، أغثنى. فأقول: لا أملك لك شيئاً، قد أبلغتك**».

ومثل المنهمك فى الذنوب اعتماداً على رجاء الشفاعة، كمثل المريض المنهمك فى الشهوات، اعتماداً على طبيبه الحاذق المشفق، وذلك جهل، فإن اجتهاد الطبيب ينفع بعض الأمراض لا كلها. ويوضح هذا أن سادات الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين كانوا يخافون من الآخرة، فكيف يتكل مَنْ ليس فى مثل مراتبهم؟!

ومن ذلك العجب بالرأى الخطأ، كما قال الله تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾ (فاطر:٨). وعلاج هذا أشد من علاج غيره، فإن هذا متى كان معجباً برأيه لم يصغ إلى نصح ناصح، وكيف يترك ما يعتقده نجاة؟! وإنما علاجه فى الجملة أن يكون متهما لرأيه أبداً، لا يغتر به، إلا أن يشهد له قاطع من كتاب، أو سنة، أو دليل عقلى جامع لشروط الأدلة، ولن يعرف ذلك إلا بمجالسة أهل العلم وممارسة الكتاب والسنة.

والأولى لمن لم يتفرغ لاستغراق العمر فى العلم أن لا يخوض فى المذاهب، ولكن يقف عند اعتقاده فى الجملة، وأن الله سبحانه واحد لا شريك له، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (الشورى:١١)، وأن رسول الله صادق فيما جاء به، ويؤمن بما جاء به القرآن من غير بحث ولا تنقير، ويصرف زمنه فى التقوى، وأداء الطاعات، فمتى خاض فى المذاهب ورام ما لا يصل إلى معرفته، هلك وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

---

(١) سبق تخريجه ص (١٢٩).

(٢) **صحيح**: أخرجه البخارى (١٤٠٢)، ومسلم (١٨٣١) الإمارة.

كتاب الغرور وأقسامه ودرجاته

اعلم: أن من الناس من غرته الدنيا، فقال: النقد خير من النسيئة، والدنيا نقد، والآخرة نسيئة، وهذا محل التلبيس، فإن النقد لا يكون خيراً من النسيئة، إلا إذا كان مثل النسيئة. ومعلوم أن عمر الإنسان بالإضافة إلى مدة الآخرة ليس بجزء من ألف ألف جزء إلى أن ينقطع النفس، وإنما أراد من قال: النقد خير من النسيئة، إذا كانت النسيئة مثل النقد، وهذا غرور الكفار. فأما ملابسو المعاصى مع سلامة عقائدهم، فإنهم قد شاركوا الكفار فى هذا الغرور، لأنهم آثروا الدنيا على الآخرة، إلا أن أمرهم أسهل من أمر الكفار، من جهة أن أصل الإيمان يمنعهم من عقاب الأبد.

ومن العصاة من يغتر، فيقول: إن الله كريم، وأنا متكل على عفوه، وربما اغتروا بصلاح آبائهم.

وقد قال العلماء: من رجا شيئاً طلبه، ومن خاف شيئاً هرب منه، ومن رجا الغفران مع الإصرار على الذنب، فهو مغرور.

وليعلم أن نعمة الله تعالى واسعة ورحمته شاملة، وقد قضى بتخليد الكفار فى النار، مع أنه لا يضره كفرهم، وقد سلط الأمراض والمحن على خلق من عباده فى الدنيا، وهو سبحانه قادر على إزالتها، ثم خوفنا من عقابه، فكيف لا نخاف؟!.

فالخوف والرجاء سائقان يبعثان على العمل، وما لا يبعث على العمل فهو غرور. وتوضيح هذا أن رجاء أكثر الخلق يحملهم على البطالة، وإيثار المعاصى.

والعجب أن القرن الأول عملوا وخافوا، ثم أهل هذا الزمان أمنوا مع التقصير واطمأنوا، أتراهم عرفوا من كرم الله تعالى ما لم يعرف الأنبياء والصالحون.

ولو كان هذا الأمر يدرك بالمنى، فلمَ تعب أولئك وكثر بكاؤهم؟! ولمثل هذا ذم أهل الكتاب بقوله: ﴿ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا ﴾ (الأعراف: ١٦٩).

وأما من اغتر بصلاح آبائه، فهلا يذكر قصة نوح عليه السلام مع ابنه، وإبراهيم عليه السلام مع أبيه، ومحمد مع عمه صلى الله على محمد وآله وسلم وعلى سائر النبيين.

ويقرب من هذا الغرور، غرور أقوام لهم طاعات ومعاصى، إلا أن معاصيهم أكثر، وهم

يظنون أن حسناتهم ترجح، فترى الواحد منهم يتصدق بدرهم ويكون قد تناول من الغصب أضعاف ذلك، ولعل الذى تصدق به من المغصوب، ويتكل على تلك الصدقة، وما هو إلا كمن وضع درهماً فى كفة وألفاً فى أخرى، ثم رجا أن يرجح الدرهم بألف.

ومنهم من يظن أن طاعاته أكثر من معاصيه، وسبب ذلك أنه يحفظ عدد حسناته، ولا يحاسب نفسه على سيئاته، ولا يتفقد ذنوبه، كالذى يستغفر الله ويسبحه مائة مرة فى اليوم ثم يظل طول نهاره يغتاب المسلمين، ويتكلم فى أعراضهم، فهو ينظر فى فضائل التسبيح والاستغفار، ولا ينظر فى عقوبة الغيبة والكلام المنهى عنه.

فصل فى بيان أصناف المغترين

ويقع الاغترار فى الأغلب فى حق أربعة أصناف:

العلماء، والعباد، والمتصوفة، والأغنياء.

الصنف الأول: العلماء:

فأما أهل العلم، فالمغترون منهم فرق:

منهم: فرق أحكموا العلوم الشرعية والعقلية، وأهملوا تفقد الجوارح وحفظها عن المعاصى، وإلزامها الطاعات، واغتروا بعلمهم، وظنوا أنهم من الله بمكان، ولو نظر هؤلاء بعين البصيرة، علموا أن علم المعاملة لا يُراد به إلا العمل، ولولا العمل لم يكن له قدر. قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾(الشمس:٩)، ولم يقل: قد أفلح من تعلم كيف يزكيها، فإن تلا عليه الشيطان فضائل أهل العلم، فليذكر ما ورد فى العالم الفاجر، كقوله تعالى: ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾(الأعراف: ١٧٦)، و ﴿كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾(الجمعة: ٥).

ومنهم: فرقة أخرى أحكموا العلم والعمل الظاهر، ولم يتفقدوا قلوبهم ليمحوا الصفات المذمومة منها، كالكبر والحسد والرياء، وطلب العلو، وطلب الشهرة، فهؤلاء زينوا ظاهرهم، وأهملوا بواطنهم، ونسوا قوله صلى الله عليه وآله وسلم: **«إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»**. (١)

---

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم (٢٥٦٤) البر والصلة، وابن ماجه (٤١٤٣) الزهد، وأحمد (٧٧٦٨).

فتعاهدوا الأعمال، ولم يتعـاهدوا القلوب، والقلب هو الأصل، إذ لا ينجو إلا من أتى الله بقلب سليم.

ومثال هؤلاء كمثل رجل زرع زرعاً، فنبت ونبت معه حشيش يفسده، فأمر بقلعه، فأخذ يجز رؤوسه وأطرافه ويترك أصوله، فلم تزل أصوله تَقْوَى.

وفرقة أخرى: علموا أن هذه الأخلاق الباطنة مذمومة، إلا أنهم بعجبهم بأنفسهم يظنون أنهم منفكون عنها، وأنهم أرفع عند الله من أن يبتليهم بذلك، وإنما يبتلى بذلك العوام دون من بلغ مبلغـهم من العلم، فإذا ظهر عليـهم مخايل الكبر والرياسة. قـال أحدهم: ما هذا بكبر، وإنما هو طلب عز الدين، وإظهار شرف العلم، ونصرة دين الله تعالى، وإرغام أنف المخالفين من المبتدعين، فإنى لو لبست الدون من الثياب، وجلست فى الدون من المجالس، شمتت بى أعداء الدين، وفرحوا بـذلى، وفى ذلى ذل الإسلام، وينسى الغرور، وأن إبليس هو الذى سوّل له هذا، بدليل أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه كانوا يتواضعون ويؤثرون الفقر والمسكنة.

وقد روينا عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه لما قدم الشام عرضت له مخاضة، فنزل عن بعيره، ونزع خفيه وأمسكهما، وخاض الماء، ومعه بعيـره، فقال له أبو عبيدة: لقد صنعت اليوم صنعاً عظيماً عند أهل الأرض، فصك فى صدره، وقال: أوه لو غـيرك يقول هذا يا أبا عبيدة. إنكم كنتم أذل وأحقر الناس، فأعزكم الله برسوله، فمهما تطلبوا العز بغيره يذلكم الله.[1]

وفى رواية عنه: لمـا قدم الشام، استقـبله الناس وهو على بـعيره. فقيل لـه: لو ركبت برذوناً تَلْقَى به عظماء الناس ووجـوههم؟ فقال عمر ﷺ: ألا أراكم هاهنا، إنما الأمر من هاهنا -وأشار بيده إلى السماء- خلوا سبيل جملى.

ثم العجب من مـغرور يطلب عز الدنيا بالثـياب الرفيعة، والخيول الـفارهة ونحو ذلك. وإذا خطر له خاطر الرياء قال: إنما غرضى بهذا إظهار العلم والعمل، لاقتداء الناس بى ليهتدوا إلى الدين، ولو كان هذا قصـده لفرح باقتداء الناس بغيره كما يفـرح باقتدائهم به، لأن من كان قصده صلاح الخلـق يفرح بصلاحهم على يد من كان، وكذلـك من يدخل منهم على سلطان، ويتودد إليه، ويثنى عليه، ويتواضع له ويقول: إنما غرضى بهذا أن أشفع فى مسلم

(١) **صحيح موقوف**: أخرجه الحاكم (٣/ ٨٢)، وقال: صـحيح على شرطهما، وصححه الألبـانى، وانظر «صحيح الترغيب والترهيب» و«الصحيحة» (٥١).

أو أدفع عنه الضرر، والله يعلم أنه لو ظهر لبعض أقرانه قبول عند السلطان لثقل عليه ذلك.

وقد ينتهى غرور بعضهم إلى أن يأخذ من مالهم الحرام، ويقول: هذا مال لا مالك له، وهو لمصالح المسلمين، وأنت إمام من أئمتهم، فيغتر بهذا التلبيس من جهة نظره إلى نفسه، وربما كان دجالاً من الدجالين من جهة قوله: هذا مال لا مالك له، وغاية الأمر وقوع الاختلاط فى الأموال، وذلك لا يمنع كونها حراماً، وقد يكون عالماً بمن أخذ منه المال.

وفرقة أخرى: أحكموا العلم، وطهروا جوارحهم وزينوها بالطاعات، وتفقدوا قلوبهم بتصفيتها من الرياء والحسد والكبر ونحو ذلك، ولكن بقيت فى زوايا القلب خفايا من مكائد الشيطان وخدع النفس لم يفطنوا لها وأهملوها، فترى أحدهم يسهر ليله وينصب نهاره فى جمع العلوم وترتيبها وتحسين ألفاظها، ويرى أن باعثه على ذلك الحرص على إظهار دين الله تعالى، وربما كان الباعث لذلك طلب الذكر وانتشار الصيت، ولعله لا يخلو فى تصنيفه من الثناء على نفسه، إما صريحاً بالدعاوى الطويلة العريضة، وإما ضمناً بالطعن فى غيره ليبين فى طعنه فى غيره أنه أفضل من ذلك الغير، وأعظم منه علماً. فهذا وأمثاله من خفايا القلوب التى لا يفطن لها إلا الأكياس ولا يتنزه منها إلا الأقوياء، ولا مطمع فيه لأمثالنا من الضعفاء، إلا أن أقل الدرجات أن يعرف الإنسان عيوب نفسه، ويسوء ذلك ولا يكره، ويحرص على صلاحها.

ومن سرته حسنته وساءته سيئته، فهو مرجو أمره، بخلاف من يزكى نفسه ويظن أنه من خيار الخلق. فهذا غرور الذين حصّلوا العلوم المهمة، فكيف بالذين قنعوا من العلوم بما لا يهمهم وتركوا المهم.

فمنهم من اقتصر على علم الفتاوى فى الحكومات والخصومات. وتفاصيل المعاملات الدنيوية الجارية بين الخلق لصلاح المعايش، وربما ضيعوا الأعمال الظاهرة وارتكبوا بعض المعاصى من الغيبة والنظر إلى ما لا يحل، والمشى إلى ما لا يجوز، ولم يحرسوا قلوبهم عن الكبر والحسد والرياء وجميع المهلكات، فهؤلاء مغرورون من وجهين: أحدهما من حيث العمل، والآخر من حيث العلم.

ومثالهم مثال المريض إذا تعلم نسخة الدواء واشتغل بتكراره وتعليمه، لا بل مثلهم مثل من به علة البرسام وهو مشرف على الهلاك، فاشتغل بتعلم داوء الاستحاضة، وجعل يكرر ذلك مع علمه بأنه رجل لا يحيض ولا يستحاض، ولكن يقول: ربما تقع علة الاستحاضة لامرأة وتسألنى عن ذلك، وذلك غاية الغرور.

وسبب غروره ما سمع فـي النقل من تعظيم الفقه، ولم يدرِ أن الفقـه هو الفقه عن الله تعالى، ومعرفة صفاته المخوفة والمرجوة، ليستشعر القلب الخوف ويلازم التقوى.

وقد قال الله تعالى: ﴿ فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾(التوبة: ١٢٢). والذى يحصل له الإنذار غير هذا العلم، فإن مقصود هذا العلم حفظ الأموال بشروط المعاملات، وحفظ الأبدان بالأموال، ودفع القتل والجراحات.

والمال فى طريق الله تعالى آلة، والبدن مركب.

وإنما العلـم المهم معـرفة سلوك الطـريق، وقطع عقـبات القلـب التى هى من الصـفات المذمومة، فهى الحجاب بين العبد وبين الله تعالى.

ومثال من اقـتصر على ذلك، كمثل مـن اقتصر فى سلوك الحج علـى علم خرز الراوية والخف، ولا شك أنه لابد من ذلك: ولكن ليس من الحج فى شيء.

ومن هؤلاء مـن اقتصـر على علم الخـلاف، ولم يهـمه إلا طريق المجـادلة، والإلزام، والإفحام، ودفع الحق لأجل الغلـبة، فهو أسوأ حالاً ممن ذكر قبلهم، وجـميع دقائق الجدل فى الفقه بدعة لم يعرفها السلف.

وأما أدلة الأحكام، فـيشتمل علـيها علم المذهب، وهى كـتاب الله تعالى وسـنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم.

وأما حيل الجدل، من الكسر، والقلب، وفساد الـوضع والتركيب، والتعدية فإنما أبدعت لإظهار الغلبة والإفحام.

وفرقة أخرى اشتغلوا بعلم الكلام والمجادلة فى الأهواء، والرد على المخالفين.

ثم هؤلاء طائفـتان: ضالة، ومحقـة، فالضالة التى تدعـو إلى غير السنة، والمحـقة التى تدعو إلى السنة، والغرور شامل لجميعهم.

أما الضالة، فاغتـرارها ظاهر، وأما المحقة فاغترارها من حـيث إنها ظنت أن الجدال أهم الأمور، وأفضل القربات فى دين الله تعالى، وزعـمت أنه لا يتم لأحد دينه ما لم يبحث، وأن من صدق الله ورسوله من غير تحرير دليل، فلـيس بكامل الإيمان، فلهذا الظن الفاسد قطعوا أعمارهم فى تعلم الجدل والبحث عن المقـالات، وعميت بصائرهم، فلم يلتفتوا إلى

القرن الأول، وأن النبى صلى الله عليه وآله وسلم شهد لهم بأنهم خير الخلق، وأنهم قد أدركوا كثيراً من البدع والهوى، فلم يجعلوا أعمارهم ودينهم عرضاً للخصومات والمجادلات، ولم يشتغلوا بذلك عن تفقد قلوبهم وجوارحهم، بل لم يتكلموا فيه إلا لضرورة رد الضلال، فإن رأوه مصراً على بدعته هجروه من غير مماراة ولا جدل.

وقد روى فى الحديث: **«ما ضل قوم بعد هدى إلا أوتوا الجدل»**.(١)

وفرقة أخرى: اشتغلوا بالوعظ، وأعلاهم رتبة من يتكلم فى أخلاق النفس وصفات القلب، من الخوف والرجاء والصبر والشكر والتوكل والزهد واليقين والإخلاص، وهم يظنون أنهم إذا تكلموا بهذه الصفات وهم منفكون عنها أنهم من أهلها، فهؤلاء يدعون إلى الله وهم هاربون منه، فهم أعظم الناس غرة.

وفرقة أخرى منهم: عدلوا عن المنهاج الواجب فى الوعظ إلى الشطح وتلفيق كلام خارج عن قانون الشرع والعقل طلباً للإغراب.

ومنهم: من يستشهد بأشعار الوصال والفراق، وغرضهم أن يكثر الصياح فى مجالسهم والتواجد، ولو على أغراض فاسدة، فهؤلاء شياطين الإنس.

ومنهم: فرقة استغرقوا أوقاتهم فى سماع الحديث، وجمع رواياته، وأسانيده الغريبة والعالية، فَهَمُّ أحدهم أن يدور البلاد، ويرى الشيوخ ليقول: أنا أروى عن فلان، ولقيت فلاناً، ولى من الإسناد ما ليس لغيرى.

ومنهم: فرقة اشتغلوا بعلم النحو واللغة والشعر، وزعموا أنهم علماء الأمة، وأذهبوا أعمارهم فى دقائق النحو واللغة، ولو عقلوا لعلموا أن مضيع عمره فى معرفة لغة العرب كالمضيع عمره فى معرفة لغة الترك، وإنما فارقتها لغة العرب لأجل ورود الشريعة بها، فيكفى من اللغة علم الغريبين: غريب القرآن، والحديث، ومن النحو ما يقوِّم به اللسان.

فأما التعمق إلى درجات لا تتناهى، فذلك يشغل عما هو أجود منه وألزم.

ومثال التعمق فى ذلك، مثال من ضيع عمره فى تصحيح مخارج الحروف فى القرآن،

---

(١) **حسن:** أخرجه أحمد (٢١٦٦٠)، والترمذى (٣٢٥٣) تفسير القرآن، وابن ماجه (٤٨) المقدمة، عن حجاج بن دينار عن أبى غالب عن أبى أمامة عن النبى ﷺ . وقال أبو عيسى: «حديث حسن صحيح» وحسنه الألبانى أيضاً فى صحيح الترمذى.

مقتصراً على ذلك، وذلك غرور، لأن المقصود من الحروف المعانى، وإنما الحروف ظروف وأدوات، ومن احتاج إلى شرب السكنجبين لإزالة الصفراء، فضيع عمره فى تحسين القدح الذى يشرب فيه، فهو مغرور، والسعيد من أخذ من كل شىء من هذا حاجته المهمة لا غير، وتجاوز إلى العمل، واجتهد فيه وفى تصفيته من الشوائب، فهذا هوالمقصود.

وفرقة أخرى: عظم غرورهم، فوضعوا الحيل فى دفع الحقوق، وظنوا أن ذلك ينفعهم، بل ذلك غرور، فإن الإنسان إذا ألجأ زوجته إلى أن تبرئه من حقها لم يبرأ فيما بينه وبين الله تعالى.

وكذلك هبة الرجل مال الزكاة فى آخر الحول لزوجته، واستيهابه مالها لإسقاط الزكاة، ونحو ذلك من أنواع الحيل.

الصنف الثانى: أرباب التعبد والعمل، وهم فرق:

فرقة: أهملوا الفرائض واشتغلوا بالنوافل والفضائل، وربما تعمقوا فى استعمال الماء حتى خرجوا إلى الوسوسة فى الوضوء، فترى أحدهم لا يرضى بالماء المحكوم له بالطهارة شرعاً، بل يقدر له الاحتمالات البعيدة فى التنجس، ولا يقدر ذلك فى مطعمه، فلو انقلب هذا الاحتياط من الماء إلى المطعم، لكان أشبه بسير السلف، فإن عمر رضي الله عنه توضأ من جرة نصرانية مع ظهور احتمال النجاسة، وكان مع هذا يدع أنواعاً من الحلال خوفاً من الوقوع فى الحرام.

وقد صح أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم توضأ من مزادة مشركة.[1]

ثم منهم: من يخرج إلى الإسراف فى صب الماء، ويطول به الأمر، حتى تضيع الصلاة ويخرج وقتها.

ومنهم: من غلبت عليه الوسوسة فى تكبيرة الإحرام فى الصلاة، حتى ربما فاتته ركعة مع الإمام.

ومنهم: من يتوسوس فى إخراج حروف الفاتحة وسائر الأذكار من مخارجها، فلا يزال يحتاط فى التشديدات، والفرق بين الضاد والظاء فوق الحاجة، ونحو ذلك، بحيث يهتم بذلك حتى لا يتفكر فيما سواه، ويذهل عن معنى القرآن والاتعاظ به، وهذا من أقبح أنواع الغرور فإن الخلق لم يتكلفوا من تحقيق مخارج الحروف فى تلاوة القرآن إلا ما جرت به العادة فى الكلام.

ومثال هؤلاء مثال من حمل رسالة إلى سلطان، فأخذ يؤدى الرسالة بالتأنق فى مخارج الحروف وتكراره، وهو غافل عن مقصود الرسالة ومراعاة حرمة المجلس، فما أحراه بالطرد والتأديب.

---

(١) **صحيح** : صح ذلك فى حديث أخرجه البخارى (٣٤٤) التيمم عن عمران بن الحصين رضي الله عنه.

وفرقة أخرى: اغتروا بقراءة القرآن، فهم يهذونه هذاً، وربما ختموا فى اليوم مرتين، فلسان أحدهم يجرى به وقلبه يتردد فى أودية الأمانى، ولا يتفكر فى معانى القرآن ولا يتعظ بمواعظه، ولا يقف عند أوامره ونواهيه، فهذا مغرور يظن أن المقصود من القرآن التلاوة فقط.

ومثال ذلك، مثال عبد كتب إليه مولاه كتاباً يأمره فيه وينهاه، فلم يصرف عنايته إلى فهمه والعمل به، بل اقتصر على حفظه وتكراره، ظاناً أن ذلك هو المراد منه، مع مخالفته أمر مولاه ونهيه.

ومنهم: من يلتذ بصوته بالقرآن، معرضاً عن معانيه، فينبغى أن يتفقد قلبه فيعرف هل التذاذه بالنظم، أو بالصوت، أو بالمعانى.

وفرقة أخرى: اغتروا بالصوم وأكثروا منه، وربما صاموا الدهر والأيام الشريفة، وهم لا يحفظون ألسنتهم عن الغيبة والفضول، ولا بطونهم من الحرام عند الإفطار، ولا خواطرهم عن الرياء.

ومنهم: من اغتر بالحج، فيخرج إليه من غير خروج عن المظالم، وقضاء الديون، واسترضاء الوالدين، وطلب الزاد الحلال، وقد يفعلون ذلك بعد سقوط فرض الحج، ويضيعون فى الطريق العبادة والفرائض ويعجزون عن طهارة الثوب والبدن، ولا يحترزون من الرفث والخصام، وهم مع ذلك يظنون أنهم على خير وهم مغرورون.

وفرقة أخرى: أخذوا فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ونسوا أنفسهم.

ومنهم: من يؤم فى مسجد، ولو تقدم عليه أورع منه وأعلم، ثقل عليه.

ومنهم: من يؤذن ويظن أن ذلك لله، ولو أذن غيره فى غيبته، اشتد عليه ذلك وقال: قد زاحمنى فى مرتبتى.

ومنهم: من يجاور بمكة أو بالمدينة وقلبه متعلق ببلاده، وقول الناس: فلان مجاور بمكة أو بالمدينة، ثم إنه يجاور ويطمع فى أوساخ الناس، وقد يجمع ذلك ويشح به ويجتمع له جملة من المهلكات. وما من عمل إلا وفيه آفات، فمن لم يعرفها وقع فيها، ومن أراد أن يعرفها، فلينظر فى كتابى هذا، فينظر فى آفات الرياء الحاصل فى العبادات من الصوم والصلاة وفى جميع القربات فى الأبواب المرتبة فى هذا الكتاب، وإنما الغرض الآن الإشارة إلى مجامع ما سبق.

وفرقة أخرى: زهدت فى المال، وقنعت بالدون من اللبـاس والطعام، وقنعت من المسكن بالمساجد، فظنت أنـها أدركت رتبة الزهاد، وهم مع هذا شديدو الرغبـة فى الرياسة والجاه، فقد تركوا أهون الأمرين وباؤوا بأعظم المهلكين.

وفرقة أخرى: حرصت على النوافـل، ولم تعتنِ بالفرائض، فترى أحـدهم يفرح بصلاة الضحـى وصلاة الليل، ولا يجـد للفريضـة لذة. ولا يحرص عـلى المبادرة إليـها فى أول الوقت، وينسى قـوله صلى الله عليه وآله وسلـم فيما يرويه عن ربه عـز وجل: «ما تقرب المتقربون إلىَّ بمثل أداء ما افترضت عليهم».[1]

الصنف الثالث: المتصوفة. والمغرورون منهم فرق:

فرقة منهم: اغتروا بالزى والنطق والهيئة، فتشبـهوا بالصادقين من الصوفية بالظاهر، ولم يتعـبوا أنفسـهم فى المجاهدة والـرياضة، ثم هم يتـكالبون على الحـرام والشبهـات وأموال السلاطين ويمزق بعضهم أعراض بعض إذا اختلفوا فى غرض، وهؤلاء غرورهم ظاهر.

ومثالـهم مثال عجـوز سمعت أن الشجـعان والأبطال من المقـاتلين تثبت أسـماؤهم فى الديوان، ويقطع كل واحد منهم قطراً من أقطار الأرض، فاشتاقت نفسها إلى ذلك، فلبست درعاً ووضعت على رأسها مغفراً، وتعلمـت من رجز الأبطال أبياتاً، وتعلمت زيهم وجميع شمائلهم، ثم توجهـت إلى العسكر، فكتب اسمها فى ديوان الشجـعان، فلما حضرت فى ديوان العرض، أمرت بتجريد المغفر والدرع لينظـر ما تحته وتمتحن بالمبارزة، فلما جردت إذا هى عجوز ضعيفة زمنة، فقيل لها: جئـت تستهزئين بالملك وأهل حضرته، خذوها وألقوها بين أيدى الفيل، فألقيت إليه.

فهكذا يكون حـال المدّعين للتصوف فى القـيامة إذا كُشف عنهم الغطـاء، وعُرضوا على الحاكم الأكبر الذى ينظر إلى القلب لا إلى المرقعات والزى.

وفرقة أخرى: ادعت علـم المعرفـة، ومشاهـدة الحق، ومجـاورة المقامـات والأحوال، والوصول إلى القرب، ولا يعرفون من تلك الأمور إلا الأسماء، فترى أحدهم يرددها ويظن

---

(١) صحيح : أخرجه البخارى (٦٥٠٢) الرقـاق، عن أبى هريرة عن النبى ﷺ فيما يروى عن ربه عز وجل: «من عادى لى ولياً...» الحديث.

أن ذلك أعلى من علم الأولين والآخرين، فهو ينظر إلى الفقهاء والمحدثين وأصناف العلماء بعين الازدراء، فضلاً عن العوام حتى إن بعض العامة يلازمهم الأيام الكثيرة، ويتلقف منهم تلك الكلمات المزيفة، ويرددها كأنه يتكلم عن الوحى، ويحتقر فى ذلك جميع العلماء والعباد، ويقول: إنهم محجوبون عن الله، وإنه هو الواصل إلى الحق، وإنه من المقربين، وهو عند الله من الفجار المنافقين، وعند أرباب القلوب من الحمقى الجاهلين، لم يُحْكِم علماً ولم يُهَذّب خلقاً، ولم يراقب قلباً سوى اتباع الهوى وحفظ الهذيان.

وفرقة منهم: طووا بساط الشرع، ورفضوا الأحكام، وسووا بين الحلال والحرام، وبعضهم يقول: إن الله مستغنٍ عن عملى فلِمَ أتعب نفسى؟

وبعضهم يقول: لا قدر للأعمال بالجوارح، وإنما النظر إلى القلوب، وقلوبنا والهة بحب الله تعالى، وواصلة إلى معرفته، وإنما نخوض فى الدنيا بأبداننا، وقلوبنا عاكفة فى الحضرة الربانية، فنحن مع الشهوات بالظواهر لا بالقلوب، ويزعمون أنهم قد ترقوا عن رتبة العوام، واستغنوا عن تهذيب النفس بالأعمال البدنية، وأن الشهوات لا تصدهم عن طريق الله تعالى لقوتهم فيها، ويرفعون أنفسهم عن درجة الأنبياء، لأن الأنبياء عليهم الصلاة السلام كانوا يبكون على خطيئة واحدة سنين.

وأصناف غرور أهل الإباحة من المتشبهين بالصوفية لا تحصى، وكل ذلك أغاليط ووساوس، خدعهم الشيطان بها، لاشتغالهم بالمجاهدة قبل إحكام العلم، من غير اقتداء بشيخ صاحب علم ودين صالح للاقتداء به.

ومنهم: فرقة أخرى جاوزوا هذه الطريق، واشتغلوا بالمجاهدة، وابتدؤوا بسلوك الطريق وانفتح لهم بسلوك الطريق باب المعرفة، فلما استنشقوا مبادئ ريح المعرفة، تعجبوا منها، وفرحوا بها وأعجبهم غريبها، فتقيدت قلوبهم بالالتفات إليها والتفكر فيها، وكيفية انفتاح بابها عليهم وانسداده عن غيرهم، وكل ذلك غرور، لأن عجائب طريق الله سبحانه وتعالى ليس لها نهاية، ولو وقف مع كل أعجوبة وتقيد بها، قصرت خطاه وحُرم من الوصل إلى القصد، وكان مثاله مثال من قصد ملكاً، فرأى على بابه روضة فيها أزهار وأنوار لم يكن رأى مثلها، فوقف ينظر إليها حتى فاته الوقت الذى يمكن فيه لقاء الملك.

الصنف الرابع: أرباب الأموال

وهم فرق:

فرقة منهم: يحرصون على بناء المساجد والمدارس والرباطات والقناطر وما يظهر للناس ويكتبون أسماءهم عليها ليتخلد ذكرهم، ويبقى بعد الموت أثرهم، ولو كلف أحدهم أن ينفق ديناراً ولا يكتب اسمه فى الموضع الذى أنفق عليه لشق عليه، ولولا أنه يريد وجه الناس لا وجه الله، لما شق عليه ذلك، فإن الله سبحانه مطلع عليه، سواء كتب اسمه أو لم يكتبه.

وبعضهم يصرف المال فى زخرفة المسجد، وتزيينه بالنقوش التى هى منهى عنها وشاغلة للمصلين، فإن المقصود من الصلاة الخشوع وحضور القلب، وذلك يفسد قلوب المصلين.

فأما إن كان المال الذى صرفه فى ذلك حراماً، كان أشد فى الغرور.

قال مالك بن دينار رحمه الله: أتى رجل مسجداً، فوقف على الباب، وقال: مثلى لا يدخل بيت الله، فكتب فى مكانه صديقاً.

فبهذا ينبغى أن تعظم المساجد، وهو أن يرى تلويث المسجد بدخوله فيه بنفسه جناية على المسجد، وهذا لا يرى تلويث المسجد بالحرام، أو بزخرف الدنيا منة على الله تعالى، فغرور هذا من حيث إنه يرى المنكر معروفاً.

وفرقة أخرى: يحفظون الأموال ويمسكونها بخلاً، ثم يشتغلون بالعبادات البدنية التى لا تحتاج إلى نفقة المال، كالصيام والصلاة وختم القرآن، وهم مغرورون لأن البخل مهلك، وقد استولى على قلوبهم، فهم محتاجون إلى قمعه بإخراج المال، فقد اشتغلوا عنه بفضائل لا تجب عليهم.

ومثالهم مثال من دخلت فى ثوبه حية، فاشتغل عنها بطبخ السكنجبين لتسكن به الصفراء، ومن قتلته الحية فمتى يحتاج إلى السكنجبين؟!

ومنهم: من لا تسمح نفسه إلا بأداء الزكاة فقط، فيخرج الردىء من المال، أو يعطى من الفقراء من يخدمه، ويتردد فى حاجاته، أو من يحتاج إليه فى المستقبل أو من له فيه غرض.

ومنهم: من يسلم ذلك إلى بعض الأكابر، ليفرقه، لينال بذلك عنده منزلة ويقوم

بحوائجه، وكل ذلك مفسد للنية وصاحبه مغرور، لأنه يطلب بعبادة الله تعالى عوضاً عن غيره.

وفرقة أخرى: من أرباب الأموال وغيرهم، اغتروا بحضور مجالس الذكر، وظنوا أن نفس الحضور يغنيهم عن العمل والاتعاظ، وليس كذلك، لأن مجلس الذكر إنما فُضّل لكونه مرغباً فى الخير، وكل ما يراد لغيره إذا لم يوصّل إلى ذلك الغير فلا قيمة له، وربما سمع أحدهم التخويف، فلا يزيد على قوله: يا سلام سلم، أو أعوذ بالله، ويظن أنه قد أتى المقصود.

ومثال هذا كمثل مريض يحضر عند الأطباء فيسمع ما يجرى، أو الجائع يحضر عند من يصف له الأطعمة اللذيذة، ثم ينصرف فلا يغنى ذلك عنه من مرضه وجوعه شيء. فكذلك سماع وصف الطاعات دون العمل بها، فكل وعظ لم يغير منك صفة تتغير بها أفعالك، فهو حجة عليك.

فإن قيل: فما ذكرته من مداخل الغرور أمر لا يكاد يتخلص منه أحد، ولا يمكن الاحتراز منه.

فالجواب: أن مدار أمر الآخرة على معنى واحد، وهو تقويم القلب، ولا يعجز عن ذلك إلا من لم تصدق نيته، فإن الإنسان لو اهتم بأمر الآخرة كما يهتم بأمر الدنيا لنالها. وقد فعل ذلك السلف الصالح ومَنْ تبعهم بإحسان.

ويستعان على التخلص من الغرور بثلاثة أشياء:

العقل: وهو النور الأصلى الذى يدرك به الإنسان حقائق الأشياء.

والمعرفة: التى بها يعرف الإنسان نفسه وربه ودنياه وآخرته.

وفى كتاب المحبة، وشرح عجائب القلب، والتفكر، وكتاب الشكر إشارات إلى وصف النفس، ووصف جلال الله سبحانه ويحصل به التنبيه على الجملة.

ويستعان على معرفة الدنيا والآخرة بما ذكر فى كتاب «ذم الدنيا» وكتاب «ذكر الموت» فإذا حصلت هذه المعارف، ثار من القلب بمعرفة الله تعالى حب الله، وبمعرفة الآخرة حب شدة الرغبة فيها، وبمعرفة الدنيا شدة الرغبة عنها، فيصير أهم أموره ما يوصله إلى الله تعالى، وينفعه فى الآخرة، وإذا غلبت هذه الإرادة على قلبه، صحت نيته فى الأمور كلها، واندفع عنه كل غرور.

فإذا غلب حب الله تـعالى على قلبه لمعرفـته به وبنفسه، واحتاج إلـى الأمر الثالث وهو العلم، ونعنى به الـعلم بكيفية سلوك الطريـق إلى الله تعالى وآفاتها، والعلـم بما يقربه منه ويهديه، والعلم بآفات الطريق وعقباته وغوائله، وجميع ذلك أودعناه فى كتابنا هذا.

فيعرف من ربع العبادات والعادات ما هو محتاج إليه، وما هو مستغن عنه، ويتأدب بآداب الشرع.

ويعرف من ربع المـهلكات جميع العـقبات المانعة مـن طريق الله تعالى، وهى الـصفات المذمومة فى الخلق.

ويعرف مـن ربع المنجيـات الصفات المحـمودة التى لابد أن توضـع خَلَفاً من الصـفات المذمومة بعد محوها، فإذا أحاط بجميع ذلك، أمكنه الحذر من الأنواع التى أشرنا إليها من الغرور، والله أعلم.

وإذا فعل جـميع ذلك يـنبغى أن يكـون خائفاً مـن أن يخدعه الـشيطان، ويدعـوه إلى الرياسة، ويخاف عليه أيضاً من الأمن من مكر الله تعالى.

ولذلك قـيل: الناس كلهـم هلكى إلا العالمـون، والعالمون كلـهم هلكى إلا العـاملون، والعاملون كلهم هلكى إلا المخلصون، والمخلصون على خطر عظيم.[1]

وقال الإمام أحمد -رحـمه الله- للشيطان حين قال له عند الموت: فـتنى. فقال: لا قد بقى لى نفس واحد.

فلا ينبغـى أن يفارق الخوف قلوب الأولياء أبداً، نـسأل الله تعالى السلامـة من الغرور، وحسن الخاتمة، إنه قريب مجيب. آخر الغرور.

وبه تم ربع المهلـكات، ونشرع الآن فى ربع المنجـيات والله أعلم، وصلـى الله على النبى أحمد.

---

(١) المعنى غيـر صحيح ويخالف ما أجـمعت عليه الآيات والأحاديث مـن فضل العلم والعلماء وأنهـم ورثة الأنبياء، وأنهم أشد الناس خشية لرب العالمين.

كتـاب التـوبـة
وذكر شروطها وأركانها وما يتعلق بذلك

اعلم: أن الذنوب حجاب عن المحبوب، والانصراف عما يبعد عن المحبوب واجب.

وإنما يتم ذلك بالعلم والندم والعزم، فإنه متى لم يعلم أن الذنوب أسباب البعد عن المحبوب، لم يندم على الذنوب، ولم يتوجع بسبب سلوكه طريق البعد وإذا لم يتوجع لم يرجع.

وقد أمر الله تعالى بالتوبة فقال: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (النور: ٣١) وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا﴾ (التحريم: ٨)، وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ (البقرة: ٢٢٢).

وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: **«يا أيها الناس توبوا إلى ربكم، فإني أتوب إلى الله في اليوم مائة مرة»**.[(١)]

وفي «الصحيحين»[(٢)] من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: **«لله أشد فرحاً بتوبة عبده المؤمن من رجل في أرض دوية مهلكة، معه راحلته، عليها طعامه وشرابه، فنام فاستيقظ وقد ذهبت، فطلبها حتى أدركه العطش، ثم قال: أرجع إلى مكاني الذي كنت فيه فأنام حتى أموت، فوضع رأسه على ساعده ليموت، فاستيقظ وعنده راحلته، وعليها زاده وطعامه وشرابه، فالله أشد فرحاً بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته وزاده»**.

والأحاديث في هذا كثيرة، والإجماع منعقد على وجوب التوبة، لأن الذنوب مهلكات مبعدات عن الله تعالى، فيجب الهرب منها على الفور.

والتوبة واجبة على الدوام، فإن الإنسان لا يخلو عن معصيته بالجوارح، فإن خلا في بعض الأحوال عن معصية بالجوارح لم يخلُ عن الهم بالذنب بقلبه، وإن خلا عن ذلك، لم يخلُ عن وسواس الشيطان بإيراد الخواطر المتفرقة المذهلة عن ذكر الله تعالى، وإن خلا عنه لم يخلُ

---

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم (٢٧٠٢) الذكر والدعاء، وأحمد (١٧٣٩١) عن أبي بردة عن الأغر المزني عن ابن عمر عن النبي ﷺ.

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (٦٣٠٨) الدعوات، ومسلم (٢٧٤٤) التوبة.

عن غفلة وقصور فـى العلم بالله تعالى وصفاته وأفعالـه، وكل ذلك نقص، ولا يَسْلَم أحد من النقص، وإنما الخلق يتفاوتون فى المقادير، وأما أصل ذلك، فلابد منه.

ولهذا قال النبى صلى الله عليه وآله وسلم: «إنه ليغان على قلبى، فأستغفر الله فى اليوم والليلة سبـعين مرة»[1]. ولذلك أكرمه الله تـعالى بقوله: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ (الفتح: ٢) فأما غيره فكيف يكون حاله؟ ومتى اجتـمعت شروط التوبة كانت صحيحة مقبولة، قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِى يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ (الشورى: ٢٥).

وفى الحديث أن رسول الله صلى الـله عليه وآله وسلم قال: «**إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر**»[2]. والأحاديث فى ذلك كثيرة.

فصل فى بيـان أقسام الذنوب

اعلم: أن للإنسان أخلاقاً وأوصافاً كثيرة، لكن تنحصر مثارات الذنوب فى أربع صفات:

أحدها: صفات ربوبية، ومنها يحدث الكبـر والفخر، وحب المدح والثناء، والعز وطلب الاستعلاء، ونحو ذلك، وهذه ذنوب مهلكات، وبعض الناس يغفل عنها، فلا يعدها ذنوباً.

الثانية: صفات شيطانية، ومنها يتشـعب الحسد، والبغى والحيل والخداع والمكر، والغش والنفاق والأمر بالفساد ونحو ذلك.

الثالثة: الصفـات البهيمـية، ومنها يتـشعب الشره والحـرص على قضاء شهـوة البطن والفرج، فيتشعب من ذلك الزنى واللواطة والسرقة، وأخذ الحطام لأجل الشهوات.

الرابعة: الصفات السبعـية، ومنها يتشعب الغضب والحقد، والتهـجم على الناس بالقتل والضرب، وأخذ الأموال، وهذه الصفات لها تدرج فى الفطرة.

فالصفة البهيمية هى التى تغلب أولاً، ثم تتلوها الـصفة السبعية ثانياً، فإذا اجتمعت هاتان، استعملتا العقل فى الصفات الشيطانية، من المكر والخداع والحيل، ثم تغلب الصفات الربوبية.

---

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم (٢٧٠٢)، وأبو داود (١٥١٥) الصلاة، وأحـمد (١٧٨٢٧) عن الأغر المزنى، عن مسدد عن النبى ﷺ وكلهم بلفظ: «مائة مرة». واستغفار النبى ﷺ سبعين مرة وردت عند البخارى (٦٣٠٧) عن أبى هريرة رضي الله عنه، وكذلك الترمذى (٣٢٥٩)، وابن ماجه (٣٨١٦)، وأحمد (٧٧٣٤).

(٢) **حسن**: أخرجه أحمد (٦١٢٥)، والترمذى (٣٥٣٧)، وقال: «حـديث حسن غريب»، وابن ماجه (٤٢٥٣) الزهد، عن ابن ثوبان عن مكحول عن جبير بن نفير عن عبد الله بن عمر، وحسنه الألبانى فى صحيح ابن ماجه.

فهذه أمهات الذنوب ومنابعها، ثم تتفجر الذنوب من هذه المنابع إلى الجوارح، فبعضها فى القلب: كالفكر، والبدعة، والنفاق، وإضمار السوء، وبعضها فى العين، وبعضها فى السمع، وبعضها فى اللسان، وبعضها فى البطن والفرج، وبعضها فى اليدين والرجلين، وبعضها على جميع البدن، ولا حاجة إلى تفاصيل ذلك، فإنه واضح. ثم الذنوب تنقسم إلى ما يتعلق بحقوق الآدميين، وإلى ما بين العبد وبين ربه.

فما يتعلق بحقوق العباد، فالأمر فيه أغلظ، وما يتعلق بين العبد وبين ربه، فالعفو عنه أرجى وأقرب، إلا أن يكون شركاً والعياذ بالله تعالى، فذلك الذى لا يغفر.

وقد روى عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «الدواوين عند الله عز وجل ثلاثة: ديوان لا يعبأ الله به، وديوان لا يترك الله منه شيئاً، وديوان لا يغفره الله. فأما الديوان الذى لا يغفره الله تعالى، فالشرك. قال الله تعالى: ﴿مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ﴾ (المائدة:٧٢). وأما الديوان الذى لا يعبأ الله به شيئاً، فظلم العبد نفسه فيما بينه وبين الله عز وجل، يغفر ذلك، ويتجاوز إن شاء. وأما الديوان الذى لا يترك منه شيئاً، فظلم العباد بعضهم بعضاً، فالقصاص لا محالة».[1]

قسمة أخرى

اعلم: أن الذنوب تنقسم إلى صغائر وكبائر، وقد كثر الاختلاف فيها، واختلفت الأحاديث فى عدد الكبائر.

والأحاديث الصحاح فى ذكرها خمسة:

الأول: حديث أبى هريرة رضي الله عنه، أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال: «**اجتنبوا السبع الموبقات.** قالوا: يا رسول الله، وما هن؟ قال: **الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولى يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات**».[2]

الثانى: حديث ابن مسعود رضي الله عنه، أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم، سئل أى الذنب

---

(١) **ضعيف**: أخرجه أحمد (٢٥٥٠٠) من طريق صدقة بن موسى عن أبى عمران الجونى عن يزيد بن بابنوس عن عائشة عن النبى ﷺ، وضعفه الألبانى، وانظر تخريج الطحاوية والمشكاة (٥١٣٣).

(٢) **صحيح**: أخرجه البخارى (٢٧٦٧) الوصايا، ومسلم (٨٩) الإيمان.

أكبر؟ قال: **«أن تجعل لله نداً وهو خلقك»**، قال: ثم أي؟ قال: **«أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك»**، قال: ثم أي؟ قال: **«أن تزاني حليلة جارك»**.(١)

الثالث: حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: **«الكبائر: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين»**.(٢)

الرابع: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر: قول الزور -أو قال- شهادة الزور».(٣)

الخامس: حديث أبي بكرة أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ذكرت عنده الكبائر قال: **«الإشراك بالله، وعقوق الوالدين»**، وكان متكئاً فجلس، فقال: **«ألا وقول الزور، وشهادة الزور»**، فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت.(٤)

وقد اختلف العلماء فيها على أقوال كثيرة، والأحاديث في الكبائر لا تدل على حصرها فيها، ولعل الشارع قصد الإبهام ليكون الناس على وجلٍ من الذنوب، لكن يعرف من الأحاديث أجناس الكبائر، ويعرف أيضاً أكبر الكبائر.

فأما أصغر الصغائر، فلا سبيل إلى معرفته، وقد تكلم العلماء في عدد الكبائر، فروى عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: هي أربع.

وروى عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال: هي سبع.

وكان ابن عباس رضي الله عنهما إذا بلغه قول ابن عمر: إنها سبع، قال: هي إلى سبعين أقرب منها إلى سبع.

وقال أبو صالح عن ابن عباس: هي ما أوجب الحد في الدنيا.

وعن ابن مسعود: أن الكبائر من فاتحة النساء إلى قوله: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾[النساء: ٣١].

وقال سعيد بن جبير وغيره: هي كل ذنب أوعد الله عليه النار.

وقال أبو طالب المكي: الكبائر سبعة عشرة جمعتها من جملة الأخبار.

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (٤٤٧٧) تفسير القرآن، ومسلم (٨٦) الإيمان.

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (٦٦٧٥)، (٦٨٧٠) الأيمان والنذور.

(٣) **صحيح**: أخرجه البخاري (٦٨٧١)، ومسلم (٨٨) عن أنس بن مالك.

(٤) **صحيح**: أخرجه البخاري (٢٦٥٤) الشهادات، ومسلم (٨٧) الإيمان.

أربعة فى القلب: الشرك، والإصرار على المعاصى، والقنوط من رحمة الله، والأمن من مكر الله تعالى.

وأربعة فى اللسان: شهادة الزور، وقذف المحصنات، واليمين الغموس، والسحر.

وثلاثة فى البطن: شرب الخمر، وأكل مال اليتيم ظلماً، وأكل الربا.

واثنتان فى الفرج: الزنا واللواطة.

واثنتان فى اليدين: القتل والسرقة.

وواحدة فى الرجلين: الفرار من الزحف.

وواحدة فى جميع البدن، وهى عقوق الوالدين.

وهذا يمكن أن يزاد عليه، وينقص منه، فإن ضرب اليتيم وتعذيبه أكبر من أكل ماله، والله أعلم.

فصل فى كيفية توزيع الدرجات فى الآخرة على الحسنات والسيئات فى الدنيا

اعلم: أن الناس يتفاوتون فى الآخرة، كما يتفاوتون فى الدنيا، وينقسمون إلى أربعة أقسام: هالكين، ومعذبين، وناجين، وفائزين.

ومثال ذلك: أن يستولى ملك من الملوك على إقليم، فيقتل بعض أهله، ويعذب بعضهم ولا يقتلهم، ويخلى بعضهم، فهم الناجون، ويخلع على بعضهم وهم الفائزون.

وإذا كان الملك عادلاً، فلا يقسمهم كذلك إلا باستحقاق، ولا يقتل إلا جاحداً لاستحقاق الملك، معانداً له فى أصل الولاية، ولا يعذب إلا من قصّر فى خدمته مع الاعتراف له بالملك، ولا يخلى إلا معترفاً له بالملك، ولم يقصر، ولا يخلع إلا على من أبلى عمره فى الخدمة والنصرة، وكل واحد من هذه الأقسام يتفاوتون فى النعيم والتعذيب على حسب أحوالهم، ويشهد لذلك ما ورد فى الحديث[1] أن من الناس من يمر على الصراط كالبرق الخاطف، ومنهم من يبقى فى النار سبعة آلاف سنة، وبين اللحظة وسبعة آلاف سنة تفاوت كثير.

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخارى (٧٤٤٠) التوحيد، ومسلم (١٨٣) الإيمان عن أبى سعيد الخدرى.

وأما اختلاف العذاب بالـشدة، فلا نهاية لأعلاه، وأدناه التعذيب بالمنـاقشة فى الحساب، كما أن الملك قد يعذب بـعض المقصرين فى الأعمال بالمناقشة فى الحـساب، ثم يعفو، وقد يضرب بالسياط أو يعذب بغيرها من أنواع العذاب.

وتفاوت منازل أهل السعادة على نحو ذلك فى النعيم، فهذه الأمور الكلية معلومة بالنقل ونور المعرفة.

فأما من جهـة التفصيل فنقول: كـل من أحكم أصل الإيمان، واجتنب جمـيع الكبائر، وأحسن جميع الـفرائض، ولم يكن منه إلا صغائر متـفرقة لا يصر عليها، فيـشبه أن يعفى عنه، فقد نص القرآن على أن اجتناب الكبائر مكفر للصغائر.

وهذا إما أن يلتحق بالمقربين، أو بأصحاب اليمين، وذلك بحسب إيمانه ويقينه، فإن قل أو ضعف، دنت منزلته، وإن كثر وقوى، علت منزلته.

ثم إن المقربين يتفاوتون بحسب تفاوت معرفـتهم بالله تعالى، ودرجات العارفين فى المعرفة لا تنحصر، لأن بـحر المعرفة لا ساحل له، وإنما يغـوص فيه الغواصون بقدر قـواهم، فأعلى درجات أصحاب اليمين، أدنى درجات المقربين، هذا حال من اجتنب الكبائر وأدى الفرائض.

فأما من ارتـكب كبيرة، أو أهمل أركان الإسـلام، فإنه إن تاب توبة نصوحـاً قبل قرب الأجل، التحق بمن لم يـرتكب، لأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له، والـثوب المغسول كالذى لم يتسخ أصلاً.

فأما إن مات قبل التوبة، فأمره خطر، إذ ربما يكـون موته على الإصرار سبباً لتزلزل إيمانه، فيختم له بـسوء الخاتمة، لاسيما إذا كان إيمـانه تقليداً فإنه قابل للانحـلال بأدنى شك وخيال، والعارف الموقن أبعد مـن أن يخاف عليه سوء الخاتمة. ثم إن عذاب الميت عـن غير توبة يكون بحسب قبح الكبـائر ومدة الإصرار. ثم ينزل البُلْه المقلدون الجنة، وينزل العارفـون المستبصرون أعلى عليين، وما ذكـرناه من مراتب العباد فى المعاد كل ذلك حكم ظـاهر الأسباب، يضاهى حكم الطبيب على مريض بأنه يموت لا محـالة، ولا يقبل إصلاح العلاج، وعلى مريض آخر بأن عارضه خفيف، وعـلاجه هين، فإن ذلك ظن يصيب غالباً، وقـد تتوق إلى المشرف على الهلاك نفسه من حيث لا يشعر الطبيب، وقد يساق إلى ذى العارض الخفيف أجله من حيث لا يطلع عليه، وذلك لأسرار الله تعالى الخفيـة، وفى أرواح الأحياء غموض للأسباب التى رتبها مسبب الأسباب، وليس فى قوة البشر الوقـوف على كنهها، وكذلك الفوز والهلاك فى الآخرة

لهما أسباب خفية ليس فى قوة البشر الاطلاع عليها، وكذلك يجوز العفو عن العاصى وإن كثرت سيئاته، والغضب على المطيع وإن كثرت طاعاته الظاهرة، فإن الاعتماد على التقوى، والتقوى فى القلب، وأحوال القلب قد تَخْفَى على صاحبه، فكيف على غيره؟

وأما الناجون، ونعنى بالنجاة السلامة فقط دون السعادة والفوز، وهم قوم لم يخدموا فيخلع عليهم، ولم يقصروا فيعذبوا، ويشبه أن يكون هذا حال المجانين، وأولاد الكفار، والذين لم تبلغهم الدعوة، فلم يكن لهم معرفة، ولا جحود، ولا طاعة، ولا معصية، ويصلح أن يكونوا على الأعراف.

وأما الفائزون، فهم العارفون دون المقلدين، وهم المقربون والسابقون، وهؤلاء الذين لا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين، وليس حرصهم على الجنة، بل على لقاء الله سبحانه وتعالى والنظر إليه.

ومثالهم مثال المحب، فإنه فى تلك الحال غافل عن نفسه، لا يحس بما يصيبه فى بدنه، ولا همَّ له سوى محبوبه، فهؤلاء الواصلون إلى قرة أعين، ولا تخطر على قلب بشر، فهذا القدر كافٍ فى بيان توزيع الدرجات على الحسنات.

فصل فى بيان ما تعظم به الصغائر من الذنوب

اعلم: أن الصغيرة تكبر بأسباب:

منها: الإصرار والمواظبة.

وفى الحديث من رواية ابن عباس رضي الله عنهما: عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: **«لا صغيرة مع إصرار ولا كبيرة مع الاستغفار»**. [1]

واعلم: أن العفو عن كبيرة قد انقضت ولم يتبعها مثلها، أرجى من العفو عن صغيرة يواظب عليها العبد.

ومثال ذلك: قطرات من الماء تقع على حجر متواليات، فإنها تؤثر فيه، ولو جمعت تلك

(١) **منكر**: قال الألبانى فى «الضعيفة» (٤٨١٠): «رواه القاضى أبو الحسين بن المهتدى فى «المشيخة» (٢/١٩٨/١)، والقضاعى (٢/٧٢)، والديلمى (٤/٢٠٨)، عن سعيد بن سليمان عن أبى شيبة الخراسانى عن ابن أبى مليكة عن ابن عباس مرفوعاً. قلت (الألبانى): وهذا إسناد ضعيف، أبو شيبة الخراسانى نكرة لا يعرف». قال الألبانى: «ورواه البيهقى فى الشعب (٥/٤٥٦/٧٢٦٨) بسند آخر عن ابن عباس موقوفاً. ورجاله ثقات، لكن منقطع بين قيس بن سعد (وهو المكى) قال: قال ابن عباس».

القطرات فى مرة وصبت عليه لم تؤثر، ولهذا قال صلى الله عليه وآله وسلم: «**احب العمل إلى الله أدومه وإن قل**»[(١)].

ومن الأسباب التى تعظم بها الصغائر: أن استصغار الذنب، فإن الذنب كلما استعظمه العبد، صغر عند الله تعالى، وكلما استصغره العبد كبر عند الله تعالى، فإن استعظامه يصدر عن نفور القلب منه وكراهيته له.

قال ابن مسعود ﷺ: إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه فى أصل جبل يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب وقع على أنفه، فقال به هكذا، فذبه عنه أخرجاه فى «الصحيحين». [(٢)]

وإنما يعظم الذنب فى قلب المؤمن لعلمه بجلال الله تعالى، فإذا نظر إلى عظمة من عصى، رأى الصغيرة كبيرة.

وفى البخارى[(٣)] من حديث أنس ﷺ: «إنكم لتعملون أعمالاً هى أدق فى أعينكم من الشعر إن كنا لنعدها على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من الموبقات».

وقال بلال بن سعد رحمه الله: لا تنظر إلى صغر الخطيئة، ولكن انظر إلى عظمة من عصيت.

ومن الأسباب: أن يفرح بالصغيرة ويتمدح بها، كما يقول: أما رأيت كيف مزقت عرض فلان، وذكرت مساويه حتى خجلته، أو يقول التاجر: أما رأيت كيف روّجت عليه الزائف، وكيف خدعته وغبنته، فهذا وأمثاله تكبر به الصغائر.

ومنها: أن يتهاون بستر الله تعالى وحلمه عنه وإمهاله إياه، ولا يدرى أن ذلك قد يكون مقتاً ليزداد بالإمهال إثماً.

ومنها: أن يأتى بالذنب ثم يذكره بمحضر من غيره، وفى «الصحيحين»[(٤)] من حديث أبى هريرة ﷺ، أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال: «كل أمتى معافىً إلا المجاهرين، وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل العمل بالليل، ثم يصبح وقد ستره الله عليه، فيقول: يا فلان:

---

(١) سبق تخريجه ص (٥٨).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) **صحيح**: أخرجه البخارى (٦٤٩٢) الرقاق، عن مهدى عن غيلان عن أنس، وأحمد (١٢١٩٣)، وأخرجه أحمد (١٠٦١٢) عن أبى سعيد الخدرى.

(٤) **صحيح**: أخرجه البخارى (٦٠٦٩) الأدب، ومسلم (٢٩٩٠) الزهد والرقائق.

عملت البارحة كذا وكذا، وقد بات يستره الله عليه، ويصبح يكشف ستر الله عنه».

ومنها: أن يكون المذنب عالماً يقتدى به، فإذا علم منه الذنب كبر ذنبه، كلُبسه الحرير، ودخوله على الظلمة مع ترك الإنكار عليهم، وإطلاق اللسان فى الأعراض، واشتغاله من العلوم بما لا يقصد منه إلا الجاه، كعلم الجدل، فهذه ذنوب يتبع العالم عليها، فيموت ويبقى شره مستطيراً فى العالم، فطوبى لمن إذا مات ماتت معه ذنوبه.

وفى الحديث: **«من سن فى الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شىء»**. (١)

فعلى العالم وظيفتان:

إحداهما: ترك الذنب، **والثانية:** إخفاؤه إذا أتاه.

وكما تتضاعف أوزار العلماء إذا اتُّبعوا على الذنوب، كذلك تتضاعف حسناتهم إذا اتُّبعوا على الخير.

وينبغى للعالم أن يتوسط فى ملبسه ونفقته، وليكن إلى التقلل أميل، فإن الناس ينظرون إليه. وينبغى له الاحتراز مما يُقتدى به فيه، فإنه متى ترخص فى الدخول على السلاطين وجمع الحطام، فاقتدى به غيره، كان الإثم عليه، وربما سلم هو فى دخوله، ولم يفهموا كيفية سلامته.

وقد روينا أن ملكاً كان يُكْرِه الناس على أكل لحم الخنزير، فجىء برجل عالم، فقال له حاجب الملك: لقد ذبحت لك جدياً فكُلْ منه، فلما دخل قُرِّب إليه فلم يأكل، فأمر بقتله، فقال له الحاجب: ألم أقل لك إنه جدى، فقال: ومن أين يعلم حالى مَنْ يقتدى بى.

فصل فى شروط التوبة

واعلم: أن التوبة عبارة عن ندم يورث عزماً وقصداً، وذلك الندم يورث العلم بأن تكون المعاصى حائلاً بين الإنسان وبين محبوبه.

والندم هو توجع القلب عند شعوره بفراق المحبوب، وعلامته طول الحزن والبكاء، فإن من استشعر عقوبة نازلة بولده أو من يعز عليه، طال بكاؤه، واشتدت مصيبته، وأى عزيز أعز عليه من نفسه؟ وأى عقوبة أشد من النار؟ وأى سبب أدل على نزول العقوبة من

---

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم (١٠١٧) الزكاة، والنسائى (٢٥٥٤)، وأحمد (١٨٦٧٥) عن جرير بن عبد الله.

المعاصى؟ وأى مخبر أصدق من رسول الله؟ ولو أخبره طبيب أن ولده لا يبرأ من مرضه لاشتد فى الحال حزنـه، وليس ولده بأعز من نفسـه، ولا الطبيب أعلم من الـله ورسوله، ولا الموت بأشد من النار، ولا المرض أدل على الموت من المعاصى على سخط الله، والتعرض بها للنار.

وينبغى للتائب أن يتـفقد ما عليه من صلاة فائتة، أو واقعة بغـير شرطها؛ مثل أن يكون صلاها فى ثوب نجس، أو بنية غير صحيحة، لجهله بذلك، فيقضيها كلها.

وكذلك إن كـان عليه صوم، أو زكـاة، أو حج، أو غير ذلك من الواجـبات، يقضـيها كلها، ويفتش على ذلك ويتداركه.

وأما المعاصى، فينبغى أن يفتش من أول بلوغه عن معصية صدرت منه، وينظر فيها، فما كان من ذلك فيما بينه وبين الله تعالى، فالتوبة منه الندم والاستغفار.

ثم ينظر إلى مقادير ذنوبه، فيطلب لكل معصيـة منها حسنة تناسبها، فيأتى من الحسنات بمقدار تلك الـسيئات. قـال اللـه تعالـى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ (هود: ١١٤)، وقـال النبى صلى الله عليه وآله وسلم: «اتبع السيئة الحسنة تمحها». (١)

مثال ذلك: أن يكفر سماع الملاهى بسماع الـقرآن ومجالس الذكر، ويكفر مس المصحف بغير طهارة بإكرامه وكـثرة القراءة فيه، وإن أمكنه أن يكتب مصحفاً ويقـفه فليفعل، ويكفر شرب الخمر بالتصدق بالشراب الحلال. وعلى هذا فاسلك سبيل المضادة، فإن الأمراض إنما تعالج بضدها، فهذا حكم ما بينه وبين الله تعالى.

وأما مظالم العباد، ففيها أيضاً معصية الله تعالى، لأنه نهى عن ظلم العباد، فالظالم لهم قد ارتكـب نهيه تعـالى، فيتـدارك ذلك بالندم والعـزم على ترك مثـل ذلك فى المستـقبل، والإتيان بـالحسنات المضادة لـتلك المظالم كمـا تقدم فى القـسم الأول، فيقابـل إيذاء الناس بالإحسان إليـهم، ويكفر عن غصب الأموال بـالتصدق من ماله الحلال، ويـكفر عن تناول أعراضهم بالثناء على أهل الدين، ويكفر عن قتل النفوس بالعتق.

---

(١) **حسن**: أخرجه أحمد (٢٠٨٤٧)، والترمذى (١٩٨٧)، من طريق سفيان عن حبيب بن أبى ثابت عن ميمون بن أبى شبيب عن أبى ذر عن النبى ﷺ . وقال أبو عيسى: «وفى الباب عن أبـى هريرة. وقال أبو عيسى: حديث حسن صحيح»، وحسنه الألبانى فى صحيح الترمذى.

هذا فيما يتعلق بحق الله تعالى، فإذا فعل ذلك، لم يكفه حتى يخرج من مظالم العباد.

ومظالمهم إما فى النفوس، أو الأموال، أو الأعراض، أو إيذاء القلوب:

أما الأول: فإنه إذا قتل خطأ أوصل الدية إلى مستحقها، إما منه أو من عاقلته، وإن قتل عمداً، وجب عليه القصاص بشروطه، فعليه أن يبذل نفسه لولى الدم،إن شاء قتله، وإن شاء عفا عنه، ولا يجوز له إخفاء أمره، بخلاف ما لو زنا، أو سرق، أو شرب الخمر، أو باشر ما يجب فيه حد لله تعالى، فإنه لا يلزمه فى التوبة أن يفضح نفسه، بل عليه أن يستر نفسه، فإن رفع أمره إلى الولى حتى أقام عليه الحد، وقع ذلك موقعه، وكانت توبته صحيحة مقبولة عند الله تعالى، بدليل قصة ماعز بن مالك والغامدية.

وكذلك حد القذف، لابد فيه من تحكيم المستحق فيه.

الثانى: المظالم المتعلقة بالأموال، نحو الغصب، والخيانة، والتلبيس فى المعاملات، فيجب عليه رد ذلك إلى أصحابه والخروج منه.

وليكتب إلى أصحاب المظالم، وليؤد إليهم حقوقهم، ويستحلهم، فإن كثر ظلمه بحيث لا يقدر على أدائه، فليفعل ما يقدر عليه من ذلك، ولم يبق له طريق إلا الاستكثار من الحسنات، لتؤخذ منه فى القصاص يوم القيامة فتوضع فى موازين أرباب المظالم، فإنها إن لم تفِ بذلك أخذ من سيئاتهم، فتوضع فوق سيئاته.

هذا حكم المظالم الثابتة فى الذمة والأموال الحاضرة، فإن كان عنده شيء من ذلك لم يعرف مالكه ولا ورثته، تصدق به عنه، وإن اختلط الحلال بالحرام، عرف قدر الحرام بالاجتهاد، وتصدق بمقداره.

الثالث: الجناية على الأعراض، وإيذاء القلوب، فعليه أن يطلب كل واحد منهم، وليستحله، وليعرفه قدر الجناية، فإن الاستحلال المبهم لا يكفى، وربما لو عرف ذلك لم تطب نفسه بالاستحلال، بقيت الظلمة عليه، فإن هذا حقه، فليجتهد فى اللطف به والإحسان إليه، ثم ليستحله مبهماً، ولابد أن يبقى فى مثل ذلك مظلمة تجبر بالحسنات فى القيامة، وكذلك من مات من هؤلاء فإنه يفوت أمره، ولا يتدارك إلا بتكثير الحسنات، لتؤخذ منه عوضاً يوم القيامة، ولا خلاص إلا برجحان الحسنات.

ومن شروط التوبة الصحيحة: العزم على أن لا يعود فى المستقبل إلى تلك الذنوب، ولا إلى أمثالها، ويعزم على ذلك عزماً مؤكداً.

مثال ذلك: المريض الذى يعلم أن الفاكهة تضر فى مرضه، فيعزم عزماً جازماً أن لا يتناول شيئاً من الفاكهة ما دام فى مرضه ذلك، فإن هذا العزم يتأكد فى الحال، وإن كان يتصور أن تغلبه الشهوة فى ثانى الحال، ولكن لا يكون تائباً ما لم يتأكد عزمه فى الحال، ولا يتصور أن يتم ذلك للتائب فى أول أمره إلا بالعزلة، والصمت وقلة الأكل والنوم، وإحراز قوت حلال، ويترك الشبهات والشهوات من المأكولات والملبوسات.

قال بعضهم: من صدق فى ترك الشهوة، وجاهد نفسه فيها سبع مرات، لم يُبتلَ بها وقال: من تاب من ذنب واستقام سبع سنين، لم يعد إليه أبداً.

بيان أقسام العباد فى دوام التوبة

اعلم: أن الناس فى التوبة أربع طبقات:

الطبقة الأولى: تائب يستقيم على التوبة إلى آخر عمره، ويتدارك ما فرط من أمره، ولا يحدث نفسه بالعود إلى ذنوبه، إلا الزلات التى لا ينفك عنها البشر فى العادات، فهذه هى الاستقامة فى التوبة. وصاحبها هو السابق بالخيرات.

وتسمى هذه التوبة: النصوح، وتسمى هذه النفس: المطمئنة؛ وهؤلاء يختلفون، منهم من سكنت شهوته تحت قهر المعرفة ففتر نزاعها، ومنهم من تنازعه نفسه وهو ملىء بمجاهدتها.

الطبقة الثانية: تائب سلك طريق الاستقامة فى أمهات الطاعات وكبائر الفواحش، إلا أنه لا ينفك عن ذنوب تعتريه، لا عن عمد، ولكنه يبتلى بها فى مجارى أحواله من غير أن يقدم عزماً على الإقدام عليها، وكلما أتى شيئاً منها لام نفسه، وندم وعزم على الاحتراز من أسبابها، فهذه هى النفس اللوامة لأنها تلوم صاحبها على ما يستهدف له من الأحوال الذميمة، فهذه رتبة عالية أيضاً، وإن كانت نازلة عن الطبقة الأولى، وهى أغلب أحوال التائبين، لأن الشر معجون بطينة الآدمى، فقلما ينفك عنه، وإنما غاية سعيه أن يغلب خيُره شرَّه، حتى يثقل ميزانه، فترجح حسناته، فأما أن تخلو كفة السيئات، فبعيد.

وهؤلاء لهم حسن الوعد من الله سبحانه إذ قال: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ (النجم: ٣٢) وإلى هذه الرتبة الإشارة بقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الله يحب المؤمن المفتن التواب».[1]

الطبقة الثالثة: أن يتوب ويستمر على الاستقامة مدة، ثم تغلبه شهوته فى بعض الذنوب، فيقدم عليها لعجزه عن قهر الشهوة، إلا أنه مع ذلك مواظب على الطاعات، وترك جملة من الذنوب مع القدرة عليها والشهوة لها، وإنما قهرته هذه الشهوة الواحدة أو الشهوتان، وهو يود لو أقدره الله على قمعها، وكفاه شرها هذه أمنيته فى حال قضاء الشهوة، فإذا انتهت ندم، لكنه يعد نفسه بالتوبة عن ذلك الذنب، فهذه النفس تسمى المسؤولة، وصاحبها من الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا﴾، فأمر هذا من حيث مواظبته على الطاعات وكراهيته لما يتعاطاه مرجو لقوله تعالى: ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ (التوبة:١٠٢) وعاقبته خطرة من حيث تأخيره وتسويفه، فربما يختطف قبل التوبة، فإن الأعمال بالخواتيم، فعلى هذا يكون الخوف من الخاتمة، وكل نفس يمكن أن يتصل به الموت، فتكون الخاتمة، فليراقب الأنفاس، وليحذر وقوع المحذور.

الطبقة الرابعة: أن يتوب ويجرى مدةً على الاستقامة، ثم يعود إلى الذنوب منهمكاً فيها من غير أن يحدث نفسه بالتوبة، ومن غير أن يتأسف على فعله، فهذا من المصرين، وهذه النفس هى الأمارة بالسوء، ويخاف على هذا سوء الخاتمة.

فإن مات هذا على التوحيد، فإنه يُرجَى له الخلاص من النار، ولو بعد حين، ولا يستحيل أن يشمله عموم العفو بسبب خفى لا يطلع عليه، إلا أن التعويل على هذا لا يصلح، فإن من قال: إن الله تعالى كريم، وخزائنه واسعة، ومعصيتى لا تضره، ثم تراه يركب البحار فى طلب دنيا. فلو قيل له: فإذا كان الحق كريماً، فاجلس فى بيتك لعله يرزقك، استجهل قائل هذا، وقال: إنما الأرزاق بالكسب، فيقال له: هكذا النجاة بالتقوى.

---

(١) **موضوع**: أخرجه أبو يعلى (٤٨١) من طريق عبد الملك بن سفيان عن أبى جعفر محمد بن على عن محمد ابن الحنفية عن أبيه. وفى مسند الحارث (١٠٩٦) عن يزيد بن طلحة بن ركانة عن محمد ابن الحنفية. وقال فى المجمع: (١٠/ ٣٣١): «رواه عبد الله وأبو يعلى، وفيه من لم أعرفه»، وقال الألبانى: «موضوع» وانظر الضعيفة (٩٦).

فصل فيما ينبغى للتائب فعله

وقد ذكرنا أن التـائب ينبغى له أن يأتى بحسنات تضـاد ما عمل من السيئات، لـتمحوها وتكفرها، والحسنات المكفرة تكون بالقلب واللسان والجوارح على حسب السيئات، فما كان بالقلب، فنحو التضرع والتذلل، وأما اللسان، فبالاعتراف بالظلم والاستغفار مثل أن يقول: رب ظلمت نفسى فاغفر لى.

روى فى الحديـث، أن النبى صلى اللـه عليه وآله وسـلم قال: **«ما من رجل يذنب ذنباً، فيتوضا ويحسن الوضوء، ثم يصلى ركعتين، ويستغفر الله عز وجل، إلا غفر له»**.(1)

وأما الجوارح فبالطاعات، والصدقات، وأنواع العبادات.

فصل فى دواء التوبة وطريق علاج حل عقد الإصرار

اعلم: أن شفاء التوبة لا يحصل إلا بـالدواء، وأنه لا يقف على الدواء من لا يقف على الداء، إذ لا معـنى للدواء إلا مناقـضة أسباب الداء، ولا يـبطل الشىء إلا بضـده، وسبب الإصرار الغفلـة والشهوة، ولا تضاد الغفلة إلا بـالعلم، ولا تضاد الشهوة إلا بالـصبر على قطع الأسباب المحركة للشهوة.

والغفلة رأس الخطايا، فلا دواء إذاً للتوبة إلا معجـون يعجن من حلاوة العلم ومرارة الصبر كما يجمع فى السكنجبين حلاوة السكر وحموضة الخل، فيحصل بمجموعهما قمع الصفراء.

والأطباء لهذا المرض هـم العلماء، لأنه مرض القلوب، ومرض القلـوب أكثر من مرض الأبدان، وإنما صار مرضها أكثر لأمور:

أحدها: أن المريض لا يدرى أنه مريض.

الثانى: أن عاقبته غير مشاهدة فى هذا العالم بخلاف مرض الأبدان، فإن عاقبته موت مشاهد ينفر الطبع عنه، وما بعد الموت غير مشاهد، فقلت النفرة عن الذنوب وإن علمها مرتكبها، فلذلـك تراه يتكل على فضل الله فى مرض القلب، ويجـتهد فى علاج البدن من غير اتكال.

---

(١) **حسن** : أخرجه أحـمد (٤٨)، والنسائى «الكبـرى» (١٠٩٧٤)، وفى «مسند الحميـدى» (٤)، وأبو يعلى (١٣)، والترمذى (٣٠٠٦)، وأبو داود (١٥٢١)، وابن ماجه (١٣٩٥)، عن أسماء بن الحكم الفزارى عن علىّ ﵁ عن أبى بكر ﵁ عن النبى ﷺ ، وحسنه الألبانى، وانظر صحيح الترمذى.

الأمر الثالث: وهو الداء العضال فَقْدُ الطبيب، فإن الأطباء هم العلماء، وقد مرضوا فى هذه الأعصار، لأن الداء المهلك هو حب الدنيا، وقد غلب هذا الداء على الأطباء، فلم يقدروا على تحذير الخلق استنكافاً من أن يقال لهم: فما لكم تأمرون بالعلاج وتنسون أنفسكم؟ فبهذا السبب عم الداء وانقطع الدواء.

فإن قيل: فما الذى ينبغى للواعظ سلوكه من الخلق؟

فالجواب: أن ذلك يطول، لكنا نشير إلى الأعمال النافعة فى ذلك، وهى أربعة أنواع:

الأول: أن يذكر ما فى القرآن العزيز من الآيات المخوّفة للمذنبين، وما ورد فى الأخبار والآثار من ذلك، ويمزج ذلك بمدح التائبين.

النوع الثانى: حكايات الأنبياء عليهم السلام، والسلف الصالح، وما أصابهم من المصائب بسبب الذنوب، كحال آدم عليه السلام، وما لقى فى عصيانه من الإخراج من الجنة، وما جرى لداود وسليمان ويوسف عليهم السلام، ولم يورد القرآن هذه الأخبار إلا للاعتبار.

وكان من سعادتهم معالجتهم بذلك، والأشقياء يمهلون ليزدادوا إثماً، ولأن عذاب الآخرة أشد، فينبغى أن يكثر من هذا على أسماع المصرين، فإنه نافع فى تحريك دواعى التوبة.

النوع الثالث: أن يقرر عندهم، أن تعجيل العقوبة فى الدنيا على الذنوب متوقع، وأن كل ما يصيب العبد من المصائب، فهو سبب جناياته، فرب عبد يتساهل فى أمور الآخرة يخاف عقوبة الدنيا أكثر لفرط جهله. فينبغى أن يخوف به، فإن الذنوب قد يتعجل فى الدنيا شؤمها، كما قال النبى صلى الله عليه وآله وسلم: **«إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه»**.[(١)]

وقال الفضيل بن عياض: إنى لأعصى الله، فأعرف ذلك فى خلق حمارى وخادمى.

وقال أبو سليمان الدارانى: الاحتلام عقوبة، ولا يفوت أحداً صلاة إلا بذنب يذنبه.

وعن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: **«إن المؤمن إذا اذنب كانت نكتة سوداء فى قلبه، فإن تاب ونزع واستغفر، صقل قلبه، فإن زاد زادت حتى تعلو قلبه، وذلك**

---

(١) **ضعيف** : أخرجه ابن حبان (١/٢٠٧)، وأحمد (٢٢٠٣٥)، وابن ماجه (٤٠٢٢)، عن عبد الله بن عيسى عن عبد الله بن أبى الجعد، عن ثوبان عن النبى ﷺ ، وحسنه الألبانى فى «صحيح ابن ماجه» دون لفظة: **«إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه»**، فهو ضعيف.

الران الذى ذكره الله عز وجل فى كتابه: ﴿ كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (المطففين: ١٤) ».
قال الترمذى: حديث حسن صحيح.(١)

وقال الحسن رحمه الله: الحسنة نور فى القلب، وقوة فى البدن، والسيئة ظلمة فى القلب، ووهن فى البدن.

النوع الرابع: ذكر ما ورد من العقوبات فى آحاد الذنوب، كشرب الخمر، والزنى، والقتل، والكبر، والحسد، والغيبة، وكل ذلك مما لا يمكن حصره، وذكره مع غير أهله.

بل ينبغى أن يكون العالم طبيباً يعلم الداء، ويدرى كيف يصنع الدواء، فإن رجلاً سأل النبى صلى الله عليه وآله وسلم فقال: أوصنى، قال: **«لا تغضب»**.(٢)

وقال آخر: أوصنى، فقال: **«عليك باليأس مما فى أيدى الناس»**.(٣)

فكأنه تخايل فى الأول مخايل الغضب، وفى الثانى مخايل الطمع.

وهذا الذى ذكرنا هو علاج الغفلة، فيبقى علاج الشهوة، وطريق علاجها يؤخذ مما ذكرنا فى كتاب «رياضة النفس» ولابد من الصبر، فإن المريض إنما يطول مرضه لتناوله ما يضره، وإنما يحمله على ذلك شدة شهوته، أو غفلته عن مضرته، فلابد من مرارة الصبر، وكذلك يعالج الشهوة فى المعاصى كالشاب مثلاً إذا غلبته الشهوة، فصار لا يقدر على حفظ عينه وقلبه وجوارحه فى السعى وراء الشهوة، فينبغى أن يستحضر المخوّفات التى جاءت فى كتاب الله تعالى، وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، فإذا اشتد خوفه تباعد عن الأسباب المهيجة للشهوة.

والذى يهيج الشهوة من خارج، هو حضور المشتهى، والنظر إليه، وعلاجه: الجوع والصوم الدائم، وكل ذلك لا يتم إلا بصبر، ولا يصبر إلا عن خوف، ولا يخاف إلا عن علم، ولا يعلم إلا عن بصيرة، فأول الأمر حضور مجالس الذكر، والاستماع بقلب مجرد

---

(١) **حسن:** أخرجه البيهقى (٧٨٩٢)، وأحمد (٧٩١٠)، والترمذى (٣٣٣٤)، وابن ماجه (٤٢٤٤)، عن محمد بن عجلان عن القعقاع بن حكيم، عن أبى صالح، عن أبى هريرة. وقال أبو عيسى: «حديث حسن صحيح»، وحسنه الألبانى فى صحيح الترمذى.

(٢) سبق تخريجه ص (١٦٦).

(٣) سبق تخريجه ص (١٨٧).

عن الشواغل، ثم التفكير فيما قيل، فينبعث الخوف، ويسهل الصبر، وتتيسر الدواعى لطلب العلاج، وتوفيق الحق سبحانه من وراء ذلك كله.

فإن قيل: ما بال الإنسان يقع فى الذنب مع علمه بقبح عواقبه؟

فعن ذلك أجوبة:

منها: أن العقاب الموعود ليس بحاضر.

ومنها: أن المؤمن إذا أذنب لابد أن يعزم على التوبة، وقد وعد أن التوبة تجبر ما فعل وطول الأمل غالب على الطباع، فلا يزال يسوف بالتوبة، فلما رجا التوبة أقبل على الذنب.

ومنها: أنه يرجو عفو الله عنه.

وعلاج هذه الأسباب: أن يفكر فى نفسه أن كل ما هو آت قريب، وأنه لا يأمن هجوم الموت، ويعالج التسويف بالفكر فى أن أكثر صياح أهل النار من التسويف، والمسوف يبنى الأمر على ما ليس إليه، وهو البقاء، فلعله لا يبقى، وإن بقى فربما لم يقدر على الترك غداً؟ كما يقدر عليه اليوم، وهل عجز عن الحال إلا لغلبة الشهوة وهى لا تفارقه غداً؟ بل تتضاعف بالاعتياد، ومن هذا هلك المسوفون، لأنهم يظنون الفرق بين المتماثلين، وما مثال المسوف إلا مثال من احتاج إلى قلع شجرة، فرآها قوية لا تنقلع إلا بمشقة شديدة، فقال: أؤخرها سنة ثم أعود إليها، وهو لا يعلم أن الشجرة كلما بقيت قويت عروقها، وهو كلما طال عمره ازداد ضعفه، فالعجب من عجزه مع قوته عن مقاومتها فى حال ضعفها كيف ينتظر الغلبة إذا ضعف وقويت.

وأما انتظار عفو الله تعالى، فعفو الله سبحانه ممكن للإنسان، إلا أن الإنسان ينبغى له الأخذ بالحزم، وما مثال ذلك إلا كمثل رجل أنفق أمواله كلها، وترك نفسه وعياله فقراء ينتظر من الله تعالى أن يرزقه العثور على كنز فى خربة، وهذا ممكن إلا أن صاحبه ملقب بالأحمق، والله سبحانه وتعالى أعلم، وصلى الله على خير البشر، ومن جاءت له الشجر، فهو صاحب الشفاعة والحوض والكوثر.

كتـاب الصبـر والشكـر

وهـو شطـران:

الأول فضل الصبر وحقيقته وأقسامه ونحو ذلك

وقد ذكر الله تعالى الصبر فى القرآن فى نيف وسبعين موضعاً، وأضاف إليه أكثر الخيرات والدرجات وجعلها ثمرة له، فقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾ (السجدة: ٢٤). وقال: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾ (الأعراف: ١٣٧)، وقال: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (النحل: ٩٦)، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (الزمر: ١٠).

فما من قربة إلا وأجرها بتقدير وحساب إلا الصبر، ولأجل كون الصوم من الصبر قال الله تعالى: **«الصوم لى وأنا أجزى به»**[١]. فأضافه إلى نفسه من بين سائر العبادات، وقد وعد الله الصابرين بأنه معهم، ﴿وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (الأنفال: ٤٦)، وجمع للصابرين بين أمور لم يجمعها لغيرهم فقال: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ (البقرة: ١٥٧). والآيات فى هذا كثيرة.

وأما الأحاديث، ففى «الصحيحين» من حديث أبى سعيد ﷺ، عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: **«ما أعطى أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر»**[٢]، وفى حديث آخر: **«الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد»**[٣].

وقال الحسن: الصبر كنز من كنوز الخير، لا يعطيه الله عز وجل إلا لعبد كريم عنده. وكان بعض العارفين فى جيبه رقعة يخرجها كل ساعة فيطالعها، وفيها: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ (الطور: ٤٨).

بيـان حقيقـة الصبر ومعنـاه

واعلم: أن الصبر من خاصية الإنسان، ولا يتصور فى البهائم لنقصانها، وغلبة الشهوات عليها من غير شىء يقابلها، ولا يتصور الصبر أيضاً فى الملائكة لكمالها، فإن الملائكة

---

(١) سبق تخريجه ص (٣٥).

(٢) **صحيح**: أخرجه البخارى (١٤٦٩) الزكاة، ومسلم (١٠٥٣) الزكاة.

(٣) **ضعيف جداً**: أخرجه ابن أبى شيبة «المصنف» عن عمرو بن قيس عن أبى إسحاق عن علىّ موقوفاً، وقال الألبانى: «إسناده منقطع». وأخرجه الديلمى (٢/ ٢٦٠) عن أبى أمية: حدثنا محمد بن مصعب القرقسانى: حدثنا الأوزاعى: حدثنا العلاء بن خالد القرشى، عن يزيد الرقاشى، عن أنس بن مالك مرفوعاً. الرقاشى واه، والعلاء ابن خالد القرشى: ضعيف. فالسند ضعيف جداً كما حكم الألبانى فى «الضعيفة» (٣٧٩٣).

جردوا للشوق إلى حضرة الربوبية، ولم تسلط عليهم شهوة صارفة عنها حتى يحتاج إلى مصادمة ما يصدها عن حضرة الجلال.

وأما الإنسان فإن يخلق فى ابتداء الصبا ناقصاً مثل البهيمة، لم يخلق فيه إلا شهوة الغذاء الذى هو محتاج إليه، ثم تظهر فيه شهوة اللعب والزينة، ثم شهوة النكاح، وليس له قوة الصبر، فإذا تحرك العقل وقوى، ظهرت مبادئ إشراق نور الهداية عند سن التمييز ، وينمو على التدرج إلى سن البلوغ، كما يبدو نور الصبح إلى أن يطلع قرص الشمس، ولكنها هداية قاصرة لا مرشد لها إلى مصالح الآخرة، فإذا عقد بمعرفة الشرع تلمح ما يتعلق بالآخرة وكثر سلاحه، إلا أن الطبع يقتضى ما يحب، وباعث الشرع والعقل يمنع، والحرب بينهما قائمة، ومعركة هذا القتال قلب العبد، ومدد باعث الدين من الملائكة الناصرين لحزب الله تعالى، ومدد باعث الشهوة من الشياطين الناصرين لأعداء الله تعالى، فالصبر عبارة عن ثبات باعث الدين فى مقابلة باعث الشهوات، فإن ثبت حتى قهر الشهوة التحق بالصابرين، وإن ضعف حتى غلبت الشهوة ولم يصبر على دفعها، التحق بأتباع الشياطين، وإذ ثبت أن الصبر عبارة عن ثبات باعث الدين فى مقاومة باعث الهوى، فهذه المقاومة من خاصة الآدميين.

فصل فى أقسام الصبر

اعلم أن الصبر على ضربين:

احدهما: بدنى، كتحمل المشاق بالبدن، وكتعاطى الأعمال الشاقة من العبادات أو من غيرها.

الضرب الآخر: هو الصبر النفسانى عن مشتهيات الطبع ومقتضيات الهوى، وهذا الضرب إن كان صبراً عن شهوة البطن والفرج، سمى عفة، وإن كان الصبر فى قتال، سمى شجاعة، وإن كان فى كظم غيظ، سمى حلماً، وإن كان فى نائبة، سمى سعة صدر، وإن كان فى إخفاء أمر، سمى كتمان سر، وإن كان فى فضول عيش، سمى زهداً، وإن كان صبراً على قدر يسير من الحظوظ، سمى قناعة.

وأما المصيبة، فإنه يقتصر فيها على اسم الصبر، فقد بان بما ذكرنا أن أكثر أخلاق الإيمان داخلة فى الصبر، وإن اختلفت الأسماء باختلاف المتعلقات.

بيان مظان الحاجة إلى الصبر

اعلم: أن العبد لا يستغنى عن الصبر فى كل حال من الأحوال، وذلك أن جميع ما يلقى العبد فى الدنيا لا يخلو من نوعين:

النوع الأول:

ما يوافق هواه من الصحة، والسلامة والمال، والجاه، وكثرة العشيرة، والأتباع، وجميع ملاذ الدنيا، فالعبد محتاج إلى الصبر فى جميع هذه الأمور، فلا يركن إليها، ولا ينهمك فى التلذذ بها، ويراعى حق الله تعالى فى ماله بالإنفاق، وفى بدنه بالمعونة للخلق.

ومتى لم يضبط نفسه عن الانهماك فى الملاذ والركون إليها، أخرجه ذلك إلى البطر والطغيان، حتى قال بعض العارفين: المؤمن يصبر على البلاء، ولا يصبر على العافية إلا صِدّيق.

وقال عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه: ابتلينا بالضراء فصبرنا، وابتلينا بالسراء فلم نصبر.

ولذلك قال الله تعالى: ﴿لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ (المنافقون: ٩)، وقال تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ (الأنفال: ٢٨)، ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ (التغابن: ١٤).

فالرجل كل الرجل من يصبر على العافية، وهذا الصبر متصل بالشكر، فلا يتم إلا بالقيام بحق الشكر، وإنما كان الصبر على السراء شديداً، لأنه مقرون بالقدرة، والجائع عند غيبة الطعام أقدر على الصبر منه عند حضور الطعام اللذيذ.

النوع الثاني: المخالف للهوى وهو ثلاثة أقسام:

أحدها: الطاعات، فيحتاج العبد إلى الصبر عليها، لأن النفس بطبعها تنفر عن العبودية.

ثم من العبادات ما يكره بسبب الكسل كالصلاة، ومنها ما يكره بسبب البخل، كالزكاة، ومنها ما يكره بسببهما جميعاً، كالحج والجهاد.

ويحتاج المطيع إلى الصبر على طاعته فى ثلاثة أحوال:

- حال قبل العبادة، وهى تصحيح النية، والإخلاص والصبر عن شوائب الرياء.
- وحال فى نفس العبادة وهى أن لا يغفل عن الله تعالى فى أثناء العبادة، ولا يتكاسل عن تحقيق الآداب والسنن، فيلازم الصبر عن دواعى الفتور إلى الفراغ من العمل.
- الحالة الثالثة: بعد الفراغ من العمل: وهى الصبر عن إفشائه، والتظاهر به لأجل الرياء والسمعة، وعن كل ما يبطل عمله، فمن لم يصبر بعد الصدقة عن المن والأذى أبطلها.

القسم الثانى: الصبر عن المعاصي، وما أحوج العبد إلى ذلك.

ثم إن كان الفعل مما تيسر فعله، كمعاصى اللسان من الغيبة، والكذب والمراء ونحوه، كان الصبر عليه أثقل. فترى الإنسان إذا لبس حريراً، استنكر ذلك، ويغتاب أكثر نهاره، فلا يستنكر ذلك، ومن لم يملك لسانه فى المحاورات، ولم يقدر على الصبر، لم يُنْجِه إلا العزلة.

القسم الثالث: ما لا يدخل تحت الاختيار، كالمصائب، مثل موت الأحبة، وهلاك الأموال، وعمى العين، وزوال الصحة، وسائر أنواع البلاء، فالصبر على ذلك من أعلى المقامات، لأن مسنده اليقين.

وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم: **«من يرد الله به خيراً يصب منه»**.(١)

وقريب من هذا القسم، الصبر على أذى الناس، كالذى يُؤْذَى بقول أو فعل أو جناية على نفسه أو ماله، والصبر على ذلك يكون بترك المكافآت.

والصبر على أذى الناس من أعلى المراتب، قال الله تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ (آل عمران: ١٨٦)، وقال: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ (الحجر: ٩٧)، وقال: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾ (النحل: ١٢٦).

وقد روى عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: **«الصبر ثلاثة: صبر على المصيبة، وصبر على الطاعة، وصبر عن المعصية، فمن صبر على المصيبة حتى يردها بحسن عزائها، كتب الله له ثلاثمائة درجة، ما بين الدرجة إلى الدرجة كما بين السماء والأرض، ومن صبر على الطاعة كتبت له ستمائة درجة، ما بين الدرجة إلى الدرجة كما بين تخوم الأرض إلى منتهى العرش، ومن صبر عن المعصية كتب الله له تسعمائة درجة، ما بين الدرجة إلى الدرجة كما بين تخوم الأرض إلى منتهى العرش مرتين»**(٢).

بيان فضائل الصبر

والأحاديث فى فضائل الصبر كثيرة، منها: ما أخرجاه فى «الصحيحين» عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: **«ما من مصيبة تصيب المسلم إلا كفَّر الله**

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخارى (٥٦٤٥) المرضى، وأحمد (٧١٩٤) عن أبى هريرة رضي الله عنه.

(٢) **ضعيف**: قال الألبانى: «رواه ابن أبى الدنيا فى «الصبر» (٤٣/١)، وعنه ابن الجوزى فى ذم الهوى (ص ٥٩)، عن يحيى بن سليم الطائفى: حدثنى عمر بن يونس عمن حدثه، عن على مرفوعاً. قلت- الألبانى-: وهذا إسناد ضعيف، لجهالة شيخ عمر بن يونس، وأخرجه الديلمى، وفى إسناده السبيعى مختلط مدلس، وانظر «الضعيفة» (٣٧٩١).

عز وجل بها عنه، حتى الشوكة يشاكها.[1]

وفى حديث آخر: «**ما يصيب المسلم من وصب ولا نصب ولا هم ولا حزن ولا اذى ولا غم، حتى الشوكة يشاكها، إلا كفَّر الله بها من خطاياه**». أخرجاه فى «الصحيحين».[2]

وفى حديث آخر: «**لا يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة، فى جسده وفى ماله وفى ولده، حتى يلقى الله وما عليه خطيئة**».[3]

وفى حديث سعـد بن أبى وقاص ﷺ قال: قلت يا رسول الـله، أى الناس أشد بلاء؟ قال: «**الأنبياء ثم الصالحون، ثم الأمثل من الناس، يبتلى العبد على حسب دينه، فإن كان فى دينه صلابة زيد فى بلائه، وإن كان فى دينه رقة خفف عنه، وما يزال البلاء بالعبد حتى يمشى على الأرض وليس عليه خطيئة**» قال الترمذى: حديث حسن صحيح.[4]

وروينا عن النبى صلى الـله عليه وآله وسلم أنه قال: «قال الله تـعالى: إذا وجهت إلى عبد من عبادى مصيـبة فى بدنه أو ماله أو ولده، ثم استقبل ذلك بصبر جـميل، استحييت منه يوم القيامة أن أنصب له ميزاناً، أو أنشر له ديواناً».[5]

فصل فى آداب الصبر

ومن آداب الصبر: استـعماله فى أول صـدمة، لقوله صـلى الله عليـه وآله وسلم: «**إنما الصبر عند الصدمة الأولى**» حديث صحيح.[6]

ومن الآداب: الاسترجاع عند المصيبة، لحديث أم سلمة ﷺ وهو من رواية مسلم[7].

(١) **صحيح**: أخرجه البخارى (٥٦٤٠) المرضى، ومسلم (٢٥٧٢) البر والصلة.

(٢) **صحيح**: أخرجه البخارى (٥٦٤٢) المرضى، ومسلم (٢٥٧٣) البر والصلة، عن أبى سعيد وأبى هريرة ﷺ.

(٣) **حسن صحيح**: أخرجه أحمد (٧٧٩٩)، والترمذى (٢٣٩٩) الزهد، وقال أبو عيسى: «حسن صحيح»، ووافقه الألبانى، وانظر «الصحيحة» (٢٢٨٠).

(٤) **حسن صحيح**: أخرجه أحمد (١٤٨٤)، والترمذى (٢٣٩٨) الزهد، وابن ماجه (٤٠٢٣)، عن مصعب بن سعد عن سعد بن أبى وقاص. وقال الألبانى: «حسن صحيح»، وانظر «صحيح الترمذى».

(٥) **ضعيف**: ضعيف عن أنس، وانظر «ضعيف الجامع» للألبانى (٤٠٤٤).

(٦) **صحيح**: أخرجه البخارى (١٢٨٣) الجنائز، ومسلم (٩٢٦) الجنائز، عن أنس ﷺ.

(٧) **صحيح**: أخرجه مسلم (٩١٨) الجنائز، والترمذى (٣٥١١) الدعوات، وأبو داود (٣١١٩) الجنائز، عن أم سلمة ﷺ.

ومن الآداب: سكون الجوارح واللسان، فأما البكاء فجائز.

قال بعض الحكماء: الجزع لا يرد الفائت، ولكن يسر الشامت.

ومن حسن الصبر: أن لا يظهر أثر المصيبة على المصاب، كما فعلت أم سليم امرأة أبى طلحة لما مات ابنها، وحديثها مشهور فى «صحيح مسلم». (١)

وقال ثابت البنانى: مات عبد الله بن مطرف، فخرج مطرف على قومه فى ثياب حسنة وقد ادهن، فغضبوا، وقالوا: يموت عبد الله، ثم تخرج فى ثياب من هذه مدهناً؟! قال: أفأستكين لها، وقد وعدنى ربى تبارك وتعالى ثلاث خصال، كل خصلة منها أحب إلىَّ من الدنيا وما فيها.

قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ (البقرة: ١٥٦، ١٥٧).

وقال مطرف: ما شىء أعطى به فى الآخرة قدر كوز من ماء، إلا وددت أنه أُخذ منى فى الدنيا.

وكان صلة بن أشيم فى الغزو ومعه ابنه، فقال: أى بنى! تقدم فقاتل حتى أحتسبك، فحمل فقاتل حتى قُتل، ثم تقدم فقُتل، فاجتمع النساء عند أمه معاذة العدوية، فقالت: مرحباً إن كنتن جئتن تهنئننى، وإن كنتن جئتن لغير ذلك فارجعن.

وإذا كانت المصيبة مما يمكن كتمانها، فكتمانها من نعم الله عز وجل الخفية.

وروى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: **«إذا مرض العبد بعث الله إليه ملكين، فيقول: انظرا ما يقوله لعوّاده، فإن هو حمد الله تعالى إذا دخلوا عليه رفعا ذلك إلى الله تعالى وهو أعلم. فيقول: لعبدى إن أنا توفيته أن ادخله الجنة، وإن أنا شفيته أن أبدله لحماً خيراً من لحمه، ودماً خيراً من دمه، وأن أكفر عنه خطاياه».** (٢)

وقال علىّ رضي الله عنه: من إجلال الله ومعرفة حقه أن لا تشكو وجعك، ولا تذكر مصيبتك.

وقال الأحنف: لقد ذهبت عينى منذ أربعين سنة، ما ذكرتها لأحد.

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخارى (١٣٠١) الجنائز، ومسلم (٢١٤٤) الآداب، من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) **مرسل**: أخرجه مالك (١٧٥٠) فى «الموطأ» عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن النبى ﷺ.

وقال رجل للإمام أحمد بن حنبل: كيف تجدك يا أبا عبد الله؟ قال: بخير فى عافية. فقال له: حممتَ البارحة؟ قال: إذا قلت لك: أنا فى عافية فحسبك، لا تخرجنى إلى ما أكره.

وقال شقيق البلخى: من شكا مصيبة به إلى غير الله، لم يجد فى قلبه لطاعة الله حلاوة أبداً.

وقال بعض الحكماء: من كنوز البر كتمان المصائب، وقد كانوا يفرحون بالمصائب نظراً إلى ثوابها، وحكاياتهم مشهورة فى ذلك:

منها: ما روى أن عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز لما مات دفنه عمر ﷺ، وسوّى عليه ثم استوى قائماً، فأحاط به الناس، فقال: رحمك الله يا بنى! قد كنت براً بأبيك، والله ما زلت منذ وهبك الله لى مسروراً بك، ولا والله ما كنت قط أشد بك سروراً، ولا أرجى بحظى من الله تعالى فيك منذ وضعتك فى هذا المنزل الذى صيّرك الله إليه.

فإن قيل: إن كان المراد من الصبر عدم كراهية المصائب، فلا قدرة للآدمى على ذلك، وإن كان الفرح بوجودها كما حكيتم، فهو أبعد وأبعد.

والجواب: أن الصبر لا يكون إلا عن محبوب أو على مكروه، ولا ينهى عما لا يدخل تحت الكسب، وهو انزعاج الباطن، وإنما ينهى عن المكتسب، كشق الجيوب، ولطم الخدود، والقول باللسان، فأما ما ذكرنا من فرح بعضهم، فذلك فرح شرعى لا طبعى، إذ الطبع لابد له من كراهة المصائب.

ومثال هذا: مثال رجل مريض وصفت له شربة لمرضه، فسعى فى طلب حوائجها، وأنفق عليها مالاً، فلما تمت، فرح بتمامها وتناولها لما يرجو لها من العافية، فأما طبعه، فما زالت عنه كراهة التناول أصلاً. ولو أن ملكاً قال لرجل فقير: كلما ضربتك بهذا العود اللطيف ضربة أعطيتك ألف دينار، لأحب كثرة الضرب، لا لأنه لا يؤلم، ولكن لما يرجو من عاقبته، وإن أنكاه الضرب. فكذلك السلف تلمحوا الثواب، فهان عليهم البلاء.

فصل فى بيان دواء الصبر وما يستعان به عليه

اعلم: أن الذى أنزل الداء أنزل الدواء ووعد بالشفاء، فالصبر وإن كان شاقاً فتحصيله ممكن بمعجون العلم والعمل، فمنهما تركب الأدوية لأمراض القلوب كلها، فيحتاج كل مرض إلى علم وعمل يليق به، فإن العلل إذا اختلفت اختلف العلاج، إذ معنى العلاج مضادة العلة.

ونضرب لك مثالاً، فنقول: إذا افتقر الإنسان إلى الصبر عن شهوة الجماع، وقد غلبت عليه بحيث لا يملك فرجه ولا عينه ولا قلبه، فعلاج ذلك بثلاثة أشياء:

أحدها: مواظبة الصوم، والاقتصار عند الإفطار على قليل من الطعام.

الثاني: قطع أسبابه المهيجة، فإنه إنما يهيج بالنظر، والنظر يحرك القلب، والقلب يحرك الشهوة، ودواء هذا العزلة، والاحتراز عن مظان وقوع البصر على الصور المشتهاة، فإن النظر سهم مسموم من سهام إبليس، ولا يمنع عنه إلا غمض الجفن أو الهرب.

الثالث: تسلية النفس بالمباح من جنس المشتهى، وذلك بالنكاح، وكل ما يشتهيه الطبع من الحرام، ففى المباحات غنية عنه، وهذا هو العلاج الأرفع فى حق أكثر الناس، لأن قطع الغذاء يضعف، ولا يقمع الشهوة بخلاف هذا.

وينبغى للإنسان أن يعود نفسه المجاهدة، فإن من عود نفسه مخالفة الهوى، قوى عليها متى أراد.

واعلم: أن أشد أنواع الصبر والمجاهدة، كف الباطن من حديث النفس، وإنما يشتد ذلك على من تفرغ واعتزل، فإن الوساوس لا تزال تجاذبه، ولا علاج لهذا إلا قطع العلائق، وجعل الهم هماً واحداً، وصرف الفكر إلى ملكوت السموات والأرض وعجائب صنع الله تعالى، وجميع أبواب معرفة الله تعالى حتى إذا استولى ذلك على قلبه، دفع اشتغاله بذلك مجاذبة الشيطان ووسواسه، وإن لم يكن له سير بالباطن فلا ينجيه إلا الأوراد المتواصلة، من القراءة، والأذكار، والصلوات، ويحتاج مع ذلك إلى تكليف القلب الحضور، فإن الفكر الباطن هو الذى يستغرق القلب دون الأوراد الظاهرة، فهذا الذى يمكن أن ينال بالاكتساب والجهد.

فأما مقادير ما ينكشف، ومبالغ ما يرد من لطف الله تعالى من الأحوال والأعمال، فذلك يجري مجرى الصيد، وهو بحسب الرزق، فقد يقل الجهد، ويكثر الصيد، وقد يطول الجهد ويقل الصيد، والمعول وراء هذا الاجتهاد على جذبة من جذبات الرحمن عز وجل، فإنها توازى أعمال الثقلين الإنس والجن، وليس ذلك إلى اختيار العبد، بل اختياره أن يتعرض لتلك الجذبة، بأن يقلع عن قلبه جواذب الدنيا، فإن المجذوب إلى أسفل سافلين، لا يجذب إلى أعلى عليين، وكل منهوم بالدنيا هو منجذب إليها، فقطع العلائق الجاذبة، هو المراد بقوله صلى الله عليه وآله وسلم: **«إن لربكم فى أيام دهركم نفحات، ألا فتعرضوا لها»**.[1]

---

(١) **ضعيف**: أخرجه الطبرانى «الأوسط» (٢٨٧٧) عن محمد بن مسلمة، وقال الهيثمى (١٠/ ٢٣١) «المجمع»: «رواه الطبرانى فى الأوسط، والكبير بنحوه، وفيه من لم أعرفهم، ومن عرفتهم وثقوا»، وضعفه الألبانى فى «ضعيف الجامع» (١٩١٧).

فالذى علينا تفريغ المحل، والانتظار لنزول الرحمة، كالذى يصلح الأرض وينقيها من الحشيش، ويضع فيها البذر، وكل ذلك لا ينفع إلا بمطر، ولا يدرى متى يقدر الله أسباب المطر، إلا أنه يثق بفضل الله تعالى أنه لا يخلى سنة من مطر، وكذلك قلما تخلو منه سنة وشهر ويوم عن جذبة من الجذبات ونفحة من النفحات.

فينبغى للعبد أن يكون قد طهر القلب من حشيش الشهوات، وبذر فيه بذر الإرادة والإخلاص، وعرّضه لمهاب ريح الرحمة، وكما يقوى انتظار الأمطار في أوقات الربيع عند ظهور الغيم، كذلك انتظار تلك النفحات فى الأوقات الشريفة، وعند اجتماع الهم ونشاط القلوب، كيوم عرفة، ويوم الجمعة، وفى رمضان، والهمم والأنفاس أسباب لاستدرار رحمة الله تعالى بحكمته وتقديره.

الشطر الثاني من الكتاب في الشكر وفضله وذكر النعم وأقسامها ونحو ذلك

قال الله تعالى: ﴿وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ (آل عمران:١٤٥)، وقال الله تعالى: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ﴾ (النساء:١٤٧) وقال: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ (سبأ:١٣) وقطع بالمزيد مع الشكر فقال: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ (إبراهيم:٧) مع كونه وقف أشياء كثيرة غيره على المشيئة كقوله: ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ﴾ (التوبة:٢٨) وقوله: ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ﴾ (الأنعام:٤١) وقوله: ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ﴾ (البقرة:٢١٢)، ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ (النساء:٤٨)، ﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ﴾ (التوبة:١٥). ولما عرف إبليس قدر الشكر قال فى الطعن على بنى آدم: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ (الأعراف:١٧).

وروى أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قام حتى تفطرت قدماه، فقالت له عائشة ﵂: أتصنع هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟! قال: **«افلا اكون عبداً شكوراً»**.[١]

وعن معاذ ﵁ قال: قال لى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: **«إنى أحبك فقل: اللهم أعنى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك»**.[٢]

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخارى (٤٨٣٧) تفسير القرآن، ومسلم (٢٨٢٠) صفة القيامة، عن عائشة ﵂.

(٢) **صحيح**: أخرجه أبو داود (١٥٢٢)، والنسائى (١٣٠٣)، من طريق عقبة بن مسلم عن أبى عبد الرحمن الحبلى عن الصنابحى عن معاذ. وصححه الألبانى فى «صحيح أبى داود».

فصل في كون الشكر بالقلب واللسان والجوارح

والشكر يكون بالقلب، واللسان والجوارح.

أما بالقلب، فهو أن يقصد الخير، ويضمره للخلق كافة.

وأما باللسان، فهو إظهار الشكر لله بالتحميد.

وأما بالجوارح، فهو استعمال نعم الله فى طاعته، والتوقى من الاستعانة بها على معصيته، فمن شكر العينين أن تستر كل عيب تراه لمسلم، ومن شكر الأذنين أن تستر كل عيب تسمعه، فهذا يدخل فى جملة شكر هذه الأعضاء.

والشكر باللسان: إظهار الرضى عن الله تعالى، وهو مأمور به. قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: **«التحدث بالنعم شكر، وتركها كفر»**.[1]

وروى أن رجلين من الأنصار التقيا، فقال أحدهما لصاحبه: كيف أصبحت؟ فقال: الحمد لله. فقال النبى صلى الله عليه وآله وسلم: **«قولوا هكذا»**.[2]

وروى أن رجلاً سلم على عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فرد عليه، ثم قال له عمر: كيف أصبحت؟ قال: أحمد الله، فقال عمر: ذاك الذى أردت.

وقد كان السلف يتساءلون، ومرادهم استخراج الشكر لله، فيكون الشاكر مطيعاً والمستنطق مطيعاً.

وقال أبو عبد الرحمن الحبلى: إن الرجل إذا سلم على الرجل، وسأله كيف أصبحت؟ فقال له الآخر: **أحمد الله إليك،** قال: **يقول** الملك الذى [illegible] للذى عن يمينه: كيف تكتبها؟ **قال: أكتبه من الحامدين. فكان** أبو عبد الرحمن إذا سئل: كيف أصبحت؟ يقول: أحمد الله **إليك وإلى جميع خلقه.**

---

(١) **حسن:** أخرجه أحمد (١٧٩٨١)، وحسنه الألبانى فى «صحيح الجامع» (٣٠١٤)، وانظر «الصحيحة» (٦٦٧)، و«صحيح الترغيب» (٩٧٦).

(٢) لم أصل إليه.

فصل فى أن فعل الشكر لا يتم إلا بمعرفة ما يحبه الله

اعلم: أن فعل الشكر وترك الكفران، لا يتم إلا بمعرفة ما يحبه الله تعالى عما يكره، إذ معنى الشكر استعمال نعمه فى محابه، ومعنى الكفران نقيض ذلك، إما بترك الاستعمال، أو استعماله فيما يكرهه.

ولتمييز ما يحبه الله فيما يكرهه مدركان:

أحدهما: السمع، ومستنده الآيات.

والثانى: بصيرة القلب، وهو النظر بعين الاعتبار، وهذا الأخير عسير عزيز، ولذلك أرسل الله تعالى الرسل، وسهَّل بهم الطريق على الخلق، ومعرفة ذلك تبنى على معرفة جميع أحكام الشرع فى أفعال العباد، فمن لا يطلع على حكم الشرع فى جميع أفعاله، لم يمكنه القيام بحق الشكر أصلاً.

وأما الثانى: وهو النظر بعين الاعتبار، فهو إدراك حكمة الله تعالى فى كل موجود خلقه؛ إذ ما خلق الله تعالى شيئاً فى العالم إلا وفيه حكمة، وتحت الحكمة مقصود، وذلك المقصود هو المحبوب. وتلك الحكمة منقسمة إلى جلية وخفية.

أما الجلية، فكالعلم بأن الحكمة فى خلق الشمس أن يحصل الليل والنهار، فيكون النهار معاشاً، والليل لباساً، فتتيسر الحركة عند الإبصار، والسكون عند الاستتار، فهذا من جملة حِكَم الشمس، لا كل الحكمة فيها، كذلك معرفة الحكمة فى الغيم ونزول الأمطار.

وأما الحكمة فى خلق الكواكب، فخفية لا يطلع عليها كل الخلق، وقد يطلعون على بعض ما فيها من الحكَم، نحو كونها زينة للسماء، وجميع أجزاء العالم لا تخلو منه ذرة عن حكمة، وكذلك أعضاء الحيوان، منها ما تبين حكمته بياناً ظاهراً، كالعلم بأن العين للإبصار، واليد للبطش، والرجل للمشى.

فأما الأعضاء الباطنة، كالمرارة، والكلية والكبد، وآحاد العروق، والأعصاب وما فيها من التجاويف والرقة والغلظة، فلا يعرف الحكمة فيها كل الناس، والذين يعرفونها إنما يعرفون منها قدراً يسيراً بالنسبة إلى علم الله تعالى، فكل من استعمل شيئاً فى جهة غير الجهة التى خُلق لها ذلك الشىء على غير الوجه الذى أريد به، فقد كفر فيه نعمة الله تعالى، فمن ضرب غيره بيده بغير حق، فقد كفر نعمة الله تعالى فى اليد، لأنها خلقت ليدفع بها عن

نفسه ما يؤذيه، ويتناول ما ينفعه، لا ليؤذى بها غيره، وكذلك العين إذا نظر بها إلى محرم، فقد كفر نعمتهـا، ونعمة الشمس أيضاً، إذ الإبصار يتم بها، فالعين والشـمس خلقتا ليبصر بهما ما ينفعه فى دينه ودنياه، ويتقي بهما ما يضره فيهما.

واعلم: أن المراد من خـلق الخلق وخلق الـدنيا وأسبـابها، أن يـستعـين بها الخلـق على الوصول إلى الله تعالـى، ولا وصول إليه إلا بمحبته، والأنس به فى الدنيـا، والتجافى عن غرور الدنيـا، ولا أنس إلا بدوام الذكر، ولا محبـة إلا بالمعرفة الحاصـلة بدوام الفكر، ولا يمكن الدوام على الذكر والفكر إلا بدوام البدن، ولا يبقى البدن إلا بالأرض والماء والهواء، ولا يتم ذلك إلا بخلق السماء والأرض وخلق جمـيع الأعضاء الباطنة والظاهرة، وكل ذلك لأجل البـدن، والبدن مطيـة النفس، والراجع إلى اللـه هى النفس المطمـئنة بطول العـبادة والمعرفة، ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ (الذاريات: ٥٦-٥٧) فكل من استعمل شيئاً فى غيـر طاعة الله تعالى، فقد كفر نعمة الله فى جميع الأسباب التى لابد منها، لإقدامه على تلك المعصية.

ولنذكر مثالاً واحداً للحِكَم الخفية التى ليست فى غاية الخفاء، حتى يعتبر بها، ويعلم طريق الشكر والكفران عـلى النعم، فنقول: من نعم الله تـعالى خلق الدراهم والدنانير اللـذين بهما قوام الدنيا، وهما حجـران لا منفعة فى أعيانها، ولكن يضطر الخلق إلـيهما، من حيث إن كل إنسان يحتاج إلى أعيان كـثيرة فى مطعمه، ومشربه، وملبسه، ومركـبه، وسائر حاجاته، وقد يعجز عما يحتاج إليه، ويملك ما يستغنى عنه، كمن يملك قدراً من الزعفران مثلاً وهو يحتاج إلى جمل يركبه، وآخر يملك الجمل، وربما استغنـى عنه، ويحتاج إلى الزعفران، فلابد بينهما من معاوضة، ولابد فى مقدار العوض من تقدير، إذ لا يبذل صاحب الجمل جمله بكل مقدار من الزعفران، ولا مناسبة بين الزعفران والجمل، حتى يعطى مثله فى الوزن أو الصورة.

وكذا من يشترى داراً بثـياب، أو عبداً بخف، أو دقيقاً بحمار، فـهذه الأشياء لا تناسب بينهما، فخلق اللـه تعالى الدنانير والدراهم، حاكمين ومتوسطـين بين سائر الأموال، حتى تقدر الأمور بهما، فيقال: هذا الجمل يسـاوى مائة، وهذا القدر من الزعفران يساوى مائة، فحصـل التساوى بينـهما حينـئذ، وإنما أمكن التـعديل بينهـما بالنقديـن، إذ لا غرض فى أعيانهما، فإنه لو كان فى أعيانهما غرض لم ينتظم الأمر، فخلقهما الله لتتداولهما الأيدى، ويكونا حاكميـن بين الأموال بالعدل، وجعلهما عـزيزين فى أنفسهما، ونسبتـهما إلى سائر الأموال نسبة واحدة، فمن ملكهما، فكأنه ملك كل شيء.

فإذا عرفت حكـمتهما، فكل من عـمل فيهما عمـلاً يخالف المقصود منهـما، ولا يليق بحكمتهما، فقد كفر نعمة الله فيهما، فمن كنزهما فقد أبطلهما وأبطل الحكمة فيهما، وكان كمن حـبس الحاكم بين المسلمـين فى سجن يمتـنع من الحكم بسببـه، لأنه ضيعهـما ومنع الأيدى من تداولهمـا. ولما كان كثير من الخلق عـاجزين عن قراءة الأسطر الإلهيـة المكتوبة على صفحات الموجودات بخط إلهى لا يدرك بعين البـصر، بل بعين البصيرة، أخبرهم الله تعالى بـكلام سمعوه بـواسطة رسوله صلى الـله عليه وآله وسلـم، فقال: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (التوبة: ٣٤).

وكل من اتخذ الدراهم والدنانير آنية فقد كفر نعمة الله فيهما، لأنه أسوأ حالاً ممن كنزهما.

ومثال ذلك: من استعـمل حاكم البلد فى الحياكـة والكنس والأعمال التى يقوم بـها أخساء الناس، والحبس أهون عليه منه، وذلك أن الحديد والنحـاس والخزف وغيرها يقوم مقام الذهب والفضة فى حفظ المائعات، ولا تـكفى تلك الأعيان عنهما، ولا يقوم مقامهمـا فيها أريد بهما من كونهما قيم الأشياء، فمن لم تنكشف له هذه الحكمة بالرحمة الإلهية قيل له: **«من شرب فى إناء من ذهب أو فضة، فإنما يجرجر فى بطنه نار جهنم»**[1] وكذلك كـل من عامل بالـربا فى الدراهم والدنانير، فقد أخرجهما عن مقصودهما، فهذا مثال لحكمة خفية من حكم النقدين.

فينبغى أن تعتبر شكر النعمة وكفرها بهذا المثال فى غيره من جميع أمورك، فى حركتك، وسكونـك، ونطقك، وسكوتـك، فى كل فعـل صادر منك، إمـا شكراً أو عكســه، وهو الكفر، إذ لا يتصور أن ينفعك عنهما، وبعض ذلك تصفه بالكراهة، وبعضه بالحظر.

ومن ذلك: أن الله تعالى خلق لـك يدين، وجعل إحداهما أقوى من الأخرى، فـاستحقت بمزيد القوة رجحاناً وشرفاً على الأخرى، وقد أحـوجك من أعطاك اليدين إلى أعمال، بعضها شريفة، كأخـذ المصحف، وبعضها خسيـسة، كإزالة النجاسة، فإذا أخذت المصـحف باليسار، وأزلت النجاسة باليمين، فقد عكست المقصود، وخصصت الشريف بما هو خسيس، فظلمته.

وكذلك فى الرجلين إذا ابتدأت باليسرى فى لبس الخف، فقد ظلمت اليمنى، لأن الخف وقاية للرجل، وقس على ذلك.

---

(١) **صحيح:** أخرجه البخارى (٥٦٣٤) الأشربة، ومسلم (٢٠٦٥) اللباس والزينة، عن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق عن أم سلمة عن النبى ﷺ.

وكذلك نقول: من كسر غصناً من شجرة لغير حاجة مهمة وغرض صحيح، فقد خالف الحكمة فى خلق الأشجار، لأنها خلقت للمنفعة بها، فإن كان كسره لغرض صحيح، فلا بأس وإن فعل ذلك فى ملك غيره، فهو ظالم، وإن كان محتاجاً، إلا أن يأذن صاحبه.

فصل في بيان النعم وحقيقتها وأقسامها

اعلم: أن كل مطلوب يسمى نعمة، ولكن النعمة فى الحقيقة هى السعادة الأخروية، وتسمية ما عداها نعمة تجوّز، والأمور كلها بالإضافة إلينا تنقسم أربعة أقسام:

القسم الأول: ما هو نافع فى الدنيا والآخرة جميعاً، كالعلم، وحسن الخلق، وهو النعمة الحقيقية.

القسم الثانى: ما هو ضار فيهما جميعاً، كالجهل وسوء الخلق، وهو البلاء حقيقة.

القسم الثالث: ما ينفع فى الحال، ويضر فى المآل كالتلذذ، واتباع الشهوات، فهو بلاء عند ذوى الأبصار، والجاهل يظنه نعمة.

ومثاله: الجائع إذا وجد عسلاً فيه سم، فإنه يعده نعمة إن كان جاهلاً، فإذا علم ذلك عده بلاء.

القسم الرابع: الضار فى الحال، النافع فى المآل، وهو نعمة عند ذوى الألباب، بلاء عند الجهال.

ومثاله: الدواء الشنيع مذاقه فى الحال، الشافى فى المآل من الأسقام، فالصبى الجاهل، إذا كلف شربه ظنه بلاء، والعاقل يعده نعمة، وكذلك إذا احتاج الصبى إلى الحجامة، فإن الأب يدعوه إليها ويأمره بها، لما يلحظ فى عاقبتها من الشفاء، والأم تمنعه من ذلك لفرط حبها وشفقتها، لكونها جاهلة بالمصلحة فى ذلك، فالصبى يقدر منع أمه لجهله، ويأنس إليها دون أبيه، ويقدر أباه عدواً له، ولو عقل لعلم أن الأم فى هذا الحال هى العدو الباطن فى صورة صديق، لأن منعها إياه من الحجامة يسوقه إلى أمراض ألمها أشد من ألم الحجامة، فالصديق الجاهل شر من العدو العاقل، وكل إنسان صديق نفسه، ولكن النفس صديق جاهل، فلذلك تعمل به ما لا يعمل العدو.

فصل في بيان كثرة نعم الله تعالى وتسلسلها وخروجها عن الحصر والإحصاء

اعلم: أن النعم تنقسم إلى ما هو غاية مطلوبة لذاتها، وإلى ما هو مطلوب لأجل الغاية.

أما الغاية: فهى سعادة الآخرة، ويرجع حاصلها إلى أربعة أمور: بقاء لا فناء له، وسرور لا غمَّ فيه، وعلم لا جهل معه، وغنى لا فقر بعده، وهى السعادة الحقيقية.

واما القسم الثانى: فهو الوسائل إلى السعادة المذكورة، وهى أربعة أقسام:

أعلاها: فضائل النفس، كالإيمان، وحسن الخلق.

الثانى: فضائل البدن، من القوة والصحة ونحوهما.

الثالث: النعم المطيفة بالبدن، من المال والجاه والأهل.

الرابع: الأسبـاب التى جمـع بينها وبـين ما ينـاسب الفضـائل ، من الهدايـة والإرشاد والتسديد، والتأييد، وكل هذه نعم عظيمة.

فإن قيل: ما وجه الحاجة لطريق الآخرة إلى النعم الخارجة فى المال والجاه ونحوهما؟.

قلنا: هذه الأشياء جارية مجرى الجناح المباح، والآلة المستعملة للمقصود.

أما المال، فإن طـالب العلم إذا لم تكن معـه كفاية، كان كمن حـضر إلى الهيجـاء بغير سلاح، ولأنه يبقـى مستغرق الأوقات فى طلب الـقوت، فيشغله عن تحصـيل العلم، وعن الذكر، والفكر، ونحو ذلك.

وأما الجاه فبه يـدفع الإنسان عن نفسه الذل والضيم، ولا ينـفك عن عدو يؤذيه، وظالم يشوش عليه، فيشغل قلبه، وقلبه رأس ماله. وإنما تدفع هذه الشواغل بالعز والجاه.

وأما الصحة والقوة وطول العمر ونحوها، فهى نعم، إذ لا يتم علم ولا عمل إلا بذلك.

وقد قال النبى صلى الله عليه وآله وسلم: **«نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة، والفراغ»**.(١)

ولما سئل : من خيرالناس؟ قال: **«من طال عمره وحسن عمله»**.(٢)

---

(١) **صحيح** : أخرجه البخارى (٦٤١٢) الرقاق، والترمذى (٢٣٠٤) الزهد، وابن ماجه (٤١٧٠) الزهد، وأحمد (٣١٩٧)، من طريق عبد الله بن سعيد بن أبى هند عن أبيه عن ابن عباس عن النبى ﷺ .

(٢) **صحيح** : أخرجه الترمذى (٢٣٢٩) الزهد، وأحمد (١٧٢٤٥)، من طريق معاوية بن صالح عن عمرو بن قيس عن عبد الله بن بُسرٍ عن النبى ﷺ . وصححه الألبانى فى صحيح الترمذى، وأخرجه الترمذى (٢٣٣٠)، وأحمد (١٩٩٠٢)، من طريق حماد بن سلمة عن على بن زيد عن عبد الرحمن بن أبى بكرة عن أبيه عن النبى ﷺ به، وفى إسناده على بن زيد وهو ضعيف، وصححه الألبانى فى «صحيح الترمذى» بقوله: «صحيح بما قبله».

وأما المال والجاه، وإن كانا نعمتين، فقد ذكرنا ما فيهما من الآفات فيما تقدم، وأنهما ليسا بمذمومين على الإطلاق.

وأما الهداية والرشد والتسديد والتأييد، فلا خفاء فى كونها من أعظم النعم، فلا يستغنى أحد عن الحاجة إلى التوفيق، ولذلك قيل:

إذا لمْ يكنْ عونٌ مِنَ اللَّهِ للفتَى ... فأولُ ما يَقْضِى عليهِ اجْتِهادُهُ

فصل من نعم الله الأسبابُ التى يتم بها الأكل

واعلم: أنا قد ذكرنا جملة من النعم، وجعلنا صحة البدن نعمة واحدة من النعم الواقعة فى الرتبة الثانية، فلو أردنا أن نستقصى الأسباب التى بها تمت هذه النعمة، لم نقدر عليها، ولكن الأكل أحد أسباب الصحة، فلنذكر شيئاً من جملة الأسباب التى يتم بها الأكل على سبيل التلويح، لا على سبيل الاستقصاء، فنقول: من جملة نعم الله عليك أن خلق لك آلة الإحساس، وآلة الحركة فى طلب الغذاء، فانظر إلى ترتيب حكمة الله تعالى فى الحواس الخمس، التى هى آلة للإدراك.

فأولها: حاسة اللمس، وهو أول حس يخلق للحيوان، وأنقص درجات الحس أن يحس بما يلاصقه، فإن الإحساس بما يبعد عنه أتم لا محالة، فإن افتقرت إلى حس تدرك به ما بُعد عنك، فخلق لك الشم تدرك به الرائحة من بُعد، ولكن لا تدرى من أي ناحية جاءت الرائحة، فتحتاج أن تطوف كثيراً حتى تعثر على الذى شممت رائحته، وربما لم تعثر، فخلق لك البصر لتدرك به ما بُعد عنك، وتدرك جهته فتقصدها بعينها، إلا أنه لو لم يخلق لك إلا هذا لكنت ناقصاً، إذ لا تدرك بذلك ما وراء الجدار والحجاب، فربما قصدك عدو بينك وبينه حجاب، وقرُب منك قبل أن ينكشف الحجاب، فتعجز عن الهرب، فخلق لك السمع حتى تدرك به الأصوات من وراء الحجرات عند جريان الحركات، ولا يكفى ذلك، لو لم يكن لك حس الذوق، إذ به تعلم ما يوافقك وما يضرك بخلاف الشجرة، فإنه يصب فى أصلها كل مائع، ولا ذوق لها فتجذبه، وربما يكون ذلك سبب جفافها، ثم أكرمك الله تعالى بصفة أخرى، وهى أشرف من الكل، وهو العقل، فبه تدرك مضرة الأطعمة ومنفعتها، وما يضر فى المآل، وبه تدرك طبخ الأطعمة وتأليفها وإعداد أسبابها، فتنتفع به فى الأكل الذى هو سبب صحتك، وهو أدنى فوائد العقل، والحكمة الكبرى فيه معرفة الله تعالى،

وما ذكرنا من الحواس الخـمس الظاهرة، فهى بعض الإدراكات. ولا تظن أننا استوفـينا شيئاً من ذلك، فإن البصر واحد من الحواس، والعين آلة لـه، وقد ركّبت العين من عشر طبقات مختلفة: بعضها رطوبات، وبعضها أغشيـة مختلفة، لكل واحدة من الطبقات العشر صفة، وصورة، وشكل وهيئة، وتـدبير، وتركيب، لو اختلت طبقة واحدة مـنها أو صفة واحدة، لاختل البصر، وعجز عنه الأطباء كلهم، فـهذا فى حس واحد، وقس حاسة السمع وسائر الحواس، ولا يمكن أن يستوفى ذلك فى مجلدات، فكيف ظنك بجميع البدن؟!

ثم انظر بعد ذلك فى خلق الإرادة والقـدرة، وآلات الحركة من أصناف النعم، وذلك أنه لو خلق لك البـصر حتى تدرك به الطعام، ولـم يخلق لك فى الطبع شوق إليـه وشهوة له تستحثك على الحـركة، كان البصر معطلاً، فكم من مريض يرى الـطعام وهو أنفع الأشياء له، ولا يقدر علـى تناوله لسقوط شـهوته، فخلق لك الله شـهوة الطعام وسلطـها عليك، كالمتقاضى الذى يضطرك إلى تناول الغذاء.

ثم هذه الشـهوة لو لم تسكن عنـد أخذ مقدار الحـاجة من الطعام لأسـرفت وأهلكت نفسك، فخلق لك الكراهة عند الشبع لتـترك الأكل بها، وكذلك القول فى شهوة الوقاع لحكمة بقاء النسل.

ثم خلق لك الأعضاء التى هى آلات الحركة فى تنـاول الغذاء وغيره، منها اليدان، وهما مشتملتان على مفاصل كثيرة لتتحرك فى الجهات وتمتد وتنثنى،ولا تكون كخشبة منصوبة.

ثم جعل رأس اليد عريضـاً، وهو الكف، وقسمه خمسة أقسـام، وهى الأصابع وجعلها مختلفة فى الطـول والقصر، ووضعها فى صفين، بحيـث يكون الإبهام فى جانب، ويدور على الأصابع البواقى، ولو كـانت مجتمعة متراكمة، لم يحـصل تمام الغرض، ثم خلق لها أظافر، وأسند إليها رؤوس الأصابع، لتقوى بها، ولتـلتقط بها بعض الأشياء الدقيقة التى لا تحويها الأصـابع، ثم هَبْ أنك أخذت الطعام بالـيد، فلا يكفيك حتـى يصل إلى باطنك، فجعل لك الفم واللحيين، خلقهما من عظمين، وركّب فيهما الأسنان، وقسمها بحسب ما يحتاج إليه الطعام، فبعضها قواطع كالرباعـيات، وبعضها يصلح للكسر كالأنياب، وبعضها طواحن كالأضراس. وجـعل اللحى الأسفل متـحركاً حركة دورية واللحـى الأعلى ثابتاً لا يتحرك، فانظر إلى عـجيب صنع الله تعالى. وإن كل رحى صنعها الخلق يـثبت منها الحجر

الأسفل ويدور الأعلى، إلا هذه الرحى التى هى صنع الله سبحانه وتعالى، فإنه يدور منها الأسفل على الأعلى، إذ لو دار الأعلى خوطر بالأعضاء الشريفة التى يحتوى عليها.

ثم انظر كيف أنعم الله عليك بخلق اللسان، فإنه يطوف فى جوانب الفم، ويرد الطعام من الوسط إلى الأسنان بحسب الحاجة، كالمجرفة التى ترد الطعام إلى الرحى هذا مع ما فيه من فائدة الذوق وعجائب قوة النطق.

ثم هَبْ أنك قطعت الطعام وعجنته وهو يابس، فلا تقدر على الابتلاع إلا بأن ينزلق إلى الحلق بنوع رطوبة.

فانظر كيف خلق الله تعالى تحت اللسان عيناً يفيض اللعاب منها، وينصب بقدر الحاجة حتى ينعجن به الطعام.

ثم هذا الطعام المطحون المعجون مَنْ يوصله إلى المعدة وهو فى الفم، فإنه لا يمكن إيصاله باليد، فهيأ الله تعالى المرىء والحنجرة، وجعل رأسها طبقات ينفتح لأخذ الطعام، ثم ينطبق وينضغط حتى ينقلب الطعام، فيهوى فى دهليز المرىء إلى المعدة، فإذا ورد الطعام إلى المعدة وهو خبز وفاكهة مقطعة، فلا يصلح أن يصير لحماً وعظماً ودماً على هذه الهيئة حتى يطبخ طبخاً تاماً، فجعل الله المعدة على هيئة قِدْر يقع فيها الطعام فتحتوى عليه وتغلق عليه الأبواب، فلا يزال لابثاً فيها حتى يتم الهضم والنضج بالحرارة التى تتعدى إليها من الأعضاء الأربعة، وهى الكبد من جانبها الأيمن، والطحال من جانبها الأيسر، والترائب من أمامها، ولحم الصلب من خلفها، فينضج الطعام ويصير مائعاً متشابهاً يصلح للنفوذ فى تجاويف العروق، ثم ينصب الطعام من العروق إلى الكبد، فيستقر فيها ريثما يصلح له نضج آخر. ثم يتفرق فى الأعضاء ويبقى منه ثقل ثم يندفع. ولو استوفينا الكلام فى ذلك لطال.

وفى الآدمى من العضلات والعروق والأعضاء ما لا يحصى، مختلف بالصغر والكبر والدقة والغلظ، ولا شيء منها إلا وفيه حكمة، وكل ذلك نعم من الله سبحانه، ولو سكن من جملتها عرق متحرك، أو تحرك عرق ساكن، لهلكت يا مسكين.

فانظر إلى نعم الله تعالى عليك، لتقوى على الشكر، فإنك لا تعرف من نعمة الله تعالى إلا نعمة الأكل، وهى أخسها، ثم لا تعرف منها إلا أنك تجوع فتأكل، والبهيمة أيضاً تعرف أنها تجوع وتأكل. وتتعب فتنام، وتشتهى فتجامع، وإذا لم تعرف أنت من نفسك إلا

ما يعرف الحمار، فكيف تقوم بشكر الله تعالى؟! وهذا الذى رمزنا إليه على الإيجاز قطرة واحدة من بحر من نعم اللـه تعالى، فقس على ذلك. وجملة ما عرفنا وعرفه الخلق كلهم من نعم الله تعالى بالإضافة إلى ما لم يعرفوه من نعم الله تعالى، أقل من قطرة فى بحر. قال الله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا﴾ (إبراهيم: ٣٤ والنحل: ١٧).

فصل في عجائب الأغذية والأدوية

واعلم: أن الأطعمة كثيرة مختلفة، ولله تعالى فى خلقها عجائب لا تحصى. وهى تنقسم إلى أغذية وأدوية وفواكه وغيرها.

فنتكلم عن بعض الأغذية، فنقول: إذا كان عندك شىء من الحنطة فلو أكلتها لفنيت وبقيت جائعاً، فما أحوجك إلى عمل ينمى به حَبُّ الحنطة ويتضاعف، حتى يفى بتمام حاجتك، وهو زرعها، وهو أن تجعلها فى أرض فيها ماء يمتزج ماؤها بالأرض فيصير طيناً، ثم لا يكفى الماء والتراب، إذ لو تركت فى الأرض ندية صلبة، لم تنبت لفقد الهواء، فيحتاج إلى تركها فى أرض متخلخلة يتغلغل الهواء فيها، ثم الهواء لا يتحرك إليها بنفسه، فيحتاج إلى ريح تحرك الهواء، وتصرفه بقهر على الأرض، حتى ينفذ فيها، ثم كل ذلك لا يغنى، فيحتاج إلى حرارة الربيع والصيف، فإنه لو كان فى البرد المفرط لم ينبت.

ثم انظر إلى الماء الذى تحتاج إليه هذه الزراعة كيف خلقه الله تعالى؟ فجّر العيون وأجرى منها الأنهار، ولما كان بعض الأرض مرتفعاً لا يناله الماء، أرسل إليها الغيوم، وسلط عليها الرياح لتسوقها بإذنه إلى أقطار العالم، وهى سُحُب ثقال، ثم يرسله على الأرض مدراراً فى وقت الحاجة.

وانظر كيف خلق الله تعالى الجبال حافظة للماء، تنفجر منها العيون تدريجياً، فلو خرجت دفعة واحدة لغرقت البلاد وهلك الزرع وغيره.

وانظر كيف سخر الشمس وخلقها، مع بُعْدها عن الأرض، مسخنة لها فى وقت دون وقت، ليحصل البرد عند الحاجة إليه، والحر عند الحاجة إليه.

وخلق القمر وجعل من خاصيته الترطيب، كما جعل من خاصية الشمس التسخين فهو ينضج الفواكه بتقدير الحكيم الخبير، وكل كوكب خلق فى السماء، فهو مسخر لنوع فائدة، كما سخرت الشمس والقمر. ولا يخلو كل واحد منها عن حكم كثيرة لا تفى قوة البشر بإحصائها، وكذلك الشمس والقمر فيهما حِكَم أخر غير ما ذكرنا لا تحصى.

ولما كانت كل الأطعمة لا توجد فى كل مكان، سخر الله تعالى عليهم التجار، وسلط عليهم الحرص على جمع المال، مع أنه لا يغنيهم فى غالب الأمر شيء، بل يجمعون الأموال، فإما أن تغرق بها السفن أو تنتهبها قطاع الطرق، أو يموتون فى بعض البلاد، فتأخذها السلاطين. وأحسن أحوالهم أن يأخذها ورثتهم، وهم أشد أعدائهم لو عرفوا. فانظر كيف سلط الله عليهم الأمل والغفلة، حتى يقاسوا الشدائد فى طلب الربح فى ركوب البحار، وركوب الأخطار، فيحملون الأطعمة وأنواع الحوائج من أقصى الشرق والغرب إليك.

فصل فى بيان أسباب التقصير فى شكر النعم

واعلم: أن الخلق لم يقصروا عن شكر النعمة إلا للجهل والغفلة، فإنهم منعوا بذلك عن معرفة النعم، ولا يتصور شكر النعمة إلا بعد معرفتها، ثم إن عرفوا نعمة ظنوا أن الشكر عليها أن يقول أحدهم بلسانه: الحمد لله، والشكر لله، ولم يعرفوا أن معنى الشكر أن تستعمل النعمة فى إتمام الحكمة التى أريدت بها، وهى طاعة الله تعالى.

أما الغفلة عن النعم فلها أسباب:

أحدها: أن الناس لجهلهم لا يعدون ما يعم الخلق فى جميع أحوالهم نعمة، فلذلك لا يشكرون على جملة مما ذكرناه، من النعم، لأنها عامة للخلق، مبذولة لهم فى جميع أحوالهم، فلا يرى واحد منهم اختصاصاً به فلا يعده نعمة، فلا تراهم يشكرون الله على روح الهواء، ولو أخذ بمخنقهم لحظة حتى انقطع الهواء عنهم ماتوا، ولو حبسوا فى بيت حمام أو بئر فيه هواء ثقل برطوبة الماء ماتوا غماً، فإن ابتلى أحدهم بشيء من ذلك ثم نجا، قدر ذلك نعمةً يشكر الله عليها، وهذا غاية الجهل، إذ صار شكرهم موقوفاً على أن تسلب عنهم النعمة، ثم ترد إليهم فى بعض الأحوال، فالنعم فى جميع الأحوال أولى بالشكر، فلا ترى البصير يشكر صحة البصر إلا أن يعمى، فإذا أعيد بصره أحس بالنعمة وشكرها حينئذ وعدها نعمة، وهو مثل عبد السوء يُضْرَب دائماً، فإذا ترك ضربه ساعة، شكر وتقلد ذلك منة، وإن ترك ضربه أصلاً، غلبه البطر وترك الشكر، فصار الناس لا يشكرون إلا على المآل الذى يتطرق الاختصاص إليه من حيث الكثرة والقلة، وينسون جميع نعم الله تعالى عليهم.

• كما روى أن بعضهم شكا فقره إلى بعض أرباب البصيرة، وأظهر شدة اغتمامه بذلك، فقال له: أيسرك أنك أعمى ولك عشرة آلاف درهم؟ قال: لا، قال: أيسرك أنك أخرس ولك عشرة آلاف درهم؟ قال: لا، قال: أيسرك أنك أقطع اليدين والرجلين ولك عشرون

ألفاً؟ قال: لا، قال: أيسرك أنك مجنون ولك عـشرة آلاف؟ قال: لا، قال: أما تستحى أن تشكو مولاك وله عندك عروض بخمسين ألفاً.

• وحكى عن بعض الفـقراء أنه اشتد به الفقـر حتى ضاق به ذرعاً، فرأى فى المـنام كأن قائلاً يقول له: أتود أنا أنسيناك سورة الأنعـام ولك ألف دينار؟ قال: لا. قال: فسورة هود؟ قال: لا، قال: فسورة يوسف؟ قال: لا، قال: فمعك قيمة مائة ألف وأنت تشكو؟ فأصبح وقد سُرى عنه.

• ودخل ابن السماك واعظ العـراق على الرشيد بن المهدى العباسـى فوعظه، فبكى ثم دعا بماء فى قدح فقال: يـا أمير المؤمنين! لو منعت هذه الشربة إلا بالدنيـا وما فيها، أكنت تفديها بـها؟ قال: نعم. قال: فاشرب رياً، بـارك الله فيك. فلما شرب. قـال له: يا أمير المؤمنين، أرأيت لو منعت إخراج هذه الشربة منك إلا بالـدنيا وما فيها، أكنت تفتدى ذلك؟ قال: نعم. قال: فما تصنع بملكٍ شربةُ ماءٍ خير منه!

وهذا يبين أن نعمة الله تعالى على العـبد فى شربة الماء عند العطش أعظم من ملك الأرض كلها، ثم تسهيل خروج الحدث من أعظم النعم، وهذه إشارة وجيزة إلى النعم الخاصة.

واعلم: أن ما من عبـد إلا إذا أمعن النظر رأى من نعـم الله نعماً كثـيرة لا يشاركه فـيها عموم الناس، بل قد يشـاركه فى ذلك يسير منهم، من ذلك العقل، فـما من عبد إلا وهو راضٍ عن الله سبحانه فى عقله، يعتقـد أنه أعقل الناس، وقلما يسأل الله العقل، وإذا كان ذلك اعتقاده، فيجب عليه أن يشكر الله تعالى على ذلك.

ومن ذلك الخُلُق، فإنـه ما من عبد إلا ويرى من غيـره عيوباً يكرهها، وأخلاقـاً يذمها، ويرى نفسه بريئاً منها، فينبغى أن يشكر الله تعالى على ذلك، حيث أحسن خلقه وابتلى غيره.

ومن ذلك أن ما من أحد إلا وهو يعرف من بواطن أمور نفسـه وخفايا أركانها ما هو منفرد به، ولو كشف الغـطاء عنه حتى اطلع عليـه أحد من الخلق لافتضح، فكـيف لو اطلع الناس كافة؟ فلمَ لا يشكر الله سـتر الجميل على مساويه، حيث أظهر الجميل وسـتر القبيح، ولننزل إلى طبقـة أعم من هذا القبيل، فـنقول: ما من عبـد إلا وقد رزقه الله تعالـى فى صورته، أو أخلاقه أو صفـاته، أو أهله، أو ولده، أو مسكنه أو بلده، أو رفيقـه، أو أقاربه، أو جاهه، أو سائر محابه، أموراً، لو سُلب ذلك وأعطى مـا خصص به من ذلك غيره، لكان لا يرضى به، وذلك مثـل أن جعله مـؤمناً لا كافراً، وحـياً لا جمـاداً، وإنساناً لا بهـيمة، وذكـراً لا أنثى، وصحيحاً لا مريضاً، وسليماً لا معيباً، فإن كل هذه خصائص، وإن كان فيها عموم أيضاً.

فإن كان لا يرى أن يبدل حاله بحال غيره، مثل أن لا يعرف شخصاً يرتضى لنفسه حاله بدلاً عن حال نفسه، إما على الجملة، أو فى أمر خاص، فإن لله عليه نعماً ليست له على أحد من عباده سواه، وإن كان يرى أنه يبدل حال نفسه بحال بعضهم دون بعض، فلينظر إلى عدد المغبوطين عنده، فإنه يراهم عنده لا محالة أقل من غيرهم، فيكون من دونه فى الحال أكثر بكثير ممن فوقه، فما باله ينظر إلى من فوقه ولا ينظر إلى مَنْ دونه؟!

وفى «الصحيحين»[1] عن أبى هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إذا نظر أحدكم إلى من فضّل عليه فى المال والخلق، فلينظر إلى مَنْ هو أسفل منه ممن فضّل عليه»، وقد رواه الترمذى بلفظ آخر: «انظروا إلى من هو أسفل منكم، ولا تنظروا إلى من فوقكم، فإنه أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم».

فإذا مَنْ اعتبر حال نفسه، وفتش على ما خُصّ به، وجد لله تعالى عليه نعماً كثيرة، لاسيما من خُصّ بالإيمان، والقرآن، والعلم، والسنة، ثم الفراغ، والصحة والأمن وغير ذلك.

وقد روى فى بعض الأحاديث **«من قرأ القرآن فهو غنى»**. وفى لفظ: **«القرآن غنى لا فقر بعده، ولا غنى دونه»**.[2]

وفى حديث آخر: **«من أصبح آمناً فى سربه، معافى فى بدنه، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها»**.[3]

---

(1) **صحيح**: أخرجه البخارى (٦٤٩٠) الرقاق، ومسلم (٢٩٦٣) الزهد والرقائق، والترمذى (١٧٨٠)، عن أبى هريرة رضي الله عنه. والترمذى (٢٥١٣) عن الأعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة بلفظ: «انظروا.....».

(2) **ضعيف**: ضعفه الألبانى فى الضعيفة (١٥٥٨)، وقال الألبانى: «رواه ابن نصر فى «قيام الليل» (٧٢)، وأبو يعلى (٢/٧٣٨)، والطبرانى (١/ ٦٥/ ٢)، وابن عساكر (١٥/ ٢٥٦/ ٢ و ١٦/ ٢٣٢/ ١) عن شريك عن الأعمش عن يزيد ابن أبان عن الحسن عن أنس مرفوعاً. ومن طريق الطبرانى رواه ابن عبد الهادى فى «هداية الإنسان» (١٣٥/ ٢). ورواه القضاعى فى «مسند الشهاب» (١٨/ ١) من طريق أبى الحسن على عمر البغدادى قال: حدث الأعمش عن يزيد الرقاشى عن أنس مرفوعاً. وقال: «قال الدارقطنى: ورواه أبو معاوية عن الأعمش عن يزيد الرقاشى عن الحسن مرسلاً، وهو أشبه بالصواب». قال الألبانى: وهو ضعيف مرسلاً وموصولاً، لأن مداره على الرقاشى، وهو ضعيف، ومدار الموصول عليه من رواية شريك، وهو ابن عبد الله القاضى، ضعيف.

(3) **حسن**: أخرجه الترمذى (٢٣٤٧) الزهد، وابن ماجه (٤١٤١) الزهد، عن مروان بن معاوية عن عبد الرحمن بن أبى شميلة عن سلمة بن عبيد الله بن محصن الأنصارى عن أبيه عن النبى ﷺ. وقال أبو عيسى: «هذا حديث حسن غريب». وحسنه الألبانى أيضاً فى صحيح الترمذى.

وقال بعضهم:

إذا ما القوتُ يأتي لـ ... ـكَ في الصِّحةِ والأمنْ
وأصْبَحتَ أخا حزنٍ ... فلا فارقَكَ الحزنْ

فإن قيل: فما علاج القلوب الغافلة عن شكر نعم الله تعالى؟

فالجواب: أما القلوب المبصرة، فتتأمل ما رمزنا إليه من أصناف نعم الله عز وجل، وأما القلوب البليدة التى لا تعد النعمة نعمة إلا إذا نزل بها البلاء، فسبيل صاحبها أن ينظر أبداً إلى مَنْ دونه، ويفعل ما كان يفعله بعض القدماء، فإنه كان يحضر دار المرضى ليشاهد أنواع البلاء عليهم، ثم يتأمل صحة نفسه وسلامتها، ويشاهد الفاسقين الذين يُقتلون، وتقطع أيديهم وأرجلهم ويعذبون، فيشكر الله على سلامته من تلك العقوبات، ويحضر المقابر، فيعلم أن أحب الأشياء إلى الموتى أن يردوا إلى الدنيا، ليتدارك من عصا عصيانه، وليزيد فى الطاعة من أطاع، فإن يوم القيامة يوم التغابن، فإذا شاهد المقابر، وعلم أحب الأشياء إليهم، فليصرف بقية عمره فى طاعة الله تعالى وشكره فى الإمهال، بأن يصرف العمر إلى ما خُلق لأجله، وهو التزود للآخرة.

ومما ينبغى أن تعالج به القلوب البعيدة عن الشكر أن يعرف أن النعمة إذا لم تشكر زالت.

كان الفضيل رحمه الله تعالى يقول: عليكم بمداومة الشكر على النعم، فقلَّ نعمة زالت عن قوم فعادت إليهم.

فصل في بيان اجتماع الصبر والشكر على وجه واحد

لعلك تقول: قد ذكرتَ أن لله تعالى فى كل موجود نعمة، وهذا يشير إلى أن البلاء لا وجود له أصلاً، فما معنى الصبر، وإن كان البلاء موجوداً، فما معنى الشكر على البلاء؟ وكيف يجتمع الصبر والشكر؟! فإن الصبر يستدعى ألماً، والشكر يستدعى فرحاً، وهما متضادان.

فاعلم: أن البلاء موجود، كما أن النعمة موجودة، وأنه ليس كل بلاء يؤمر بالصبر عليه، مثل الكفر، فإنه بلاء، ولا معنى للصبر عليه، وكذا المعاصى، إلا أن الكافر لا يعلم أن كفره بلاء، فيكون كمن به علة وهو لا يتألم بها بسبب غشيته، والعاصى يعرف عصيانه، فعليه ترك المعصية، وكل بلاء يقدر الإنسان على دفعه لا يؤمر بالصبر عليه، فلو ترك شرب

الماء مع العطش حتى عظم ألمه، لم يؤمر بالصبر على ذلك، بل يؤمر بإزالة الألم، وإنما يكون الصبر على ألم ليس إلى العبد إزالته، ، فإذن يرجع الصبر فى الدنيا إلى ما ليس ببلاء مطلق، بل يجوز أن يكون نعمة من وجه، فلذلك يتصور أن يجتمع عليه وظيفة الشكر ووظيفة الصبر، فإن الغنى مثلاً يجوز أن يصير سبب هلاك الإنسان، حتى يقصد قتله بسبب ماله، والصحة أيضاً كذلك، فما من نعمة من نعم الدنيا إلا ويجوز أن تصير بلاء، وقد يكون على العبد فى بعض الأمور بلاء وفيه نعمة.

مثال ذلك: جهل الإنسان بأجله، فإنه نعمة عليه، إذ لو عرفه تنغص عليه العيش، وطال بذلك غمُّه، وكذلك جهله بما يضمره بعض الناس له، إذ لو اطلع عليه، لطال ألمه وحقده وحسده واشتغاله بالانتقام، وكذلك جهله بالصفات المذمومة من غيره، إذ لو عرف منه ذلك، أبغضه وآذاه، فكان ذلك وبالاً عليه.

ومن ذلك: إبهام القيامة، وليلة القدر، وساعة الجمعة، وكل ذلك نعمة، لأن الجهل يوفر الدواعى على الطلب والاجتهاد، فهذه وجوه نعم الله تعالى فى الجهل، فكيف فى العلم؟!

وقد قلنا: إن لله سبحانه فى كل موجود نعمة، حتى إن الآلام قد تكون نعمة فى حق المتألم، وقد تكون نقمة فى حق غيره، كألم الكفار فى النار فى الآخرة، فإنه نعمة فى حق أهل الجنة، إذ لو لم يعذب قوم، ما عرف المتنعمون قدر نعيمهم، وإنما يتضاعف فرح أهل الجنة إذا ذكروا ألم أهل النار، ألا ترى أن أهل الدنيا لا يشتد فرحهم بنور الشمس، مع شدة حاجتهم إليها من جهة أنها عامة مبذولة، ولا بالنظر إلى زينة السماء، وهى أحسن من كل بستان، يجتهدون فى عمارته، فلذلك لما عمت لم يشعروا بها، ولم يفرحوا بسببها، فإذا صح قولنا: إن الله تعالى لم يخلق شيئاً إلا وفيه حكمة ونعمة، إما على جميع العباد، أو على بعضهم، ففى خلق الله تعالى البلاء نعمة أيضاً، إما على المبتلى، أو على غيره، فيجتمع على العبد وظيفة الشكر والصبر فى كل حالة لا توصف بأنها بلاء مطلق، ولا نعمة مطلقة، فإن الإنسان قد يفرح بالشىء الواحد من وجه، ويغتم به من وجه، فيكون الصبر من حيث الاغتمام، والشكر من حيث الفرح.

واعلم: أن فى كل فقر، ومرض، وخوف، وبلاء فى الدنيا، خمسة أشياء ينبغى أن يفرح العاقل بها، ويشكر عليها:

أحدها: أن كل مصيبة ومرض يتصور أن يكون عليه أكثر منها، لأن مقدورات الله تعالى لا

تتناهى، فلو أضعفها الله عز وجل وزادها على العبد، فما كان يمنعه؟ فليشكر إذ لم يكن أعظم.

الثانى: أن المصيبة لم تكن فى الدِّين.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ما ابتليت ببلاء إلا كان لله تعالى عليَّ فيه أربع نعم: إذ لم يكن فى دينى، وإذ لم يكن أعظم، وإذ لم أُحرم الرضى به، وإذ أرجو الثواب عليه.

قال رجل لسهل بن عبد الله: دخل اللص بيتى وأخذ متاعي، فقال: اشكر الله تعالى، لو دخل الشيطان قلبك فأفسد إيمانك، ماذا كنت تصنع؟ ومن استحق أن يضربك مائة سوط، فاقتصر على عشرة، فهو مستحق للشكر.

الثالث: أنه ما من عقوبة إلا كان يتصور أن تؤخر إلى الآخرة، ومصائب الدنيا يتسلى عنها فتخف، ومصيبة الآخرة دائمة، وإن لم تدم، فلا سبيل إلى تخفيفها، ومن عجلت عقوبته فى الدنيا لم يعاقب ثانياً، كذا ورد فى الحديث عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم.(1)

وفى «صحيح مسلم»: **«إن كل ما يُصاب به المسلم يكون كفارة له، حتى النكبة ينكبها، والشوكة يشاكها».(2)**

الرابع: أن هذه المصيبة كانت مكتوبة عليه فى أم الكتاب، وكان لابد من وصولها إليه فقد وصلت واستراح منها، فهى نعمة.

الخامس: أن ثوابها أكثر منها، فإن مصائب الدنيا طرق إلى الآخرة، كما يكون المنع من أسباب اللعب نعمة فى حق الصبى، فإنه لو خُلى واللعب، لكان يمنعه ذلك من العلم والأدب، فكان يخسر طول عمره، وكذلك المال والأهل والأقارب والأعضاء حتى العقل الذى هو أعز الأشياء، قد تكون سبباً لهلاكه فى بعض الأحوال، بل الفضل الذى هو أعز الأمور قد يكون سبباً لهلاكه، فالملحدون غداً يتمنون أن لو كانوا مجانين وصبياناً، ولم يتصرفوا بعقولهم فى دين الله تعالى، فما من شىء من هذه الأسباب يوجد من العبد، إلا ويتصور أن يكون له فى ذلك خيرة دينية، فعليه أن يحسن الظن بالله عز وجل، ويقدر الخيرة فيما أصابه ويشكر الله تعالى عليه، فإن حكمة الله تعالى واسعة، وهو أعلم بمصالح العباد منهم، وغداً يشكره العباد على البلاء إذا رأوا ثوابه، كما يشكر الصبى بعد البلوغ أستاذه وأباه على ضربه وتأديبه، إذا رأى ثمرة ما استفاد من التأديب وحسن المعرفة.

---

(1) **صحيح**: أخرجه البخارى (18) الإيمان، ومسلم (1709) الحدود، عن عبادة بن الصامت.

(2) **صحيح**: أخرجه مسلم (2574) عن أبى هريرة.

والبلاء تأديب من الله تعالى، ولطفه بعباده أتم وأوفى من عناية الآباء بالأولاد.

وفى الحديث: «**لا يقضى الله للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له**». (١)

واعلم: أن رأس الخطايا المهلكة حب الدنيا، ورأس أسباب النجاة منها التجافى بالقلب عنها، ومواتاة النعم على وفق المراد من غير امتزاج ببلاء ومصيبة تورث طمأنينة القلب إلى الدنيا والأنس بها، حتى تصير كالجنة فى حقه، فيعظم بلاؤه عند الموت بسبب مفارقته، فإذا كثرت المصائب انزعج القلب عن الدنيا ولم يسكن إليها، فصارت سجناً له، فكانت نجاته منها غاية المراد كخلاص المسجون من السجن فإذن فى البلاء نعيم من هذا الوجه فيجب الفرح به.

وأما التألم فهو ضرورى، وذلك يضاهى فرحك بمن يحجمك أو يسقيك دواء نافعاً شنيعاً بلا أجر، فإنك تتألم وتفرح، فتصبر على الألم، وتشكر على سبب الفرح، فمن عرف هذا، تصور منه أن يشكر على البلاء، ومن لم يعرف هذه النعم فى البلاء لم يتصور منه الشكر، لأن الشكر يتبع معرفة النعمة بالضرورة، ومن لا يؤمن أن ثواب المصيبة أكثر منها لم يُتصور منه الشكر على المصيبة.

وقد روى أن أعرابياً عزى ابن عباس رضي الله عنهما بأبيه فقال:

اصبِرْ نكنْ بكَ صابِرينَ فإنَّما	صَبْرُ الرَّعيةِ عندَ صَبْرِ الراسِ
خيرٌ من العبَّاسِ صبْرُكَ بَعْدَه	واللَّهُ خيرٌ مِنْكَ للعبَّاسِ

فقال ابن عباس رضي الله عنهما: ما عزانى أحد أحسن من تعزيته.

وقد سبق ذكر أنواع البلاء، وثواب الصبر عليها.

فإن قال قائل: الأخبار الواردة فى فضل الصبر تدل على أن البلاء فى الدنيا خير من النعيم، فهل لنا أن نسأل الله عز وجل البلاء؟

فالجواب: أنه لا وجه لذلك، فإن فى الحديث من رواية أنس، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عاد رجلاً من المسلمين قد خَفَتَ فصار مثل الفرخ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**هل كنت تدعو بشىء، أو تسأله إياه**»؟ قال: نعم، كنت أقول:

---

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم (٢٩٩٩) الزهد والرقائق، وأحمد (١٨٤٦٠) عن عبد الرحمن بن أبى ليلى عن صهيب عن النبى صلى الله عليه وسلم.

اللهم ما كنت معاقبي به في الآخرة، فعجله لي في الدنيا، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: **«سبحان الله لا تطيقه ولا تستطيعه، فهلا قلت: اللهم آتنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، وقنا عذاب النار»**.[1]

ومن حديث أنس ﷺ أيضاً، أن رجلاً قال: يا نبي الله، أي الدعاء أفضل؟ قال: **«سل الله العفو والعافية في الدنيا والآخرة»**، ثم أتاه الغد، فقال: يا رسول الله، أي الدعاء أفضل؟ قال: **«سل الله العفو والعافية في الدنيا والآخرة»**، ثم أتاه اليوم الثالث. فقال: **«سل الله العفو والعافية في الدنيا والآخرة، فإن أعطيت العفو والعافية في الدنيا والآخرة فقد أفلحت»**.[2]

وفي «الصحيحين»[3] أنه صلى الله عليه وآله وسلم قال: **«تعوّذوا بالله من جهد البلاء ودرك الشقاء، وسوء القضاء، وشماتة الأعداء»**.

وقال مطرف: لأن أعافى فأشكر، أحب إليَّ من أن ابتلى فأصبر.

فصل في بيان أيهما أفضل الصبر أم الشكر

واختلف الناس: هل الصبر أفضل من الشكر، أو العكس؟ وفي ذلك كلام طويل، ذكره المصنف رحمه لله، وتلخيص القول فيه: أن لكل واحد من الصبر والشكر درجات.

فأقل درجات الصبر، ترك الشكوى مع الكراهة، ووراءها الرضى، وهو مقام وراء الصبر، ووراء ذلك الشكر على البلاء، وهو وراء الرضى.

ودرجات الشكر كثيرة فإن حياء العبد من تتابع نعم الله عليه شكر، ومعرفته بتقصيره عن الشكر شكر، والمعرفة بعظيم حلم الله وستره شكر، والاعتراف بأن النعم ابتداء من الله بغير استحقاق شكر، والعلم بأن الشكر نعمة من نعم الله شكر، وحسن التواضع في النعم والتذلل فيها شكر، وشكر الوسائط شكر، لقوله صلى الله عليه وآله وسلم: **«لا يشكر الله من لا يشكر الناس»**[4]. وقلة الاعتراض وحسن الأدب بين يدي المنعم شكر،

---

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم (٢٦٨٨) الذكر والدعاء، والترمذي (٣٤٨٧) الدعوات، وأحمد (١١٦٣٨)، عن حميد عن ثابت عن أنس.

(٢) **ضعيف**: أخرجه الترمذي (٣٥١٢) الدعوات، وابن ماجه (٣٨٤٨) الدعاء، وأحمد (١١٨٨٢)، من حديث سلمة ابن وردان عن أنس. وقال أبو عيسى: «حديث حسن غريب من هذا الوجه، إنما نعرفه من حديث سلمة بن وردان»، وضعفه الألباني في ضعيف الترمذي.

(٣) **صحيح**: أخرجه البخاري (٦٣٤٧) الدعوات، ومسلم (٢٧٠٧) الذكر والدعاء عن أبي هريرة.

(٤) سبق تخريجه ص (٣١).

وتلقى النعم بحسن القبول واستعظام صغيرها شكر، فما يندرج من الأعمال والأقوال تحت اسم الشكر والصبر لا ينحصر، وهى درجات مختلفة، فكيف يمكن إجمال القول بتفضيل أحدهما على الآخر.

لكن نقول: إذا أضيف الصبر إلى الشكر الذى هو صرف المال إلى الطاعة، فالشكر أفضل، لأنه تضمن الصبر أيضاً، وفيه فرح بنعمة الله عز وجل، وفيه احتمال ألم فى صرفه إلى الفقراء، وترك صرفه إلى التنعم المباح، فهو أفضل من الصبر بهذا الاعتبار.

وأما إذا كان شكر المال ألا يستعين به على معصية، بل يصرفه إلى التنعم المباح، فالصبر هنا أفضل من الشكر، والفقير الصابر أفضل من الممسك ماله الصارف له فى المباحات، لأن الفقير قد جاهد نفسه وأحسن الصبر على بلاء الله تعالى، وجميع ما ورد من تفضيل أجر الصبر على الشكر، إنما أريد به هذه الرتبة على الخصوص، لأن السابق إلى أفهام الناس، من نعمة الأموال، والغنى بها، والسابق إلى الأفهام من الشكر أن يقول الإنسان: الحمد لله. فإذن الصبر الذى يعتمده العامة أفضل من هذا الشكر الذى يفهمونه. ومتى لحظت المعنى الذى ذكرناه، علمت بأن لكل واحد من القولين وجهاً فى بعض الأحوال، فرب فقير صابر أفضل من غنى شاكر كما ذكر، ورب غنى شاكر أفضل من فقير صابر، وذلك هو الغنى الذى يرى نفسه مثل الفقير الذى لا يمسك لنفسه من المال إلا قدر الضرورة، ويصرف الباقى فى الخيرات، أو يمسكه على اعتقاده أنه خازن للمحتاجين، وإنما ينتظر حاجة تسنح حتى يصرف إليها، وإذا صرفه لم يصرفه لطلب جاهٍ ولا تقليد منةٍ، فهذا أفضل من الفقير الصابر، والله سبحانه وتعالى أعلم.

كتاب الرجاء والخوف

اعلم: أن الرجاء والخوف جناحان، بهما يطير المقربون إلى كل مقام محمود ومطيتان بهما يقطع من طريق الآخرة كل عقبة كؤود، ولابد من بيان حقيقتهما وفضيلتهما وسببهما، وما يتعلق بذلك. ونحن نذكرهما فى شطرين:

الأول: فى الرجاء، والثانى: فى الخوف.

الشطر الأول: الرجاء

واعلم: أن الرجاء من جملة مقامات السالكين، وأحوال الطالبين، وإنما يسمى الوصف مقاماً إذا ثبت وأقام، فإن كان عارضاً سريع الزوال سمى حالاً، كما أن الصفرة تنقسم إلى ثابتة، كصفرة الذهب، وإلى سريعة، كصفرة الوجل، وإلى ما بينهما كصفرة المرض، وكذلك صفات القلب تنقسم إلى هذه الأقسام، وإنما سمى غير الثابت حالاً، لأنه يحول عن القلب.

واعلم: أن كل ما يلاقيك من محبوب أو مكروه ينقسم إلى موجود فى الحال، وإلى موجود فيما مضى.

فالأول: يسمى وجداً وذوقاً وإدراكاً.

والثانى: يسمى ذكراً، وإن كان قد خطر ببالك وجود شىء فى الاستقبال، وغلب على قلبك، سمى انتظاراً وتوقعاً، فإن كان المنتظر محبوباً، سمى رجاء، وإن كان مكروهاً، سمى خوفاً.

فالرجاء: هو ارتياح لانتظار ما هو محبوب عنده، ولكن ذلك المتوقع لابد له من سبب حاصل، فإن لم يكن السبب معلوم الوجود ولا معلوم الانتفاء، سمى تمنياً، لأنه انتظار من غير سبب، ولا يطلق اسم الرجاء والخوف إلا على ما يتردد فيه، فأما ما يقطع به فلا، إذ لا يقال: أرجو طلوع الشمس وأخاف غروبها، لأن ذلك مقطوع به عند طلوعها وغروبها، ولكن يقال: أرجو نزول المطر وأخاف انقطاعه.

وقد علم أرباب القلوب أن الدنيا مزرعة الآخرة، والقلب كالأرض، والإيمان كالبذر فيه، والطاعات جارية مجرى تنقية الأرض وتطهيرها، ومجرى حفر الأنهار ومساقى الماء إليها.

وإن القلب المستغرق بالدنيا، كالأرض السبخة التى لا ينمو فيها البذر.

ويوم القيامة هو يوم الحصاد، ولا يحصد أحد إلا ما زرع، ولا ينمو زرع إلا من بذر الإيمان، وقلَّ أن ينفع إيمان مع خبث القلب وسوء أخلاقه، كما لا ينمو البذر فى الأرض السبخة.

فينبغى أن يقاس رجاء العبد المغفرة برجاء صاحب الزرع، فكل من طلب أرضاً طيبة، وألقى فيها بذراً جيداً غير مسوس ولا عفن، ثم ساق إليها الماء فى أوقات الحاجة، ونقَّى الأرض من الشوك والحشيش وما يفسد الزرع، ثم جلس ينتظر من فضل الله تعالى دفع الصواعق والآفات المفسدة، إلى أن يتم الزرع ويبلغ غايته، فهذا يسمى انتظاره رجاء.

فأما إن بذر فى أرض سبخة صلبة مرتفعة لا يصل إليها الماء ولم يتعاهدها أصلاً، ثم انتظر الحصاد، فهذا يسمى انتظاره حمقاً وغروراً، لا رجاء.

وإن بث البذر فى أرض طيبة، ولكن لا ماء لها، وأخذ ينتظر مياه الأمطار، سمى انتظاره تمنياً لا رجاءً.

فإذن اسم الرجاء إنما يصدق على انتظار محبوب تمهدت أسبابه الداخلة تحت اختيار العبد، ولم يبق إلا ما ليس تحت اختياره، وهو فضل الله سبحانه وتعالى، بصرف الموانع المفسدات، فالعبد إذا بث بذر الإيمان، وسقاه ماء الطاعات، وطهر القلب من شوك الأخلاق الرديئة، وانتظر من فضل الله تعالى تثبيته على ذلك إلى الموت، وحسن الخاتمة المفضية إلى المغفرة، كان انتظاره لذلك رجاء محموداً باعثاً على المواظبة على الطاعات والقيام بمقتضى الإيمان إلى الموت، وإن قطع بذر الإيمان عن تعهده بماء الطاعات أو ترك القلب مشحوناً برذائل الأخلاق، وانهمك فى طلب لذات الدنيا، ثم انتظر المغفرة، كان ذلك حمقاً وغروراً. قال الله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ (الأعراف: ١٦٩)، وذم القائل: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ (الكهف: ٣٦).

وروى شداد بن أوس، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**الكيّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله عز وجل الأمانى**»[1].

---

(١) **ضعيف**: أخرجه الترمذى (٢٤٥٩) صفة القيامة، وابن ماجه (٤٢٦٠) الزهد، وأحمد (١٦٦٧٤)، والطبرانى «الكبير» (٧١٤٣)، وأبو نعيم فى «الحلية» (١/ ٢٦٧)، من طريق أبى بكر ابن أبى مريم عن ضمرة بن حبيب عن شداد بن أوس عن النبى ﷺ. وقال أبو عيسى: «هذا حديث حسن». وضعفه الألبانى فى ضعيف الترمذى، وفى إسناده أبو بكر ابن أبى مريم: ضعفه أحمد بن حنبل، ويحيى بن معين، وأخرجه الطبرانى (٧١٤١)، وأبو نعيم (١/ ٢٦٨)، من طريق إبراهيم بن عمرو بن بكر السكسكى، وهو ضعيف متهم بالوضع.

وقال معروف الكرخي رحمه الله: رجاؤك لرحمة مَنْ لا تطيعه خذلان وحمق، ولذلك قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ﴾ (البقرة:٢١٨).

المعنى: أولئك الذين يستحقون أن يرجوا، ولم يرد به تخصيص وجود الرجاء، لأن غيرهم أيضاً قد يرجو ذلك.

واعلم: أن الرجاء محمود، لأنه باعث على العمل، واليأس مذموم، لأنه صارف عن العمل، إذ من عرف أن الأرض سبخة، وأن الماء مغور، وأن البذر لا ينبت، ترك تفقد الأرض، ولم يتعب فى تعاهدها.

وأما الخوف، فليس بضد الرجاء، بل رفيق له، كما سيأتى بيانه إن شاء الله تعالى.

وحال الرجاء يورث طريق المجاهدة بالأعمال، والمواظبة على الطاعات كيفما تقلبت الأحوال، ومن آثاره التلذذ بدوام الإقبال على الله عز وجل، والتنعم بمناجاته، والتلطف فى التملق له، فإن هذه الأحوال لابد أن تظهر على كل من يرجو ملكاً من الملوك، أو شخصاً من الأشخاص، فكيف لا يظهر ذلك فى حق الله سبحانه وتعالى؟ فمتى لم يظهر، استدل به على حرمان مقام الرجاء، فمن رجا أن يكون مراداً بالخير من غير هذه العلامات، فهو مغرور.

فصل فى فضيلة الرجاء

روى فى «الصحيحين»[1] من حديث أبى هريرة رضي الله عنه، عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: **«قال الله عز وجل: أنا عند ظن عبدى بى»** وفى رواية أخرى **«فليظن بي ما شاء»**.

وفى حديث آخر من رواية مسلم: أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال: **«لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله»**.[2]

وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: أحببنى، وأحب من يحبنى، وحببنى إلى خلقى. قال: يا رب، كيف أحببك إلى خلقك؟ قال: اذكرنى بالحسن الجميل، واذكر آلائى وإحسانى.

(١) **صحيح**: أخرجه البخارى (٧٤٠٥) التوحيد، ومسلم (٢٦٧٥) الذكر والدعاء. عن أبى هريرة رضي الله عنه. والرواية الأخرى عند أحمد (١٥٥٨٦)، والدارمى (٢٧٣١)، عن واثلة بن الأسقع.

(٢) **صحيح**: أخرجه مسلم (٢٨٧٧) الجنة وصفة نعيمها، وأبو داود (٣١١٣) الجنائز، وابن ماجه (٤١٦٧) الزهد، وأحمد (١٤٠٧٢)، عن جابر بن عبد الله.

وعن مجاهد رحمه الله قال: يؤمر بالعبد يوم القيامة إلى النار، فيقول: ما كان هذا ظنى فيقول: ما كان ظنك؟ فيقول: أن تغفر لى، فيقول: خلوا سبيله.

فصل فى دواء الرجاء والسبب الذى يحصل به

اعلم: أن دواء الرجاء يحتاج إليه أحد رجلين:

- إما رجل قد غلب عليه اليأس حتى ترك العبادة.
- وإما رجل غلب عليه الخوف حتى أضر بنفسه وأهله.

فأما العاصى المغرور المتمنى على الله مع الإعراض عن العبادة، فلا ينبغى أن يستعمل فى حقه إلا أدوية الخوف، فإن أدوية الرجاء تقلب فى حقه سموماً، كما أن العسل شفاء لمن غلبت عليه البرودة، مضر لمن غلبت عليه الحرارة.

ولهذا يجب أن يكون واعظ الناس متلطفاً، ناظراً إلى مواضع العلل، معالجاً كل علة بما يليق بها، وهذا الزمان لا ينبغى أن يستعمل فيه مع الخلق أسباب الرجاء، بل المبالغة فى التخويف، وإنما يذكر الواعظ فضيلة أسباب الرجاء إذا كان مقصوده استمالة القلوب إليه، لإصلاح المرضى.

وقد قال علىّ رضي الله عنه: إنما العالم الذى لا يقنط الناس من رحمة الله، ولا يؤمنهم مكر الله.

إذا عرفت هذا، فاعلم أن من أسباب الرجاء، ما هو من طريق الاعتبار، ومنها ما هو من طريق الأخبار. أما الاعتبار، فهو أن يتأمل جميع ما ذكرناه من أصناف النعم فى كتاب الشكر، فإذا علم لطائف الله تعالى بعباده فى الدنيا، وعجائب حكمته التى راعاها فى فطرة الإنسان، وأن لطفه الإلهى لم يقصر عن عباده فى دقائق مصالحهم فى الدنيا، ولم يرضَ أن تفوتهم الزيادات فى الرتبة، فكيف يرضى بسياقهم إلى الهلاك المؤبد؟! فإن من لطف فى الدنيا يلطف فى الآخرة، لأن مدبر الدارين واحد.

وأما استقراء الآيات والأخبار، فمن ذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ (الزمر: ٥٣). وقال تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ﴾ (الشورى: ٥).

وأخبر تعالى أنه أعد النار لأعدائه، وإنما خوّف بها أولياءه، فقال: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ﴾ (الزمر: ١٦). وقال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ (آل عمران: ١٣١). وقال: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ (الليل: ١٤-١٦) وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ (الرعد: ٦).

ومن الأخبار ما روى أبو سعيد الخدرى رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: **«إن إبليس قال لربه عز وجل: بعزتك وجلالك، لا أبرح أغوى بنى آدم ما دامت الأرواح فيهم. فقال الله عز وجل: فبعزتى وجلالى، لا أبرح أغفر لهم ما استغفرونى»**.(١)

وعن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: **«والذى نفسى بيده، لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم غيركم يذنبون، فيستغفرون الله فيغفر لهم»** رواه مسلم.(٢)

وفى «الصحيحين» من حديث عائشة رضي الله عنها، أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال: **«سددوا وقاربوا وأبشروا، فإنه لن يُدخل أحداً الجنة عملُه، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله منه برحمته»**.(٣)

وفى «الصحيحين»(٤) من حديث أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه، عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال: **«يقول الله عز وجل يوم القيامة: يا آدم، قم فابعث بعث النار؟ فيقول: لبيك وسعديك والخير فى يديك. يا رب، وما بعث النار؟ قال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين، فحينئذ يشيب المولود:** ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ (الحج: ٢)». فشق ذلك على الناس، حتى تغيرت وجوههم، وقالوا: يا رسول الله! وأينا ذلك الواحد؟ فقال صلى الله عليه وآله وسلم: **«من يأجوج ومأجوج تسعمائة وتسعة وتسعين، ومنكم واحد»**، فقال الناس: الله أكبر. فقال النبى صلى الله عليه وآله وسلم: **«والله إنى لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة. والله إنى لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة، والله إنى**

---

(١) **إسناده صحيح**: أخرجه أحمد (١٠٨٥١)، وأبو يعلى (١٢٧٢)، وعبد بن حميد (٩٣٢)، وقال الهيثمى «المجمع» (١٠/٣٤٥): «رواه أحمد وأبو يعلى بنحوه وقال: «لا أبرح أغوى عبادك» والطبرانى فى «الأوسط» وأحد إسنادى أحمد رجاله رجال الصحيح، وكذلك أحد إسنادى أبى يعلى».

(٢) **صحيح**: أخرجه مسلم (٢٧٤٩) التوبة، وأحمد (٨٠٢١).

(٣) **صحيح**: أخرجه البخارى (٦٤٦٧) الرقاق، ومسلم (٢٨١٨) صفة القيامة.

(٤) **صحيح**: أخرجه البخارى (٣٣٤٨) أحاديث الأنبياء، ومسلم (٢٢٢) الإيمان، وأحمد (١٠٨٩٢).

لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة»، فكبر الناس، فقال: **«ما أنتم يومئذ فى الناس إلا كالشعرة البيضاء فى جلد الثور الأسود، أو كالشعرة السوداء فى جلد الثور الأبيض».**

فانظر كيف جاء بالتخويف، فلما أزعج جاء باللطف، ومتى اطمأنت القلوب إلى الهوى، فينبغى أن تزعج فإذا اشتد قلقها، ينبغى أن تسكن ليعتدل الأمر.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: ليغفرن الله عز وجل يوم القيامة مغفرة لم تخطر على قلب بشر.

وروى أن مجوسياً استضاف إبراهيم الخليل عليه السلام فلم يضفه، وقال: إن أسلمت، أضفتك، فأبى المجوسى وولى فأوحى الله تعالى إليه: يا إبراهيم منذ سبعين سنة أطعمه على كفره فلو أضفته ليلة ماذا كان عليك؟! فسعى إبراهيم عليه السلام خلفه، فرده وأخبره فى الحال، فتعجب من لطف الله تعالى فأسلم.

فهذه الأسباب التى تجتلب بها روح الرجاء إلى قلوب الخائفين واليائسين. فأما الحمقى المغرورون، فلا ينبغى أن يسمعوا شيئاً من ذلك، بل يسمعون ما سنورده فى أسباب الخوف، فإن أكثر الناس لا يصلحون إلا على ذلك، كعبد السوء الذى لا يستقيم إلا بالعصا.

الشطر الثانى من الكتاب فى الخوف وحقيقته وبيان درجاته وغير ذلك

اعلم: أن الخوف عبارة عن تألم القلب واحتراقه بسبب توقع مكروه فى الاستقبال.

مثال ذلك: من جنى على ملك جناية، ثم وقع فى يده، فهو يخاف القتل، ويجوز العفو، ولكن يكون تألم قلبه بحسب قوة علمه بالأسباب المفضية إلى قتله، وتفاحش جنايته، وتأثيرها عند الملك، وبحسب ضعف الأسباب يضعف الخوف. وقد يكون الخوف لا عن سبب جناية، بل عن صفة المخوف وعظمته وجلاله، إذ قد علم أن الله سبحانه، لو أهلك العالمين لم يبال، ولم يمنعه مانع، فبحسب معرفة الإنسان بعيوب نفسه، وبجلال الله تعالى واستغنائه، وأنه لا يسأل عما يفعل، يكون خوفه.

وأخوف الناس أعرفهم بنفسه وبربه، ولذلك قال النبى صلى الله عليه وآله وسلم: **«انا اعرفكم بالله، وأشدكم له خشية»**[1]. وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ (فاطر: ٢٨) وإذا كملت المعرفة، أثرت الخوف، ففاض أثره على القلب، ثم ظهر على الجوارح والصفات بالنحول

---

(١) صحيح: أخرجه البخارى (٦١٠١)، ومسلم (٢٣٥٦) عن عائشة رضي الله عنها.

والاصفرار والبكاء والغشى، وقد يفضى إلى الموت، وقد يصعد إلى الدماغ فيفسد العقل.

وأما ظهور أثره على الجوارح، فبكفها عن المعاصى، وإلزامها الطاعات، تلافياً لما فرط، واستعداداً للمستقبل.

قال بعضهم: «من خاف أدلج»[1]. وقال آخر: ليس الخائف من بكى، إنما الخائف من ترك ما يقدر عليه.

ومن ثمرات الخوف، أنه يقمع الشهوات، ويكدر اللذات، فتصير المعاصى المحبوبة عنده مكروهة، كما يصير العسل مكروهاً عند من يشتهيه إذا علم أن فيه سماً، فتحترق الشهوات بالخوف، وتتأدب الجوارح، ويذل القلب ويستكين، ويفارقه الكبر والحقد والحسد، ويصير مستوعب الهم لخوفه، والنظر فى خطر عاقبته، فلا يتفرغ لغيره، ولا يكون له شغل إلا المراقبة والمحاسبة، والمجاهدة، والضنة بالأنفاس واللحظات، ومؤاخذة النفس فى الخطرات والخطوات والكلمات، ويكون حاله كحال مَنْ وقع فى مخالب سبع ضار، لا يدرى أيغفل عنه فيفلت، أو يهجم عليه فيهلكه، ولا شغل له إلا ما وقع فيه، فقوة المراقبة والمحاسبة بحسب قوة الخوف، وقوة الخوف بحسب قوة المعرفة بجلال الله تعالى، وصفاته، وبعيوب النفس، وما بين يديها من الأخطار والأهوال.

وأقل درجات الخوف مما يظهر أثره فى الأعمال: أن يمنع المحظورات، فإن منع ما يتطرق إليه إمكان التحريم، سمى ورعاً، وإن انضم إليه التجرد والاشتغال بذلك عن فضول العيش، فهو الصدق.

فصل فى بيان الخوف المحمود والمذموم

اعلم: أن الخوف سوط الله تعالى يسوق به عباده إلى المواظبة على العلم والعمل، لينالوا بهما رتبة القرب من الله تعالى.

والخوف، له إفراط، وله اعتدال، وله قصور.

والمحمود من ذلك الاعتدال، وهو بمنزلة السوط للبهيمة، فإن الأصلح للبهيمة أن لا تخلو عن سوط، وليس المبالغة فى الضرب محمودة، ولا المتقاصر عن الخوف أيضاً محموداً، وهو

(١) **صحيح**: أخرجه الترمذى (٢٤٥٠) صفة القيامة، وقال أبو عيسى: «حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث أبى النضر». وصححه الألبانى فى صحيح الترمذى.

كالذى يخطر بالبال عند سماع آية، أو سبب هائل، فيورث البكاء، فإذا غاب ذلك السبب عن الحس، رجع القلب إلى الغفلة، فهو خوف قاصر قليل الجدوى، ضعيف النفع، وهو كالقضيب الضعيف الذى يضرب به دابة قوية فلا يؤلمها ألماً مبرحاً، فلا يسوقها إلى المقصد، ولا يصلح لرياضتها، وهذا هو الغالب على الناس كلهم، إلا العارفين والعلماء، أعنى العلماء بالله وبآياته، وقد عز وجودهم. وأما المرتسمون برسوم العلم، فإنهم أبعد الناس عن الخوف.

وأما القسم الأول، وهو الخوف المفرط، فهو كالذى يقوى ويجاوز حد الاعتدال حتى يخرج إلى اليأس والقنوط، فهو أيضاً مذموم، لأنه يمنع من العمل، وقد يخرج إلى المرض والوله والموت، وليس ذلك محموداً، وكل ما يراد لأمر، فالمحمود منه ما يفضى إلى المراد المقصود منه، وما يقصر عنه أو يجاوزه، فهو مذموم، وفائدة الخوف: الحذر، والورع، والتقوى، والمجاهدة، والفكر، والذكر، والتعبد وسائر الأسباب التى توصل إلى الله تعالى، وكل ذلك يستدعى الحياة، مع صحة البدن وسلامة العقل، فإذا قدح فى ذلك شىء كان مذموماً.

فإن قيل: فما تقول فيمن مات من الخوف؟

فالجواب: أنه ينال لموته على تلك الحال مرتبةً لا ينالها لو مات من غير خوف، إلا أنه لو عاش وترقى إلى درجات المعارف والمعاملة، كان أفضل، فإن أفضل السعادة طول العمر فى طاعة الله تعالى، فكل ما أبطل العمر والعقل والصحة فهو نقصان وخسران.

بيان أقسام الخوف

اعلم: أن مقامات الخائفين تختلف، فمنهم من يغلب على قلبه خوف الموت قبل التوبة، ومنهم مَنْ يغلب عليه خوف الاستدراج بالنعم، أو خوف الميل عن الاستقامة، ومنهم من يغلب عليه خوف سوء الخاتمة. وأعلى من هذا خوف السابقة، لأن الخاتمة فرع السابقة، والله سبحانه وتعالى يرفع من يشاء من غير وسيلة، ويضع من يشاء من غير وسيلة، لا يُسأل عما يفعل.

وقد قال: **«هؤلاء فى الجنة ولا أبالى، وهؤلاء فى النار ولا أبالى»**.[1]

ومن أقسام الخائفين: من يخاف سكرات الموت وشدته، أو سؤال منكر ونكير، أو عذاب القبر. ومنهم من يخاف هيبة الوقوف بين يدى الله تعالى، والخوف من المناقشة، والعبور

---

(١) قال الهيثمى فى «المجمع» (٩٧٧٨): «رواه أحمد ورجاله ثقات».

على الصراط، والخوف من النار وأهوالها، أو حرمان الجنة، أو الحجاب عن الله سبحانه وتعالى، وكل هذه الأسباب مكروهة فى أنفسها، مخوفة. فأعلاها رتبة خوف الحجاب عن الله تعالى، وهو خوف العارفين، وما قبل ذلك خوف الزاهدين والعابدين.

فصل فى فضيلة الخوف والرجاء

وما ينبغى أن يكون الغالب منهما

فضيلة كل شيء بقدر إعانته على طلب السعادة، وهى لقاء الله تعالى، والقرب منه، فكل ما أعان على ذلك فهو فضيلة. قال الله تعالى: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾(الرحمن: ٤٦). وقال تعالى: ﴿ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴾(البينة: ٨).

وفى الحديث عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: **«إذا اقشعر جلد العبد من مخافة الله عز وجل تحاتت عنه ذنوبه، كما يتحات عن الشجرة اليابسة ورقها»**. (١)

وفى حديث آخر: **«لن يغضب الله على من كان فيه مخافة»**. (٢)

وقال النبى صلى الله عليه وآله وسلم: **«قال الله عز وجل: وعزتى وجلالى، لا أجمع على عبدى خوفين، ولا أجمع له أمنين، إن هو أمنني في الدنيا، أخفته يوم أجمع عبادى، وإن هو خافنى في الدنيا، أمنته يوم أجمع عبادى»**. (٣)

---

(١) **ضعيف**: قال الألبانى فى «الضعيفة» (٢٣٤٢): «رواه أبو بكر الشافعى فى «الفوائد» (٣/ ٢٣/ ١) وعنه الخطيب فى «التاريخ» (٤/ ٥٦) والبزار (٣٢٣١)، والواحدى فى «التفسير» (٤/ ١٤/ ١)، عن يحيى الحمانى: نا عبد العزيز ابن محمد عن يزيد بن الهاد عن محمد بن إبراهيم التيمى عن أم كلثوم ابنة العباس عن العباس مرفوعاً». وهذا إسناد ضعيف. وقال: «ثم رأيت الطبرانى قد أخرجه (ق ٤٩/ ١- المنتقى منه)، وكذا البيهقى فى «الشعب» (١/ ٤٩١/ ٨٠٣) من طريق يحيى بن عبد الحميد وضرار بن صرد، قالا: ثنا عبد العزيز بن محمد به». وأشار المنذرى فى «الترغيب» (٤/ ١٢٨، ١٤٠) إلى تضعيف الحديث.

(٢) لم أصل إليه.

(٣) **صحيح**: أخرجه أبو نعيم (٩/ ٩٨) من طريقين عن محمد بن يعلى: ثنا عمر بن صبح عن ثور عن مكحول عن شداد بن أوس أن رسول الله ﷺ قال: فذكره. قال الألبانى: «وهذا إسناد واهٍ بالمرة، عمر بن صبح قال ابن حبان وغيره: «يضع الحديث». وأخرجه عبد الله بن المبارك فى «الزهد» (١٥٧) أخبرنا عوف عن الحسن... فذكره بنحوه، قال الألبانى: «وهذا إسناد صحيح لكنه مرسل، وقد وصله يحيى بن صاعد فى «زوائد الزهد» (١٥٨) من طريق أخرى... وتابعه البزار عن ابن ميمون»، وصححه الألبانى فى «صحيح موارد الظمآن» (٢٤٩٤) عن أبى هريرة موصولاً، وانظر الصحيحة للألبانى (٧٤٢).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «**عينان لا تمسهما النار أبداً: عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس فى سبيل الله**»[١].

واعلم: أن قول القائل: أيما أفضل الخوف، أو الرجاء؟ كقوله: أيما أفضل الخبز أو الماء؟

وجوابه: أن يقال الخبز للجائع أفضل، والماء للعطشان أفضل، فإن اجتمعا، نظر إلى الأغلب، فإن استويا، فهما متساويان، والخوف والرجاء دواءان يداوى بهما القلوب، ففضلهما بحسب الداء الموجود، فإن كان الغالب على القلب الأمن من مكر الله، فالخوف أفضل، وكذلك إن كان الغالب على العبد المعصية، وإن كان الغالب عليه اليأس والقنوط، فالرجاء أفضل. ويجوز أن يقال مطلقاً: الخوف أفضل، كما يقال: الخبز أفضل من السكنجبين لأن الخبز يعالج به مرض الجوع، والسكنجبين يعالج به مرض الصفراء، ومرض الجوع أغلب وأكثر، فالحاجة إلى الخبز أكثر، فهو أفضل بهذا الاعتبار، لأن المعاصى والاغترار من الخلق أغلب.

وإن نظرنا إلى موضع الخوف والرجاء فالرجاء أفضل، لأن الرجاء يستقى من بحر الرحمة، والخوف يستقى من بحر الغضب.

وأما المتقى، فالأفضل عنده اعتدال الخوف والرجاء، ولذلك قيل: لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه، لاعتدلا.

قال بعض السلف: لو نودى: ليدخل الجنة كل الناس إلا رجلاً واحداً، لخشيت أن أكون أنا ذلك الرجل. ولو نودى: ليدخل النار كل الناس إلا رجلاً واحداً، لرجوت أن أكون أنا ذلك الرجل. وهذا ينبغى أن يكون مختصاً بالمؤمن المتقى.

فإن قيل: كيف اعتدال الخوف والرجاء فى قلب المؤمن، وهو على قدم التقوى؟ فينبغى أن يكون رجاؤه أقوى.

فالجواب: إن المؤمن غير متيقن صحة عمله، فمثله مثل من بذر بذراً ولم يجرب جنسه فى أرض غريبة، لم يختبرها، وهى فى بلاد لم يدر أتكثر الصواعق فيها أم لا؟ فمثل هذا الزارع وإن أدى كل مجهوده بكل مقصوده، فلا يغلب رجاؤه على خوفه، والبذر الإيمان،

---

(١) **صحيح**: أخرجه الترمذى (١٦٣٩)، من طريق شعيب بن رُزيق أبو شيبة، قال: حدثنا عطاء الخراسانى، عن عطاء بن أبى رباح، عن ابن عباس عن النبى ﷺ. قال الترمذى: «وفى الباب عن عثمان، وأبى ريحانة. وحديث ابن عباس حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث شعيب بن رزيق». وصحح الألبانى حديث ابن عباس فى صحيح الترمذى.

وشروط صحته دقيقة، والأرض القلب، وخفايا خبثه وصفاته من الشرك الخفى والنفاق والرياء، وخبايا الأخلاق فيه غامضة، والآفات هى الشهوات وزخارف الدنيا والتفات القلب إليها فى مستقبل الزمان، وإن سلم فى الحال، وذلك مما لا يتحقق ولا يعرف بالتجربة، إذ قد يعرض من الأسباب ما لا يطاق مخالفته ولم يجرب مثله، والصواعق أهوال سكرات الموت، وهناك تضطرب العقائد، وكل هذا يوجب الخوف عليه، وكيف لا يخاف المؤمن؟!

وهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يسأل حذيفة رضي الله عنه: هل أنا من المنافقين؟ وإنما خاف أن تلتبس حاله عليه، ويستتر عيبه عنه، فالخوف المحمود هو الذى يبعث على العمل، ويزعج القلب عن الركون إلى الدنيا.

وأما عند نزول الموت، فالأصلح للإنسان الرجاء، لأن الخوف كالسوط الباعث على العمل، وليس ثمة عمل، فلا يستفيد الخائف حينئذ إلا تقطيع نياط قلبه، والرجاء فى هذه الحال يقوى قلبه، ويحبب إليه ربه، فلا ينبغى لأحد أن يفارق الدنيا إلا محباً لله تعالى، محباً للقائه، حسن الظن به.

قال ﷺ: **«لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بربه».**[1]

وقد قال سليمان التيمى عند الموت لمن حضره: حدثنى بالرخص، لعلى ألقى الله وأنا أحسن الظن به.

فصل فى بيان الدواء الذى يستجلب به الخوف

وذلك يحصل بطريقين: أحدهما أعلى من الآخر. مثاله: أن الصبى الصغير إذا كان فى بيت، فدخل عليه سبع، أو حية، ربما لم يخف منه، وربما مد يده إلى الحية ليأخذها يلعب بها، ولكن إذا كان معه أبوه فهرب منها وخافها، هرب الصبى وخاف، موافقةً لأبيه، فخوف الأب عن معرفة، وخوف الولد من غير معرفة، بل هو تقليد لأبيه.

فإذا عرفت هذا، فاعلم أن الخوف من الله تعالى على مقامين:

أحدهما: الخوف من عذابه، وهذا خوف عامة الخلق، وهو حاصل بالإيمان بالجنة والنار، وكونهما جزاءين على الطاعة والمعصية، ويضعف هذا الخوف بسبب ضعف الإيمان، أو قوة الغفلة. وزوال الغفلة يحصل بالتذكر، والتفكر فى عذاب الآخرة، ويزيد بالنظر إلى الخائفين ومجالستهم، أو سماع أخبارهم.

---

(١) سبق تخريجه ص (٢٨٣).

المقام الثاني: الخوف من الله سبحانه وتعالى، وهو خوف العلماء العارفين. قال الله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ (آل عمران: ٣٠).

وصفاته سبحانه تقتضى الهيبة والخوف، فهم يخافون البعد والحجاب عنه.

قال ذو النون: خوف النار عند خوف الفراق، كقطرة فى بحر، ولعامة الناس حظ من هذا الخوف، ولكن بمجرد التقليد، فهو يضاهى خوف الصبى من الحية، تقليداً لأبيه، فلذلك يضعف، فإن العقائد التقليدية ضعيفة فى الغالب، إلا إذا قويت بمشاهدة أسبابها المولدة لها على الدوام، وبالمواظبة على مقتضاها فى تكثير الطاعات، واجتناب المعاصى، فإذا ارتقى العبد إلى معرفة الله تعالى، خافه بالضرورة، ولا يحتاج إلى علاج يجلب الخوف إلى قلبه، بل يخاف بالضرورة.

ومن قصر، فسبيله أن يعالج نفسه بسماع الأخبار والآثار، فيطالع أحوال الخائفين وأقوالهم، وينسب عقولهم ومناصبهم إلى مناصب الراجين المغرورين، فلا يتمارى فى أن الاقتداء بهم أولى، لأنهم الأنبياء والعلماء والأولياء.

وفى «صحيح مسلم»(١) من حديث عائشة رضي الله عنها، قالت: دُعى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى جنازة غلام من الأنصار. فقلت: يا رسول الله، طوبى لهذا، عصفور من عصافير الجنة، لم يدرك الشر ولم يعمله، قال: **«أو غير ذلك يا عائشة؟ إن الله عز وجل خلق للجنة أهلاً، خلقهم لها وهم فى أصلاب آبائهم، وخلق للنار أهلاً، خلقهم لها وهم فى أصلاب آبائهم»**.

ومن أعجب ما ظاهره الرجاء وهو شديد التخويف، قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ (طه:٨٢) فإنه علق المغفرة على أربعة شروط، يبعد تصحيحها.

ومن المخوفات: قوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ (العصر: ١-٢) ثم ذكر بعدها أربعة شروط، بها يقع الخلاص من الخسران. وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ (السجدة: ١٣).

ومعلوم أنه لو كان الأمر مستأنفاً لامتدت الأطماع فى التحيل، فأما ما حقّ فى القدم، فلا يمكن تداركه، فليس إلا التسليم، لولا أن الله تعالى لطف بعارفيه، وروّح قلوبهم بالرجاء، لاحترقت من نار الخوف.

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: ما أمن أحد على إيمانه أن يُسلَبه عند الموت إلا سلبه.

---

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم (٢٦٦٢) القدر، والنسائى (١٩٤٧) الجنائز، وأبو داود (٤٧١٣)، وابن ماجه (٨٢)، وأحمد (٢٥٢١٤).

ولما حضرت سفيان الثورى الوفاة، جعل يبكى، فقال له رجل: يا أبا عبد الله، أراك كثير الذنوب، فرفع شيئاً من الأرض، وقال: والله لذنوبى أهون عندى من هذا، ولكن أخاف أن أسلب الإيمان قبل الموت.

وكان سهل رحمه الله تعالى يقول: المريد يخاف أن يبتلى بالمعاصى، والعارف يخاف أن يبتلى بالكفر.

ويروى أن نبياً من الأنبياء، شكا إلى الله تعالى الجوع والعرى، فأوحى الله عز وجل إليه: عبدى، أما رضيت أن عصمت قلبك أن يكفر بى حتى تسألنى الدنيا؟! فأخذ التراب فوضعه على رأسه، وقال: بلى قد رضيت، فاعصمنى من الكفر. فإذا كان هذا خوف العارفين من سوء الخاتمة مع رسوخ أقدامهم، فكيف لا يخاف ذلك الضعفاء؟!

ولسوء الخاتمة أسباب تتقدم على الموت، مثل البدعة، والنفاق، والكبر، ونحو ذلك من الصفات المذمومة، ولذلك اشتد خوف السلف من النفاق.

قال بعضهم: لو أعلم أنى برىء من النفاق، كان أحب إلىَّ مما طلعت عليه الشمس، ولم يريدوا بذلك نفاق العقائد، إنما أرادوا نفاق الأعمال، كما ورد فى الحديث الصحيح: **«آية المنافق ثلاث: إذا حدَّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان»**(١).

وسوء الخاتمة على رتبتين:

إحداهما أعظم، وهى أن يغلب على القلب والعياذ بالله شك، أو جحود عند سكرات الموت وظهور أهواله، فيقتضى ذلك العذاب الدائم.

والثانية دونها، وهى أن يسخط الأقدار، ويتكلم بالاعتراض، أو يجور فى وصيته، أو يموت مصراً على ذنب من الذنوب.

وقد روى أن الشيطان لا يكون فى حال أشد على ابن آدم من حال الموت، يقول لأعوانه: دونكم هذا، فإنه إن فاتكم اليوم لم تلحقوه.

وقد روى عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم، أنه كان يدعو: **«اللهم إنى أعوذ بك أن يتخبطنى الشيطان عند الموت»**.(٢)

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخارى (٣٣) الإيمان، ومسلم (٥٩) الإيمان، عن أبى هريرة رضي الله عنه.

(٢) **صحيح**: أخرجه النسائى (٥٥٣١)، وأبو داود (١٥٥٢) الصلاة، وأحمد (٨٤٥٣) عن عبد الله بن سعيد، عن صيفى -مولى أبى أيوب، عن أبى اليسر عن النبى ﷺ.

قال الخطابى: وذلك أن يستولى على الإنسان حينئذ، فيضله ويحول بينه وبين التوبة أو يمنعه الخروج من مظلمة، أو يؤيسه من رحمة الله ويكرّه إليه الموت، فلا يرضى بقضاء الله عز وجل.

والأسباب التى تفضى إلى سوء الخاتمة لا يمكن انحصارها على التفصيل، لكن يمكن الإشارة إلى مجامع ذلك:

أما الختم على الشك والجحود، فسببه أمران:

أحدهما: يتصور مع تمام الورع والزهد وتمام الصلاح فى الأعمال، كالمبتدع الزاهد، فإن عاقبته مخطرة جداً. وإن كانت الأعمال صالحة، أعنى بالبدعة. ومعناها أن يعتقد فى ذات الله تعالى، أو صفاته، أو أفعاله خلاف الحق، إما تقليداً، أو برأيه الفاسد، فإذا انكشف الغطاء عند الموت، بان له بطلان ما اعتقده، فيكون انكشاف بعض اعتقاداته عن الجهل سبباً لبطلان بقية اعتقاداته أو لشكوكه فيها، فإن اتفق زهوق روحه فى هذه الحال الخطرة قبل أن يثبت ويعود إلى أصل الإيمان فقد ختم له بالسوء، نعوذ بالله من ذلك.

ومن اعتقد فى الله سبحانه وصفاته اعتقاداً مجملاً على طريقة السلف من غير بحث ولا تنقير، فهو بمعزل عن هذا الخطر إن شاء الله تعالى.

والسبب الثانى: فسببه ضعف الإيمان فى الأصل، وذلك يورث الانهماك فى المعاصى، والمعاصى مطفئة لنور الإيمان، وإذا ضعف الإيمان ضعف حب الله تعالى، فإذا جاءت سكرات الموت، ازداد ذلك ضعفاً، لاستشعاره فراق الدنيا، فإن السبب الذى يفضى إلى مثل هذه الخاتمة، هو حب الدنيا، والركون إليها، مع ضعف الإيمان الموجب لضعف حب الله، فمن وجد فى قلبه حب الله تعالى، أغلب من حب الدنيا، فهو أبعد من هذا الخطر، وكل من مات على محبة الله تعالى، قدم به قدوم العبد المحسن المشتاق إلى مولاه، فلا يخفى ما يلقاه من الفرح والسرور بمجرد القدوم، فضلاً عما يستحقه من الإكرام.

ومن فارقه الروح فى حال، خطر بباله فيها الإنكار على الله سبحانه فى فعله، أو كان مصراً على مخالفته، قدم على الله قدوم من قدم به قهراً، فلا يخفى ما يستحقه من النكال.

فمن أراد طريق السلامة، تزحزح عن أسباب الهلاك، على أن العلم بتقليب القلوب وتغيير الأحوال، يقلقل قلوب الخائفين.

وقد ورد فى «الصحيحين»[1] من حديث سهل بن سعد، أن رسول الله صلى الله عليه

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخارى (٤٢٠٧) أحاديث الأنبياء، ومسلم (١١٢) الإيمان، عن سهل بن سعد.

وآله وسلم قال: «**إن الرجل ليعمل بعمل أهل النار، وإنه لمن أهل الجنة، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة وإنه لمن أهل النار**».

وروى: إن العبد إذا عرج بروحه إلى السماء، قالت الملائكة: سبحان الله! نجا هذا العبد من الشيطان: يا ويحه! كيف نجا؟![1]

وإذا عرفت معنى سوء الخاتمة، فاحذر أسبابها، وأعد ما يصلح لها، وإياك والتسويف بالاستعداد، فإن العمر قصير، وكل نفس من أنفاسك بمنزلة خاتمتك، لأنه يمكن أن تخطف فيه روحك، والإنسان يموت على ما عاش عليه، ويحشر على ما مات عليه.

واعلم: أنه لا يتيسر لك الاستعداد بما يصلح، إلا أن تقنع بما يقيمك، وترفض طلب الفضول، وسنورد عليك من أخبار الخائفين ما نرجو أن يزيل بعض القساوة من قلبك، فإنك متحقق أن الأنبياء والأولياء كانوا أعقل منك، فتفكر فى اشتداد خوفهم، لعلك تستعد لنفسك.

ذكر خوف الملائكة عليهم السلام

قال الله تعالى فى صفتهم: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ (النحل: ٥٠).

وقد روينا عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «**إن لله ملائكة ترعد فرائصهم من مخافته**»[2]. وذكر تمام الحديث.

وبلغنا أن من حملة العرش من تسيل عيناه مثل الأنهار، فإذا رفع رأسه قال: سبحانك ما تخشى حق خشيتك، فيقول الله: لكن الذين يحلفون باسمى كاذبين لا يعلمون ذلك.

وعن جابر ﷺ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**لما كان ليلة أسرى بى، رأيت جبريل عليه السلام كالشن البالى من خشية الله تعالى**».

وبلغنا أن جبريل عليه السلام جاء إلى النبى صلى الله عليه وآله وسلم وهو يبكى فقال له: «**ما يبكيك**». قال: «**ما جفت لى عين منذ خلق الله جهنم مخافة أن أعصيه، فيلقينى فيها**».

---

(١) لم أصل إليه.

(٢) إسناده ضعيف: قال الأرناؤوط فى تخريج (م/منهاج القاصدين) ص (٣٣٤): «أخرجه أبو الشيخ فى «العظمة» (٥١٧)، والبيهقى فى «الشعب» (٩١٤)، وفى «كتاب الرؤية» (٢/١٩٩)، والخطيب فى «تاريخه» (١٢/٣٠٧) من حديث عباد بن منصور، قال: سمعت عدى بن أرطاة قال: سمعت رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ عن النبى ﷺ، وإسناده ضعيف».

وعن يزيد الرقاشى قال: إن لله تعالى ملائكة حول العرش تجرى أعينهم مثل الأنهار إلى يوم القيامة، يميدون كأنما تنفضهم الريح من خشية الله تعالى، فيقول لهم الرب عز وجل: يا ملائكتى ما الذى يخيفكم وأنتم عندى؟ فيقولون: يا رب! لو أن أهل الأرض اطلعوا من عزتك وعظمتك على ما اطلعنا عليه، ما أساغوا طعاماً ولا شراباً، ولا انبسطوا فى فرشهم، ولخرجوا إلى الصحارى يخورون كما تخور البقر.

وقال محمد بن المنكدر: لما خُلقت النار، طارت أفئدة الملائكة من أماكنها، فلما خلق آدم عادت.

وروى أنه لما ظهر من إبليس ما ظهر، طفق جبريل وميكائيل يبكيان، فأوحى الله تعالى إليهما: «ما هذا البكاء؟ قالا: يا رب! ما نأمن من مكرك. فقال تعالى: هكذا فكونا».

ذكر خوف الأنبياء عليهم الصلاة والسلام

قال وهب بن منبه: بكى آدم عليه السلام على الجنة ثلاثمائة عام، وما رفع رأسه إلى السماء بعد ما أصاب الخطيئة.

وقال وهيب بن الورد: لما عاتب الله تعالى نوحاً عليه السلام فى ابنه فقال: ﴿إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (هود:٤٦) بكى ثلاثمائة عام حتى صار تحت عينيه أمثال الجداول من البكاء.

وقال أبو الدرداء ﷺ: كان يُسمَع لصدر إبراهيم عليه السلام إذا قام إلى الصلاة أزيز من بُعد خوفاً من الله عز وجل.

وقال مجاهد: لما أصاب داود عليه السلام الخطيئة، خر لله ساجداً أربعين يوماً حتى نبت من دموع عينيه من البقل ما غطى رأسه، ثم نادى: يا رب، قرح الجبين، وجمدت العين، وداود لم يرجع إليه فى خطيئته شىء، فنودى: أجائع أنت فتطعم؟ أم مريض فتشفى؟ أم مظلوم فتنصر، فنُحِب نحيباً هاج كل شىء نبت، فعند ذلك غفر له.

وقيل: كان داود عليه السلام يعوده الناس يظنون أنه مريض، وما به إلا شدة الفرق من الله عز وجل.

وكان عيسى عليه السلام إذا ذكر الموت يقطر جلده دماً.

وبكى يحيى بن زكريا عليهما السلام حتى بدت أضراسه، فاتخذت له أمه قطعتين من لباد فألصقتهما بخديه.

ذكر خوف نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم

عن عائشة رضي الله عنها قالت: ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قط مستجمعاً ضاحكاً حتى أرى لهواته، إنما كان يتبسم، وكان إذا رأى غيماً وريحاً عُرف ذلك فى وجهه، فقلت: يا رسول الله، الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر، وأراك إذا رأيته عُرفت الكراهة فى وجهك! فقال: **«يا عائشة، ما يؤمننى أن يكون فيه عذاب؟ قد عُذّب قوم بالريح، وقد رأى قوم العذاب فقالوا: هذا عارض ممطرنا»** أخرجاه فى «الصحيحين»[(١)].

وكان صلى الله عليه وآله وسلم يصلى ولجوفه أزيز كأزيز المرجل من البكاء[(٢)].

ذكر خوف أصحابه رضي الله عنهم

روينا عن أبى بكر الصديق رضي الله عنه أنه كان يمسك لسانه ويقول: هذا الذى أوردنى الموارد[(٣)]. وقال: يا ليتنى كنت شجرة تعضد ثم تؤكل. وكذلك قال طلحة وأبو الدرداء وأبو ذر رضي الله عنهم[(٤)].

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يسمع آية فيمرض فيعاد أياماً. وأخذ يوماً تبنة من الأرض فقال: يا ليتنى كنت هذه التبنة، يا ليتنى لم أكُ شيئاً مذكوراً، يا ليت أمى لم تلدنى. وكان فى وجهه خطان أسودان من البكاء[(٥)].

وقال عثمان رضي الله عنه: وددت أنى إذا مت لا أبعث.

وقال أبو عبيدة ابن الجراح رضي الله عنه: وددت أنى كنت كبشاً فذبحنى أهلى، فأكلوا لحمى، وحسوا مرقى.

وقال عمران بن حصين: يا ليتنى كنت رماداً تذروه الرياح.

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخارى (٤٨٢٩) تفسير القرآن، ومسلم (٨٩٩) صلاة الاستسقاء.

(٢) **صحيح**: أخرجه النسائى (١٢١٤) السهو، وأبو داود (٩٠٤)، وأحمد (١٥٨٧٧)، عن ثابت عن مطرف، عن أبيه، عن النبى ﷺ وصححه الألبانى فى صحيح أبى داود.

(٣) **صحيح**: صححه الألبانى فى المشكاة، وصحيح الترغيب والترهيب (٢٨٧٣)، وقال المنذرى: «رواه مالك وابن أبى الدنيا والبيهقى».

(٤) **حسن**: أخرجه ابن ماجه (٤١٩٠)، والترمذى (٢٣١٢)، من حديث أبى ذر. وقال الألبانى: «حسن دون قوله: (لوددت...) فإنه مدرج من كلام أبى ذر».

(٥) انظر حلية الأولياء (١/ ٥١).

وقال حذيفة رضي الله عنه: وددت أن لى إنساناً يكون فى مالى، ثم أغلق علىّ بابى، فلا يدخل علىَّ أحد حتى ألحق بالله عز وجل.

وكانت تجرى الدموع فى خد ابن عباس رضي الله عنه كالشراك البالى.

وقالت عائشة رضي الله عنها: يا ليتنى كنت نسياً منسياً.

وقال علىّ رضي الله عنه: والله لقد رأيت أصحاب محمـد صلى الله عليه وآله وسلم، فما أرى اليوم شيئاً يشبههم. لقد كانوا يصبحون شعثاً غبراً، بين أعينهم أمثال ركب المعزى، قد باتوا لله سجداً وقياماً، يـتلون كتاب الله تعالى، يراوحون بين جباههم وأقـدامهم، فإذا أصبحوا فذكروا اللـه عز وجل، مادوا كما يـميد الشجر فى يـوم الريح، وهملت أعينهـم حتى تبل ثيابهم، والله لكأن القوم باتوا غافلين.

ذكر خوف التابعين ومن بعدهم

قال هرم بن حـيان: وددت والله أنى شجـرة أكلتنى ناقة، ثـم قذفتنى بعـراً، ولم أكابد الحساب يوم القيامة، إنى أخاف الداهية الكبرى.

وكان علىّ بن الحسين إذا توضأ اصفرّ وتغيـر، فيقال: ما لك؟ فيقول: أتدرون بين يدى من أريد أن أقوم؟ وكان محمد بن واسع يبكى عامة الليل لا يكاد يفتر.

وكان عمـر بن عبد العزيـز الخليفة الأموى رضي الله عنه إذا ذكـر الموت انتفض انتفـاض الطير، ويبكى حتى تجرى دموعـه على خديه. وبكى عمر ليلة فبكى أهـل الدار، فلما تجلت عنهم العبرة قالت زوجتـه فاطمة بنت عبد الملك بن مروان -أحد خلفـاء الأمويين بدمشق-: بأبى أنت وأمى يا أمير المؤمنين مم بكيت؟ قال: ذكـرت منصرف القوم من بين يدى الله تعالى: فريق فى الجنة، وفريق فى السعير. ثم صرخ وغُشى عليه.

ولما أراد أبو جعفر المنصور الخليفة العباسى -وهو الثانى منهم- بيت المقدس، نزل براهب كان ينزل به عمر بن عـبد العزيز فقال له: أخبرنى بأعجب مـا رأيت من عمر. فقال: بات ليلةً على سطح غرفتى هذه وهو من رخام، فإذا أنا بماء يقطر من الميزاب، فصعدت فإذا هو ساجد، وإذا دموع عينيه تنحدر من الميزاب.

وأخبار عمر بن عبد العزيز كثيرة رضي الله عنه.

وقد روينا عن عمر بن عبد العزيز وفتح الموصلى أنهما بكيا الدم.

وقال إبراهيم بن عيسى اليشكرى: دخلت على رجل بالبحرين قد اعتزل الناس وتفرغ لنفسه، فذاكرته شيئاً من أمر الآخرة، وذكر الموت. قال: فجعل يشهق حتى خرجت روحه.

وقال مسمع: شهدت عبد الواحد بن زيد وهو يعظ، فمات يومئذ فى ذلك المجلس أربعة أنفس.

وكان يزيد بن مرثد يبكى كثيراً، ويقول: والله لو تواعدنى ربى أن يسجننى فى الحمام، لكان حقى أن لا أفتر من البكاء، فكيف وقد تواعدنى أن يسجننى فى النار إن عصيته؟!

وقال السرى السقطى: إنى لأنظر كل يوم إلى أنفى مخافة أن يكون قد اسود وجهى.

فهذه مخاوف الملائكة والأنبياء والعلماء والأولياء، ونحن أجدر بالخوف منهم، ولكن ليس الخوف بكثرة الذنوب، ولكن بصفاء القلوب وكمال المعرفة، وإنما أمنا لغلبة جهلنا وقوة قساوتنا، فالقلب الصافى تحركه أدنى مخافة، والقلب الجامد يحرك ينبوعه كل المواعظ.

قال بعض السلف: قلت لراهب: أوصنى، فقال: إن استطعت أن تكون بمنزلة رجل قد احتوشته السباع والهوام، فهو خائف حذر يخاف أن يغفل فيفترسنه، أو يسهو فينهشنه، فهو مذعور فافعل. قلت: زدنى. فقال: الظمآن يجزيه من الماء أيسره.

وما ذكره هذا الراهب من تقدير شخص احتوشته السباع والهوام، فهو حقيقة فى حق المؤمن، فإن من نظر إلى باطنه بنور بصيرته، رآه مشحوناً بالسباع والهوام: كالغضب، والحقد، والحسد، والكبر، والعجب، والرياء، وغير ذلك، وكلهن ينهشنه ويفترسنه إن سها عنهن، إلا أنه محجوب عن مشاهدتها، فإذا انكشف الغطاء ووضع فى القبر، عاينها متمثلة حيات وعقارب يلدغنه، وإنما هى صفاته الحاضرة الآن، فمن أراد أن يقهرها قبل الموت ويقتلها فليفعل، وإلا فليوطن نفسه على لدغها لصميم قلبه، فضلاً عن ظاهر بشرته والسلام.

آخر كتاب الخوف.

كتاب الزهد والفقر

اعلم: أن حب الدنيا رأس كل خطيئة، وبغضها أساس كل طاعة، وقد سبق ذم الدنيا فى ربع المهلكات، ونحن نذكر الآن فضل البغض لها والزهد فيها، فإنه رأس المنجيات. ومقاطعتها إما أن تكون بانزوائها عن العبد ويسمى ذلك فقراً، وإما بانزواء العبد عنها، ويسمى ذلك زهداً، ولكل واحد منهما درجة فى نيل السعادة، وحظ فى الإعانة على الفوز والنجاة. ونحن نذكر الفقر، والزهد، ودرجاتهما، وأقسامهما، وما يتعلق بهما فى شطرين.

الشطر الأول من الكتاب فى الفقر

اعلم: أن الفقير إلى الشىء هو المحتاج إليه، وكل موجود سوى الله تعالى فهو فقير، لأنه محتاج إلى دوام الوجود، وذلك مستفاد من فضل الله تعالى.

وأما فقر العبد بالإضافة إلى أصناف حاجاته فلا ينحصر، ومن جملة حاجاته ما يتوصل إليه بالمال، ثم يتصور أن يكون له خمسة أحوال عند فقره:

الأولى: أن يكون بحيث لو أتاه المال لكرهه وتأذى به، وهرب من أخذه بغضاً له، واحترازاً من شره وشغله، وصاحب هذه الحالة يسمى زاهداً.

الحالة الثانية: أن يكون بحيث لا يرغب فيه رغبةً يفرح بحصوله، ولا يكرهه كراهةً يتأذى بها، وصاحب هذه الحالة يسمى راضياً.

الثالثة: أن يكون وجود المال أحب إليه من عدمه لرغبة له فيه، ولكن لم يبلغ من رغبته أن ينهض لطلبه، بل إن أتاه عفواً أو صفواً أخذه وفرح به، وإن افتقر إلى طلب وتعب فى طلبه لم يشتغل به. وصاحب هذه الحالة يسمى قانعاً.

الرابعة: أن يكون تركه للطلب لعجزه، وإلا فهو راغب فيه، لو وجد سبيلاً إلى طلبه بالتعب لطلبه، وصاحب هذه الحالة يسمى الحريص.

الخامسة: أن يكون ما فقده من المال مضطراً إلى ما قصده من المال، كالجائع، والعارى الفاقد للمأكول والملبوس. ويسمى صاحب هذه الحالة مضطراً. كيفما كانت رغبته فى الطلب ضعيفة أو قوية.

وأعلى هذه الخمسة: الحالة الأولى، وهى الزهد، ووراءها حالة أخرى أعلى منها، وهى أن يستوى عنده وجود المال وعدمه، فإن وجده لم يفرح به، ولم يتأذ إن فقده، كما روينا

عن عائشة رضي الله عنها أنهـا جاءها مال فى غرارتين، ففرقتـه فى يومها، فقالت لها جـاريتها: أما استطعت أن تشترى لنا مما قسمت لحماً بدرهم نفطر عليه؟ فقالت: لو ذكرتينى لفعلت.(١)

فمن هذه حـاله لو كانت الدنـيا بحذافيـرها فى يده لم تضره، إذ هـو يرى الأموال فى خزانة الله تعالى، لا فى يد نفسه.

وينبغى أن يسمى صاحب هذه الحالة المستغـنى، لأنه غنى عن فقد المال ووجوده جميعاً، ومتى كان الزاهد فى الدنيا لا يرغب فى وجودها، ولا عدمها، فهو فى غاية الكمال.

قال أحمد بن أبى الحـوارى لأبى سليمان الدارانى: قال مالك بن دينار لـلمغيرة: اذهب إلى البيت فخذ الزكاة التى أهديتها لى، فإن الشيطان يوسوس لى أن اللص قد أخذها، فقال أبو سليمان: هذا من ضعف الزهد، هو قد زهد فى الـدنيا ما عليه من أخذها. فالهرب من المال والزهد فـيه فى حق الضعـفاء كمال، فـأما فى حق الأنبيـاء والأقوياء، فسواء عـليهم وجوده وعدمه. وقد يظهر القوى النفار من المال ليقتدى به الضعفاء فى الترك، والله أعلم.

فصل فى فضيلة الفقر وتفضيل الفقر على الغنى

أما الآيات فقد قال الله تعالـى فى معرض المدح فى حق الفقراء: ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾(البقرة: ٢٧٣). وقال: ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ ﴾. الآية (الحشر: ٨).

وأما الأخبار فكثيرة، منها: قوله صلى الله عليه وآله وسلم: **«قمت على باب الجنة فإذا عامة من يدخلها الفقراء، إلا أن أصحاب الجد محبوسون»** وذكر تمام الحديث. وهو فى «الصحيحين».(٢)

وفيهما من حديث أبى هريرة رضي الله عنه أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال: **«اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً»**(٣).

وفيهما من حـديث عائشة رضي الله عنها قالت: **«ما شبع آل محمد منذ قدم المدينة من طعام البر ثلاث ليالٍ تباعاً حتى قبض»**.(٤)

---

(١) **ضعيف جداً**: ضعفه الألبانى فى «ضعيف الترغيب والترهيب» (١٨٧٨) بقوله: «ضعيف جداً».

(٢) **صحيح**: أخرجه البخارى (٥١٩٦) النكاح، ومسلم (٢٧٣٦) الذكـر والدعاء، عن أبى عثمان عن أسامة بن زيد عن النبى ﷺ.

(٣) **صحيح**: أخرجه البخارى (٦٤٦٠) الرقاق، ومسلم (١٠٥٥) الزكاة.

(٤) **صحيح**: أخرجه البخارى (٥٤١٦) الأطعمة، ومسلم (٢٩٧٠) الزهد والرقائق.

وفى أفراد مسلم[1] من حديث عمر رضي الله عنه قال: لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يظل اليوم يلتوى ما يجد دقلاً يملأ بطنه.

وروى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «**يدخل فقراء المؤمنين الجنة قبل أغنيائهم بخمسمائة عام**» وقال الترمذى: حديث صحيح.[2]

وقال صلى الله عليه وآله وسلم لعائشة رضي الله عنها: «**إياك ومجالسة الأغنياء**».[3]

وقال: «**يؤتى بالعبد يوم القيامة فيعتذر الله عز وجل إليه كما يعتذر الرجل إلى الرجل فى الدنيا، فيقول: وعزتى وجلالى ما زويت الدنيا عنك لهوانك علىَّ، ولكن لما أعددت لك من الكرامة. اخرج يا عبدى إلى هذه الصفوف، فمن أطعمك أو كساك يريد بذلك وجهى، فخذ بيده فهو لك**».[4]

وقيل لموسى عليه السلام: إذا رأيت الفقر مقبلاً، فقل: مرحباً بشعار الصالحين، وإذا رأيت الغنى مقبلاً فقل: ذنب عجلت عقوبته.

وقال أبو الدرداء: حساب ذى الدرهمين أشد حساباً من ذى الدرهم. وكان الفقراء يتقدمون فى مجلس سفيان الثورى على الأغنياء.

وجاء رجل إلى إبراهيم بن أدهم بعشرة آلاف درهم فلم يقبلها، وقال: تريد أن تمحو اسمى من ديوان الفقراء؟! لا أفعل.

وقال النبى صلى الله عليه وآله وسلم: «**طوبى لمن هدى إلى الإسلام وكان عيشه كفافاً، وقنع بما آتاه الله عز وجل**».[5]

---

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم (٢٩٧٨) الزهد والرقائق، وأحمد (٣٥٥).

(٢) **حسن صحيح**: أخرجه الترمذى (٢٣٥٤)، وابن ماجه (٤١٢٢)، وقال الترمذى: «حسن صحيح»، والألبانى أيضاً فى صحيح الترمذى.

(٣) **ضعيف جداً**: أخرجه الترمذى (١٧٨٠)، من طريق صالح بن حسان، عن عروة عن عائشة عن النبى ﷺ. وقال أبو عيسى: «هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث صالح بن حسان، وسمعت محمداً -البخارى- يقول: صالح بن حسان منكر الحديث، وصالح بن أبى حسان الذى روى عنه ابن أبى ذئب ثقة». وضعفه الألبانى بقوله: «ضعيف جداً»، وانظر الضعيفة (١٢٩٤).

(٤) انظر «اتحاف السادة المتقين» (٩/ ٢٧٨).

(٥) **صحيح**: أخرجه الترمذى (٢٣٤٩)، والحاكم (١/ ٤٩)، وقال أبو عيسى: «حديث حسن صحيح»، وقال الحاكم: «صحيح على شرط مسلم»، وصححه الألبانى أيضاً عن فضالة بن عبيد عن النبى ﷺ. وانظر الصحيحة (١٥٠٦).

وقد ذكرنا فى القـناعة وذم الحرص والطمع فى كتاب ذم المال مـا يغنى عن الإعادة، ولا يقدر على ذلك إلا بعد قوة الصبر.

وأما التفضيل بين الغنى والفقير، فظاهـر النقل يدل على تفضيل الفقير، ولكن لابد من تفصيل، فنقول: إنما يتصور الشك والخلاف فى فقير صابر ليس بحريص بالإضافة إلى غنى شاكر ينفق ماله فى الخيرات، أو فقير حريص مع غنى حريص، إذ لا يخفى أن الفقير القانع أفضـل من الغنى الحـريص الممسـك، وأن الغنى المنفـق ماله فى الخـير أفضـل من الفقـير الحريص، فإن كان الغني متمتعاً بالمال فى المباحات، فالفقير القانع أفضل منه.

وكشف الغطاء فى هذا أن ما يُراد لغيره، ولا يراد لعينه، ينبغى أن يضاف إلى مقصوده، إذ به يظهر فضله، والدنيا ليست محذورة لعينـها، بل لكونها عائقة عن الوصول إلى الله تعالى، والفقر ليس مطلوباً لعينه، ولكن لأن فيه فقد العائق عن الله تعالى وعدم التشاغل عنه.

وكم من غنى لا يشغله الغنى عن ذكر الله تعالى، كسليمان عليه السلام، وكذلك عثمان ابن عفان وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهما. وكم من فقير شغله فقره عن المقصود، وصرفه عن حب الله تعـالى، والأنس به، وإنما الشـاغل له حب الدنيا، إذ لا يـجتمع معـه حب الله تعالى، فـإن المحب للشيء مشغول به، سـواء كان فى فراقه، أو فى وصالـه، بل قد يكون شغله فـى الفراق أكثر. وربما يـكون شغله فى الوصـال أكثر، والدنيا مـعشوقة الغـافلين، فالمحروم منها مشغول بطلبها، والقادر عليها مشغول بحفظها والتمتع بها. وإن أخذت الأمر باعتبار الأكثر، فالفقير عن الخطر أبعد، لأن فتنة السراء أشد من فتنة الضراء، ومن العصمة أن لا تجد، ولما كـان ذلك طبع الآدمـيين إلا القليـل منهم، جاء الـشرع بذم الغنـى وفضل الفقر. وقد تقدم ما يدل على فضله.

ومن ذلك ما روى عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله سلم: **«التقى مؤمنان على باب الجنة: مؤمن غنى، ومؤمن فقير، كانا فى الدنيا، فأدخل الفقير الجنة، وحبس الغنى ما شاء الله تعالى أن يحبس، ثم أدخل الجنة، فلقيه الفقير، فقال: أى أخى، ماذا حبسك؟ والله لقد احتبستَ حتى خفت عليك، فقال: اى أخى، حبست بعدك محبساً فظيعاً كريهاً، وما وصلت إليك حتى سال منى العرق ما لو ورده ألف بعير كلها آكلة حمض، لصدرت عنه رواء»**. [1]

---

(١) ضعيف: أخرجه أحمد (٢٧٦٦)، قال: حـدثنا حسين حدثنا دُويدٌ عن سلم بن بشير عـن عكرمة عن ابن عباس عن النبى ﷺ. ودُويدٌ هذا مجهول. وضعفه الألبانى فى «ضعيف الترغيب والترهيب» (١٨٥٢).

واعلم: أن فراق المحبوب شديد، فإذا أحببت الدنيا، كرهت لقاء الله تعالى، فيكون قدومك بالموت على ما تكرهه، وفراقك لما تحبه، وكل مَنْ فارق محبوباً كان أذاه فى فراقه بقدر حبه له وأنسه به، فينبغى أن تحب مَنْ لا يفارقك، وهو الله تعالى، ولا تحب الدنيا التى تفارقك.

فصل فى آداب الفقير فى فقره

- ينبغى له أن لا يكون كارهاً لما ابتلاه الله به من الفقر. وأرفع من هذا أن يكون راضياً فرحاً.

ويكون متوكلاً فى باطنه على الله سبحانه، واثقاً به ومتى عكس الحال، وكان يشكو إلى الخلق، ولا يشكو إلى الله تعالى، كان الفقر عقوبة فى حقه، فلا ينبغى له إظهار الشكوى، بل يظهر التعفف والتجمل. قال الله تعالى: ﴿ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ ﴾ (البقرة: ٢٧٣).

- وينبغى للفقير أن لا يتواضع لغنى لأجل غناه، ولا يرغب فى مجالسته.

- وينبغى له أيضاً أن لا يفتر عن العبادة بسبب فقره، ولا يمنع بذل ما فضل عنه، فإن ذلك جهد المقل. روى أبو ذر رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، أى الصدقة أفضل؟ قال: «جهد من مقل إلى فقير فى السر». (١)

بيان آداب الفقير فى قبول العطاء إذا جاءه بغير سؤال

ينبغى له أن يلاحظ فيما جاءه ثلاثة أمور: نفس المال، وغرض المعطى، وغرضه فى الأخذ.

الأول: أما فى نفس المال، فينبغى أن يكون خالياً عن الشبهات كلها، فإن كان فيه شبهة فليحترز عن أخذه.

وقد تقدم فى كتاب الحلال والحرام درجات الشبهة، وما يجب اجتنابه، وما يستحب.

وأما غرض المعطى، فلا يخلو، إما أن يكون طلباً للمحبة، وهو الهدية، فلا بأس بقبولها إذا لم تكن رشوة ولم يكن فيها منة.

---

(١) **صحيح**: أخرجه أحمد (٢١٠٣٦) قال: حدثنا وكيع، حدثنا المسعودى، أنبأنى أبو عمر الدمشقى عن عبيد بن الخشخاش عن أبى ذر عن النبى ﷺ. وأبو عمر الدمشقى قال فيه الدارقطنى: «متروك»، وقال الذهبى: «واه». وعبيد بن الخشخاش وثقه ابن حبان وضعفه الدارقطنى. ولفظ: «جهد المقل»: صحيح، وانظر «الإيمان» تخريج الألبانى.

الثانى: أن يكون غرض المعطى الثواب، وهو الزكاة والصدقة، فعليه أن ينظر فى صفات نفسه، هل هو مستحق أم لا؟ فإن اشتبه عليه فهو محل شبهة، وإن كان صدقة، فكان المعطى إنما يعطيه لدينه، فلينظر إلى باطنه، فإن كان مقارناً لمعصية فى السر، يعلم أن المعطى لو علم بذلك، لنفر طبعه ولما تقرب إلى الله بالصدقه عليه، لم يأخذه كما لو أعطاه لظنه أنه عالم فلم يكن.

الثالث: أن يكون غرض المعطى الشهرة والرياء والسمعة، فينبغى أن يرد عليه قصده الفاسد، ولا يأخذه، لأنه إذا قبله يكون معيناً له على قصده الفاسد.

وأما غرضه فى الأخذ، فلينظر أهو محتاج إليه أو مستغن عنه؟ فإن كان مستغنياً لم يأخذه، وإن كان محتاجاً إليه، وقد سلم من الشبهة والآفات التى ذكرناها، فالأفضل له الأخذ، لما روى عن عمر رضي الله عنه، أن النبى صلى آله عليه وآله وسلم قال: **«ما جاءك من هذا المال وانت غير مشرف ولا سائل، فخذه، وما لا فلا تتبعه نفسك»** أخرجاه فى «الصحيحين».(1)

وفى حديث آخر: **«من جاءه من أخيه معروف من غير إشراف ولا مسألة، فليقبله ولا يرده، فإنما هو رزق ساقه الله إليه»**.(2)

فصل فى بيان تحريم السؤال من غير ضرورة وآداب الفقير المضطر إلى السؤال

اعلم: أنه قد ورد فى السؤال أحاديث فى النهى عنه، وفى الترخيص فيه.

أما الترخيص: فكقوله صلى الله عليه وآله وسلم: **«للسائل حق وإن جاء على فرس»**(3)، وفى بعض الأحاديث: **«ردوا السائل ولو بظلف محرق»**(4). ولو كان السؤال حراماً مطلقاً، لما جاز إعانة المعتدى على عدوانه، والإعطاء إعانة.

---

(1) **صحيح**: أخرجه البخارى (١٤٧٣) الزكاة، ومسلم (١٠٤٥) الزكاة.

(2) **صحيح**: أخرجه أحمد (١٧٤٧٧)، وابن حبان (٨٥٤)، والحاكم (٢/ ٦٢)، وابن سعد (٤/ ٣٥٠)، عن أبى الأسود عن بكير بن عبد الله عن بُسر بن سعيد عن خالد بن عدى الجهني قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: فذكره. قال الألبانى: «وهذا إسناد صحيح»، وانظر الصحيحة للألبانى (١٠٠٥).

(3) **ضعيف**: أخرجه أحمد (١٧٣٢)، وأبو داود (١٦٦٥)، عن يعلى بن أبى يحيى، عن فاطمة بنت حسين، عن حسين بن على، عن النبى ﷺ. وضعفه الألبانى فى ضعيف أبى داود.

(4) **صحيح**: أخرجه أبو داود (١٦٦٧)، والترمذى (٦٦٥)، والنسائى (٢٥٧٤)، وأحمد (٢٦٦٠٧) من حديث الليث، عن سعيد بن أبى سعيد، عن عبد الرحمن بن بجير، عن جدته أم بُجير -وكانت ممن بايع رسول الله- عن النبى ﷺ. وصححه الألبانى فى صحيح السنن: أبى داود، والترمذى، والنسائى.

وأما أحاديث النهى عن السؤال: فروى ابن عمر ﷺ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: **«لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقى الله عز وجل وليس فى وجهه مزعة لحم»** أخرجاه فى «الصحيحين».(١)

وفيهما أيضاً: أنه صلى الله عليه وآله وسلم ذكر التعفف عن المسألة فقال: **«اليد العليا خير من اليد السفلى. واليد العليا المعطية، والسفلى السائلة»**.(٢)

وفى حديث ابن مسعود ﷺ: أنه صلى الله عليه وآله وسلم قال: «من سأل وله ما يغنيه، جاءت مسألته يوم القيامة خدوشاً أو كدوحاً فى وجهه»(٣) إلى آخره. وهو حديث حسن، وفى المعنى أحاديث كثيرة.

وكشف الغطاء فى هذا ان نقول: السؤال فى الأصل حرام، لأنه لا ينفك عن ثلاثة أمور:

أحدها: إظهار الشكوى.

والثانى: إذلال نفسه، وما ينبغى للمؤمن أن يذل نفسه.

والثالث: إيذاء المسؤول غالباً.

وإنما يباح السؤال فى حال الضرورة والحاجة المهمة القريبة من الضرورة. **أما المضطر:** فهو كسؤال الجائع عند خوفه على نفسه موتاً أو مرضاً، وكسؤال العارى الذى ليس له ما يواريه.

وأما المحتاج حاجة مهمة: فهو كمن له جبة ولا قميص تحتها فى الشتاء، فهو يتأذى بالبرد تأذياً لا ينتهى إلى حد الضرورة، فكذلك مَنْ يقدر على المشى لكن بمشقة، يجوز له أن يسأل أجرة يكترى بها للركوب، وتركه أولى. ومن وجد الخبز وهو محتاج إلى الأدم، فله أن يسأل مع الكراهة، وكذلك إذا سأل المحمل مَنْ هو قادر على الراحلة.

وينبغى فى مثل هذه المسألة أن يظهر الشكر لله تعالى، ولا يسأل سؤال محتاج، بل يقول: أنا مستغنٍ بما أملكه، وإنما النفس تطالبنى بثوب فوق ثيابى، وهو فضلة عن الحاجة

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخارى (١٤٧٥) الزكاة، ومسلم (١٠٤٠) الزكاة.

(٢) **صحيح**: أخرجه البخارى (١٤٢٩) الزكاة، ومسلم (١٠٣٣) عن ابن عمر ﷺ.

(٣) **صحيح**: أخرجه أحمد (٣٦٦٦)، والنسائى (٢٥٩٢) الزكاة، وابن ماجه (١٨٤٠) الزكاة، من طريق سفيان، عن حكيم ابن جبير، عن محمد بن عبد الرحمن بن يزيد عن أبيه، عن عبد الله بن مسعود، عن النبى ﷺ. وصححه الألبانى وانظر الصحيحة للألبانى (٤٩٩).

وفضول من النفس، فيخرج بهذا عن حد الشكوى لله تعالى.

وينبغي أن يسأل أباه أو قريبه أو صديقه الذى لا ينقص بذلك فى عينه، أو السخى الذى أعد ماله للمكارم، فيخرج بذلك من الذل.

وإن أخذ ممن يعلم أنه إنما أعطاه حياء، لم يجز له الأخذ منه، ويجب رده إلى صاحبه.

ولا يجوز للفقير أن يسأل إلا مقدار ما يحتاج إليه، من بيت يسكنه، وثوب يستره، وطعام يقيمه.

ويراعى فى هذه الأشياء ما يدفع الزمان من غير سوق فى شيء من ذلك، فإن كان يعلم أنه يجد من يسأله كل يوم، لم يجز أن يسأل أكثر من قوت يومه وليلته، وإن خاف أن لا يجد من يعطيه، أو خاف أن يعجز عن السؤال، أبيح له السؤال أكثر من ذلك.

ولا يجوز له فى الجملة أن يسأل فوق ما يكفيه لسنته، وعلى هذا يتنزل الحديث المروي فى تقدير الغنى بخمسين درهماً[1]، فإنها تكفى المنفرد المقتصد فى السنة إذا اقتصد. أما المعيل ربما لا يكفيه ذلك.

بيان أحوال السائلين

كان بشر الحافى يقول: الفقراء ثلاثة: فقير لا يسأل، وإن أعطى لا يأخذ، فهذا من الروحانيين.

وفقير لا يسأل وإن أعطى أخذ، فذاك من أهل حظيرة القدس.

وفقير يسأل عند الحاجة فهذا من الصالحين مع أصحاب اليمين.

قال الشيخ جمال الدين رحمه الله: قلت: وفصل الخطاب أنه متى قدر الفقير على دفع الزمان من غير سؤال، لم يجز له أن يسأل، فإن كان يندفع على مضض، نظرت، فإن كان مثله لا يحتمل، ولا يخاف منه التلف، فالسؤال مباح وتركه فضيلة، وإن كان مثله لا يحتمل، وجب عليه أن يسأل.

قال سفيان الثورى رحمه الله: من جاع فلم يسأل حتى مات دخل النار.

---

(١) سبق تخريجه ص (٣٠٦).

الشطر الثانى من الكتاب فى الزهد، وفيه:

بيان حقيقة الزهد وفضيلته

وذكر درجاته وأقسامه ونحو ذلك

اعلم: أن الزهد فى الدنيا مقام شريف من مقامات السالكين، والزهد عبارة عن انصراف الرغبة عن الشىء إلى ما هو خير منه، وشرط المرغوب عنه أن يكون مرغوباً فيه بوجه من الوجوه، فمن رغب عن شىء ليس مرغوباً فيه ولا مطلوباً فى نفسه، لم يسمَّ زاهداً، كمن ترك التراب لا يسمى زاهداً.

وقد جرت العادة بتخصيص اسم الزاهد بمن ترك الدنيا، والذى يرغب عن كل شىء سوى الله تعالى، فهو الزاهد الكامل، ومن زهد فى الدنيا مع رغبته فى الجنة ونعيمها، فهو أيضاً زاهد، ولكنه دون الأول.

واعلم: أنه ليس من الزهد ترك المال، وبذله على سبيل السخاء والقوة، واستمالة القلوب، وإنما الزهد أن يترك الدنيا للعلم بحقارتها بالنسبة إلى نفاسة الآخرة.

ومن عرف أن الدنيا كالثلج يذوب، والآخرة كالدّرّ يبقى، قويت رغبته فى بيع هذه بهذه. وقد دل على ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ﴾(النساء: ٧٧)، وقوله: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ﴾(النحل: ٩٦).

ومن فضيلة الزهد: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾(طه: ١٣١).

وقال النبى صلى الله عليه وآله وسلم: **«من أصبح وهمه الدنيا، شتت الله عليه أمره، وفرق عليه ضيعته، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له، ومن أصبح وهمه الآخرة، جمع الله له همه، وحفظ عليه ضيعته، وجعل غناه فى قلبه، وأتته الدنيا وهى راغمة»**[١].

---

(١) **صحيح** : أخرجه ابن ماجه (٤١٠٥) فى «الزهد»، وأحمد (٢١٠٨٠)، وابن حبان (٧٢)، والبيهقى (٧/ ٢٨٨/ ١٠٣٣٨) من طريق شعبة عن عمر بن سليمان قال: سمعت عبد الرحمن بن أبان بن عثمان بن عفان عن أبيه عن زيد بن ثابت مرفوعاً. وصححه الألبانى وقال: «وهذا إسناد صحيح رجاله ثقات كما قال البوصيرى فى «الزوائد» وانظر الصحيحة للألبانى (٩٥٠).

وقال الحسن البـصرى: يحشر الناس عـراة ما خلا أهل الزهد، وقال: إن أقوامـاً أكرموا الدنيا فصلبتهم على الخشب، فأهينوها، فأهنأ ما تكون إذا أهنتموها.

وقال الفضيل: جُعل الشر كله فى بيت، وجُعل مفتاحه حب الدنيا، وجعل الخير كله فى بيت، وجعل مفتاحه الزهد فى الدنيا.

وكان بعض السلف يقول: الزهد في الدنيا يريح القـلب والبدن، والرغبة فيها تكثر الهم والحزن.

فصل فى درجات الزهد وأقسامه

اعلم: أن من الـناس من يزهد فى الـدنيا وهو لهـا مشتـهٍ، لكنه يجـاهد نفســه، وهذا يسمى: المتزهد، وهو مبدأ الزهد.

الدرجة الثانية: أن يزهد فيها طوعاً لا يكلف نفسه ذلك، لكنه يرى زهده ويلتفت إليه، فيكاد يعجب بنفسه، ويرى أنه قد ترك شيئاً له قدر لما هو أعظم قدراً منه، كمن يترك درهماً لأخذ درهمين، وهذا أيضاً نقصان.

الدرجة الثالثة: وهى العليا أن يـزهد طوعاً، ويزهد فى زهده، فلا يرى أنه تـرك شيئاً، لأنه عرف أن الدنـيا ليست بشـيء، فيكون كمن ترك خـرقة، وأخذ جوهـرة فلا يرى ذلك معاوضة، فإن الدنيا بالإضافة إلى نعيم الآخرة، أخس من خرقة بالإضافة إلى جوهرة، فهذا هو الكمال فى الزهد.

واعلم: أن مثل من ترك الدنيا، مثل من منعه عـن باب الملك كلب على بابه، فألقى إليه لقمة من خبز فشغله بذلك ودخل، فقرب من المـلك، أفتراه يرى لنفسه يداً عند الملك بلقمة ألقاها إلى كلبه فى مقابلة ما قد ناله؟

فالشيطان كلب فى باب الله عز وجل، ويمـنع الناس من الدخول، مع أن الباب مفتوح والحجاب مرفوع، والدنيـا كلقمة، فمن تركها لينال عز الملك، فكيـف يلتفت إليها؟ ثم إن نسبتها، أعنى ما سلم لكل شخص منها ولو عمر ألف سنة بالإضافة إلى نعيم الآخرة، أقل من لقمة بالإضـافة إلى ملك الدنيا، لأن الفانـى لا نسبة له إلى الباقى، كيـف ومدة العمر قصيرة ولذات الدنيا مكدرة؟

وأما أقسام الزهد بالإضافة إلى المرغوب فيه، فعلى ثلاث درجات:

أحدها: الزهد للنجاة من العذاب، والحساب، والأهوال التى بين يدى الآدمى، وهذا زهد الخائفين.

الدرجة الثانية: الزهد للرغبة فى الثواب، والنعيم الموعود به، وهذا زهد الراجين، فإن هؤلاء تركوا نعيماً لنعيم.

الدرجة الثالثة: وهى العليا. وهو أن لا يزهد فى الدنيا للتخلص من الآلام، ولا للرغبة فى نيل اللذات، بل لطلب لقاء الله تعالى، وهذا زهد المحسنين العارفين، فإن لذة النظر إلى الله سبحانه وتعالى بالإضافة إلى لذات الجنة، كلذة ملك الدنيا، والاستيلاء عليها، بالإضافة إلى لذة الاستيلاء على عصفور واللعب به.

فصل فى بيان تفصيل الزهد فيما هو من ضروريات الحياة

والضروريات المهمات سبعة أشياء: المطعم، والملبس والمسكن، وأثاثه، والمنكح، والمال، والجاه.

فأما الأول: -وهو المطعم- فاعلم أن همة الزاهد منه ما يدفع به الجوع مما يوافق بدنه من غير قصد الالتذاذ.

وفى الحديث: **«إن عباد الله ليسوا بالمتنعمين»**.(١)

وقالت عائشة رضي الله عنها لعروة: كان يمر بنا هلال، وهلال، وهلال، ما يوقد فى بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نار. قال: قلت: يا خالة، فعلى أى شىء كنتم تعيشون؟ قالت: على الأسودين: الماء والتمر.(٢)

والأحاديث فى ذلك كثيرة مشهورة.

---

(١) **صحيح**: أخرجه أحمد (٢١٦٠٠)، وأبو نعيم (٥/ ١٥٥) من طرقه عن بقية بن الوليد عن السرى بن ينعم عن مريح بن مسروق عن معاذ بن جبل عن النبى ﷺ. وصححه الألبانى. وقال الألبانى: «وهذا إسناد رجاله ثقات، كما قال المنذرى (٣/ ١٢٥)، والهيثمى (١٠/ ٢٥٠)، وسكت عن عنعنة بقية، مع كونه مشهوراً بالتدليس! ولكنه قد صرح بالتحديث عند أبى نعيم، فزالت شبهة تدليسه».

(٢) **صحيح**: أخرجه البخارى (٢٥٦٧)، ومسلم (٢٩٧٢) الزهد والرقائق.

وقد كان كثيـر من الزهاد يخشنون المطعم، وكان فيهم مـن لا يطيق ذلك. فكان الثورى حسن المطعم، وربما حمل فى سفرته اللحم المشوى والفالوذج.

وفى الجملة: فالزاهـد يقصد مـا يصلح به بـدنه، ولا يزيد فى التـنعم، إلا أن الأبدان تختلف، فمنها ما لا يحتمل التخشن.

وقد يدخر بعض الناس الزاد الحلال يتقوته، فلا يخرجه ذلك من الزهد، فقد كان السبتى يعمل من السبت إلى السبت ويتقوته.

وورث داود الطائى عشرين ديناراً، فأنفقها فى عشرين سنة.

الثانى: الملبس، فالزاهد يقتصر فيه على ما يدفع الحر والبرد، ويستر العورة، ولا بأس أن يكون فيه نوع تجـمل، لئلا يخرجه التقشـف إلى الشهرة. وكان أكثر لبـاس السلف خشناً، فصار لبس الخشن شهرة.

وقد روى عن أبـى بردة قال: أخرجت إليـنا عائشة رضي الله عنها كـساء ملبداً، وإزاراً غـليظاً، وقالت: قبض رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى هذين. أخرجاه فى «الصحيحين».[1]

وعن الحسن قال: خطب عمر رضي الله عنه وهو خليفة، وعليه إزار فيه اثنتا عشرة رقعة.

الثالث: المسكن، فللزاهد فيه ثلاث درجات.

- أعلاها: أن لا يطلب موضعاً خاصاً لنفسه، بل يقنع بزوايا المساجد، كأصحاب الصُّفَّة.
- وأوسطها: أن يطلب موضعاً خاصاً لنفسه مثل كوخ من سعف، أو خص وما أشبه ذلك.
- وأدناها: أن يطلب حجرة مبنية. ومتى طلب الـسعة وعلو السقف، فقد جاوز حد الزهد فى المسكن. وقد توفى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولم يضع لبنة على لبنة.

قال الحسن: كنت إذا دخلت بيوت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، نلت السقف.

وفى الحديث: **«إن المسلم ليؤجر فى كل شىء ينفقه، إلا فى شىء يجعله فى هذا التراب»**.[2]

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخارى (٥٨١٨) اللباس، ومسلم (٢٠٨٠) اللباس والزينة.

(٢) **صحيح**: أخرجه البخارى (٥٦٧٢)، والترمذى (٢٤٨٣).

وقال إبراهيم النخعى رحمه الله: إذا كان البنيان كفافاً، فلا أجر ولا وزر.

وفى الجملة: إن كل ما يراد للضرورة فلا ينبغى أن يجاوز حد الزهد.

الرابع: أثاث البيت، فينبغى للزاهد أن يقتصر فيه على الخزف، ويستعمل الإناء الواحد فى مقاصده، فيأكل فى القصعة، ويشرب فيها، ومن خرج إلى كثرة العدد فى الآلة، أو فى نفاسة الجنس، خرج عن الزهد.

ولينظر إلى سيرة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. ففى «صحيح مسلم» من حديث عمر بن الخطاب ﷺ قال: دخلت على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو مضطجع على حصير، وإذا الحصير قد أثر فى جنبه، فنظرت فى خزانة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فإذا أنا بقبضة من شعير، نحو الصاع. وفى رواية البخارى: فوالله ما رأيت شيئاً يرد البصر. والحديث مشهور فى «صحيح مسلم».(١)

وقال علىّ ﷺ: تزوجت فاطمة وما لى ولها فراش إلا جلد كبش، كنا نام عليه بالليل، ونعلف عليه الناضح بالنهار، وما لى خادم غيرها، ولقد كانت تعجن، وإن قصتها لتضرب حرف الجفنة من الجهد الذى بها.

ودخل رجل على أبى ذر ﷺ، فجعل يقلب بصره فى بيته، فقال: يا أبا ذر، ما أرى فى بيتك متاعاً، ولا أثاثاً؟ فقال: إن لنا بيتاً نوجه إليه صالح متاعنا. فقال: لابد لك من متاع ما دمت هاهنا، فقال: إن صاحب المنزل لا يدعنا فيه.

الخامس: المنكح، لا معنى للزهد فى أصل النكاح، ولا فى كثرته.

قال سهل بن عبد الله: حُبِّب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم النساء.

وكان علىّ ﷺ من أزهد الصحابة، وكان له أربع نسوة، وبضع عشرة سرية.

وكان أبو سليمان الدارانى يقول: كل ما شغلك عن الله: من أهل، ومال، وولد، فهو مشؤوم.

وكشف الغطاء عن ذلك أن نقول: مَنْ غلبت عليه شهوته وخاف على نفسه، تعيّن عليه النكاح، فأما مَنْ لا يخاف، فهل النكاح فى حقه أفضل أو التعبد؟ فيه اختلاف بين العلماء.

(١) **صحيح** : أخرجه مسلم (١٤٧٩).

والناس مختلفون فـيه، منهم من يقصد النكاح لطلب النسل ويمكنـه الكسب الحلال للعائلة فلا يقـدح ذلك فى دينه، ولا يتشـتت قلبه، بل يجـمع النكاح همه، ويكـف بصره، ويرد فكره، فهذا غاية فى الـفضيلة، وعليه يحمل حال رسول الله صـلى الله عليه وآله وسلم، وحال عليّ ﷺ، ومن جرى مجراهما، ولا التـفات إلى قول من يرى الزهد بترك الالتذاذ بالنكاح، فإن ذلك يقع ضمناً وتبعاً للمقصود.

وقد كان بعـض السلف يختار المرأة الدون علـى الجميلة، وذلك محمـول على أن تلك تكون إلى الدين أميل، والنفـقة عليها أقل، والاهتمام بأمرها يسير، بـخلاف الحسناء، فإنها تشتت القلب، وتشغله، وتريد زيادة فى النفقة، وربما لم يكن.

وقد قال مالك بن دينار: يعمد أحدهم فيتزوج ديباجة الحى فتقول: أريد مرطاً فتمرط دينه.

السادس: المال: وهو ضرورى فى المعيشة، فالزاهد يقـتصر منه على ما يدفع به الوقت، وكان فى الصالحين من يتشاغل بالتجارة ويقصد بها العفاف.

وكان حماد بن سلمة إذا فتح حانوته وكسب حبتين، قام.

وكان سعـيد بن المسيـب يتجر فى الزيـت، وخلف أربعمائـة دينار، وقال: إنما تركـتها لأصون بها عرضى ودينى.

السابع: الجاه، ولابد للإنســان من جاه حتى فى قلب خـادمه، واشتغال الـزاهد بالزهد يمهد له الجاه فى القلوب، فينبغى أن يتحرز من شر ذلك.

وفى الجملة: فإن الحوائج الضرورية ليست من الدنيا، وكان كثير من السلف يعرض لهم بالمال الحلال، فيقولون: لا نأخذه، نخاف أن يفسد علينا ديننا.

فصـل فـى بيـان عـلامـات الزهـد

قد تظن أن تارك المال زاهد، وليس كذلك، فإن ترك المال، وإظهار التخشن، سهل على من أحب المدح بالزهد، فكم من راهب قد لازم الدير، وقلل المطعم، وقوّاه على ذلك حب المحمـدة، كما سـبق ذكره فـى كتاب الريـاء. ولابد من الزهد فـى فضول الأمـوال والجاه جميعاً، حتى يكمل الزهد فى حظوظ النفس، فأول معرفة الزهد مشكل.

وقد قال ابن المبارك: أفضل الزهد إخفاء الزهد.

وينبغى أن يعوّل فى هذا على ثلاث علامات:

الأولى: أن لا يفرح بموجود، ولا يحزن على مفقود، كما قال الله تعالى: ﴿لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ (الحديد: ٢٣). وهذا علامة الزهد فى المال.

الثانى: أن يستوى عنده ذامه ومادحه، وهذه علامة الزهد فى الجاه.

الثالث: أن يكون أنسه بالله، والغالب على قلبه حلاوة الطاعة.

فأما محبة الدنيا ومحبة الله تعالى، فهما فى القلب كالماء والهواء فى القدح، إذا دخل الماء خرج الهواء، فلا يجتمعان.

قيل لبعضهم: إلام أفضى بهم الزهد؟ قال: إلى الأنس بالله.

قال يحيى بن معاذ: الدنيا كالعروس، ومَنْ يطلبها يطلب ما شطتها، والزاهد يسخم وجهها، وينتف شعرها، ويخرق ثوبها، والعارف مشتغل بالله تعالى عنها ولا يلتفت إليها.

فهذا ما أردنا ذكره من حقيقة الزهد وأحكامه.

وإذا كان الزهد لا يتم إلا بالتوكل فلنشرع فى بيانه إن شاء الله تعالى، وصلى الله على محمد وعلى آله وسلم، حامداً ومصلياً ومسلماً على أحمد، خير الأنام، ومصباح الظلام.

كتاب التوحيد والتوكل

بيان فضيلة التوكل

قال الله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (آل عمران: ١٢٢). وقال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ (الطلاق: ٣).

وفى الحديث: أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم ذكر أنه يدخل الجنة من أمته سبعون ألفاً لا حساب عليهم، ثم قال: **«هم الذين لا يكتوون، ولا يسترقون، ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون»**. أخرجاه فى «الصحيحين».[١]

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: **«لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله، لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً»**.[٢]

وكان من دعاء النبى صلى الله عليه وآله وسلم: **«اللهم إنى أسألك التوفيق لمحابك من الأعمال، وصدق التوكل عليك، وحسن الظن بك»**.[٣]

والتوكل يبتنى على التوحيد، والتوحيد طبقات:

منها: أن يصدّق القلب بالوحدانية المترجم عنها قولك: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شىء قدير. فيصدق بهذا اللفظ، لكن من غير معرفة دليل، فهو اعتقاد العامة.

الثانية: أن يرى الأشياء المختلفة، فيراها صادرة عن الواحد، وهذا مقام المقربين.

الثالثة: أن يرى الإنسان إذا انكشف عن بصيرته أن لا فاعل سوى الله، لم ينظر إلى غيره، بل يكون منه الخوف وله الرجاء وبه الثقة وعليه التوكل، لأنه فى الحقيقة هو الفاعل وحده، فسبحانه، والكل مسخرون له، فلا يعتمد على المطر فى خروج الزرع، ولا على

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخارى (٥٧٠٥) الطب، ومسلم (٢١٨) الإيمان، عن عمران بن الحصين رضي الله عنه عن النبى ﷺ.

(٢) **صحيح**: أخرجه الترمذى (٢٣٤٤) الزهد، وابن ماجه (٤١٦٤) الزهد، وأحمد (٢٠٥)، وصححه الألبانى، وانظر الصحيحة (٣١٠).

(٣) **ضعيف**: ضعفه الألبانى فى ضعيف الجامع (١١٨٩) وعزاه السيوطى لأبى نعيم فى «الحلية» عن الأوزاعى مرسلاً، والحكيم الترمذى عن أبى هريرة رضى الله عنه، وانظر الضعيفة للألبانى (٢٩١٠).

الغيم، فـى نزول المطر، ولا على الريح فى سـير السفينـة، فإن الاعتماد علـى ذلك جهل بحقائق الأمـور. ومن انكشفت له الحقائـق، علم أن الريح لا يتحرك بنفـسه، ولابد له من محرك. فالتفات العبد فى النجاة إلى الريح يضاهى التفات من أخذ لتضرب عنقه، فوقّع له الملك بالعفو عنه، فأخذ يشتغل بذكر الحـبر والكاغد والقلم الذى كتب به التوقيع، ويقول: لولا هذا القلم ما تخلـصت، فيرى نجاته من القلم لا من محرك الـقلم، وهذا غاية الجهل. ومن علم أن القلم لا حكم له فى نفسه، شكر الكاتب دون القلم، وكل المخلوقات فى قهر تسخير الخالق أبلغ من القلم فى يد الكاتب، فسبحان مسبب الأسباب الفعال لما يريد.

فصل فى بيان أحوال التوكل وأعماله وحَدِّه ونحو ذلك

اعلم: أن التوكل مأخـوذ من الوكالة، يقال: وكل فلان أمره إلـى فلان، أى فوّض أمره إليه، واعتمد فيه عليه.

فالتوكل عبارة عن اعتماد القلب على الموكَّل، ولا يتوكل الإنسان على غيره إلا إذا اعتقد فيـه أشياء: الشـفقة، والقـوة، والهداية. فإذا عـرفت هذا، فقس علـيه التوكل عـلى الله سبحانه، وإذا ثبت فـى نفسك أنه لا فاعل سواه، واعتقدت مع ذلـك أنه تام العلم والقدرة والرحمة، وأنه ليس وراء قدرته قدرة، ولا وراء علمـه علم، ولا وراء رحمته رحمة، اتكل قلبك عليه وحده لا مـحالة، ولم يلتفت إلى غيره بوجهٍ، فـإذا كنت لا تجد هذه الحالة من نفسك، فسببه أحد أمرين:

- إما ضعف اليقين بأحد هذه الخصال.

- وإما ضعف القلب باسـتيلاء الجبن عليه، وانزعاجه بسبب الأوهام الغـالبة عليه، فإن القلب قد يـنزعج ببقاء الوهم وطاعـته له من غير نقصـان فى اليقين، فإنه مـن كان يتناول عسلاً، فشُبِّه بين يديه بالعذرة، ربما نفر طبعه منه، وتعذر عليه تناوله.

ولو كلف العاقل أن يبيت مع الميت فى قـبر أو فراش أو بيت، نفر طبعه من ذلك، وإن كان متيقناً كـونه ميتاً جماداً فى الحال، ولا ينفر طبعـه عن سائر الجمادات، وذلك جبن فى القلب، وهو نوع ضعف قلمـا يخلو الإنسان منه، وقد يقوى ذلك حتى يصـير مرضاً حتى يخاف أن يبيت فى البيت وحده مع غلق الباب وإحكامه.

فإذاً لا يتم التوكل إلا بقوة القلب، وقوة اليقين جميعاً، فإذا انكشف لك معنى التوكل، وعلمت الحالة التى تسمى توكلاً، فاعلم أن تلك الحالة لها فى القوة والضعف ثلاث درجات:

الدرجة الأولى: ما ذكرناه، وهو أن يكون حاله فى حق الله تعالى الثقة بكفالته وعنايته، كحاله فى الثقة بالوكيل.

الدرجة الثانية: وهى أقوى، أن يكون حاله مع الله تعالى كحال الطفل مع أمه، فإنه لا يعرف غيرها ولا يفزع إلى سواها، ولا يعتمد إلا إياها، وإن نابه أمر كان أول خاطر يخطر على قلبه، وأول سابق إلى لسانه: يا أماه. فمن كان تألهه إلى الله تعالى، ونظره إليه، واعتماده عليه، كَلِفَ به كما يَكْلَفُ الصبى بأمه، فيكون متوكلاً حقاً.

والفرق بين هذا وبين الأول، أن هذا متوكل قد فنى فى توكله عن توكله، إذ لا يلتفت إلى غير المتوكل عليه، ولا مجال فى قلبه لغيره.

وأما الأول، فهو متوكل بالتكليف والكسب، وليس فانياً عن توكله، بل له التفات إليه، وذلك شغل صارف عن ملاحظة المتوكل عليه وحده.

الدرجة الثالثة: وهى أعلى منهما، أن يكون بين يدى الله تعالى مثل الميت بين يدى الغاسل، لا يفارقه إلا أنه لا يرى نفسه ميتاً، وهذا يفارق حال الصبى مع أمه فإنه يفزع إلى أمه، ويصيح ويتعلق بذيلها.

وهذه الأحوال توجد فى الخلق، إلا أن الدوام يبعد، ولاسيما المقام الثالث.

فصل فى بيان أعمال المتوكلين

قد يظن بعض الناس أن معنى التوكل ترك الكسب بالبدن، وترك التدبير بالقلب، والسقوط على الأرض كالخرقة الملقاة، وكلحم على وضم، وهذا ظن الجهال، فإن ذلك حرام فى الشرع.

والشرع قد أثنى على المتوكلين، وإنما يظهر تأثير التوكل فى حركة العبد وسعيه إلى مقاصده، وسعى العبد إما أن يكون لجلب نفع مفقود كالكسب، أو حفظ موجود كالادخار، وإما لدفع ضرر لم ينزل، كدفع الصائل، أو لإزالة ضرر قد نزل، كالتداوى من المرض، فحركات العبد لا تعدو هذه الفنون الأربعة.

الفن الأول: فى جلب المنافع، فنقول: الأسباب التى بها تجلب المنافع على ثلاث درجات:

أحدها: سبب مقطوع به كالأسباب التى ارتبطت بها المسببات بتقدير الله تعالى ومشيئته ارتباطاً مطرداً لا يختلف، مثاله: أن يكون الطعام بين يديك وأنت جائع. فلا تمد يدك إليه

وتقول: أنا متوكل، وشرط التوكل ترك السعى، ومد اليد إلى الطعام سعى، وكذلك مضغه وابتلاعه، فهذا جنون محض، وليس من التوكل فى شىء، فإنك إذا انتظرت أن يخلق الله فيك شبعاً دون أكل الطعام أو يخلق فى الطعام حركة إليك، أو يسخر ملكاً ليمضغه ويوصله إلى معدتك. فقد جهلت سنة الله تعالى.

وكذلك لو لم تزرع، وطمعت أن يخلق الله تعالى نبتاً من غير بذر، أو تلد الزوجة من غير وقاع، فكل ذلك جنون، وليس التوكل فى هذا المقام ترك العمل، بل التوكل فيه بالعلم والحال.

أما العلم: فهو أن تعلم أن الله تعالى خلق الطعام، واليد، والأسباب، وقوة الحركة، وأنه الذي يطعمك ويسقيك.

وأما الحال: فهو أن يكون قلبك واعتمادك على فضل الله تعالى، لا على اليد والطعام، لأنه ربما جفت يدك، وبطلت حركتك، وربما سلط الله عليك مَنْ يغلبك على الطعام، فإذا كان هذا علمه فليمد اليد فإنه متوكل.

الدرجة الثانية: الأسباب التى ليست متيقنة، لكن الغالب أن المسببات لا تحصل دونها. مثالها من يفارق الأمصار والقوافل، ويخرج مسافراً إلى البوادى التى لا يطرقها الناس إلا نادراً، ولا يستصحب معه شيئاً من الزاد، فهذا كالمحارب مع الله تعالى، وفعله منهى عنه، وحمله للزاد مأمور به، فإن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لما سافر تزود واستأجر دليلاً إلى المدينة.(١)

الدرجة الثالثة: ملابسة الأسباب التى يتوهم إفضاؤها إلى المسببات من غير ثقة ظاهرة، كالذى يستقصى فى التدبيرات الدقيقة فى تفصيل الاكتساب ووجوهه، فمتى كان قصده صحيحاً وفعله لا يخرج عن الشرع، لم يخرج عن التوكل، لكنه ربما يدخل فى أهل الحرص إذا طلب فضول العيش.

وترك التكسب ليس من التوكل فى شىء، إنما هو من فعل البطالين الذين آثروا الراحة، وتعللوا بالتوكل.

(١) صحيح: أخرجه البخارى (٣٩٠٥).

قال عمر ﷺ: المتوكل الذى يُلْقِى حبَّه فى الأرض ويتوكل على الله.

الفن الثانى: فى التعرض للأسـباب بالادخار، ومن وجد قوتاً حلالاً يشغـله كَسْبٌ مثله عن جمع همه، فادخاره إياه لا يخرجه عن التوكل، خصوصاً إذا كان له عائلة.

وفى «الصحيحين»[1] من حديث عمر بن الخطاب ﷺ، أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم كان يبيع نخل بنى النضير، ويحبس لأهله قوت سنتهم.

فإن قيل: فقد نهى رسول الله صـلى الله عليه وآله وسلم بلالاً أن يدخر[2]، فالجواب: أن الفقراء كانوا عنده كـالضيف، فما كان ينبغى أن يدخر فيـجوعون، بل الجواب: أن حال بلال وأمثـاله من أهل الصُّفَّة كـان مقتضـاها عدم الادخار، فإن خـالفوا كان التـوبيخ على الكذب فى دعوى الحال لا على الادخار الحلال.

الفن الثالث: مباشـرة الأسباب الدافـعة للضرر. ليـس من شرط التوكل تـرك الأسباب الدافعـة للضرر، فـلا يجوز النوم فى الأرض المـسبعة، أو مـجرى السيـل، أو تحت الجدار الخراب، فكل ذلك منهى عنه.

وكذلك لا ينقض الـتوكل لبس الدرع، وإغلاق الباب، وشـد البعير بالعـقال. قال الله تعالى: ﴿وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ﴾ (النساء: ١٠٢).

وجاء رجـل إلى النبى صلـى الله عليـه وآله وسلم فـقال: يا رسول الـله أأعقل النـاقة وأتوكل، أو أطلقها وأتوكل؟ قال: **«اعقلها وتوكـل»**.[3]

ويتوكل فى ذلك كله على المسبب لا على السبب، ويكون راضياً بكل ما يقضى الله عليه، ومتى عرض له إذا سرق متـاعه أنه لو احترز لم يسرق، أو أخذ يشكو مـا جرى عليه، فقد بان بُعْده عن التوكل.

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخارى (٥٣٥٧) النفقات، ومسلم (١٧٥٧) الجهاد والسير.

(٢) **صحيح**: أخرجه أبو يعلى (٦٠٤٠)، والبزار (٣٦٥٤)، وأبو نعيم (٢/ ٢٨٠)، والطبرانى (٢٥٩٣) «الأوسط»، عن محمد بن سيـرين عن أبى هريرة ﷺ، وقال الهيثمى فى «المجمع» (١٠/ ٢٤١): «إسناده حسن»، وصححه الألبانى فى «المشكاة» (١٨٨٥).

(٣) **حسن**: أخرجه الترمذى (٢٥١٧)، وحسنه الألبانى فى صحيح الترمذى، عن أنس بن مالك ﷺ.

وليعلم أن القدر له كالطبيب، فإن قدم إليه الطعام فرح، وقال: لولا أنه علم أن الغذاء ينفعنى وقد قويت على احتماله ما قرب إلىَّ، وإن أخّر عنه الغذاء بعد ذلك أيضاً فرح، وقال: لولا أنه علم أن الغذاء يؤذينى لما منعنى.

واعلم: أن كل من لا يعتقد فى لطف الله تعالى ما يعتقده المريض فى الطبيب الحاذق الشفيق، لم يصح توكله، فإن سرق متاعه رضى بالقضاء، وأحل الآخذ، شفقة على المسلمين. فقد شكا بعض الناس إلى بعض العلماء أنه قُطع عليه الطريق، وأخذ ماله، فقال: إن لم يكن غمك كيف صار فى المسلمين من يفعل هذا أكثر من غمك بمالك، فما نصحت المسلمين.

الفن الرابع: السعى فى إزالة الضرر، كمداواة المريض ونحو ذلك.

اعلم: أن الأسباب المزيلة للضرر تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

- إلى مقطوع به، كالماء المزيل لضرر العطش، والخبز المزيل لضرر الجوع، فهذا القسم ليس تركه من التوكل فى شىء.

- **القسم الثانى:** أن يكون مظنوناً، كالفصد، والحجامة، وشرب المسهّل، ونحو ذلك. فهذا لا يناقض التوكل، فإن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد تداوى وأمر بالتداوى.(١)

وقد تداوى خلق كثير من المسلمين، وامتنع عنه أقوام توكلاً، كما روى عن أبى بكر الصديق رضي الله عنه أنه قيل له: ألا ندعو لك طبيباً؟ فقال: رآنى الطبيب. قيل: فما قال لك؟ قال: إنى فعّال لما أريد.

قال المصنف رحمه الله: والذى نرجحه أن التداوى أفضل، ويحمل حال أبى بكر رضي الله عنه أنه قد تداوى ثم أمسك بعد انتفاعه بالدواء، أو يكون قد علم قرب أجله بأمارات.

واعلم: أن الأدوية أسباب مسخرة بإذن الله تعالى.

- **القسم الثالث:** أن يكون السبب موهوماً، كالكى، فيُخرج عن التوكل، لأن النبى صلى الله عليه وآله وسلم وصف المتوكلين بأنهم لا يكتوون.(٢)

---

(١) **صحيح** : أخرجه أبو داود (٣٨٥٥)، والترمذى (٢٠٣٨)، وابن ماجه (٣٤٣٦)، وصححه الألبانى فى صحيح الترمذى، عن أسامة بن شريك. قال أبو عيسى: «وفى الباب عن ابن مسعود، وأبى هريرة، وأبى خزامة عن أبيه، وابن عباس، وهذا حديث حسن صحيح».

(٢) سبق تخريجه ص (٣١٥).

وقد حمل بعض العلماء الكى المذكور فى قوله: **«لا يكتوون»** على ما كانوا يفعلونه فى الجاهلية، فإنهم كانوا يكتوون ويسترقون فى زمن العافية لئلا يمرضوا، فإن النبى صلى الله عليه وآله وسلم كان يرقى الرقية بعد نزول المرض، وقد كوى أسعد بن زرارة ﷺ.(١)

وأما شكوى المريض، فهى مخرجة عن التوكل، وقد كانوا يكرهون أنين المريض، لأنه يترجم عن الشكوى، فكان الفضيل يقول: أشتهى مرضاً بلا عُوّاد.

وقال رجل للإمام أحمد: كيف أنت؟ قال: بخير. قال: حُممتَ البارحة؟ قال: إذا قلت لك: أنا بخير، فلا تخرجنى إلى ما أكره.

فأما إذا وصف المريض للطبيب ما يجده، فإنه لا يضره. وقد كان بعض السلف يفعل ذلك، ويقول: إنما أصف قدرة الله فىَّ، ويتصور أن يصف ذلك لتلميذ يقويه على الضراء ويرى ذلك نعمة، فيصف ذلك كما يصف النعمة شكراً لها، ولا يكون ذلك شكوى.

وقد روينا أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال: **«إنى أوعك كما يوعك رجلان منكم»**.(٢)

آخر كتاب التوكل وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم.

---

(١) **حسن**: أخرجه ابن ماجه (٣٤٩٢) فى «الطب»، وحسنه الألبانى فى صحيح ابن ماجه.

(٢) **صحيح**: أخرجه البخارى (٥٦٤٨) المرضى، ومسلم (٢٥٧١) البر والصلة، عن الحارث بن سويد.

كتاب المحبة والشوق والأنس والرضى

اعلم: أن المحبة لله تعالى هى الغاية القصوى من المقامات، فما بعد إدراك المحبة مقام إلا وهو ثمرة من ثمارها، وتابع من توابعها، كالشوق، والأنس، والرضى، ولا قبل المحبة مقام إلا وهو من مقدماتها، كالتوبة، والصبر، والزهد وغيرها.

واعلم: أن الأمة مجمعة على أن الحب لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وآله وسلم فرض، ومن شواهد المحبة قوله تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ (المائدة:٥٤). وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ (البقرة:١٦٥)، وهذا دليل على إثبات الحب لله، وإثبات التفاوت فيه.

وفى الحديث الصحيح: أن رجلاً سأل رسول الله صلى الله عليه آله وسلم عن الساعة فقال: **«ما أعددت لها؟»** قال: يا رسول الله، ما أعددت لها من كثرة صلاة ولا صيام، إلا أني أحب الله ورسوله، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: **«المرء مع من أحب، وأنت مع من أحببت»**[1]، فما فرح المسلمون بعد الإسلام فرحهم بها.

وروى أن ملك الموت جاء إلى الخليل عليه السلام ليقبض روحه، فقال له: هل رأيت خليلاً يميت خليله؟ فأوحى الله إليه: هل رأيت حبيباً يكره لقاء حبيبه؟ فقال: يا ملك الموت اقبض.

وقال الحسن البصرى رحمه الله: من عرف ربه أحبه، ومن أحب غير الله تعالى، لا من حيث نسبته إلى الله، فذلك لجهله وقصوره عن معرفته، فأما من أحب الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، فذلك لا يكون إلا عن حب الله تعالى، وكذلك حب العلماء والأتقياء، لأن حب المحبوب محبوب، ورسول المحبوب محبوب، ومحب المحبوب محبوب، وكل ذلك يرجع إلى حب الأصل، ولا محبوب فى الحقيقة عند ذوى البصائر إلا الله تعالى، ولا مستحق للمحبة سواه.

وإيضاح ذلك يرجع إلى أسباب:

---

(١) **صحيح**: أخرجه الترمذى (٢٣٨٥)، وأحمد (١١٦٠٢)، عن حميد عن أنس. وقال أبو عيسى: «هذا حديث حسن صحيح». وصححه الألبانى فى صحيح الترمذى. ولفظة: **«المرء مع من أحب»** أخرجها البخارى (٦١٦٨)، ومسلم (٢٦٤١)، عن عبد الله بن مسعود.

أحدها: أن الإنسان يحب نفـسه، وبقاءه، وكماله، ودوام وجـوده، ويكره ضد ذلك من الهلاك والعدم والنقصان، وهذا جبلة كل حيٍّ لا يتـصور أن ينفك عنها. وهذا يقتضى غاية المحبة لله عز وجـل، فإن الإنسان إذا عرف ربه، عرف قطعاً أن وجـوده ودوامه وكماله من الله، وأنه المخترع له، الموجـد لذاته بعد أن كان عدماً محضاً لولا فضـل الله عليه بإيجاده، وهو ناقص بعد الـوجود لولا فضل الله عليه بـالتكميل، ولذلك قال الحســن البصرى: من عرف ربه أحبه، ومن عرف الدنيا، زهد فيها.

وكيف يتصور أن يحب الإنسان نفسه، ولا يحب ربَّه الذى به قوام نفسه.

السبب الثانى: أن الإنسان بالطبع يحب من أحسن إليـه ولاطفه وواساه، وانتدب لنصرته وقمع أعداءه، وأعانه على جميع أغراضه، فإنه محبوب عنده لا محالة.

وإذا عرف الإنسان حق المعرفـة علم أن المحسن إليه هو الله سبحانه وتعـالى فقط. وأنواع إحسانه لا يحيط به حصر، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا﴾ (إبراهيم: ٣٤، النحل: ١٨).

وقد أشرنا إلى طرف من ذلك فى كتاب الشكر، ولـكنا نبين أن الإحسان من الناس غير متصوَّر إلا بالمجاز، وأن المحسن فى الحقيقة هو الله تعالى.

بيان ذلك: أنـا نفرض أن شخصـاً أنعم عليك بجـميع خزائنه ومـا يملك، ومكنك فـيها لتتصرف كيف شئت، فإنك تظن أن هذا الإحـسان منه، وهو غلط، فإنه إنما تم إحسانه بماله، وبقدرته على المال، وبداعيته الباعثة لـه على صرف المال. فمن ذا الذى أنعم بخلقه وخلق ماله وخلق إرادته وداعيته؟ ومن الذى حبّبك إليـه، وصرف وجهه إليك، وألقى فى نفسه أن صلاح دينه ودنيـاه فى الإحسان إلـيك، ولولا ذلك ما أعطاك، فـكأنه صار مقـهوراً فى التـسليم لا يستطيع مخالفته. فالمحسن هو الذى اضطـره وسخره لك، فهو جارٍ مجرى خازن أمير أمره أن يسلم إلى الإنسان خلعة خلـعها عليه الأمير، فإن الخازن لا يُرى محسناً بتـسليم خلعة الأمير، لأنه مضطر إلى طـاعته، ولو خلاه الأمير ونفـسه لما سلم ذلك. وكذلك كل مـحسن لو خلاه الله ونفسه، لم يبذل حبة من ماله حتى يسـلط الله عليه الدواعى،ويلقى فى نفسه أن حظه ديناً ودنيا فى بذل ذلك فيبذله. فينبغى للعارف أن لا يحب إلا الله؛ إذ الإحسان من غيره محال.

السبب الثالث: أن المحسن فى نفسه وإن لم يصل إليك إحسانه محبوب فى الطباع، فإنه إذا بلغك عن ملك من الملوك أنه عالم عادل عابد رفيـق بالناس، متلطف بهم وهو فى قطر بعيد،

فإنك تحبه، وتجد فى نفسك ميلاً كثيراً إليه. فهذا حب المحسن من حيث إنه محسن، فضلاً عن أن يكون محسناً إليك. وهذا ما يقتضى حب الله تعالى، بل يقتضى أن لا يحب غيره، إلا بحيث أنْ يتعلق منه بسبب، فإنه سبحانه هو المحسن إلى الكل كافة، بإيجادهم وتكميلهم بالأعضاء والأسباب التى هى من ضروراتهم وترفيههم، إلى غير ذلك من النعم التى لا تحصى، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا﴾ (إبراهيم: ٣٤، النحل: ١٨). فكيف يكون غيره محسناً؟! وذلك المحسن حسنة من حسنات قدرته، فمن عرف هذا لم يحب إلا الله تعالى.

وكذلك نقول: كل مَنْ كان متصفاً بالعلم، أو بالقدرة أو كان متنزهاً عن الصفات الرذيلة، فإن ذلك يوجب له المحبة. فصفات الصِّدِّيقين الذين تحبهم القلوب طبعاً، ترجع إلى علمهم بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله وشرائع أنبيائه، وإلى قدرتهم على إصلاح نفوسهم وإلى تنزيههم عن الرذائل والخبائث. ولمثل هذه الصفات تحب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وإذا نسبت هذه الصفات إلى صفات الله تعالى، وجدتها مضمحلة بالنسبة إلى صفاته سبحانه وتعالى.

أما العلم، فإن علم الأولين والآخرين من علم الله تعالى الذى يحيط بالكل، حتى لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السماوات ولا فى الأرض. وقد خاطب الخلق كلهم فقال: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ (الإسراء: ٨٥).

ولو اجتمع أهل السموات والأرض، على أن يحيطوا بعلمه وحكمته فى تفصيل خلق نملة، أو بعوضة، لم يطلعوا على عشر عشر ذلك، ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء، والقدر اليسير الذى علمه الخلق كلهم، بتعليمه علموه، ففضل علم الله سبحانه على علم الخلائق كلهم خارج عن النهاية، إذ إن معلوماته لا نهاية لها.

وأما صفة القدرة، فهى أيضاً صفة كمال، فإذا نسبت قدرة الخلق كلهم إلى قدرة الله تعالى، وجدت أعظم الأشخاص قوة، وأوسعهم ملكاً، وأقواهم بطشاً، وأجمعهم للقدرة على سياسة نفسه وسياسة غيره، غاية قدرته أن يقدر على بعض صفات نفسه، وعلى بعض امتحان الإنس فى بعض الأمور، وهو مع ذلك لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً، ولا يملك موتاً ولا حياة ولا نشوراً، بل لا يقدر على حفظ عينه من العمى، ولا على حفظ لسانه من الخرس، ولا آذانه من الصمم، ولا بدنه من المرض، ولا يقدر على ذرة من ذرات المخلوقات. وما هو قادر عليه من نفسه وغيره، فليست قدرته من نفسه، بل الله خالقه

وخالق قدرته وخالق أسبابه والممكن له من ذلك. ولو سلط بعوضة على أعظم ملك وأقوى شخص لأهلكته، فليس للعبد قدرة إلا بتمكين مولاه.

قال الله تعالى فى حق أعظم ملوك الأرض ذى القرنين: ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ﴾ (الكهف: ٨٤) فلم يكن جميع ملكه وسلطانه إلا بتمكين الله تعالى، فنواصى الخلق جميعهم فى قبضته وقدرته، إن أهلكهم لم ينقص من ملكه وسلطانه ذرة، إن خلق أمثالهم ألف مرة لم يعيأ بخلقه، فلا قادر إلا هو، فله الكمال والعظمة والبهاء والكبرياء والقهر والاستيلاء. فإن تصور أن تحب قادراً لكمال قدرته وعظمته وعلمه، فلا يستحق ذلك سواه، ولا يتصور كمال التقديس والتنزيه إلا له سبحانه، فهو الواحد الذى لا ند له، الفرد الذى لا ضد له، الصمد الذى لا منازع له، الغنى الذى لا حاجة له، القادر الذى يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، لا راد لحكمه، ولا معقب لقضائه، العالم الذى لا يعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء.

وكمال معرفة العارفين الاعتراف بالعجز عن معرفته، وهو المستحق لكمال المعرفة والمحبة استحقاقاً لا يساهم فيه أصلاً.

فصل فى بيان أن أجلَّ اللذات وأعلاها معرفة الله سبحانه والنظر إلى وجهه الكريم وأنه لا يتصور أن يُؤْثَر على ذلك لذة أخرى إلا من حُرِم هذه اللذة

اعلم: أن اللذات تابعة للإدراكات، والإنسان جامع لجملة من القوى والغرائز، ولكل قوة غريزة لذة، ولذتها فى نيلها لمقتضى طبعها الذى خلقت له، فإن هذه الغرائز عبثاً، بل لأمر من الأمور، وهو مقتضاها بالطبع، فغريزة الغضب خلقت للتشفى والانتقام، فلا جرم أن لذتها فى الغلبة والانتقام الذى هو مقتضى طبعه، وغريزة شهوة الطعام خلقت لتحصيل الغذاء الذى به القوام، وكذا لذة البصر والسمع فى الإبصار والإسماع.

وكذلك فى القلب غريزة تسمى النور الإلهى، وقد تسمى العقل، وتسمى البصيرة الباطنة، وتسمى نور الإيمان واليقين، وهذه الغريزة خلقت ليعلم بها حقائق الأمور كلها بطبعها، فمقتضى طبعها العلم والمعرفة، وذلك لذتها.

وليس يخفى أن العلم والمعرفة، ولو فى شىء خسيس يفرح به، وأن من ينسب إلى الجهل ولو فى شىء حقير يغتم به. وكل ذلك لفرط لذة العلم، وما يستشعره من كمال ذاته. فإن العلم من أحسن الصفات ومنتهى الكمال، ولذلك يرتاح الإنسان بطبعه إذا أثنى عليه بالذكاء، وغزارة العلم، ثم ليس لذة العلم بالحراثة والخياطة كلذة العلم بسياسة الملك

وتدبير أمر الخلق، ولا لذة العلم بالشعر والنحو كلذة العلم بالله تعالى وملائكته وملكوت السموات والأرض، بل لذة العلم بقَدْر شرف العلم، وشرف العلم بقَدْر شرف المعلوم، فبهذا استبان أن ألذ المعارف أشرفها، وشرفها بحسب شرف المعلوم، فإن كان فى المعلومات ما هو الأجل والأكمل والأشرف والأعظم، فالعلم به ألذ العلوم لا محالة وأشرفها.

وليت شعرى، هل فى الوجود شىء أجل وأعلى وأشرف وأكمل وأعظم من خالق الأشياء كلها ومكملها. ومزينها ومبديها ومعيدها ومدبرها ومرتبها ومميتها ومحييها؟! وهل يتصور أن يكون حضرة فى الملك والكمال والجمال والبهاء والجلال أعظم من الحضرة الربانية التى لا يحيط بجلالها وكمالها وعجائب أمورها وصف الواصفين؟!

فينبغى أن تعرف أن لذة المعرفة أقوى من جميع اللذات المدركة بالحواس الخمس، فإن المعانى الباطنة أغلب على ذوى الكمال من اللذات الظاهرة. فلو خُيِّر الرجل بين لذة أكل الدجاج السمين واللوزينج، وبين لذة الرياسة، وقهر الأعداء، ونيل درجة الاستيلاء، فإن كان المخيّر خسيس الهمة ميت القلب شديد الشهوة البهيمية اختار اللحم والحلواء، وإن كان علىَّ الهمة، كامل العقل، فإنه يختار الرياسة، ويهون عليه الجوع والصبر على ضرورة القوت أياماً.

فاختياره للرياسة دليل على أنه ألذ عنده من المطعومات الطيبة، وكما أن لذة الرياسة أغلب اللذات على من جاوز نقصان الناقص الهمة، فلذة معرفة الله سبحانه وتعالى والنظر إلى أسرار الأمور الإلهية ألذ من الرياسة التى هى أعلى اللذات الغالبة على الخلق، وهذا لا يعرفه إلا من ذاق اللذتين جميعاً، فإنه لا محالة يؤثر التبتل والتفرد والفكر والذكر، وينغمس فى بحار المعرفة، ويترك الرياسة، ويحتقر الخلق، لعلمه بفناء رياسته وفناء من عليه رياسته، وكون ذلك مشوباً بالكدر، مقطوعاً بالموت. وتعظم عنده معرفة الله سبحانه وتعالى، ومطالعة صفاته وأفعاله، ونظام مملكته، فإنها خالية عن المزاحمات والمكدرات، متسعة للمتواردين عليها، لا تضيق عنهم، فلا يزال العارف بمطالعتها فى جنة عرضها السموات والأرض، يرتع فى رياضها، ويقطف من ثمارها، ويكرع من حياضها، وهو آمن من انقطاعها، إذ هى أبدية سرمدية، لا يقطعها الموت، لأن الموت لا يهدم محل معرفة الله تعالى، إذ محلها الروح، وإنما الموت يغير أحوالها، أما أن يعدمها فلا.

والعارفون درجات عند الله تعالى متفاوتون، لا يدخل تفاوت درجاتهم تحت الحصر، وهذه الأمور لا تدرك إلا بالذوق، والحكاية فيها قليلة الجدوى. فهذا القدر ينبهك على أن معرفة الله

تعالى ألذ الأشياء، وأنه لا لذة فوقها، ولهذا قال أبو سليمان الدارانى رحمه الله: إن لله عباداً ليس يشغلهم عن الله عز وجل خوف النار ولا رجاء الجنة، فكيف تشغلهم الدنيا عن الله تعالى؟!

وقال بعض أصحاب معروف الكرخى: قلت له: أى شىء أهاجك على العبادة والانقطاع عن الناس؟ فسكت فقلت: ذكر الموت؟ فقال: وأى شىء الموت؟ قلت: ذكر القبر. وقال: وأى شىء القبر؟ قلت: خوف النار ورجاء الجنة؟ فقال: وأى شىء هذا؟ إن ملكاً هذا كله بيده إن أحببته أنساك جميع ذلك، وإن كانت بينك وبينه معرفة كفاك جميع ذلك.

وقال أحمد بن أبى الفتح: رأيت بشر بن الحارث فى منامى، فقلت له: ما فعل معروف الكرخى؟ فحرّك رأسه ثم قال: هيهات، حالت بيننا وبينه الحجب، إن معروفاً لم يعبد الله شوقاً إلى جنته ولا خوفاً من ناره، وإنما عبده شوقاً إلى وجهه الكريم، فرفعه الله إلى الرفيق الأعلى، ورفع الحجب بينه وبينه.

فمتى حصلت محبة الله تعالى لشخص، صار قلبه مستغرقاً بها، ولا يلتفت إلى جنة، ولا يخاف من نار، فإنه قد بلغ النعيم الذى ليس فوقه نعيم. قال بعضهم:

وهَجْرُه أعْظَمُ مِن نَارِهِ ووَصْلُهُ أطْيَبُ مِن جَنَّتِهِ

وإنما أراد بهذا لذة القلب فى معرفة الله تعالى. وأنها مفضلة على لذة الأكل والشرب والنكاح، فإن الجنة معدن تمتع الحواس، وأما القلب فلذته فى لقاء الله تعالى فقط.

واعلم: أن لذة النظر فى الآخرة تزيد على المعرفة فى الدنيا، وقد اقتضت سنة الله تعالى أن النفس ما دامت محجوبة بعوارض البدن، ومقتضى الشهوات، وما يغلب عليها من الصفات البشرية، لا تنتهى إلى المشاهدة، بل هذه الحياة حجاب عنها بالضرورة كحجاب الأجفان عن رؤية الإبصار.

والقول فى سبب كونها حجاباً يطول، فإذا ارتفع الحجاب بالموت، بقيت النفس وفيها نوع تلوّث بالدنيا، فإذا أدخل أهل الجنة الجنة وقد صفوا عن الأكدار، تجلى لهم الحق سبحانه وتعالى على قدر معرفتهم فى الدنيا.

فكل مَنْ لا يعرف الله تعالى فى الدنيا، لا يراه فى الآخرة. وما يستأنف لأحد فى الآخرة ما لم يصحبه فى الدنيا، ولا يحصد أحد إلا ما زرع، ولا يموت المرء إلا على ما عاش عليه، فما صحبه من المعرفة هو الذى يتنعم به بعينه إلا أنه ينقلب مشاهدة بكشف

الغطاء، فتضاعف اللذة، وإنما العيش عيش الآخرة ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾ (العنكبوت: ٦٤).

وعيش الآخرة بقدر المعرفة، ولهذا جاء فى الحديث: «**خير الناس من طال عمره وحسن عمله**»[1] وذلك لأن المعرفة إنما تكمل وتكثر وتتسع فى العمر الطويل بمداومة الفكر والذكر، والمواظبة على المجاهدة، والانقطاع عن علائق الدنيا، والتجرد لطلبها، فقد عرفت بما ذكرنا معنى المحبة، ومعنى لذة المعرفة، ومعنى الرؤية ولذتها، ومعنى كونها ألذ من سائر اللذات عند أهل الكمال.

فصل فى بيان الأسباب المقوية لحب الله تعالى وتفاوت الناس فى الحب وبيان السبب فى قصور أفهام الخلق عن معرفة الله تعالى

واعلم: أن أسعد الناس وأحسنهم حالاً فى الآخرة أقواهم حباً لله تعالى، فإن الآخرة معناها فى القدوم على الله تعالى، ودرك سعادة لقائه. وما أعظم نعيم المحب إذا قدم على محبوبه بعد طول شوقه، وتمكن من مشاهدته من غير منغص ولا مكدر، إلا أن هذا النعيم على قدر المحبة، فكلما ازداد الحب ازدادت اللذة.

وأصل الحب لا ينفك عن مؤمن، لأنه لا ينفك عن أصل المعرفة، وأما قوة الحب واستيلاؤه، فذلك ينفك عنه الأكثرون، وإنما يحصل ذلك بشيئين:

أحدهما: قطع علائق الدنيا، وإخراج حب غير الله من القلب، فأحد أسباب ضعف حبه، قوة حب الدنيا، وبقدر ما يأنس القلب بالدنيا ينقص أنسه بالله، والدنيا والآخرة ضرتان، وسبيل قطع الدنيا عن القلب سلوك طريق الزهد، وملازمة الصبر، والانقياد إليهما بزمام الخوف والرجاء، وما ذكرناه من المقامات كالتوبة والصبر والشكر والزهد والخوف وغير ذلك.

السبب الثانى لقوة المحبة: معرفة الله تعالى، فإذا حصلت المعرفة تبعتها المحبة، ولا يوصل إلى هذه المعرفة بعد انقطاع شواغل الدنيا من القلب إلا الفكر الصافى، والذكر الدائم، والتشمير الدائم فى الطلب، والاستدلال عليها بأفعاله سبحانه، وأقل أفعاله الأرضُ وما عليها، بالإضافة إلى الملائكة وملكوت السموات.

والشمس على ما يرى من صغر حجمها مثل الأرض مائة ونيفاً وستين مرة، فانظر إلى

---

(١) سبق تخريجه ص (٢٦٧).

صغر الأرض بالإضافة إليها، ثم انظر إلى صغر الشمس بالإضافة إلى فلكها الذى هى مركوزة فيه وهى فى السماء الرابعة، والسماء الرابعة صغيرة بالنسبة إلى ما فوقها من السموات، ثم السموات السبع فى الكرسى كحلقة ملقاة فى فلاة، والكرسى فى العرش كذلك.

ثم انظر إلى الآدمى المخلوق من التراب الذى هو جزء من الأرض، وإلى سائر الحيوانات، وإلى صغره بالإضافة إلى الأرض، وأصغر ما تعرفه من الحيوانات البعوض، فانظر فيه بعقل حاضر، كيف خلقه الله عز وجل على شكل الفيل الذى هو أعظم الحيوانات، وزاده الجناحين، وانظر كيف شق سمعه وبصره، وخلق فى باطنه من أعضاء الغذاء وآلاته، وما دبره فى سائر أحواله، من القوى الجاذبة والدافعة والهاضمة، وانظر كيف خلق له الطيران، يطير إذا طُلب، وجعل له خرطوماً محدداً يمتص به الدم.

وانظر إلى النحل فى تناولها الأزهار من الأنوار، واحترازها عن الأقذار، وطاعتها إلى كبيرها، حتى إنه يقتل كل ما ورد عليه وقد أكل مستقذراً، وإلى اختيارها الشكل المسدس، فلا تبنى بيتاً مربعاً، ولا مستديراً، ولا مخمساً بل المسدس وما يقرب منه بخاصيته فى الشكل المسدس، فإن أوسع الأشكال وأحواها المسدس وما يقرب منه، فإن المربع تخرج منه الزوايا ضائعة، ثم لو بناها مستديرة لبقيت خارج البيوت فرج ضائعة، فإن الأشكال المستديرة إذا جمعت لم تجتمع متراصة، فلا شك فى الأشكال ذوات الزوايا يقرب فى الاحتواء من المستدير، ثم تتراص الجملة منه، بحيث لا يبقى بعد اجتماعها فرجة إلا المسدس، فانظر كيف ألهمه الله تعالى ذلك على صغر حجمه وضعفه، فاعتبر بهذه اللمعة اليسيرة من محقرات الحيوانات، فبالنظر فى هذا وأشباهه تزداد المعرفة به، فتزداد المحبة.

وأما السبب فى تفاوت الناس فى الحب:

فاعلم: أن الناس مشتركون فى أصل الحب، لكنهم يتفاوتون لتفاوت المعرفة، فكثير من الناس ليس لهم من معرفة الله تعالى إلا الصفات والأسماء التى قرعت أسماعهم، والعالم البصير يطالع تفصيل صنع الله تعالى حتى يرى ما يبهر عقله، فتزداد عظمة الله فى قلبه، فيزداد حباً له، وتجر هذه المعرفة التى هى معرفة عجائب صنع الله تعالى إلى بحر لا ساحل له.

وأما السبب فى قصور أفهام الخلق عن معرفة الله تعالى، فاعلم أن كل من صنع شيئاً دل المصنوع على وجود صانعه، وعلى علمه وحياته وقدرته دلالة جلية ظاهرة، وإن كانت هذه الصفات لا تدرك بشىء من الحواس الخمس. فوجود الله سبحانه وتعالى وقدرته وعلمه

وسائر صفاته يشهد له بالضرورة كل ما نشاهده من حجر ومدر وشجر ونبات وحيوان وأرض وسماء وكوكب وبر وبحر، بل أول شاهد علينا أنفسنا وإحساسنا، وتقلب أحوالنا، وتغير قلوبنا، وجميع أطوارنا فى حركاتنا وسكناتنا.

وجميع ما فى العالم شواهد ناطقة، وأدلة شاهدة بوجود خالقها ومدبرها ومصرفها ومحركها، ودالة على علمه وقدرته وحياته ولطفه وحكمته وعظمته وجلاله، إذ كل ذرة تنادي بلسان حالها: إنه ليس وجودها بنفسها، وإنها تحتاج إلى موجِد لها، لكن عقولنا بالنسبة إلى إدراك الحضرة الإلهية، كالخفاش بالنسبة إلى النهار، فإنه لضعف بصره يبصر بالليل ولا يبصر بالنهار، وليس عدم إبصاره بالنهار لخفائه، بل لشدة ظهوره واستنارته وضعف أعين الخفاش، فكذلك عقولنا ضعيفة عن إدراك الحضرة الإلهية، فسبحان من احتجب بإشراق نوره، واختفى به عن البصائر والأبصار، فهذا هو السبب فى قصور الأفهام عن معرفة الله سبحانه وتعالى، وانضم إلى ذلك أيضاً أن المدركات الشاهدة لله تعالى، إنما يدركها الإنسان فى حال الصبا قبل حضور العقل عنده، ثم تبدو فيه غريزة العقل قليلاً قليلاً، وهو مستغرق الهم، مشغول به، وقد أنس بمدركاته وألفها، فسقط وقعها عن قلبه بطول الأنس.

وكذلك إذا رأى فجأة حيواناً غريباً، أو نباتاً، أو فعلاً من أفعال الله تعالى عجيباً خارقاً للعادة، انطلق لسانه بالتعجب، فقال: سبحان الله! سبحان الله! وهو يرى طول النهار نفسه، وجميع أعضائه، وجميع الحيوانات المألوفة، وكلها شواهد قاطعة، فلا يحس بشهادتها لطول الأنس بها.

ولو فرض أن أعمى بلغ عاقلاً، ثم انقشعت غشاوة قلبه وعينه، فامتد بصره إلى السماء والأرض، والأشجار، والنبات، والحيوان دفعة واحدة، لخيف على عقله أن ينبهر، لعظم تعجبه من مشاهدة هذه العجائب، وشهادتها لخالقها، فهذا وأمثاله من الأسباب مع الانهماك فى الشهوات، وهو الذى سد على الخلق سبيل الاستضاءة بنور المعرفة، والسباحة فى بحارها الواسعة، والله أعلم وأحكم.

فصل فى بيان معنى الشوق إلى الله تعالى

قد تقدم الكلام فى المحبة وإثباتها بالأدلة، وأن الشوق ثمرة من ثمارها، فإن من أحب شيئاً اشتاق إليه.

واعلم: أن الشوق لا يتصور إلا لشىء أدرك من وجه ولم يدرك من وجه آخر.

فأما ما لا يدرك أصلاً، فلا يشتاق إليه، وكمال الإدراك بالرؤية، وإنما يكون ذلك فى الآخرة.

واعلم: أن الأمور الإلهية لا نهاية لها، وإنما يكشف لكل عبد من العباد بعضها، وتبقى أمور لا نهاية لها، والعارف يعلم وجودها، وكونها معلومة لله تعالى، ويعلم أن ما غاب عن علمه من المعلومات أكثر مما حضر، فلا يزال العبد متشوقاً إلى أن يحصل له أصل المعرفة، وينتهى الشوق الأول فى الدار الآخرة بالمعنى الذى يسمى رؤية ولقاء ومشاهدة، ولا يتصور أن يسكن قلب المشتاق فى الدنيا.

وكان إبراهيم بن أدهم من المشتاقين، فقال يوماً: يا رب! إن كنتَ أعطيتَ أحداً من المحبين لك ما يسكن به قلبه قبل لقائك فأعطنى، فقد أضر بى القلق. قال: فرأيته عز وجل فى النوم أنه أوقفنى بين يديه، فقال: يا إبراهيم! أما استحييت منى؟! تسألنى أن أعطيك ما يسكن به قلبك قبل لقائى، وهل يسكن قلب المشتاق قبل لقاء حبيبه؟ فقلت: يا رب، تهتُ فى حبك فلم أدر ما أقول. فهذا الشوق يسكن فى الآخرة. وأما غير ذلك مما هو معلوم لله فلا نهاية له، فلا يتضح للعبد ولا يحيط به، فهو مشغول بلذة ما ظهر له، ولا يزال النعيم واللذة متزايدين حتى يشتغل عن الإحساس بالشوق إلى ما وراء ذلك، فهذا القدر من أنوار البصائر كاشف لحقائق الشوق ومعانيه.

ومن شواهد الأخبار: ما روى أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم علم رجلاً دعاء، وأمره أن يتعاهد به أهله كل يوم، فذكر فيه: **«أسألك اللهم الرضى بعد القضاء، وبرد العيش بعد الموت، ولذة النظر إلى وجهك، وشوقاً إلى لقائك»**. (1)

وفى التوراة: يقول الله تعالى: طال شوق الأبرار إلى لقائى، وأنا إلى لقائهم أشد شوقاً.

وفى بعض ما أوحى الله عز وجل إلى بعض عباده: إن لى عباداً من عبادى، يحبونى وأحبهم، وأشتاق إليهم ويشتاقون إلىَّ، ويذكرونى وأذكرهم، فإن حذوت طريقهم أحببتك، وإن عدلت عنهم مقتك. قال: يا رب! وما علامتهم؟ قال: يرعون الظلال بالنهار، كما يرعى الراعى الشفيق غنمه، ويحنون إلى غروب الشمس كما تحن الطير إلى أوكارها عند الغروب، فإذا جنَّ الليل، واختلط الظلام، وفرشت الفرش، وخلا كل حبيب بحبيبه، نصبوا أقدامهم، وافترشوا وجوههم، وناجونى بكلامى، وتملقونى بإنعامى، فبين صارخ وباكٍ، وبين متأوهٍ وشاكٍ، وبين قائم وقاعد، وبين راكع وساجد، بعينى ما يتحملون من أجلى، وبسمعى ما يشكون من حبى.

---

(1) **صحيح**: أخرجه النسائى (١٣٠٥) (١٣٠٦) السهو، وصححه الألبانى فى صحيح النسائى من حديث عمار بن ياسر.

فصل فى بيان محبة الله تعالى للعبد ومعناها

وبيان علامات محبة العبد لله تعالى

وأما محبة الله تعالى للعبد، فاعلم:

أن شواهد القرآن متظاهرة على ذلك، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ (البقرة: ٢٢٢)، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا﴾ (الصف: ٤). ونبَّه على أنه لا يعذب من يحبه، لأنه رد على من ادعى أنه حبيبه بقوله: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾ (المائدة: ١٨) وشرَط للمحبة غفران الذنوب فقال: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ (آل عمران: ٣١).

وفى الحديث الصحيح، من رواية أبى هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**إن الله تعالى يقول: ما يزال عبدى يتقرب إلىَّ بالنوافل حتى أحبه**»، إلى آخره. وهو حديث مشهور.[١]

ومن علامة حب الله تعالى للعبد: قول النبى صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الله إذا أحب عبداً ابتلاه».[٢]

ومن أقوى العلامات: حسن التدبير له، يربيه من الطفولة على أحسن نظام، ويكتب الإيمان فى قلبه، وينور له عقله، فيتبع كل ما يقربه، وينفر عن كل ما يبعد عنه، ثم يتولاه بتيسير أموره، من غير ذل للخلق، ويسدد ظاهره وباطنه، ويجعل همه هماً واحداً، فإذا زادت المحبة، شغله به عن كل شيء.

وأما محبة العبد لله تعالى، فاعلم:

أن المحبة يدعيها كل أحد، فما أسهل الدعوى وأعز المعنى، فلا ينبغى أن يغتر الإنسان بتلبيس الشيطان، وخداع النفس إذا ادعت محبة الله تعالى، ما لم يمتحنها بالعلامات، ويطالبها بالبراهين، فمن العلامات حب لقاء الله تعالى فى الجنة، فإنه لا يتصور أن يحب

---

(١) سبق تخريجه ص (٢٣١).

(٢) **حسن:** أخرجه الترمذى (٢٣٩٦) الزهد، وابن ماجه (٤٠٣١) الفتن، عن الليث، عن يزيد بن أبى حبيب، عن سعد بن سنان عن أنس عن النبى ﷺ. وقال أبو عيسى: «هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه»، وحسنه الألبانى فى صحيح الترمذى.

القلب محبوباً إلا ويحب لقاءه ومشاهدته، وهذا لا ينافى كراهة الموت، فإن المؤمن يكره الموت، ولقاء الله بعد الموت.

ومن السلف من أحب الموت، ومنهم من كرهه، إما لضعف محبته، أو لكونها مشوبة بحب شيء من الدنيا، أو لأنه يرى ذنوبه فيحب أن يبقى ليتوب.

ومنهم من يرى نفسه فى ابتداء مقام المحبة، فيكره عجلة الموت قبل أن يستعد للقاء الله تعالى، وهذا كمحب يصله الخبر بقدوم حبيبه عليه، فيحب أن يتأخر قدومه ساعة ليهيئ له داره، ويعدل له أسبابه، فيلقاه كما يهواه، فارغ القلب عن الشواغل، خفيف الظهر عن العوائق، فالكراهة بهذا السبب لا تنافى كمال المحبة، وعلامة هذا: الدوام فى العمل، واستغراق الهم فى الاستعداد.

ومنها: أن يكون مؤثراً ما أحبه الله تعالى على ما يحبه فى ظاهره وباطنه، فيجتنب اتباع الهوى، ويعرض عن دعة الكسل، ولا يزال مواظباً على طاعة الله تعالى متقرباً إليه بالنوافل.

ومن أحب الله تعالى فلا يعصيه، إلا أن العصيان لا ينافى أصل المحبة، إنما يضاد كمالها، فكم من إنسان يحب الصحة ويأكل ما يضره، وسببه أن المعرفة قد تضعف والشهوة قد تغلب، فيعجز عن القيام بحق المحبة، ويدل على ذلك حديث نعيمان أنه كان يؤتى به إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيحده إلى أن أتى به يوماً، فحده، فلعنه رجل، وقال: ما أكثر ما يؤتى به! فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: **«لا تلعنه، فإنه يحب الله ورسوله»**[1] فلم تخرجه المعصية عن المحبة، وإنما تخرجه عن كمال المحبة.

ومن العلامات: أن يكون مستهتراً بذكر الله تعالى، لا يفتر عنه لسانه، ولا يخلو عنه قلبه، فإن من أحب شيئاً أكثر من ذكره بالضرورة، ومِنْ ذكر ما يتعلق به.

فعلامة حب الله تعالى حب ذكره، وحب القرآن الذى هو كلامه، وحب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ (آل عمران: ٣١).

وقال بعض السلف: كنت قد وجدت حلاوة المناجاة، فكنت أدمن قراءة القرآن، ثم لحقتنى فترة فانقطعت، فرأيت فى المنام قائلاً يقول:

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخارى فى «الحدود» (٦٧٨٠).

إنْ كنتَ تزعمُ حبِّي فلِمَ هجرتَ كتابي
أما تدبَّرتَ ما فيـ ـهِ منْ لطيفِ عتابي

ومنها: أن يكون أنسه بالخلوة، ومناجاة الله تعالى، وتلاوة كتابه، فيواظب على التهجد، ويغتنم هدوء الليل وصفاء الوقت بانقطاع العوائق، فإن أقل درجات الحب التلذذ بالخلوة بالحبيب، والتنعم بمناجاته.

روى أن عابداً عبد الله فى غيضة دهراً، فنظر إلى طائر قد عشش فى شجرة يأوى إليها، ويصفر عندها. فقال: لو حولت مسجدى إلى تلك الشجرة كنت آنس بصوت هذا الطائر، ففعل، فأوحى الله تعالى إلى نبيهم: قل لفلان العابد: استأنست بمخلوق، لأحطنك درجة لا تنالها بشىء من عملك أبداً.

فإذن علامة المحبة: كمال الأنس بمناجاة المحبوب، وكمال التنعم بالخلوة، وكمال الاستيحاش من كل ما ينقص عليه الخلوة.

ومتى غلب الحب والأنس صارت الخلوة والمناجاة قرة عين تدفع جميع الهموم، بل يستغرق الحب والأنس قلبه، حتى لا يفهم أمور الدنيا، ما لم تتكرر على سمعه مراراً، مثل العاشق الولهان.

ومنها: أن يتأسف على ما يفوته من ذكر الله تعالى، ويتنعم بالطاعة، ولا يستثقلها، ويسقط عنه تعبها.

قال ثابت البنانى رحمه الله: كابدت الصلاة عشرين سنة، وتنعمت بها عشرين سنة.

وقال الجنيد: علامة المحبة دوام النشاط الدؤوب بشهوة يفتر بدنه ولا يفتر قلبه، وكل هذا موجود المثال فى المشاهدات، فإن المحب لا يستثقل السعى فى مراد محبوبه، ويستلذ خدمته بقلبه، وإن كان شاقاً على بدنه، وكل حب قاهر لا محالة، فمن كان محبوبه أحب إليه من الكسل، ترك الكسل فى خدمته، وإن كان أحب إليه من المال، ترك المال فى حبه.

ومنها: أن يكون شفيقاً على جميع عباد الله، رحيماً بهم، شديداً على أعدائه، كما قال تعالى: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ (الفتح:٢٩)، ولا تأخذه فى الله لومة لائم، ولا يصرفه عن الغضب له صارف، فهذه علامات المحبة، فمن اجتمعت فيه فقد تمت محبته، وصفا فى الآخرة شرابه. ومن امتزج بحبه حب غير الله، تنعم فى الآخرة بقدر حبه، فيمزج شرابه

بشيء من شراب المقربيـن، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ إلى قوله: ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ (٢٥) خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ (٢٦) وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ (٢٧) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾ (المطففين: ٢٢-٢٨) فقوبل الخالص بالصرف، والمشوب بالمشوب. ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (الزلزلة: ٧-٨).

ومنها: أن يكون فى حـبه خائفـاً بين الهيبـة والتعظيـم، فإن الخوف لا يضاد المحـبة، وتخصيص المحبين مـخاوف فى مقام المحبة ليست لغيرهم، وبعضـها أشد من بعض، فأولها خوف الإعراض، وأشد منه خوف الحجاب، وأشد منه خوف الإبعاد.

ومنها: كتمان الحـب، واجتناب الدعوى، والتوقى مـن إظهار الوجد، والمحبة، تعـظيماً للمحبوب، وإجـلالاً له، وهيبة منه، وغيرة على سره، فإن الحب سـر من أسرار الحبيب. وقد يقع المحب فى دهش وسكر، فيظهر عليه الحـب من غير قصد، فهو فى ذلك معذور، كما قال بعضهم:

ومَنْ قـلبُـه مـعَ غـيْـرِه كـيفَ حـالُـه ومَـنْ سـرُه فـى جَـفْـنِـه كَـيْـفَ يُكْتَـمُ

فصل فى بيان معنى الأنس بالله والرضى بقضاء الله عز وجل

اعلم: أن من غلب عليه حال الأنس لم تكن شهوته إلا فى الانفراد والخلوة، لأن الأنس بالله يلازمه التوحش من غيره، ويكون أثقل الأشياء على القلب كل ما يعوق عن الخلوة.

قال عبـد الواحد بن زيد: قلت لـراهب: لقد أعجـبتك الخلوة، فقـال: لو ذقتَ حلاوة الخلوة لاستوحـشتَ إليها من نفسك، قلـت: متى يذوق العبد حلاوة الأنس بـالله تعالى؟ قال: إذا صفا الود، خلصت المعاملة. قلت: متى يصفو الود؟ قال: إذا اجتمع الهم، فصار هماً واحداً فى الطاعة.

فإن قيـل: ما علامة الأنس؟ قـيل: علامتـه الخاصة ضيق الـصدر عن معاشـرة الخلق، والتبرم بهم، وإن خالط، فهو كمنفرد غائب مخالط بالبدن، منفرد بالقلب.

واعلم: أن الأنس إذا دام وغلب واستحكم، ولم يشوشـه قلق الشوق، ولم ينغِّصه خوف التغير والحجاب، فإنه يثمر نوعاً من الانـبساط فى الأقوال والأفعال والمناجاة مع الله تعالى، وقد يكون ذلك منكراً فى الصورة لما فيه من الجراءة وقلـة الهيبة، وإن كان محتملاً ممن أقيم مقام الأنس. ومن لم يقـم فى ذلك المقام ويتشبه بهم فى الفـعل والكلام هلك به، وأشرف

صاحبه على الكفر، وذلك كما يروى عن أبى حفص أنه كان يمشى يوماً، فاستقبله رجل مدهوش، فقال: ما لك؟ قال: ضل حمارى، ولا أملك غيره. فوقف أبو حفص وقال: وعزتك لا أخطو ما لم ترد عليه حماره، فظهر الحمار.

وروى عن برخ العابد أنه خرج يستسقي فقال: يا رب، أنت بالبخل لا ترمى، انفذ ما عندك، اسقنا الساعة.

ولا يستبعد أن يحتمل من شخص ما لم يحتمل من غيره.

وأما الرضى بقضاء الله تعالى، فهو من أعلى مقامات المقربين، وهو من ثمار المحبة، وحقيقته غامضة، ولا ينكشف الأمر فيه إلا لمن علّمه الله تعالى التأويل وفهمه الدين.

ومن فضائل الرضى: ما ورد فى الحديث أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال: **«إذا أراد الله بعبد خيراً أرضاه بما قسم له»**. (١)

وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: يا داود، إنك لن تلقانى بعمل هو أرضى لى عنك، ولا أحط لوزرك من الرضى بقضائى.

ونظر علىّ بن أبى طالب رضي الله عنه إلى عدى بن حاتم كئيباً، فقال: يا عدى، ما لى أراك كئيباً حزيناً؟ فقال: وما يمنعنى فقد قُتل ابناى، وفقئت عينى. فقال: يا عدى! من رضى بقضاء الله جرى عليه وكان له أجر، ومن لم يرضَ بقضاء الله جرى عليه وحبط عمله.

ودخل أبو الدرداء رضي الله عنه على رجل وهو يموت وهو يحمد الله تعالى، فقال أبو الدرداء: أصبت، إن الله عز وجل إذا قضى قضاء أحب أن يرضى به.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: إن الله تعالى بقسطه وعدله جعل الروح والفرح فى اليقين والرضى، وجعل الهم والحزن فى الشك والسخط.

---

(١) **ضعيف**: أخرجه الترمذى (٢١٥١)، وأحمد (١٤٤٧)، والحاكم (٥١٨/١)، عن محمد بن أبى حميد، عن إسماعيل بن محمد بن سعد بن أبى وقاص، عن أبيه، عن سعد، قال: قال رسول الله ﷺ: **«من سعادة ابن آدم رضاه بما قضى الله له...»** وقال أبو عيسى: «هذا حديث لا نعرفه إلا من حديث محمد بن أبى حميد، ويقال له أيضاً: حماد بن أبى حميد، وهو أبو إبراهيم المدينى، وليس هو بالقوى عند أهل الحديث». وانظر الضعيفة للألبانى (١٩٠٦).

وقال علقمة فى قوله عز وجل: ﴿ وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾(التغابن: ١١) قال: هى المصيبة تصيب الرجل، فيعلم أنها من عند الله، فيسلم لها ويرضى.

وقال أبو معاوية الأسود فى قوله تعالى: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾(النحل: ٩٧) قال: الرضى والقناعة.

وفى الأخبار: أن نبياً من الأنبياء شكا إلى ربه عز وجل الجوع والفقر عشر سنين، فما أجيب إلى ما أراد، ثم أوحى الله إليه: كم تشكو؟ هكذا كان بدؤك عندى فى أم الكتاب قبل أن أخلق السماوات والأرض، وهكذا سبق لك منى، وهكذا قضيت عليك قبل أن أخلق الدنيا، أفتريد أن أعيد خلق الدنيا من أجلك؟ أم تريد أن أبدل ما قدرت لك؟ فيكون ما تحب فوق ما أحب، ويكون ما تريد فوق ما أريد، وعزتى وجلالى، لئن تلجلج هذا فى صدرك مرة أخرى لأمحونك من ديوان النبوة.

وفى «زبور داود» عليه السلام: هل تدرى من أسرع الناس مراً على الصراط؟ الذين يرضون بحكمى وألسنتهم رطبة من ذكرى.

وقال داود عليه السلام: يا رب! أى عبادك أبغض إليك؟ قال: عبد استخارنى فى أمر، فخرتُ له، فلم يرضَ.

وقال عمر بن عبد العزيز: ما بقى لى سرور إلا فى مواقع القدر.

وقيل له: ما تشتهى؟ فقال: ما يقضى الله عز وجل.

وقال الحسن: من رضى بما قسم له، وسعه، وبارك الله فيه، ومن لم يرضَ لم يسعه، ولم يبارك له فيه.

وقال عبد الواحد بن زيد: الرضى باب الله الأعظم، وجنة الدنيا، ومستراح العابدين.

وقال بعضهم: لن يَرِدَ الآخرة أرفع درجات من الراضين عن الله تعالى على كل حال، فمن وهب له الرضى، فقد بلغ أفضل الدرجات.

وأصبح أعرابى وقد مات له أباعر كثيرة، فقال:

لا والذى انا عبدٌ فى عبادته ... لولا شَمَاتةُ أعداءٍ ذَوِى إِحَنِ
ما سرَّنى انْ إبلى فى مَبَارِكِها ... وأنَّ شيئاً قضاهُ اللَّهُ لم يَكُنِ

فصل: يتصور الرضى فيما يخالف الهوى

ويتصور الرضى فيما يخالف الهوى، وبيان ذلك إذا جرى على الإنسان الألم، فتارة يحس به ويدرك ألمه، ولكنه يكون راضياً به، راغباً فى زيادته بعقله، وإن كان كارهاً له بطبعه لما يوصله من الثواب. مثاله: أن يلتمس من الحجامة والفصد، فإنه يدرك ألم ذلك، إلا أنه راضٍ به، وراغب فيه، ومتقلد منة الحجام.

وكذلك كل من يسافر فى طلب الربح، فإنه يدرك مشقة السفر، لكن حبه لثمرة سفره طيب عنده تلك المشقة، وجعله راضياً بها، وكل من أصابه بلية من الله تعالى وكان له يقين، بأن ثوابه الذى ادخر له فوق ما فاته، فيرضى بما أصابه، ويشكر الله تعالى عليه، ويجوز أن يغلبه الحب، بحيث يكون حظ المحب فى مراد محبوبه، ويبطل الإحساس بالألم لفرط الحب، وليس ذلك بعجيب، فإن الرجل المحارب فى حال غضبه أو خوفه، تصيبه الجراحات ولا يحس بها، ولا يشعر بها فى تلك الحال، وذلك لأن قلبه مستغرق، وإذا كان القلب مستغرقاً بأمر من الأمور لم يدرك ما عداه، وذلك موجود فى المشاهدات.

قال الجنيد رحمه الله: سألت سرياً السقطى: هل يجد المحب ألم البلاء؟ قال: لا.

وقد روينا عن خلق كثير من أهل البلاء، أنهم كانوا يقولون: لو قطعنا إرباً إرباً، ما ازددنا له إلا حباً.

وقد تقدم أن فرط الحب يزيل إحساس الألم، وهو متصور فى حب الخلق، كما حكى بعضهم. قال: كان فى جيراننا رجل له جارية يحبها، فاعتلت، فجلس يصلح لها حساء، فبينما هو يحرك القدر، قالت: أوه، فدهش وسقطت المعلقة من يده، وجعل يحرك القدر بيده حتى تساقطت أصابعه وهو لا يعلم. ويؤيد هذا قصة النسوة حين شاهدن يوسف عليه السلام، فإنهن قطعن الأيدى، وما أحسسن بألم، فقد بان بما ذكرنا أن الرضى بما يخالف الهوى ليس مستحيلاً، وإذا كان ذلك ممكناً فى حق الخلق وحظوظهم، كان ممكناً فى حق الله سبحانه، وحظوظ الآخرة بطريق الأولى. وإمكان ذلك فى ثلاثة أوجه:

أحدها: علم المؤمن بأن تدبير الله تعالى خير من تدبيره.

وقد قال النبى صلى الله عليه وآله وسلم: **«ما قضى الله لمؤمن من قضاء إلا كان خيراً له»**[1].

---

(١) سبق تخريجه ص (٢٧٨).

وعن مكحول قـال: سمعت ابن عمـر ﷺ يقول: إن الرجل يستـخير الله فيـختار له، فيسخط فلا يلبث أن ينظر فى العاقبة، فإذا هو قد خير له.

وعن مسروق قال: كان رجل بالبادية له كلب وحـمار وديك، فالديك يوقظ للصلاة، والحمار ينقلون عليه الماء ويحـمل خباءهم، والكلب يحرسهم. فجاء الثعلـب فأخذ الديك، فحزنوا، فقال الرجل: عسى أن يكون خيراً، ثم جاء ذئب فـخرق بطن الحمار، فحزنوا، فقال الرجل: عسى أن يكون خـيراً، ثم أصيب الكلب، فحـزنوا، فقال الرجل: عسى أن يـكون خيراً، ثم أصبحوا ذات يوم، فنظروا فإذا قد سبى مَنْ حولهم وبقوا هم، وإنما أخذ أولئك بما كان عندهم من الصوت والجلبة، ولم يكن عند أولئك شىء يجلب، قد ذهب كلبهم وحمارهم وديكهم.

وعن سعـيد بن المسـيب قال: قـال لقمان لابنـه: يا بنى، لا ينزلـن بك أمر رضيـته أو كرهته، إلا جعلت فى الضمير أن ذلك خـير لك. قال: أما هذه فلا أقدر أن أعطيكها دون أن أعلم ما قلت أنه كما قـلت. قال: يا بنى، فإن الله قد بعث نبياً هلمَّ حـتى نأتيه، فعنده بيان ما قلـت لك. قال: اذهب بنا إليه، فخـرج على حمار وابنه على حـمار، وتزودوا ما يصلحهما، ثم سارا أيامـاً وليالى، حتى تلقتهما مفازة، فأخذا أهبتـهما ودخلاها، فسارا ما شاء الله أن يسـيرا، حتى تعالى النهـار واشتد الحر ونفد الماء والـزاد، فاستبطآ حمـاريهما، فنزلا يمشيـان، فبينما هما كذلك، إذ نـظر لقمان أمامه، فإذا هو بسـواد ودخان، فقال فى نفسه: الـسواد شجر، والدخان عـمران وناس، فبينـما هما كذلك يشـهدان، إذ وطئ ابن لقمان على عظم على الـطريق، فدخل فى باطن قدمه حتى ظهر من أعلاها، فـخر مغشياً عليـه، فحانت من لقـمان التفـاتة، فإذا هو بابنـه صريع، فوثب إلـيه فضمـه إلى صدره، واستخـرج العظم بأسنانه، وشق عـمامة كانت عليـه فعصب رجله، ثم نظـر إلى وجه ابنه فذرفت عيناه، فـقطرت قطرة من دموعه على خد الـغلام فانتبه لها، فنظـر إلى أبيه يبكى، فقال: يا أبت، أنت تبكى وأنت تقول: هذا خـير لى، فكيف ذلك وأنت تبكى؟! وقد نفد الطعـام والشراب وبقـيت أنا وأنت فى هذا المكان. قال: أما بـكائى يا بنى، فـوددت أنى افتديتك بجمـيع حظى من الدنيا، ولكنى والد ومنى رقة الوالد. وأمـا قولك: كيف يكون هذا خيراً لى؟ فلعل ما صُرف عنك أعظم مما ابتـليت به، ولعل ما ابتليت به أيسر مما صرف عنك، فبينما هو يحاوره، إذ نظر لقمان أمامه، فلم ير الدخان والسواد، فقال فى نفسه: لم أر شيئاً، ثم قال: قد رأيت، ولكن لعله أن يكون قـد أحدث ربى بما رأيت شيئاً، فبينما هو

يتفكر فى ذلك، إذ نظر فإذا هو بشخص قد أقبل على فرس أبلق، عليه ثياب بيض، يمسح الهواء مسحاً. فلم يزل يـرمقه بعينه حتى كان منه قريباً فتـوارى عنه ثم صاح به فقال: أنت لقمان؟ قـال: نعم. قال: ما قال لك ابنك هذا السـفيه؟ قال: يا عبد الـله من أنت؟ أسمع كلامك ولا أرى وجهك؟ قال: أنا جبريل، لا يـرانى إلا ملك مقرب، أو نبى مرسل، لولا ذلك لرأيتنى، فما قـال لك ابنك هذا السفيه؟ قال: أما علمت ذلك؟ فـقال جبريل: ما لى بشىء من أمركما علم، إلا أن حفظتكما أتـونى، وقد أمرنى ربى تعالى بخسف هذه المدينة وما فيها ومن يليها، فأخبرونى أنكما تريدان هذه المدينة، فدعوت ربى أن يحبسكما عنى بما شاء، فحبسكما عنى بما ابتلى به ابنك، ولولا ذلك لخسف بكما مع من خسف به، ثم مسح جبريل عليـه السلام بيده على قدم الغلام، فـاستوى قائماً، ومسح يده علـى الذى كان فيه الطعام فامـتلأ طعاماً، ومسح على الـذي كان فيه ماء فامتـلأ ماء، ثم حملهما وحمـاريهما فرحل بهما كما يرحل الطير، فإذا هما فى الدار التى خرجا منها بعد أيام وليالى.

الوجه الثانى: الرضى بالألم، لما يتوقع من الثواب المدخر، كما تقدم من الرضى بالفصد والحجامة وشرب الأدوية انتظاراً للشفاء.

الوجه الثالث: الرضى به لا لحظ وراءه، بل لكونه مراد المحبـوب، فيكون ألذ الأشياء عنده ما فيه رضى محبوبه، ولو كان فى ذلك هلاك نفسه، كما قال بعضهم: فما لجرح إذا أرضاكم ألم.

وقد سبق أن الحب يستولى بحيـث يدهش عن إدراك الألم، ولا ينبغى أن ينكر ذلك من فقده من نـفسه، لأنه إنما فقـده لفقد سببـه، وهو فرط حبه، ومن لـم يذق طعم الحب لم يعرف عجائبه، ولعـمرى إن من فقد السمع أنكر لذة الألحان والنغمـات، فمن فقد القلب، فلابد أن ينكر هذه اللذات التى لا مظنة لها سوى القلب.

فصل فى أن الدعاء وإنكار المعاصى لا يناقض الرضى

واعلم: أن الدعاء لا يناقـض الرضى، وكذلك كراهة المعـاصى ومقت أهلها وأسـبابها، والسعى فى إزالتها.

أما الدعاء، فـقد تعبدنا اللـه تعالى به، وقد أثنى اللـه تعالى على بعض عبـاده بقوله: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ (الأنبياء: ٩٠) ودعاء رسول اللـه صلى الله عليه وآله وسلـم وغيره من الأنبياء والصالحين معلوم.

وأما إنكار المعاصى وعدم الرضى بها فقد تعبدنا الله تعالى به، وذم الراضى به، وكذلك

بغض الكفار والفجار، والإنكار عليهم، وشواهد ذلك فى القرآن والأخبار كثيرة جداً.

فإن قيل: فقد وردت الأخبار بالرضى بقضاء الله تعالى، فإن كانت المعاصى بغير قضاء الله تعالى، فهو محال، وإن كانت بقضائه، فكراهتها كراهة لقضائه، فكيف الجمع بين هذين الحالين.

فاعلم: أن هذا مما يلتبس علـى القاصرين على الوقوف على أسرار العـلم، حتى التبس على قوم، فرأوا السكوت عن الإنكار مقاماً من مقامات الرضى، وسموه حسن الخلق، وهو جهل محض، بل نقول: الرضى والكراهة يـتضادان، إذا تواردا على شىء واحد، من جهة واحدة، على وجه واحد. فـأما إذا رضيت بشىء من وجه، وكرهتـه من وجه آخر، فليس ذلك بمتضاد، نحو أن يموت عدوك الذى هو أيضاً عدو لبعض أعدائك، وساع فى إهلاكه، فتكره موته من حيث إنه مات عدو عدوك، وترضاه من حيث إنه عدوك، وكذلك للمعصية وجهان: وجه إلـى الله تعالى، من حيث إنها اخـتياره وإرادته، فترضى بهـا من هذا الوجه تسليماً للملك إلى مالك الملك، ووجه إلى العبـد من حيث إنه كسبه ووصفه وعلامة لكونه ممقوتاً عند الله تعالـى، وبغيضاً عنده، حيث سلط عليه أسباب البـعد والمقت، فهو من هذا الوجه منكر ومذمـوم، ولا ينكشف هذا إلا بمثال، فلنفرض محبـوباً من الخلق قال بين يدى محبه: إنى أريد أن أميـز بين من يحبنى ويبغضنى، وأنصب لذلك مـعياراً صادقاً، وهو أنى أقصد إلى فلان فأضربـه ضرباً شديداً يضطره ذلك إلى الشتم لى، حتى إذا شتـمنى أبغضته واتخذته عدواً، فكل من أحبه علمت أنه أيضـاً عدو لى، وكل من أبغضه علمت أنه محبى وصديقى، ثم فعل ذلـك وحصل مراده من الشتم الذى هو سبب البـغض، وحصل البغض الذى هو سبب العداوة، فـحق على كل من هو صادق فى محبته أن يـقول: أما تدبيرك فى ضرب هذا الشخص وأذاه، فأنا محب له، فإنه رأيك وتدبيرك وفعلك، وأما شتمه إياك من حيث نسبته إلى هـذا الشخص فإنه عدوان منه وتهجم عليك، فأنا كاره لـه من حيث نسبته إليه إذ كان حـقه أن يصبر ولا يشـتم، فكذلك تسليط الله سـبحانه وتعالى دواعـى الشهوة والمعاصى على العبد، وبغضه على عصيانه.

فواجب على كل عبـد محب لله أن يبغض من أبغضه الله عـز وجل، ويعادى من عاداه وأبغضه وأبعـده عن حضرته، وإن اضطره بقهره وقدرتـه إلى معاداته ومخالفته، فـإنه بعيد مطرود، والمبـعد عن درجات القرب يـنبغى أن يكون بغـيضاً إلى جمـيع المحبين، مـوافقةً لمحبوبهم، بإظهار الغضب على من أظهر المحبوب الغضب عليه بإبعاده.

وبهذا يتقرر جميع ما وردت به الأخبار من البغض فى الله والحب فى الله، والتشديد على الكفار والتغليظ عليهم، والمبالغة فى مقتهم، مع الرضى بقضاء الله تعالى، من حيث إنه قضاؤه، وهذا كله يستمد من سر القدر الذى لا رخصة فى إفشائه، وهو أن الخير والشر كلاهما داخلان فى المشيئة والإرادة، ولكن الشر مراد مكروه والخير مراد مرضى به.

والأولى السكوت والتأدب بأدب الشرع، والوقوف مع ما تعبد به الخلق، من الجمع بين الرضى بقضاء الله تعالى ومقت المعاصى، والله تعالى أعلم.

ومما يتعلق بالمحبة:

قيل: أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: لو يعلم المدبرون عنى كيف انتظارى لهم، ورفقى بهم، وشوقى إلى ترك معاصيهم، لماتوا شوقاً إلى، وتقطعت أوصالهم من محبتى.

يا داود، هذه إرادتى فى المدبرين عنى، فكيف إرادتى فى المقبلين علىَّ؟

يا داود، أحوج ما يكون العبد إلىَّ إذا استغنى عنى، وأجل ما يكون عند إذا رجع إلىَّ.

وكانت امرأة متعبدة تقول: والله لقد سئمت الحياة، حتى لو وجدت الموت يباع لاشتريته شوقاً إلى الله تعالى، وحباً للقائه. فقيل لها: فعلى ثقة أنت من عملك؟ قالت: لا، ولكنى لحبى إياه وحسن ظنى به، أفتراه يعذبنى وأنا أحبه؟ والله أعلم.

كتاب فى النية والإخلاص والصدق

اعلم: أنه قد انكشف لأرباب القلوب ببصيـرة وأنوار القرآن أنه لا وصول إلى السعادة إلا بالعلم والعبادة.

فالناس كلهم هلكى، إلا العالمون، والعالمون كلهم هلكى إلا العاملون، والعاملون كلهم هلكى إلا المخلصون، والمخلصون على خطر عظيم.(١)

فالعمـل بغير نية عنـاء، والنية بغير إخـلاص رياء، والإخلاص من غير صـدق وتحقيق هباء. قال الـله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ (الفرقان: ٢٣). وليت شعرى، كيف تصلح نية من لا يعرف حقيـقة النية؟ أو كيف يخلص من صحح النية إذا لم يعرف حقيقة الإخلاص؟! أو كيف يطالب المخلص نفسه بالصدق إذا لم يتحقق معناه؟

فالوظيـفة الأولى على كل عبـد أراد طاعة الله تعالـى، أن يعلم النية أولاً، لتـحصل له المعرفة، ثم يصححها بالعمل بعد فهم حقيقة الصدق والإخلاص اللذين هما وسيلتان للعبد إلى النجاة، ونحن نذكر ذلك فى ثلاثة فصول:

الفصل الأول

فى النية وحقيقتها وفضلها وما يتعلق بذلك

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ (الأنعام: ٥٢) والمراد بالإرادة: النية.

وعن عمر بن الخطاب ﷺ قال: سمعت رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: **«إنما الإعمال بالنية، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه».** (٢)

وعن أبى موسى: جاء رجل إلـى النبى صلى الله عليه وآله وسلم فـقال: يا رسول الله أرأيت الرجل يقاتـل شجاعة، ويقاتل حمـية، ويقاتل رياء، أى ذلك فى سبيـل الله؟ فقال

---

(١) سبق التنبيه على ضعف هذا المعنى.

(٢) صحيح: أخرجه البخارى (١) بدء الوحى، ومسلم (١٩٠٧) الإمارة.

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: **«من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله»**[1] أخرجاهما فى «الصحيحين».

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: **«لقد خلفتم بالمدينة رجالاً، ما قطعتم وادياً، ولا سلكتم طريقاً، إلا شركوكم فى الأجر، حبسهم المرض»** أخرجه مسلم، وأخرجه البخارى من حديث أنس.[2]

وفى «الصحيحين»[3] من حديث ابن عباس، عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال: **«من همَّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة»**.

وعن أبى كبشة الأنمارى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: **«مثل هذه الأمة مثل أربعة نفر: رجل آتاه الله مالاً وعلماً، فهو يعمل به فى ماله ينفقه فى حقه. ورجل آتاه الله علماً ولم يؤته مالاً، وهو يقول: لو كان لى مثل مال هذا عملت فيه مثل الذى يعمل، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: فهما فى الأجر سواء. ورجل آتاه الله مالاً ولم يؤته علماً، فهو يخبط فيه، ينفقه فى غير حقه. ورجل لم يؤته الله مالاً ولا علماً، فيقول لو كان لى مثل هذا عملت فيه مثل الذى يعمل. قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: فهما فى الوزر سواء»**.[4]

وعن أبى عمران الجونى قال: تصعد الملائكة بالأعمال، فينادى الملك: ألق تلك الصحيفة، قال: فتقول الملائكة: ربنا قال خيراً وحفظناه عليه. فيقول تبارك وتعالى: إنه لم يرد به وجهى. قال: وينادى الملك: اكتب لفلان كذا وكذا، مرتين. فيقول: يا رب، إنه لم يعمله، فيقول عز وجل: أنه قد نواه.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أفضل الأعمال أداء ما افترض الله تعالى عليك، والورع عما حرم الله تعالى، وصدق النية فيما عند الله تعالى.

وكان بعضهم يقول: دلونى على عمل لا أزال به عاملاً لله تعالى، فقيل له: انوِ الخير، فإنك لا تزال عاملاً وإن لم تعمل، فالنية تعمل وإن عدم العمل، فإنه من نوى أن يصلى

---

(١) سبق تخريجه ص (٢٠٩).

(٢) **صحيح**: أخرجه مسلم (١٩١١) عن جابر، والبخارى (٢٨٣٩) عن أنس.

(٣) **صحيح**: أخرجه البخارى (٦٤٩١) الرقاق، ومسلم (١٣١) عن ابن عباس.

(٤) **صحيح**: أخرجه الترمذى (٢٣٢٥)، وابن ماجه (٤٢٢٨)، وأحمد (١٧٥٧٠)، وقال أبو عيسى: «هذا حديث حسن صحيح»، وصححه الألبانى فى صحيح الترمذى.

بالليل فنام، كتب له ثواب ما نوى أن يفعله.

وقد جاء في الحديث: **«ما من رجل يكون له ساعة من الليل يقومها، فينام عنها إلا كتب له أجر صلاته، وكان نومه صدقة تصدق به عليه»**(١).

وقد جاء في الحديث: **«نية المؤمن خير من عمله»**. (٢)

والنية، والإرادة، والقصد، عبارات متواردة على معنى واحد.

واعلم أن الأعمال تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: المعاصي، فلا تتغير عن موضعها بالنية، مثل من يبني مسجداً بمال حرام يقصد بذلك الخير، فإن النية لا تؤثر فيه، فإن قصد الخير بالشر شر آخر، فإن الخيرات إنما تعرف كونها خيرات بالشرع، فكيف يمكن أن يكون الشر خيراً، هيهات.

واعلم: أن من تقرب من السلاطين ببناء المساجد والمدارس بالمال الحرام، كان كتقرب علماء السوء بتعليم العلم للسفهاء، والأشرار المشغولين بالفسق، فإن هؤلاء إذا تعلموا كانوا قطاع طريق الله تعالى، يتكالبون على الدنيا، ويتبعون الهوى، ووبال ذلك راجع إلى معلمهم، إذ علم فساد نياتهم ومقاصدهم.

ومن هذا القبيل تعلم القصاص القصص، فإن مقاصدهم أكثرهم معروفة، وقصدهم اجتلاب الدنيا، وأخذ الأموال كيف اتفق، فتعليمهم إعانة على الفساد، فقد علمت أن الطاعة تنقلب معصية والمباح ينقلب معصية وطاعة بالقصد.

وأما المعصية، فلا تنقلب طاعة بالقصد أصلاً بل إذا انضاف إليها قصد خبيث تضاعف وزرها وعظم وبالها.

القسم الثاني: الطاعات، وهي مرتبطة بالنيات في أصل صحتها، وفي تضاعف فضلها، أما الأصل، فهو أن ينوي عبادة الله تعالى لا غير، فإن نوى الرياء صارت معصية. وأما تضاعف الفضل، فبكثرة النيات الحسنة، فإن الطاعة الواحدة يمكن أن ينوي بها خيرات كثيرة، فيكون له بكل نية ثواب، إذ كل واحدة منها حسنة، ثم تضاعف كل حسنة عشر أمثالها.

---

(١) **صحيح**: أخرجه أحمد (٢٣٨٢٠)، والنسائي (١٧٨٤)، (١٧٨٥)، عن عائشة ﵂، وصححه الألباني.
وأخرجه النسائي (١٧٨٧) عن أبي الدرداء، وصححه الألباني أيضاً.

(٢) **موضوع**: انظر الضعيفة للألباني (٢٧٨٩).

مثال ذلك: القعود في المسجد، فإنه طاعة، ويمكن أن ينوى به نيات كثيرة: منها أن ينوى بدخوله انتظار الصلاة، ومنها الاعتكاف وكف الجوارح، فإن الاعتكاف كف، ومنها دفع الشواغل الصارفة عن الله تعالى بالانقطاع إلى المسجد، وإلى ذكر الله تعالى فيه، ونحو ذلك، فهذا طريق تكثير النيات فقس على ذلك سائر الطاعات، إذ ما من طاعة إلا وتحتمل نيات كثيرة.

القسم الثالث: المباحات، فما من شيء من المباحات إلا ويحتمل نية أو نيات، تصير بها قربات، وينال بها معالي الدرجات، فما أعظم خسران من يغفل عنها ويتعاطاها تعاطي البهائم المهملة.

ولا ينبغي أن يحتقر العبد الخطرات والخطوات واللحظات، فكل ذلك يسأل عنه في القيامة، لم فعله؟ وما الذي قصد به؟

مثال ما ينوى به القربة من المباحات أن يتطيب، وينوى بالطيب اتباع السنة، واحترام المسجد، ودفع الروائح الكريهة التي تؤذي مخالطيه.

وقال الشافعي رحمه الله: من طاب ريحه زاد عقله.

وكذلك معالجة رأسه تزيد فطنته وذكاءه، فيسهل عليه إدراك مهمات دينه.

وقال بعض السلف: إني لأستحب أن يكون لي في كل شيء نية، حتى في أكلي وشربي ونومي ودخولي الخلاء، وكل ذلك مما يمكن أن يقصد به التقرب إلى الله تعالى، لأن كل ما هو سبب لبقاء البدن وفراغ القلب من مهمات الدين فهو معين على الدين، فمن قصد من الأكل التقوى على العبادة، ومن النكاح تحصين دينه، وتطييب قلب أهله، والتوصل إلى ولد يعبد الله بعده، أثيب على ذلك كله، لا تحتقر شيئاً من حركاتك وكلماتك، وحاسب نفسك قبل أن تحاسب، وصحح قبل أن تفعل ما تفعله، وانظر في نيتك فيما تتركه أيضاً.

واعلم: أن النية هي انبعاث النفس وميلها إلى ما ظهر لها أنه مصلحة لها، إما في الحال أو المآل، وربما سمع بعض الجهال ما أوصنا به من تحسين النية، فقال عند أكله: نويت أن آكل لله، أو عند قراءته: نويت أن أقرأ لله، وظن أن ذلك نية، وليس كذلك، إنما النية انبعاث القلب، وتجري مجرى الفتوح من الله تعالى، وليست النية داخلة تحت الاختيار، فقد تتيسر في بعض الأوقات، وقد تتعذر، وإنما تتيسر له في الغالب لمن قلبه يميل إلى الدين دون الدنيا.

والناس في النيات على أقسام: منهم: من يكون عمله للطاعة إجابة لباعث الخوف.

ومنهم: من يكون عمله إجابة لباعث الرجـاء. وثمة مقام أرفع من هذين، وهو أن يعمل الطاعة على نية جلال اللـه تعالى لاستحقاقه الطاعة والعبوديـة، وهذه لا تتيسر لراغب فى الدنيا، هى أعز النيات وأعلاها، وقليل من يفهـمها، فضلاً عن أن يتعاطاها، وصاحب هذا المقام لا يجاوز ذكر الله تعالى والفكر فى جلاله حباً له.

وقد حكى أحمد بن خضرويه أنه رأى رب العزة فـى منامه، فقال له: كل الناس يطلبون منى، وأبو يزيد يـطلبنى. وغرضنا أن هذه النيـات متفاوتة فى الدرجـات، ومن غلب على قلبه واحدة منها فـربما لم يتيسر له العدول إلى غيرها، ومن حـضرت له نية فى المباح، ولم تحضر فى فضيلة، فالمباح أولى، وانتقلت الفضيلة إليه.

مثال ذلك: أن تحـضره نية فى الأكل والنوم ليـتقوى بذلك على العبـادة ويريح بدنه ولم تنبعث نيته فـى الحال إلى الصلاة والصوم، فالأكل والنوم أفضل، بل لو مـل العبادة لكثرة مواظبته عليها، وعلم أنه لو ترفه ساعة بمباح عاد نشاطه، فذلك أفضل من التعبد حينئذ.

قال علىّ ﵁: روحوا القلوب، واطلبوا لها طرق الحكمة، فإنها تمل كما تمل الأبدان.

وقال بعضهم: روحوا القلوب تعِ الذكر.

وهذه دقائق لا تدركها إلا بممارسة العلماء، فإن الحاذق فى الطب قد يعالج المحرور باللحَم مع حرارته، ويستبعد ذلـك القاص فى الطب، وإنما يبتغى به أن تعود قوته ليحـتمل المعالجة، وكذلك الخبير بـالقتال، قد يفر من بـين يدى قرينه حيلة منه، لـيستجره إلى مضـيق فيكر عليه فـيقهره، فكذلك سلوك طريق الله تعالى كله حرب مع الشيطان، ومعالجة للقلب، والمبصر الموفق يقف فى تلك الطريق على لطائف من الحيل يستبعدها الضعفاء، فلا ينبغى لهم استبعاد ما خفى عليهم، بل يسلمون لأصحاب الأحوال إلى أن ينكشف لهم أسرار ذلك، أو ينالوا ذلك المقام.

الفصل الثانى فى الإخلاص وفضيلته وحقيقته ودرجاته

قال الله تعالى: ﴿ **وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ** ﴾ (البينة: ٥)، وقال: ﴿ **أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ** ﴾ (الزمر: ٣) وغير ذلك من الآيات.

وقال النبى صـلى الله عليه وآله وسلم لمعـاذ بن جبل ﵁: **«اخلص دينك يكفك القليل من العمل»**. [(١)]

(١) **ضعيف**: ضعفه الألبانى فى «ضعيف الترغيب والترهيب» (٢).

وفى حديث أنس ﷺ أنه قال: «**إذا كان يوم القيامة جاءت الملائكة بصحف مختمة، فيقول الله عز وجل: ألقوا هذا، واقبلوا هذا، فتقول الملائكة: وعزتك ما كتبنا إلا ما كان. فيقول: إن هذا كان لغيرى، ولا أقبل اليوم إلا ما كان لى**». (١)

وعن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال: «**إن الملائكة يرفعون عمل العبد فيكثرونه ويزكونه، فيوحى الله تعالى إليهم: أنتم حفظة على عمل عبدى، وأنا رقيب على ما فى نفسه، إن عبدى لم يخلص فى عمله، فاجعلوه فى سجين، ويصعدون بعمل العبد يستقلونه، فيوحى الله إليهم: إنكم حفظة على عمل عبدى، وأنا رقيب على ما فى نفسه فضاعفوه واجعلوه فى عليين**». (٢)

ويروى عن الحسن قال: كانت شجرة تعبد دون الله، فجاء إليها رجل فقال: لأقطعن هذه الشجرة، فجاء إليها ليقطعها غضباً لله، فلقيه الشيطان فى صورة إنسان فقال: ما تريد؟ قال: أريد أن أقطع هذه الشجرة التى تعبد من دون الله. قال: إذا أنت لم تعبدها، فما يضرك من عبدها؟ قال: لأقطعنها. فقال له الشيطان: هل لك فيما هو خير لك من ذلك، لا تقطعها ولك ديناران كل يوم تجدها عند وسادتك. قال: فمن لى بذلك؟ قال: أنا لك. فرجع فأصبح فوجد عند وسادته دينارين، ثم أصبح بعدُ فلم يجد شيئاً، فقام غضبان ليقطعها، فتمثل له الشيطان فى صورته، فقال: ما تريد؟ قال: أريد أن أقطع هذه الشجرة التى تعبد من دون الله. قال: كذبت، ما لك إلى قطعها سبيل. فذهب ليقطعها، فضرب به الأرض وصرعه وخنقه حتى كاد يقتله، ثم قال له: أتدرى من أنا؟ فأخبره أنه الشيطان، وقال: جئت أول مرة غضباً لله، فلم يكن لى عليك سبيل، فخدعتك بالدينارين فتركتها، فلما فقدتهما جئت غضباً للدينارين، فسُلطت عليك.

وكان معروف الكرخى يضرب نفسه، ويقول: يا نفس أخلصى وتخلصى.

وقال أبو سليمان: طوبى لمن صحت له خطوة واحدة لا يريد بها إلا الله تعالى.

وحكى أن رجلاً كان يخرج فى زى النساء، فيحضر حيث يحضرن من عرس، أو مأتم،

---

(١) **ضعيف**: ذكره المنذرى فى «الترغيب والترهيب»، وضعفه الألبانى فى ضعيفه برقم (٢٦)، وفى الضعيفة (٥١٥٤).

(٢) لم أصل إليه.

فاتفق أنه حضر يوماً موضعاً فيه مجمــع النساء، فسُرقت درة، فصاحوا: أغلقوا الباب حتى نفتش، فـفتشوا واحـدة واحدة حتى بلـغت النوبة إلى الرجل وإلـى امرأة معه، فـدعا الله بالإخلاص وقال: إن نجـوت من هذه الفضيـحة لا أعود إلى مثل هذا، فـوجدت الدرة مع تلك المرأة فصاحوا: أطلقوا الحرة، فقد وجدنا الدرة.

بيـان حقيقـة الإخـلاص

اعلم: أن كل شيء يتصور أن يشوبه غيره، فإذا صفا عن شوبه وخلص عنه، سمى إخلاصاً.

والإخلاص يضاده الإشراك، فمن ليس مخلصاً، فهو مشرك، إلا أن الشرك درجات.

فالإخلاص فى التوحيد يضاده الشرك فى الإلهية.

والشرك منه جلى، ومنه خفى، وكذلك الإخلاص، وقـد ذكرنا درجات الرياء فيما تقدم فى بابه، وإنما نتكلم الآن فيمن انبعث لقصد التقرب،ولكن امتزج بهذا الباعث باعث آخر، إما من الرياء، أو من غيره من حظوظ النفس.

ومثال ذلك أن يصـوم لينتفع بالحمية الحاصـلة بالصوم مع قصد التقرب، أو يـعتق عبداً ليتخلص من مؤونته وسوء خلقه، أو يحج ليصح مزاجه بحركة السفر، أو للتخلص من شر يعرض له، أو يغـزو ليمارس الحرب ويتعلم أسـبابها، أو يصلى باللـيل وله غرض فى دفع النعاس عن نـفسه ليراقب رحله أو أهلـه، أو يتعلم العلم ليسـهل عليه طلب ما يكـفيه من المال، أو يشتغل بالتدريس ليفرح بلذة الكلام، ونحو ذلك. فمتى كان باعثه التقرب إلى الله تعالى، ولكن انضاف إليه خاطر من هذه الخواطر، حتى صار العمل أخف عليه بسبب هذه الأمور، فقد خرج عمله عن حد الإخلاص.

والإنسان قلما ينـفك فعل من أفعاله، وعبادة من عبـاداته عن شيء من هذه الأمور، فلذلك قيل: مــن سلم له فى عمره لحظة واحـدة خالصة لوجه الله تعـالى، نجا، وذلك لعزة الإخلاص، وعسـر تنقية القلب من هذه الشوائـب، لأن الخالص هو الذى لا باعث عليه إلا طلب التقرب من الله تعالى.

قيل لسهل: أى شيء أشد على النفس؟ قال: الإخلاص، إذ ليس لها فيه نصيب.

واعلم: أن الشوائب المكدرة للإخلاص متفاوتة، بعضها جلى، وبعضها خفى، وقد ذكرنا درجات الرياء فى بابه. ومن الرياء ما هو أخفى من دبيب النمل، فليطلب هناك.

وحاصله: أن ما دام العامل يفرق بين مشاهدة الإنسان والبهيمة فى حالة من العمل، فهو خارج عن صفو الإخلاص، ولا يسلم من الشيطان إلا من دق نظره وسعد بعصمة الله تعالى وتوفيقه.

وقد قيل: ركعتان من عالم أفضل من سبعين ركعة من جاهل، وأريد به العالم بدقائق آفات الأعمال حتى يخلص عنها، والجاهل ينظر إلى ظاهر العبادة، وقيراط من الذهب الذى يرتضيه الناقد خير من دينار يرتضيه الغر الغبى.

فصل فى حكم العمل المشوب واستحقاق الثواب به

اعلم: أن العمل الذى لا يريد به إلا الرياء، فهو على صاحبه لا له، وهو سبب للعقاب كما أن العمل الخالص لوجه الله تعالى سبب للثواب. ولا إشكال فى هذين القسمين، وإنما النظر فى العمل المشوب الممتزج بشوب الرياء وحظوظ النفس.

وقد اختلف الناس فى ذلك، هل يقتضى ثواباً أو عقاباً، أو لا يقتضى شيئاً أصلاً؟ وليس تخلو الأخبار عن تعارض فى ذلك.

والذى يتضح لنا فيه -والعلم عند الله تعالى- أن ننظر إلى قدر قوة البواعث، فإن كان الباعث الدينى مساوياً للباعث النفسانى تقاوما وتساقطا، وصار العمل لا له ولا عليه، وإن كان باعث الرياء أقوى، ضر وأوجب العقاب، لكن عقابه دون عقاب من تجرد للرياء، وإن كان الباعث الدينى أقوى من الآخر، فله ثواب بقدر ما فضل من قوته، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا﴾ (النساء: ٤٠).

ويشهد لما ذكرنا إجماع الأمة على أن من خرج حاجاً ومعه تجارة، صح حجه وأثيب عليه، وقد امتزج به حظ من حظوظ النفس، إلا أنه متى كان الحج هو المحرك الأصلى، وكان غرض التجارة كالمعين والتابع، فلا تنفك النفس عن ثواب. وكذلك الغازى إذا قصد الغزو والغنيمة، ويكون قصد الغنيمة على سبيل التبع، حصل له الثواب، ولكنه لا يساوى ثواب من لا يلتفت إلى الغنيمة أصلاً، والله تعالى أعلم.

الفصل الثالث فى الصدق وحقيقته وفضله

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: **«عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدى إلى البر، وإن البر يهدى إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً»** رواه البخارى ومسلم.[1]

وقال بشر الحافى: من عامل الله بالصدق، استوحش من الناس.

واعلم أن لفظ الصدق قد يستعمل فى معانٍ:

أحدها: الصدق فى القول، فحق على كل عبد أن يحفظ ألفاظه، ولا يتكلم إلا بالصدق، والصدق باللسان هو أشهر أنواع الصدق وأظهرها.

وينبغى أن يحترز عن المعاريض، فإنها تجانس الكذب إلا أن تمس الحاجة إليها، وتقتضيها المصلحة فى بعض الأحوال، وقد كان النبى صلى الله عليه وآله وسلم إذا أراد غزوة ورى بغيرها[2] لئلا ينتهى الخبر إلى الأعداء فيتهيؤوا لقتاله، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: **«ليس بكاذب من أصلح بين اثنين فقال خيراً، أو نمى خيراً»**.[3]

وينبغى أن يراعى معنى الصدق فى ألفاظه التى يناجى بها ربه، كقوله: وجهت وجهى للذى فطر السماوات والأرض. فإن كان قلبه منصرفاً عن الله تعالى مشغولاً بالدنيا فهو كاذب.

الثانى: الصدق فى النية والإرادة، وذلك يرجع إلى الإخلاص، فإن مازج عمله شوب من حظوظ النفس، بطل صدق النية، وصاحبه يجوز أن يسمى كاذباً كما فى حديث الثلاثة: العالم، والقارئ، والمجاهد. لما قال القارئ: قرأت القرآن إلى آخره[4]، إنما كذبه فى إرادته ونيته، لا فى نفس القراءة، وكذلك صاحباه.

الثالث: الصدق فى العزم والوفاء به.

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخارى (٦٠٩٤) الأدب، ومسلم (٢٦٠٧) البر والصلة.

(٢) **صحيح**: أخرجه البخارى (٤٤١٨) المغازى، ومسلم (٢٧٦٩) التوبة.

(٣) **صحيح**: أخرجه البخارى (٢٦٩٢) الصلح، ومسلم (٢٦٠٥) البر والصلة، عن أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط.

(٤) **صحيح**: أخرجه مسلم (١٩٠٥) الإمارة، والترمذى (٢٣٨٢)، والنسائى (٣١٣٧)، وأحمد (٨٠٧٨) عن أبى هريرة رضي الله عنه.

أما الأول: فنحو أن يقول: إن آتانى الله مالاً تصدقت بجميعه، فهذه العزيمة قد تكون صادقة، وقد يكون فيها تردد.

وأما الثانى: فنحو أن يصدق فى العزم، وتسخو النفس بالوعد، لأنه لا مشقة فيه إلا إذا تحققت الحقائق، وانحلت العزيمة، وغلبت الشهوة، ولذلك قال الله تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ (الأحزاب:٢٣)، وقال فى آية أخرى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ﴾ إلى قوله: ﴿وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ (التوبة: ٧٥-٧٧).

الرابع: الصدق فى الأعمال، وهو أن تستوى سريرته وعلانيته، حتى لا تدل أعماله الظاهرة من الخشوع ونحوه على أمر فى باطنه، ويكون الباطن بخلاف ذلك. قال مطرف: إذا استوت سريرة العبد وعلانيته قال الله عز وجل: هذا عبدى حقاً.

الخامس: الصدق فى مقامات الدين، وهو أعلى الدرجات، كالصدق فى الخوف والرجاء والزهد والرضى والحب والتوكل، فإن هذه الأمور لها مبادئ ينطلق عليها الاسم بظهورها، ثم لها غايات وحقائق، فالصادق المحقق من نال حقيقتها، وإذا غلب الشىء وتمت حقيقته سمى صاحبه صادقاً، قال الله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ....﴾ إلى قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ (البقرة:١٧٧). وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ (الحجرات: ١٥).

ولنضرب للخوف مثلاً فنقول: ما من عبد يؤمن بالله إلا وهو خائف من الله خوفاً ينطلق عليه الاسم، وهو غير بالغ إلى درجة الحقيقة، ألا تراه إذا خاف سلطاناً كيف يصفرّ ويرتعد خوفاً من وقوع المحذور، ثم إنه يخاف النار ولا يظهر عليه شىء من ذلك عند فعل المعصية. ولذلك قال عامر بن عبد قيس: عجبت للجنة نام طالبها، وعجبت للنار نام هاربها.

والتحقيق فى هذه الأمور عزيز جداً، فلا غاية لهذه المقامات حتى ينال تمامها، ولكن لكل عبد منه حظ بحسب حاله، إما ضعيف وإما قوى، فإذا قوى سمى صادقاً، وإذا علم الله من عبد صدقاً صغا له، والصادق فى جميع هذه المقامات عزيز، وقد يكون للعبد صدق فى بعضها دون بعض. ومن علامات الصدق كتمان المصائب والطاعات جميعاً، وكراهة اطلاع الخلق على ذلك والله أعلم، وصلى الله على محمد وأصحابه أجمعين.

كتـاب المحاسبة والمراقبة

قال الله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ﴾ (آل عمران: ٣٠)، وقال: ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ (الأنبياء: ٤٧)، وقال: ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَٰذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ (الكهف: ٤٩)، وقال: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ۝٦ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ (الزلزلة: ٦-٨). فاقتضت هذه الآيات وما أشبهها خطر الحساب فى الآخرة.

وتحقق أرباب البصائر أنهم لا ينجيهم من هذه الأخطار إلا لزوم المحاسبة لأنفسهم وصدق المراقبة. فمن حاسب نفسه فى الدنيا، خف فى القيامة حسابه، وحسن منقلبه، ومن لم يحاسب نفسه دامت حسراته فلما علموا أنهم لا ينجيهم إلا الطاعة وقد أمرهم الله تعالى بالصبر والمرابطة فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا﴾ (آل عمران: ٢٠٠)، فرابطوا أنفسهم أولاً بالمشارطة، ثم بالمراقبة، ثم بالمحاسبة، ثم بالمعاقبة، ثم بالمجاهدة، ثم بالمعاتبة. وكان فى المرابطة ست مقامات، وأصلها المحاسبة، ولكن كل حساب يكون بعد مشارطة ومراقبة، ويتبعه عند الخسران المعاتبة والمعاقبة، ولابد من شرح ذلك المقام.

المقام الأول: المشارطة:

اعلم: أن التاجر كما يستعين بشريكه فى التجارة طلباً للربح، ويشارطه ويحاسبه، كذلك العقل يحتاج إلى مشاركة النفس، ويوظف عليها الوظائف، ويشرط عليها الشروط، ويرشدها إلى طريق الفلاح، ثم لا يغفل عن مراقبتها، فإنه لا يأمن خيانتها، وتضييعها رأس المال، ثم بعد الفراغ ينبغى أن يحاسبها ويطالبها بالوفاء بما شرط عليها، فإن هذه التجارة ربحها الفردوس الأعلى. فتدقيق الحساب فى هذا مع النفس أهم من تدقيقه بكثير من أرباح الدنيا. فحتم على كل ذى عزم آمن بالله واليوم الآخر أن لا يغفل عن محاسبة نفسه، والتضييق عليها فى حركاتها وسكناتها وخطراتها، فإن كل نفس من أنفاس العمر جوهرة نفيسة لا عوض لها.

فإذا فرغ العبد من فريضة الصبح، ينبغى أن يفرغ قلبه ساعة لمشارطة نفسه، فيقول للنفس: ما لى بضاعة إلا العمر، فإذا فنى منى رأس المال وقع اليأس من التجارة وطلب الربح، وهذا اليوم الجديد قد أمهلنى الله فيه، وأخر أجلى، وأنعم علىَّ به، ولو توفانى لكنت أتمنى أن يرجعنى إلى الدنيا حتى أعمل فيه صالحاً، فاحسبى يا نفس أنك قد توفيت

ثم رددت، فإياك إياك أن تضيعى هذا اليوم، واعلمى أن اليوم والليلة أربع وعشرون ساعة، وأن العبد ينشر له كل يوم وليلة أربع وعشرون خزانة مصفوفة، فيفتح له منها خزانة، فيراها مملوءة نوراً من حسناته التى عملها فى تلك الساعة، فيحصل لـه من السرور بمشاهدة تلك الأنوار ما لو وزع على أهل النار لأدهشهم ذلك الفـرح عن الإحساس بألم النار، ويفتح له خزانة أخرى سوداء مظلمة يفوح ريحها ويغشاه ظلامها، وهى الساعة التى عصى الله تعالى فيها، فيحصل له من الفزع والخزى ما لو قسم على أهل الجنة لنغص عليهم نعيمهم، ويفتح له خزانة أخرى فارغة ليس فيها ما يسـوؤه ولا يسره، وهى الساعة التى نام فيها أو غفل أو اشتغل بشىء من المباح، ويتحسر على خلوها، ويناله من غم ذلك ما نال القادر على الربح الكثير إذا أهمله حتى فاته، وعلى هذا تعرض عليـه خزائن أوقاته طول عمره فيقول لنفسه: اجتهـدى اليوم فى أن تعمرى خـزانتك، ولا تدعيهـا فارغة، ولا تميلى إلى الكـسل والدعة والاستراحة فيفـوتك من درجات عليين ما يدركه غيرك وتبقـى عندك حسرة لا تفارقك وإن دخلت الجنة، فألم الغبن وحسرته لا تطاق، وإن كان دون ألم النار.

قال بعضهم: هَبْ أن المسـىء قد عفى عنه، أليس قد فاته ثواب المحسنيـن؟ فهذه وصيته فى نفسه فى أوقاته. ثم يستأنف لها وصيـة أخرى فى أعضائه السبعة، وهى: العين والأذن واللسان والبطن والفرج واليد والرجل، وتسليمها إلى النفس، فإنها رعايا خادمة لها فى هذه التجارة المخلدة، بها يتم أعمالها، ويعلمـها أن أبواب جهنم سبعة على عدد هذه الأعضاء، فتعيين تلك الأبواب لمن عصى الله تعالى بهذه الأعضاء، فيوصيها بحفظها عن معاصيها.

أما العين فيحـفظها عن النظر إلى ما لا يحل النظر إليه، أو إلى مسلـم بعين الاحتقار وعن كل فضول مـستغنى عنه، ويشغـلها بما فيه تجارتهـا وربحها، وهو النظر إلى مـا خلقت له من عجائب صنع الله تعالى بعين الاعتبار، والنظـر إلى أعمال الخير للاقتداء والنظر فى كتاب الله تعالى، وسنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ومطالعة كتب الحكم للاتعاظ والاستفادة.

وهكذا ينبغى أن يتقدم، إلى كل عضو بالوصية بما يليق به، ولاسيما اللسان والبطن، أما اللسان فلأنـه منطلق بالطبع ولا مؤونة عـليه فى الحركة، وجنايتـه عظيمة بالغيـبة والكذب والنميـمة وتزكية النـفس ومذمة الخلق، وغـير ذلك مما ذكرناه من آفـات اللسان فيمـا تقدم فيشغله بما خلق له، من الذكر والتذكير، وتكرار العلم والتعليم، وإرشاد عباد الله تعالى إلى طريق الله، وإصلاح ذات البين، إلى غير ذلك من الخير.

وأما البطـن، فيكلفه تـرك الشره، واجتناب الشـبهات والشهـوات، ويقتصـر على قدر

الضرورة، ويشترط على نفسه إن خالفت شيئاً من ذلك أن يعاقبها بالمنع من شهوات البطن ليفوتها أكثر مما نالت بشهوتها. وهكـذا فى جميع الأعضاء، واستقصاء ذلك يطول وكذلك ما تخفى طاعات الأعضاء ومعاصيها.

ثم يستأنف وصيـتها فى وظائف العبادات التى تتكرر فى اليـوم والليلة، فى النوافل التى يقدر عليها، وعلى الاسـتكثار منها. وهذه شروط يفتقر إليهـا كل يوم إلى أن تتعود النفس ذلك فيستغنـى عن المشارطة، ولكن لا يخلو كل يوم من حادثة لها حـكم جديد لله تعالى عليه فى ذلك حق، ويكثر هذا على من يشتـغل بشىء من أعمال الدنيا، من ولاية أو تجارة أو نحو ذلك، إذ قل أن يخـلو يوم عن واقعة جديدة يحـتاج إلى أن يقضى حق الله فـيها. فعليه أن يشرط على نفسه الاستقامة فيها، والانقياد للحق.

وعن شداد بن أوس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلـى الله عليه وآله وسلم: «**الكيس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من اتبع هواها، وتمنى على الله الأماني**». [1]

وقال عمر رضي الله عنه: حاسبـوا أنفسكم قبل أن تحاسـبوا، وزنوها قبل أن توزنـوا، وتهيؤوا للعرض الأكبر ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ (الحاقة: ١٨).

المقام الثـانى: المراقبـة:

إذا أوصى الإنسان نفسه، وشـرط عليها ما ذكرناه، لم يبق إلا المراقبة لـها وملاحظتها. وفى الحديث الصحيح فـى تفسير الإحسان، لما سئل رسول الله صـلى الله عليه وآله وسلم قال: «**أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»[2]، أراد بذلك استحضار عظمة الله ومراقبته فى حال العبادة.

قيل: دخل الـشبلى على أبى الحـسين النورى وهو قـاعد ساكن، لا يتحـرك من ظاهره شىء، فقـال له: ممن أخذت هذه المـراقبة والسكون؟ فـقال: من سنور كـان لنا، إذا أرادت الصيد رابطت رأس الجحر حتى لا يتحرك له شعرة.

وينبغى أن يراقب الإنسان نفسه قبل العمل وفى العمل. هل حركه عليه هوى النفس أو المحرك له هو الله تعالى خاصة؟ فإن كان الله تعالى، أمضاه، وإلا تركه، وهذا هو الإخلاص.

---

(١) سبق تخريجه ص (٢٨٢).

(٢) صحيح: أخرجه البخارى (٥٠) الإيمان، ومسلم (٩) الإيمان، عن أبى هريرة رضي الله عنه.

قال الحسن: رحم الله عبداً وقف عند همه، فإن كان لله مضى، وإن كان لغيره تأخر.

فهذه مراقبة العبـد فى الطاعة، وهو أن يكون مخلصاً فيها، ومراقبـته فى المعصية تكون بالتوبة والندم والإقلاع، ومـراقبته فى المباح تكون بمراعاة الأدب، والشـكر على النعم، فإنه لا يخلو من نعمة لابد له من الشكر عليها، ولا يـخلو من بلية لابد من الصبر عليها، وكل ذلك من المراقبة.

وقال وهب بن منبه: فى حكمة آل داود: حق علـى العاقل أن لا يشغل عن أربع ساعات: ساعة يناجى فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفـسه، وساعة يفضى فيها إلى إخوانه الذين يخبرونه بعيوبه، ويصدقونه عن نفسه، وساعة يخلى بين نفسه وبين لذاتها فيما يحل ولا يحرم، فإن هذه الساعة عـون على هذه الساعات، وإجمام للقـوة. وهذه الساعة التى هو مشغـول فيها بالمطعم والمشرب، لا ينبغى أن تخلو عن عمل هو أفضل الأعمال، وهو الذكر والفكر، فإن الطعام الذى يتناوله، فيه من العجائب ما لو تفكر فيه كان أفضل من كثير من أعمال الجوارح.

المقام الثالث: المحاسبة بعد العمل:

قال الله تـعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ (الحشر:١٨)، وهذه إشارة إلى المحاسبة بعد مضى الـعمل، ولذلك قال عمر بن الخطاب ﷺ: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوها قبل أن توزنوا.

وقال الحسن البصـرى: المؤمن قوّام على نفسه، يحاسب نفســه. وقال: إن المؤمن يفجؤه الشىء يعجبه فيقول: والله إنى لأشتهيك وإنك لمن حاجتى، ولكن والله ما من حيلة إليك، هيهات حيل بينى وبينك. ويفرط منه الشىء فيرجع إلى نفسه فيقول: ما أردت إلى هذا، ما لى ولهذا؟ والله لا أعود إلى هذا أبداً إن شاء الله تعالى.

إن المؤمنين قوم أوثقهـم القرآن، وحال بينهم وبين هلكتهم، إن المؤمـن أسير فى الدنيا، يسعى فى فكاك رقـبته، لا يأمن شيئاً حـتى يلقى الله عز وجل، يعلم أنه مـأخوذ عليه فى سمعه، وفى بصره، وفى لسانه، وفى جوارحه، مأخوذ عليه فى ذلك كله.

واعلم: أن العبد كـما ينبغى أن يكون له وقت فى أول الـنهار يشارط فيه نفـسه، كذلك ينبغى أن يكـون له ساعة يطالب فيهـا نفسه فى آخر النهار، ويـحاسبها على جمـيع ما كان منها، كما يفعل التجار فى الدنيا مع الشركاء فى آخر كل سنة أو شهر أو يوم.

ومعنى المحاسبة: أن ينظر فى رأس المال، وفى الربح، وفى الخسران ليتبين له الزيادة من النقصان. فرأس المال فى دينه الفرائض، وربحه النوافل والفضائل، وخسرانه المعاصى، وليحاسبها أولاً على الفرائض، وإن ارتكب معصية اشتغل بعقابها ومعاقبها ليستوفى منها ما فرط.

قيل: كان توبة بن الصمة بالرقة، وكان محاسباً لنفسه، فحسب يوماً فإذا هو ابن ستين سنة، فحسب أيامها فإذا هى أحد وعشرون ألف يوم وخمسمائة يوم، فصرخ وقال: يا ويلتا! ألقى الملك بأحد وعشرين ألف ذنب وخمسمائة ذنب؟! كيف وفى كل يوم عشرة آلاف ذنب!! ثم خر مغشياً عليه فإذا هو ميت، فسمعوا قائلاً يقول: يا لها ركضة إلى الفردوس الأعلى!

فهكذا ينبغى للعبد أن يحاسب نفسه على الأنفاس، وعلى معصية القلب والجوارح فى كل ساعة، فإن الإنسان لو رمى بكل معصية يفعلها حجراً فى داره لامتلأت داره فى مدة يسيرة، ولكنه يتساهل فى حفظ المعاصى وهى مثبتة عليه ﴿أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ (المجادلة: ٦).

المقام الرابع: معاقبة النفس على تقصيرها:

اعلم: أن المريد إذا حاسب نفسه فرأى منها تقصيراً، أو فعلت شيئاً من المعاصى فلا ينبغى أن يهملها، فإنه يسهل عليه حينئذ مقارفة الذنوب، ويعز عليه فطامها، بل ينبغى أن يعاقبها عقوبة مباحة كما يعاقب أهله وولده.

وكما روى عن عمر ﷺ: أنه خرج إلى حائط له، ثم رجع وقد صلى الناس العصر. فقال: إنما خرجت إلى حائطى، ورجعت وقد صلى الناس العصر، حائطى صدقة على المساكين. قال الليث: إنما فاتته الجماعة، وروينا عنه أنه شغله أمر عن المغرب حتى طلع نجمان، فلما صلاها أعتق رقبتين. وحكى أن تميماً الدارى ﷺ نام ليلة لم يقم يتهجد فيها حتى أصبح، فقام سنة لم ينم فيها عقوبة الذى صنع.

ومر حسان بن سنان بغرفة فقال: متى بنيت هذه؟ ثم أقبل على نفسه فقال: تسألين عما لا يعنيك! لأعاقبنك بصوم سنة، فصامها.

فأما العقوبات بغير ذلك مما لا يحل، فيحرم عليه فعله. مثال ذلك: ما حكى أن رجلاً من بنى إسرائيل، وضع يده على فخذ امرأة، ثم ندم، فوضعها فى النار حتى شلت، وأن آخر حوّل رجله لينزل من الصومعة إلى امرأة، ففكر وقال: ماذا أردت أن أصنع؟ فلما أراد

أن يعيد رجله قال: هيهات رجل خرجت إلى معصية الله لا ترجع معى فى صومعتى. فتركها حتى تقطعت بالمطر والرياح، وأن آخر نظر إلى امرأة فقلع عينيه، فهذا كله محرم، وإنما كان جائزاً فى شريعتهم. وقد سلك نحو ذلك خلق من أهل ملتنا، حملهم على ذلك الجهل بالعلم، كما حكى عن غزوان الزاهد: أنه نظر إلى امرأة، فلطم عينه حتى نفرت.

وروينا عن بعضهم: أنه أصابته جنابة وكان البرد شديداً، وأنه وجد فى نفسه توقفاً عن الغسل، فآلى ألا يغتسل إلا فى مرقعته، ألا ينزعها ولا يعصرها، فكانت شديدة الكثافة تزيد على عشرين رطلاً. وهذا من الجهل بالعلم، فإنه ليس للإنسان أن يتصرف فى نفسه بمثل هذا. وقد ذكرت كثيراً من هذا الفن الصادر عن المتعبدين على الجهل فى كتابى المسمى بـ «تلبيس إبليس».

المقام الخامس: المجاهدة:

وهو أنه إذا حاسب نفسه، فينبغى إذا رآها قد قارفت معصية أن يعاقبها كما سبق، فإن رآها تتوانى بحكم الكسل فى شىء من الفضائل، أو ورد من الأوراد فينبغى أن يؤدبها بتثقيل الأوراد عليها، كما ورد عن ابن عمر ﷺ أنه فاتته صلاة فى جماعة، فأحيا الليل كله. وإذا علم أنه لا تطاوعه نفسه على الأوراد، فإنه يجاهدها ويكرهها ما استطاع.

وقال ابن المبارك: إن الصالحين كانت أنفسهم تواتيهم على الخير عفواً، وإن أنفسنا لا تواتينا إلا كرهاً.

ومما يستعان به عليها أن يُسمعها أخبار المجتهدين، وما ورد فى فضلهم، ويصحب من يقدر عليه منهم، فيقتدى بأفعاله.

قال بعضهم: كنت إذا اعترتنى فترة فى العبادة نظرت إلى وجه محمد بن واسع وإلى اجتهاده؛ فعلمت على ذلك أسبوعاً. وقد كان عامر بن عبد قيس يصلى كل يوم ألف ركعة. وكان الأسود بن يزيد يصوم حتى يخضر ويصفر، وحج مسروق فما نام إلا ساجداً. وكان داود الطائى يشرب ويأكل الفتيت مكان الخبز، ويقرأ بينهما خمسين آية. وكان كرز بن وبرة يختم كل يوم ثلاث ختمات، وكان عمر بن عبد العزيز، وفتح الموصلى يبكيان الدم، وصلى أربعون نفساً من القدماء الفجر بوضوء العتمة، وجاور أبو محمد الجريرى سنة فلم ينم ولم يتكلم، ولم يستند إلى حائط، ولم يمد رجله، فقال له أبو بكر الكتانى: بم قدرت على هذا؟ قال:

علم صدق باطني فأعانني على ظاهري. ودخلوا على رحلة العابدة فكلموها بالرفق بنفسها فقالت: إنما هي أيام مبادرة، فمن فاته اليوم شيء لم يدركه غداً، والله يا إخوتاه! لأصلين لله ما أقلتني جوارحي، ولأصومن له في أيام حياتي، ولأبكين ما حملت الماء عيناي.

ومن أراد أن ينظر في سير القوم، ويتفرج في بساتين مجاهداتهم، فلينظر في كتابي المسمى بـ «صفة الصفوة»، فإنه يرى من أخبار القوم ما يعد نفسه بالإضافة إليهم من الموتى، بل من أخبار المتعبدات من النسوة ما يحتقر نفسه عند سماعه.

المقام السادس: في معاتبة النفس وتوبيخها:

قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: من مقت نفسه في ذات الله آمنه الله من مقته.

وقال أنس رضي الله عنه: سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقد دخل حائطاً فسمعته يقول وبيني وبينه جدار: عمر بن الخطاب أمير المؤمنين، بخ بخ، والله لتتقين الله يا بن الخطاب أو ليعذبنك.

وقال البختري بن حارثة: دخلت على عابد فإذا بين يديه نار قد أججها وهو يعاتب نفسه، فلم يزل يعاتبها حتى مات.

وكان بعضهم يقول إذا ذكر الصالحون: فأف لي وتف.

واعلم: أن أعدى عدو لك نفسك التي بين جنبيك، وقد خلقت أمارة بالسوء ميّالة إلى الشر، وقد أمرت بتقويمها وتزكيتها وفطامها عن مواردها، وأن تقودها بسلاسل القهر إلى عبادة ربها، فإن أهملتها جمحت وشردت، ولم تظفر بها بعد ذلك، وإن لزمتها بالتوبيخ رجوت أن تصير مطمئنة، فلا تغفلن عن تذكيرها. وسبيلك أن تقبل عليها، فتقرر عندها جهلها وغباوتها وتقول: يا نفس، ما أعظم جهلك، تدعين الذكاء والفطنة وأنت أشد الناس غباوة وحمقاً، أما تعلمين أنك صائرة إلى الجنة أو النار؟ فكيف يلهو من لا يدري إلى أيتهما يصير؟! وربما اختطف في يومه أو في غده! أما تعلمين أن كل ما هو آت قريب، وأن الموت يأتي بغتة من غير موعد، ولا يتوقف على سن دون سن، بل كل نفس من الأنفاس يمكن أن يكون فيه الموت فجأة، وإن لم يكن الموت فجأة كان المرض فجأة، ثم يفضي إلى الموت، فما لك لا تستعدين للموت وهو قريب منك؟! يا نفس. إن كانت جرأتك على معصية الله تعالى لاعتقادك أن الله تعالى لا يراك فما أعظم كفرك! وإن كانت مع علمك باطلاعه عليك، فما أشد وقاحتك، وأقل حياءك! ألك طاقة

على عذابه، جربى ذلك بالقعود ساعة فى الحمام، أو قربى أصبعك من النار. يا نفس! إن كان المانع لك من الاستقامة حب الشهوات، فاطلبى الشهوات الباقية الصافية عن الكدر، ورب أكلة منعت أكلات.

وما قولك فى عقل مريض أشار عليه الطبيب بترك الماء ثلاثة أيام ليصح ويتهيأ لشربه طول العمر؟! فما مقتضى العقل فى قضاء حق الشهوة؟ أيصبر ثلاثة أيام ليتنعم طول العمر؟ أم يقضى شهوته فى الحال ثم يلزمه الألم أبداً؟ فجميع عمرك بالإضافة إلى الأبد الذى هو مدة نعيم أهل الجنة وعقاب أهل النار أقل من ثلاثة أيام بالإضافة إلى جميع العمر بل أقل من لحظة بالإضافة إلى عمر الدنيا. وليت شعرى! ألم الصبر عن الشهوات أشد وأطول، أم النار فى الدركات؟ فمن لا يطيق الصبر على ألم المجاهدة، كيف يطيق ألم العذاب فى الآخرة؟ أشغلك حب الجاه؟ أما بعد ستين سنة أو نحوها، لا تبقين أنت ولا كل من كان لك عنده جاه. فإن كنت يا نفس لا تتركين الدنيا رغبة فى الآخرة لجهلك وعمى بصيرتك، فما لك لا تتركينها ترفعاً، هلا تركت الدنيا لخسة شركائها، وكثرة عنائها وخوفاً من سرعة فنائها؟ أتستبدلين بجوار رب العالمين صف النعال فى صحبة الحمقى؟ قد ضاع أكثر البضاعة، وقد بقيت من العمر صبابة، ولو استدركت ندمت على ما ضاع، فكيف إذا أضفت الأخير إلى الأول؟ اعملى فى أيام قصار لأيام طوال، وأعدى الجواب للسؤال. اخرجى من الدنيا خروج الأحرار قبل أن يكون خروج اضطرار. إنه من كان مطيته الليل والنهار سير به وإن لم يسرِ. تفكرى يا نفس فى هذه الموعظة، فإن عدمت تأثيرها، فابكى على ما أصبت به فمستقى الدمع من بحر الرحمة والله أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم.

كتاب التفكر

قد أمر الله سبحانه بالتفكر والتدبر فى كتابه العزيز، وأثنى على المتفكرين بقوله: ﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً ﴾ (آل عمران: ١٩١)، وقال: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الرعد: ٣).

وعن عبد الله بن عمر بن الخطاب ﷺ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «تفكروا فى آلاء الله ولا تفكروا فى الله». (١)

وقال أبو الدرداء ﷺ: تفكر ساعة خير من قيام ليلة.

وقال وهب بن منبه: ما طالت فكرة امرئ قط إلا فهم، وما فهم إلا علم، وما علم إلا عمل.

وقال بشر الحافى: لو تفكر الناس فى عظمة الله تعالى لما عصوه.

وقال الفريابى فى قوله تعالى: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ (الأعراف: ١٤٦)، قال: أمنع قلوبهم من التفكر فى أمرى.

وكان داود الطائى على سطح فى ليلة قمراء، فتفكر فى ملكوت السماوات والأرض، فوقع فى دار جار له، فوثب الرجل عريان وبيده السيف، فلما رآه قال: يا داود، ما الذى ألقاك؟ قال: ما شعرت بذلك.

وقال يوسف بن أسباط: إن الدنيا لم تخلق لينظر إليها، بل لينظر بها إلى الآخرة.

وكان سفيان من شدة تفكره يبول الدم.

وقال أبو بكر الكتانى: روعة عند انتباهة من غفلة، وانقطاع عن حظ نفسانى، وارتعاد من خوف قطيعة، أفضل من عباد الثقلين.

بيان مجارى الفكر وثمراته

واعلم: أن الفكر قد يجرى فى أمر يتعلق بالدين، وقد يجرى فى أمر يتعلق بغيره، وإنما غرضنا ما يتعلق بالدين، وشرح ذلك يطول. فلينظر الإنسان فى أربعة أنواع: الطاعات،

---

(١) حسن: أخرجه الطبرانى فى «الأوسط» (٦٤٥٦)، واللالكائى فى «السنة»، والبيهقى فى الشعب، وانظر الصحيحة للألبانى (١٧٨٩)، وتحسينه بالشواهد.

والمعاصى، والصفات المهلكات، والصفات المنجيات. فلا تغفل عن نفسك، ولا عن صفاتك المباعدة عن الله، والمقربة إليه.

وينبغى لكل مريد أن تكون له جريدة يثبت فيها جملة الصفات المهلكات، وجملة الصفات المنجيات، وجملة المعاصى والطاعات، ويعرض ذلك على نفسه كل يوم.

ويكفيه من المهلكات النظر فى عشرة، فإنه إن سلم منها سلم من غيرها، وهى: البخل، والكبر، والعجب، والرياء، والحسد، وشدة الغضب، وشره الطعام، وشهوة الوقاع، وحب المال، وحب الجاه.

ومن المنجيات عشرة: الندم على الذنوب، والصبر على البلاء، والرضى بالقضاء، والشكر على النعماء، واعتدال الخوف والرجاء، والزهد فى الدنيا، والإخلاص فى الأعمال، وحسن الخُلُق مع الخَلْق، وحب الله تعالى، والخشوع.

فهذه عشرون خصلة: عشرة مذمومة، وعشرة محمودة، فمتى كفى من المذمومات واحدة خط عليها فى جريدته، وترك الفكر فيها، وشكر الله تعالى على كفايته إياها. وليعلم أن ذلك لم يتم إلا بتوفيق الله تعالى وعونه، ثم يقبل على التسعة الباقية، وهكذا يفعل حتى يخط على الجميع. وكذلك يطالب نفسه بالاتصاف بالصفات المنجيات، فإذا اتصف بواحدة منها، كالتوبة والندم مثلاً، خط عليها واشتغل بالباقى، وهذا يحتاج إليه المريد المشمِّر.

فأما أكثر الناس من المعدودين فى الصالحين، فينبغى أن يثبتوا فى جرائدهم المعاصى الظاهرة، كأكل الشبهات، وإطلاق اللسان بالغيبة والنميمة، والرياء، والثناء على النفس، والإفراط فى موالاة الأولياء، ومعاداة الأعداء، والمداهنة فى ترك الأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، فإن أكثر من يعد نفسه من وجوه الصالحين لا ينفك عن جملة من هذه المعاصى فى جوارحه، وما لم تطهر الجوارح من الآثام، لا يمكن الاشتغال بعمارة القلب وتطهيره.

وكل فريق من الناس يغلب عليهم نوع من هذه الأمور، فينبغى أن يكون تفقدهم لها وتفكيرهم فيها. مثاله العالم الورع فإنه لا يخلو فى غالب الأمر من إظهار نفسه بالعلم، وطلب الشهرة، وانتشار الصيت، إما بالتدريس، أو بالوعظ، ومن فعل ذلك، فقد تصدى لفتنة عظيمة لا ينجو منها إلا الصِّدِّيقون، وربما ينتهى العلم بأهل العلم إلى أن يتغايروا كما يتغاير النساء، وكل ذلك من رسوخ الصفات المهلكات فى سر القلب التى يظن العالم النجاة منها، وهو مغرور فيها.

ومن أحس من نفسه بهذه الصفات، فالواجب عليه الانفراد والعزلة، وطلب الخمول والمدافعة للفتاوى، فقد كان الصحابة يتدافعون الفتاوى، وكل منهم يود لو أن أخاه كفاه. وعند هذا ينبغى أن يتقى شياطين الإنس، إذا قالوا: لا تفعل فإن هذا الباب لو فتح لاندرس العلم، فليقل لهم: دين الإسلام مستغنٍ عنى، فإنه قد كان مغموراً قبلى، ولو مت لم ينهدم الإسلام، وأنا غير مستغنٍ عن إصلاح قلبى، فليكن فكر العالم فى التفطن لخفايا هذه الصفات من قلبه، نسأل الله أن يصلح فساد قلوبنا وأن يوفقنا لما يرضاه عنا.

فصل فى التفكر فى خلق الله تعالى

قد تقدم أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال: **«تفكروا فى آلاء الله ولا تفكروا فى الله»**[1] فالتفكر فى ذاته سبحانه ممنوع منه، وذلك أن العقول تتحير فى ذلك، فإنه أعظم من أن تمثله العقول بالتفكر، أو تتوهمه القلوب بالتصوير: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (الشورى:١١).

فأما التفكر فى مخلوقات الله تعالى، فقد ورد القرآن بالحث على ذلك كقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ ... ﴾ الآيات (آل عمران: ١٩٠). وقوله: ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ (يونس: ١٠١).

ومن آيات الله تعالى: الإنسان المخلوق من نطفة، فليتفكر الإنسان فى نفسه، فإن فى خلقه من العجائب الدالة على عظمة الله تعالى، ما تنقضى الأعمار فى الوقوف على عشره وهو غافل عن ذلك. وقد أمره الله تعالى بالتدبر فى نفسه، فقال: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾ (الذاريات: ٢١). وقد تقدم فى كتاب الشكر الكلام على بعض خلق الإنسان فليطلب هناك.

ومن آياته: الجواهر المودعة فى الجبال، والمعادن من الذهب والفضة والفيروزج ونحوها، وكذلك معادن النفط والكبريت والقار وغيرها.

ومن آياته: البحار العظيمة العميقة المكتنفة لأقطار الأرض، التى هى قطع من البحر الأعظم المحيط بجميع الأرض. ولو جمع المكشوف من الأرض، من البرارى، والجبال والمدن والقرى، لكان بالإضافة إلى الماء كجزيرة صغيرة فى بحر عظيم، وفى البحر عجائب أضعاف ما نشاهده فى البر.

وانظر كيف خلق اللؤلؤ، ودوره فى صدفة تحت الماء، وانظر كيف أنبت المرجان فى صم الصخور تحت الماء، وكذلك ما عداه من العنبر وأصناف ما يقذفه البحر، وانظر إلى عجائب

---

(١) سبق تخريجه ص (٣٦١).

السفن كيف أمسكها الله تعالى على وجه الماء، وسيّرها فى البحار تسوقها الرياح، وأعجب من ذلك الماء، فإنه حياة كل ما على الأرض من حيوان ونبات، فلو احتاج العبد إلى شربة ماء، ومُنع منها لبذل جميع خزائن الدنيا فى تحصيلها لو ملك ذلك، ثم إذا شربها ومُنع خروجها، لبذل جميع خزائن الأرض فى إخراجها، فلا يغفل العبد عن هذه النعمة.

ومن آياته: الهواء وهو جسم لطيف لا يرى بالعين، ثم انظر إلى شدته وقوته، وانظر إلى عجائب الجو وما يظهر فيه من الغيوم والرعد والبرق والمطر والثلج والبرد والشهب والصواعق، وغير ذلك من العجائب. وانظر إلى الطير تسبح بأجنحتها بالهواء كما يسبح حيوان البحر فى الماء، ثم انظر إلى السماء وعظمها وكواكبها وشمسها وقمرها، وما فيها كوكب إلا ولله فيه حكمة فى لونه وشكله وموضعه، وانظر إلى إيلاج الليل فى النهار، والنهار فى الليل، وانظر مسير الشمس، كيف اختلف فى الصيف والشتاء والربيع والخريف.

وقد قيل: إن الشمس مثل الأرض مائة ونيفاً وستين مرة، وإن أصغر كوكب فى السماء مثل الأرض ثمان مرات، فإذا كان هذا قدر كوكب واحد، فانظر إلى كثرة الكواكب، وإلى السماء التى فيها الكواكب، وإلى إحاطة عينك بذلك مع صغرها، والعجب منك أنك تدخل بيت غنى مزخرفاً مموهاً بالذهب، فلا ينقطع تعجبك منه، ولا تزال تذكره وأنت أبداً تنظر إلى هذا البيت العظيم، وإلى أرضه وسقفه وعجائبه وأمتعته وبدائع نقوشه، ثم لا تلتفت إلى نحوه بقلبك، ولا تتفكر فى بناء خالقك، فلقد نسيت نفسك وربك، واشتغلت ببطنك وفرجك، فما مثلك في غفلتك إلا كمثل نملة تخرج من بيتها الذى حفرته فى حائط قصر الملك، فتلقى أختها فتتحدث معها فى حديث بيتها، وكيف بنته وما جمعاً فيه، ولا تذكر قصر الملك ولا من فيه. فهكذا أنت فى غفلتك، فما تعرف من السماء إلا ما تعرفه النملة من سقف بيتك.

فهذا بيان معاقد الجهل التى يجول فيها فكر المتفكرين، والأعمار تقصر، والعلوم تقل عن الإحاطة ببعض المخلوقات، إلا أنك كلما استكثرت من معرفة عجائب المصنوعات، كانت معرفتك بجلال الصانع أتم، فتفكر فيما أشرنا إليه هاهنا مع ما قدمناه من الإشارة فى كتاب الشكر، فمن نظر فى هذه الأشياء من حيث إنها فعل الله وصنعه، استفاد المعرفة بجلال الله تعالى وعظمته، ومن قصر النظر عليها من حيث تأثير بعضها فى بعض، لا من حيث ارتباطها بمسبب الأسباب، شقى. نعوذ بالله من مزلة أقدام الجهال، ومن الركون إلى أسباب الضلال، ولا وجه للتفكر فيما لا نراه من الملائكة والجن، فلذلك عدلنا عنه إلى ما نراه، والله أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

كتاب ذكر الموت وما بعده وما يتعلق به

الشطر الأول: فى مقدماته وتوابعه إلى نفخة الصور

اعلم: أن المنهمك فى الدنيا المكب على غرورها، يغفل قلبه لا محالة عن ذكر الموت فلا يذكره، وإن ذكره كرهه ونفر منه، ثم الناس إما منهمك، أو تائب مبتدئ، أو عارف منتبه.

فأما المنهمك فلا يذكره، وإن ذكره فيذكره للتأسف على دنياه، ويشتغل بذمه، وهذا لا يزيده ذكر الموت من الله تعالى إلا بُعداً.

وأما التائب، فإنه يكثر الموت لينبعث به من قلبه الخوف والخشية، فيفى بتمام التوبة، وربما يكره الموت خيفة أن يختطفه قبل تمامها أو قبل إصلاح الزاد، وهو معذور فى كراهة الموت، ولا يدخل بهذا تحت قوله صلى الله عليه وآله وسلم: **«من كره لقاء الله كره الله لقاءه»**[1] فإنه إنما يخاف لقاء الله لقصوره وتقصيره، فهو كالذى يتأخر عن لقاء الحبيب مشتغلاً بالاستعداد للقائه على وجه يرضاه، فلا يعد كارهاً للقائه، وعلامة هذا أن يكون دائم الاستعداد له، لا شغل له سواه، وإلا التحق بالمنهمك فى الدنيا.

وأما العارف، فإنه يذكر الموت دائماً، لأنه موعد لقاء الحبيب، وهو لا ينسى موعد لقاء حبيبه. وهذا فى غالب الأمر يستبطئ مجيء الموت،ويحبه ليتخلص من دار العاصين، وينتقل إلى جوار رب العالمين، كما قال بعضهم لما حضرته الوفاة: حبيب جاء على فاقة، لا أفلح من ندم.

فإذن التائب معذور فى كراهة الموت، وهذا معذور فى حب الموت وتمنيه، وأعلى منهما من فوّض أمره إلى الله تعالى، فصار لا يختار لنفسه موتاً ولا حياة، بل تكون الأشياء إليه أحبها إلى مولاه، فهذا قد انتهى بفرط الحب والولاء إلى مقام التسليم والرضى، وهو الغاية والمنتهى.

وعلى كل حال، ففى ذكر الموت ثواب وفضل، فإن المنهمك فى الدنيا قد يستفيد بذكر الموت التجافى عن الدنيا، لأن ذكره ينغص عليه نعيمه ويكدره.

---

(١) **صحيح** : أخرجه البخارى (٦٥٠٧) الرقاق، ومسلم (٢٦٨٣) الذكر والدعاء، من حديث قتادة عن أنس بن مالك عن عبادة بن الصامت عن النبى ﷺ.

باب ما جاء في فضل ذكر الموت

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**اكثروا ذكر هاذم اللذات: الموت**». [1]

وعن أنس رضي الله عنه: أن رجلاً ذكر عند النبي صلى الله عليه وآله وسلم فأحسنوا عليه الثناء، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «**كيف كان ذكر صاحبكم للموت؟**»، **قالوا: ما كنا نسمعه يذكر الموت. قال: «فإن صاحبكم ليس هناك»**. [2]

وعن ابن عمر رضي الله عنهما: أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم سئل: أي المؤمنين أكيس؟ قال: «**أكثرهم للموت ذكراً، وأشدهم استعداداً له، أولئك هم الأكياس ذهبوا بشرف الدنيا وكرامة الآخرة**»[3].

وقال الحسن البصري: فضح الموت الدنيا، فلم يترك لذي لبٍّ فيها فرحاً، وما ألزم عبد قلبه ذكر الموت إلا صغرت الدنيا عليه، وهان عليه جميع ما فيها.

وكان عمر بن عبد العزيز إذا ذكر الموت انتفض انتفاض الطير، وكان يجمع كل ليلة الفقهاء، فيتذاكرون الموت والقيامة ثم يبكون، حتى كأن بين أيديهم جنازة.

وكان حامد القيصري يقول: كلنا قد أيقن بالموت، وما نرى له مستعداً، وكلنا قد أيقن بالجنة وما نرى لها عاملاً، وكلنا قد أيقن بالنار وما نرى لها خائفاً، فعلام تفرحون؟! وما عسيتم تنتظرون؟! الموت، فهو أول وارد عليكم من أمر الله بخير، أو بشر، فيا إخوتاه! سيروا إلى ربكم سيراً جميلاً.

وقال شميط بن عجلان: من جعل الموت نصب عينيه، لم يبالِ بضيق الدنيا ولا بسعتها.

بيان الطريق في تحقيق ذكر الموت

واعلم: أن خطر الموت عظيم، وإنما غفل الناس عنه لقلة فكرهم وذكرهم له، ومن يذكره منهم إنما يذكره بقلب غافل، فلهذا لا ينجع فيه ذكر الموت، والطريق في ذلك أن يفرغ العبد

---

(١) **حسن صحيح**: أخرجه الترمذي (٢٣٠٧) الزهد، والنسائي (١٨٢٤) الجنائز، وابن ماجه (٤٢٥٨) الزهد، وأحمد (٧٨٦٥) من طريق محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ. وقال أبو عيسى: «حسن صحيح غريب»، وقال الألباني: «حسن صحيح»، وانظر صحيح النسائي.

(٢) **ضعيف جداً**: رواه البزار (٣٦٢٢)، وضعفه الألباني في «ضعيف الترغيب والترهيب» (١٩٤٨).

(٣) **حسن**: حسنه الألباني بمجموع طرقه وشواهده، وانظر ذلك في السلسلة الصحيحة (١٣٨٤).

قلبه لذكر الموت الذى هو بين يديه، كالذى يريد أن يسافر إلى مفازة مخطرة، أو يركب البحر، فإنه لا يتفكر إلا فى ذلك، وأنفع طريق فى ذلك ذكر أشكاله وأقرانه الذين مضوا قبله، فيذكر موتهم ومصارعهم تحت الثرى.

قال ابن مسعود ﷺ: السعيد من وُعظ بغيره.(١) وقال أبو الدرداء ﷺ: إذا ذكر الموتى، فعُدّ نفسك كأحدهم.(٢)

وينبغى أن يكثر دخول المقابر، ومن سكنت نفسه إلى شىء فى الدنيا، فليتفكر فى الحال أنه لابد من مفارقته، ويقصِّر أمله.

وقد روى عن عبد الله بن عمر ﷺ قال: أخذ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بمنكبى فقال: **«كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل»** وكان ابن عمر يقول: إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك.(٣)

وفى حديث آخر: **«إن أخوف ما أخاف على أمتى: الهوى وطول الأمل، فأما الهوى فيضل عن الحق، وأما طول الأمل فينسى الآخرة»**.(٤)

وعن الحسن قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأصحابه: **«أكلكم يحب أن يدخل الجنة؟»** قالوا: نعم يا رسول الله؟ قال: **«قصِّروا الأمل، وأثبتوا آجالكم بين أبصاركم، واستحيوا من الله عز وجل حق حيائه»**.(٥)

وعن أبى زكريا التيمى قال: بينما سليمان بن عبد الملك بن مروان بن الحكم -أحد خلفاء بنى أمية- فى المسجد الحرام، إذ أتى بحجر منقوش، فطلب من يقرأه، فأتى بوهب بن منبه فإذا فيه: ابن آدم! لو رأيت قرب ما بقى من أجلك لزهدت فى طول أملك، ولرغبت فى الزيادة من عملك، ولقصرت من حرصك وحيلك، وإنما يلقاك غداً ندمك لو قد زلت بك قدمك، وأسلمك أهلك وحشمك، وفارقك الولد والقريب، ورفضك الولد والنسيب، فلا أنت إلى دنياك عائد، ولا فى حسناتك زائد، فاعمل ليوم القيامة يوم الحسرة والندامة.

---

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم (٢٦٤٥) القدر، عن عبد الله بن مسعود موقوفاً.

(٢) انظر الحلية (١/ ١١٢).

(٣) **صحيح**: أخرجه البخارى (٦٤١٦) الرقاق، عن عبد الله بن عمر.

(٤) انظر شرح الإحياء (١٠/ ٢٣٧).

(٥) **مرسل**: رواه ابن أبى الدنيا فى «قصر الأمل» عن الحسن مرسلاً.

بيان السبب فى طـول الأمـل وعـلاجـه

واعلم: أن السبب فى طول الأمل شيئان:

أحدهما: حب الدنيا، والثانى: الجهل.

أما حب الدنيا: فإن الإنسان إذا أنس بـها وبشهواتها ولذاتـها وعلائقها، ثقل عـلى قلبه مفارقتها، فامتنع قلبه من الفكر فى الموت الذى هو سبب مفارقتها، وكل من كره شيئاً دفعه عن نفسه، والإنسان مشغول بالأمانى الباطلة، فيمنى نفسه أبداً بما يوافق مراده من البقاء فى الدنيا، وما يحـتاج إليه من مال وأهل ومسكن وأصدقـاء وسائر أسباب الدنيا، فيـصير قلبه عاكفاً على هذا الفكر، فيلهو عن ذكر الموت، ولا يقدر قربه. فإن خطر له الموت فى بعض الأحوال والحاجة إلى الاستعداد له، تسوَّف بـذلك ووعد نفسه، وقال: الأيام بين يديك إلى أن تكبر ثم تتوب. وإذا كبر قال: إلى أن يصير شـيخاً، وإن صار شيخاً، قال: إلى أن يفرغ من بنـاء هذه الدار، وعمـارة هذه الضيـعة، أو يرجـع من هذه السفـرة. فلا يزال يـسوف ويؤخر، ولا يحرص فى إتمام شغل إلا ويتعلق بإتمام ذلك الشغل عشرة أشغال، وهكذا على التدريج يؤخر يوماً بعـد يوم، ويشتغل بشغل بعد شغل، إلى أن تخـتطفه المنية فى وقت لا يحتسبه، فتطول عند ذلك حسرته.

وأكثـر صياح أهـل النار من «سوف» يـقولون: واحـسرتاه! من «سـوف». وأصل هذه الأمانى كلها، حب الدنيا والأنس بها، والغفـلة عن قول النبى صلى الله عليه وآله وسلم: **«أحبب ما شئت فإنك مفارقه»**. (١)

السبب الثانى: الجهل، وهـو أن الإنسان يعوّل علـى شبابه، ويسـتبعد قـرب الموت مع الشباب، أو ليس يتفكر المسكين فى أن مشايخ بلده لو عدوا كانوا أقل من العشر؟ وإنما قلوا لأن الموت فى الشباب أكثـر، وإلى أن يموت شيخ قد يموت ألف صبى وشـاب، وقد يغتر بصحتـه، ولا يدرى أن الموت يأتى بغتة، وإن اسـتبعد ذلك، فإن المرض يـأتى فجأة، وإذا مرض لم يكن الموت بعيداً، ولو تفكر وعلـم أن الموت ليس له وقت مخصوص، من صيف وشتاء وربيع وخريف وليل ونهار، ولا هو مقيـد بسن مخصوص، من شاب وشيخ أو كهل أو غيره، لعظم ذلك عنده واستعد للموت.

(١) **حسن**: حسنه الألبانى فى صحيح الجامع، والسلسلة الصحيحة (٨٣١).

فصل فى تفاوت الناس فى طول الأمل

اعلم: أن الناس متفاوتون فى طول الأمل تفاوتاً كثيراً، منهم من يأمل البقاء إلى زمان الهرم، ومنهم من لا ينقطع أمله بحال، ومنهم من هو قصير الأمل، فروى عن أبى عثمان النهدى أنه قال: بلغت مائة وثلاثين سنة، وما من شىء إلا قد عرفت فيه النقصان إلا أملى فإنه كما هو.

وحُكى فى قِصَر الأمل أن امرأة حبيب أبى محمد قالت: كان يقول لى -يعنى أبا محمد-: إن مت اليوم فأرسلى إلى فلان يغسلنى ويفعل كذا وكذا، وافعلى كذا وكذا، فقيل لها: أرأيت رؤيا؟ قالت: هكذا يقول كل يوم.

وعن إبراهيم بن سبط قال: قال لي أبو زرعة: لأقولن لك قولاً ما قلته لأحد سواك: ما خرجت من المسجد منذ عشرين سنة، فحدثت نفسى أن أرجع إليه. وقيل لبعضهم: ألا تغسل قميصك؟ قال: الأمر أعجل من ذلك.

وعن محمد بن أبى توبة قال: أقام معروف الكرخى الصلاة ثم قال لى: تقدم، فقلت: إنى إن صليت بكم هذه الصلاة لم أصل بكم غيرها، فقال معروف: أنت تحدِّث نفسك أنك تصلى صلاة أخرى؟ نعوذ بالله من طول الأمل فإنه يمنع خير العمل.

فهذه أحوال الزهاد فى قِصَر الأمل، وكلما قصر الأمل، جاد العمل، لأنه يقدر أن يموت اليوم، فيستعد استعداد ميت، فإذا أمسى شكر الله تعالى على السلامة، وقدر أنه يموت تلك الليلة فيبادر إلى العمل.

وقد ورد الشرع بالحث على العمل والمبادرة إليه ففى صحيح البخارى عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: **«نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس، الصحة والفراغ»**.[1]

وعنه: أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لرجل وهو يعظه: **«اغتنم خمساً قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك»**.[2]

---

(١) سبق تخريجه ص (٢٦٧).

(٢) صحيح: أخرجه الحاكم (٤/٣٠٦) وقال: «صحيح على شرطهما» كما فى «الترغيب والترهيب»، وصححه الألبانى فى «صحيح الترغيب».

وقال عمر ﷺ: التؤدة فى كل شىء خير، إلا ما كان من أمر الآخرة.

وكان الحسن يقول: عجباً لقوم أمروا بالزاد، ونودى فيهم بالرحيل، وحبس أولهم على آخرهم، وهم قعود يلعبون.

وقال سحيم مولى بنى تميم: جلست إلى عامر بن عبد الله [الزبير]، فأوجز فى صلاته، ثم أقبل عليّ وقال: أرحنى بحاجتك، فإني أبادر، فقلت: وما تبادر؟ قال: ملك الموت. وكان يصلي كل يوم ألف ركعة، وكانوا يبادرون بالأعمال غاية ما يمكن، فكان ابن عمر يقوم فى الليل فيتوضأ ويصلى، ثم يغفى إغفاء الطير، ثم يقوم فيتوضأ ويصلى، ثم يغفى إغفاء الطير، ثم يقوم يصلى يفعل ذلك مراراً. وكان عمير بن هانئ يسبح كل يوم مائة ألف تسبيحة، وقال أبو بكر ابن عياش: ختمت القرآن فى هذه الزاوية ثمانية عشر ألف ختمة.

فصل فى ذكر شدة الموت وما يستحب من الأحوال عنده

اعلم: أنه لو لم يكن يدي العبد المسكين كرب، ولا هول سوى الموت، لكان جديراً أن يتنغص عليه عيشه، ويتكدر عليه سروره، وتطول فيه فكرته. والعجب أن الإنسان لو كان فى أعظم اللذات، فانتظر أن يدخل عليه جندى يضربه خمس ضربات، لكدرت عليه عيشه ولذته، وهو فى كل نفس بصدد أن يدخل عليه ملك الموت بسكرات النزع، وهو غافل عن ذكره، وليس لهذا سبب إلا الجهل والغرور.

اعلم: أن شدة الألم فى سكرات الموت أشد من ضرب السيف، وإنما يصيح المضروب، ويستغيث لبقاء قوته، وأما الميت عند موته، فإنه ينقطع صوته من شدة ألمه، لأن الكرب قد بالغ فيه، وغلب على قلبه وعلى كل موضع منه، وضعفت كل جارحة فيه، فلم يبق فيه قوة لاستغاثة، ويود لو قدر على الاستراحة بالأنين والصياح والاستغاثة. وتجذب الروح من جميع العروق، ويموت كل عضو من أعضائه تدريجياً، فتبرد أولاً قدماه، ثم ساقاه، ثم فخذاه، حتى تبلغ الحلقوم، فعند ذلك ينقطع بصره عن الدنيا وأهلها، ويغلق دونه باب التوبة، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: **«إن الله عز وجل يقبل التوبة من العبد ما لم يغرغر»**.[1]

---

(١) سبق تخريجه ص (٢٣٧).

وقد روى أن الملكين الموكلين بالعبد يتراءيان له عند الموت، فإن كان صالحاً أثنيا عليه، وقالا: جزاك الله خيراً، وإن كان صحبهما بشرٍّ، قالا: لا جزاك الله خيراً.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**إن الله عز وجل وكّل بعبده المؤمن ملكين يكتبان عمله، فإذا مات قالا: قد مات، أتأذن لنا أن نصعد إلى السماء؟ قال: فيقول الله تعالى: إن سمائى مملوءة من ملائكتى يسبحونى. فيقولان: فتأذن لنا فنقيم فى الأرض؟ فيقول الله تعالى: إن أرضى مملوءة من خلقى، يسبحونى. فيقولان: فأين نقيم؟ فيقول الله تعالى: قوما على قبر عبدى، فسبحانى واحمدانى وكبرانى وهللانى، واكتبا ذلك لعبدى إلى يوم القيامة**». [1]

وفى الصحيحين[2] من حديث عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**إن المؤمن إذا حضره الموت بشِّر برضوان الله وكرامته، فليس شىء أحب إليه مما أمامه، وأما صاحب النار الذى خُتم له بسوء فهو يبشر بها وهو فى تلك الأحوال والأهوال**».

وقد كان كثير من السلف يخافون سوء الخاتمة، وقد ذكرنا ذلك فى كتاب الخوف، وهو لائق بهذا المكان، نسأل الله أن يرحمنا برحمته التى وسعت كل شىء، وأن يلطف بنا، وأن يختم لنا بخير إنه جواد كريم.

بيان ما يستحب عند الاحتضار

وأما ما يستحب من الأحوال عند المحتضر، فأن يكون قلبه يحسن الظن بالله تعالى، ولسانه ينطق بالشهادة، والسكون من علامات اللطف، وهو أمارة على أنه قد رأى الخير، وقد روى أن روح المؤمن تخرج رشحاً[3]. ويستحب تلقينه: لا إله إلا الله، كما جاء فى الحديث الصحيح من رواية مسلم: «**لقنوا موتاكم لا إله إلا الله**». [4]

وينبغى للملقن أن يرفق به، ولا يلح عليه. وقد جاء فى حديث آخر: «**احضروا موتاكم، ولقنوهم لا إله إلا الله، وبشروهم بالجنة، فإن الحليم العليم من الرجال والنساء يتحير**

(١) انظر «الكامل» لابن عدى (٧/ ٢٥٦١).

(٢) **صحيح**: وقد سبق فى حديث «من أحب لقاء الله...».

(٣) **حسن**: أخرجه الطبرانى «الكبير» (١٠٠١٥)، وحسنه الألبانى عن ابن مسعود كما فى صحيح الجامع (٥١٤٩)، وانظر الصحيحة (٢١٥١).

(٤) **صحيح**: أخرجه مسلم (٩١٦) الجنائز، من حديث أبى سعيد الخدرى (٩١٧)، عن أبى هريرة رضي الله عنه.

عند ذلك المصرع، وإن إبليس عدو الله أقرب ما يكون من العبد فى ذلك الموطن»[1]. وذكر الحديث إلى آخره.

وفى الحديث الصحيح: **«لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله عز وجل»**.[2]

وروى أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم دخل على رجل وهو يموت فقال: **«كيف تجدك؟»** قال: أرجو الله وأخاف ذنوبى. فقال: **«ما اجتمعا فى قلب عبد فى مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله الذى يرجو، وأمنه من الذى يخاف»**.[3]

والرجاء عند الموت أفضل، لأن الخوف سوط يساق به، وعند الموت يقف البصر، فينبغى أن يتلطف به، ولأن الشيطان يأتى حينئذ يسخط العبد على الله نعوذ بالله تعالى من الشيطان الرجيم فيما يجرى عليه، ويخوفه فيما بين يديه، فحسن الظن أقوى سلاح يدفع به العدو.

وقال سليمان التيمى لابنه عند الموت: يا بنى! حدثنى بالرخص، لعلى ألقى الله تعالى وأنا أحسن الظن به، والله أعلم، وصلى الله على محمد.

باب ذكر وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والخلفاء الراشدين رضي الله عنهم

اعلم: أن فى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أسوة حسنة فى كل أحواله، ومعلوم أنه ليس فى المخلوقين أحد أحب إلى الله تعالى منه، ولم يؤخره الله تعالى حين انقضى أجله.

وقد لقى صلى الله عليه وآله وسلم من الموت شدة، فروى البخارى فى صحيحه[4] من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: كان بين يدى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ركوة أو علبة فيها ماء، فجعل يدخل يده فى الماء، فيمسح بها وجهه، ويقول: **«لا إله إلا الله، إن للموت لسكرات»**.

(١) انظر حلية الأولياء (٥/١٨٦) عن واثلة بن الأسقع.

(٢) سبق تخريجه ص (٢٨٣).

(٣) **حسن**: أخرجه الترمذى (٩٨٣)، وابن ماجه (٤٢٦١) من حديث أنس، وقال أبو عيسى: «هذا حديث حسن غريب، وقد روى بعضهم هذا الحديث عن ثابت عن النبى ﷺ مرسلاً». وحسنه الألبانى فى صحيح الترمذى.

(٤) **صحيح**: أخرجه البخارى (٦٥١٠) من حديث عائشة رضي الله عنها.

وفى صحيح البخارى[1] من حديث أنس ﷺ قال: لما ثقل النبى صلى الله عليه وآله وسلم، جعل يتغشاه الكرب، فقالت فاطمة ﷺ: واكرب أبتاه! فقال لها: **«ليس على أبيك كرب بعد اليوم»**.

وروى ابن مسعود قال: اجتمعنا فى بيت أمنا عائشة ﷺ، فنظر إلينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فدمعت عيناه، فنعى إلينا نفسه، وقال: **«مرحباً بكم، حياكم الله بالسلام، حفظكم الله، رعاكم الله، جمعكم الله، نصركم الله، وفقكم الله، نفعكم الله، رفعكم الله، سلمكم الله، أوصيكم بتقوى الله، وأوصى الله بكم، وأستخلفه عليكم»**. قلنا: يا رسول الله: متى أجلك؟ قال: **«قد دنا الأجل، والمنقلب إلى الله، وإلى سدرة المنتهى وجنة المأوى، والفردوس الأعلى»**. قلنا: يا رسول الله؟ من يلى غسلك؟ قال: **«رجال من أهل بيتى الأدنى فالأدنى»**، قلنا: ففيم نكفنك؟ قال: **«فى ثيابى هذه إن شئتم، أو حلة يمانية، أو بياض مضر»**. فقلنا: يا رسول الله! من يصلى عليك؟ وبكينا، فقال: **«مهلاً، رحمكم الله، وجزاكم عن نبيكم خيراً، إذا غسلتمونى وكفنتمونى، فضعونى على سريرى هذا على شفير قبرى، ثم اخرجوا عنى ساعة، فإن أول من يصلى علىّ خليلى وحبيبى جبريل، ثم ميكائيل، ثم إسرافيل، ثم ملك الموت، ثم ملائكة كثيرة، ثم ادخلوا علىّ فوجاً فوجاً، فصلوا علىّ وسلموا تسليماً، ولا تؤذونى بتزكية، ولا برنة، ولا بصيحة، وليبدأ بالصلاة علىّ منكم الإمام وأهل بيتى، الأدنى فالأدنى، ثم زمر النساء، ثم زمر الصبيان، واقرئوا السلام على من غاب عنى من أصحابى، وعلى من تبعنى على دينى إلى يوم القيامة، ألا وإنى أشهدكم أنى قد سلمت على كل من دخل فى الإسلام»**. [2]

ولقد دخل عليه جبريل قبل موته بثلاثة أيام فقال: يا أحمد؟ إن الله أرسلنى إليك يسألك عما هو أعلم به منك، يقول: كيف تجدك؟ فقال: **«أجدنى يا جبريل مغموماً، وأجدنى مكروباً»**، ثم أتاه فى اليوم الثانى، فأعاد الكلام، وأعاد عليه الجواب، ثم جاءه فى اليوم الثالث وأعاد عليه الكلام، فأعاد عليه الجواب، فإذا ملك الموت يستأذن، فقال جبريل: يا أحمد! هذا ملك الموت يستأذن عليك، ولم يستأذن على آدمى قبلك، ولا يستأذن على آدمى بعدك، فقال: **«ائذن له»**، فدخل، فوقف بين يديه وقال: إن الله أرسلنى إليك، وأمرنى أن أطيعك، فإن

---

(١) صحيح: أخرجه البخارى (٤٤٦٢) المغازى، وابن ماجه (١٦٢٩) ما جاء فى الجنائز.

(٢) ضعيف: رواه البزار (٨٤٧)، والطبرانى فى الأوسط (٤٠٠٨)، وضعفه الشيخ عبد القادر الأرناؤوط فى نسخته «م. منهاج القاصدين» (ص ٤١٨).

أمرتنى أن أقبض نفسك قبضتها، وإن أمرتنى أن أتركها تركتها، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: **«وتفعل يا ملك الموت؟»** قال: كذلك أمرت أن أطيعك. فقال جبريل: يا أحمد! إن الله قد اشتاق إليك. فقال: **«فامض لما أمرت به يا ملك الموت»**، فقال جبريل عليه السلام: السلام عليك يا رسول الله، هذا آخر موطنى فى الأرض إنما كنت حاجتى من الدنيا.[1]

فتوفى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مستنداً إلى صدر عائشة رضي الله عنها فى كساء ملبد، وإزار غليظ، وقامت فاطمة رضي الله عنها تندب وتقول: يا أبتاه! أجاب ربا دعاه، يا أبتاه! جنة الفردوس مأواه، يا أبتاه إلى جبريل ننعاه، يا أبتاه! من ربه ما أدناه[2]، فلما دفن قالت: يا أنس أطابت أنفسكم أن تحثوا التراب على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم!.

وقال أبو بكر رضي الله عنه:

لما رأيتُ نبينا متجندلاً	ضاقتْ علىَّ بعرضهنَّ الدورُ
وارتعتُ روعةَ مُستَهامٍ والهٍ	والعَظْمُ منى واهنٌ مكسورُ
أَعَتيقُ ويحكَ إن حبَّك قد ثوَى	وبقيتَ منفرداً وأنتَ حسيرُ
يا ليتنى من قبل مَهْلك صاحبى	غُيِّبت فى جدثٍ علىَّ صُخورُ

وفاة أبى بكر الصديق رضي الله عنه

روى أبو المليح أن أبا بكر رضي الله عنه لما حضرته الوفاة أرسل إلى عمر رضي الله عنه فقال: إنى أوصيك بوصية، إن أنت قبلت عنى: إن لله عز وجل حقاً بالليل لا يقبله بالنهار، وإن لله حقاً بالنهار لا يقبله بالليل، وإنه لا يقبل النافلة حتى تؤدى الفريضة، وإنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه فى الآخرة باتباعهم الحق فى الدنيا، وثقله ذلك عليهم، وحق لميزان يوضع فيه الحق أن يكون ثقيلاً، وإنما خفت موازين من خفت موازينه فى الآخرة باتباعهم الباطل، وخفته عليهم فى الدنيا، وحق لميزان يوضع فيه الباطل أن يكون خفيفاً.

ألم تر أن الله أنزل آية الرجاء عند آية الشدة، وآية الشدة عند آية الرجاء، ليكون العبد راغباً راهباً لا يلقى بيديه إلى التهلكة، ولا يتمنى على الله غير الحق. فإن أنت حفظت

---

(١) **موضوع**: أخرجه الطبرانى فى «الكبير» (٢٨٩٠)، والحاكم (٣/٥٨)، وانظر مجمع الزوائد (٩/٣٥)، وقال الألبانى: «موضوع» راجع للأهمية السلسلة الضعيفة (٥٣٨٤).

(٢) سبق تخريجه ص (٣٧٣).

وصيتي هذه، فلا يكونن غائب أحب إليك من الموت، ولابد لك منه، وإن أنت ضيعت وصيتي هذه فلا يكونن غائب أبغض إليك من الموت، ولابد لك منه ولست تعجزه.

وقيل: لما احتضر جاءت عائشة رضي الله عنها فتمثلت بهذا البيت:

لعَمْرُك ما يُغني الثراءُ عن الفتى ... إذا حَشْرجتْ يوماً وضاقَ بها الصَّدرُ

فكشف عن وجهه، وقال: ليس كذلك، ولكن قولي: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ (ق:١٩). انظروا ثوبي هذين، فاغسلوهما وكفنوني فيهما، فإن الحي أحوج إلى الجديد من الميت.

وفاة عمر بن الخطاب رضي الله عنه

وعن ابن عمر قال: كان رأس عمر في حجري بعد ما طعن، وكان مرضه الذي توفي فيه، فقال: ضع خدي على الأرض، فقلت: وما عليك إن كان في حجري أم على الأرض؟ وظننت أن ذلك تبرم به، فلم أفعل، فقال: ضع خدي على الأرض لا أم لك، ويلي وويل أمي إن لم يرحمني ربي.

وروي أنه لما طُعن وحمل إلى بيته، وجاء الناس يثنون عليه، جاء رجل شاب من الأنصار فقال: أبشر يا أمير المؤمنين ببشرى من الله لك، صحبة من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقدم في الإسلام ما قد علمت، ثم وليت الخلافة فعدلت، ثم شهادة، فقال: وددت يا بن أخي أن ذلك كان كفافاً، لا لي ولا عليَّ، ثم قال: يا عبد الله بن عمر، انطلق إلى عائشة أم المؤمنين، فقل لها: عمر يقرأ عليك السلام، ولا تقل: أمير المؤمنين، فإني لست اليوم للمؤمنين أميراً، وقل لها: يستأذن عمر بن الخطاب أن يدفن عند صاحبيه. فمضى وسلم واستأذن عليها، ثم دخل فوجدها قاعدة تبكي، فقال: عمر يقرأ عليك السلام، ويستأذن أن يدفن عند صاحبيه، فقالت: كنت أريده لنفسي، ولأوثرنه اليوم على نفسي، فلما أقبل، قيل: هذا عبد الله بن عمر قد جاء، قال: ارفعوني، فأسنده رجل إليه، فقال: ما وراءك؟ قال: الذي تحب يا أمير المؤمنين، أذنت. قال: الحمد لله، ما كان شيء أحب إليَّ من ذلك المضجع، فإذا أنا مت فاحملوني، ثم سلم، وقل: يستأذن عمر بن الخطاب، فإن أذنت لي، فأدخلوني، وإن ردتني، فردوني إلى مقابر المسلمين.

وفى أفراد مسلم(١) من حديث المسور بن مخرمة، أن عمر قال: والله لو أن لى طلاع الأرض ذهباً، لافتديت به من عذاب الله قبل أن أراه.

وفى خبر آخر: والله لو أن لى ما طلعت عليه الشمس أو غربت، لافتديت به من هول المطلع، والله أعلم.

وفاة عثمان بن عفان رضي الله عنه

عن نائلة بنت الفرافصة امرأة عثمان رضي الله عنه، قالت: لما كان اليوم الذى قتل فيه عثمان، ظل فى اليوم الذى قبله صائماً، فلما كان عند إفطاره، سألهم الماء العذب فلم يعطوه، فبات من قبل أن يفطر، فلما كان وقت السحر أتيت جارات لى على أجاجير متصلة، فسألتهم الماء العذب، فأعطونى كوزاً من ماء، فأتيته فحركته فاستيقظ، فقلت: هذا ماء عذب، فرفع رأسه إلى الفجر، فقال: إنى قد أصبحت صائماً، وإن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اطلع علىَّ من هذا السقف ومعه ماء عذب، فقال: «اشرب يا عثمان» فشربت حتى رويت، ثم قال: «ازدد»، فشربت حتى نهلت، ثم قال: «إن القوم سينكرون عليك، فإن قاتلتهم ظفرت، وإن تركتهم أفطرت عندنا». قالت: فدخلوا عليه من يومه فقتلوه.

وعن العلاء بن الفضيل، عن أبيه، قال: لما قتل الإمام عثمان بن عفان رضي الله عنه فتشوا خزانته، فوجدوا فيها صندوقاً مقفلاً ففتحوه، فوجدوا فيه حقة فيها ورقة مكتوب فيها: هذه وصية عثمان، بسم الله الرحمن الرحيم. عثمان بن عفان يشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن الجنة حق، وأن النار حق، وأن الله يبعث من فى القبور ليوم لا ريب فيه، إن الله لا يخلف الميعاد، عليها نحيا، وعليها نموت، وعليها نبعث إن شاء الله تعالى.

وفاة على بن أبى طالب رضي الله عنه

عن الشعبى، قال: لما ضرب علىّ رضي الله عنه تلك الضربة، قال: ما فُعل بضاربى؟ قالوا: أخذناه، قال: أطعموه من طعامى، واسقوه من شرابى، فإن أنا عشت رأيت فيه رأيى، وإن أنا مت فاضربوه ضربة واحدة لا تزيدوه عليها، ثم أوصى الحسن أن يغسله، وقال: لا تغالى فى الكفن، فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: **«لا تغالوا فى الكفن فإنه يسلب سلباً سريعاً»**(٢)، امشوا بى المشيتين لا تسرعوا بى، ولا تبطئوا، فإن كان

(١) **صحيح**: أخرجه البخارى (٣٦٩٢).

(٢) **ضعيف**: أخرجه أبو داود (٣١٥٤) عن على بن أبى طالب، وضعفه الألبانى فى ضعيف أبى داود.

خيراً عجلتمونى إليه، وإن كان شراً ألقيتمونى عن أكتافكم. وروى أنه لما كانت الليلة التى أصيب فيها رضي الله عنه أتاه ابن التياح حين طلع الفجر يؤذنه بالصلاة وهو مضطجع متثاقل، فعاد الثانية وهو كذلك، ثم عاد الثالثة فقام يمشى وهو يقول:

اشْدُدْ حيازيمك للموتِ ... فإنَّ الموتَ لاقيكَ

ولا تَجْزَعْ من الموْتِ ... وإن حلَّ بناديكَ

فلما بلغ الباب الصغير شد عليه عبد الرحمن بن ملجم فضربه.

ذكر كلمات نقلت عن جماعة عند موتهم من الصحابة وغيرهم وذكر زيارة القبور ونحو ذلك

لما نزل الموت بالحسن بن علىّ رضي الله عنهما قال: أخرجوا فراشى إلى صحن الدار، فأخرج فقال: اللهم إنى أحتسب نفسى عندك، فإنى لم أصب بمثلها.

وقد ذكرنا ما تقدم من كلام الخلفاء الأربعة رضي الله عنهم.

وروى أن معاذ بن جبل لما حضرته الوفاة قال: انظروا هل أصبحنا؟ فأتى فقيل: لم تصبح، حتى أتى فى بعض ذلك، فقيل له: لقد أصبحنا، فقال: أعوذ بالله من ليلة صباحها إلى النار، ثم قال: مرحباً بالموت زائر مغيب، وحبيب جاء على فاقة، اللهم إنى كنت أخافك وأنا اليوم أرجوك، اللهم إنك تعلم أنى لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها لكرى الأنهار ولا لغرس الأشجار، ولكن لطول ظمأ الهواجر، وقيام ليل الشتاء، ومكابدة الساعات، ومزاحمة العلماء بالركب عند حلق الذكر.

وقال أبو مسلم: جئت أبا الدرداء وهو يجود بنفسه ويقول: ألا رجل يعمل لمثل مصرعى هذا؟ ألا رجل يعمل لمثل يومى هذا؟ ألا رجل يعمل لمثل ساعتى هذه؟ ثم قبض رحمه الله.

وبكى سلمان الفارسى عند موته، فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: عهد إلينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يكون زاد أحدنا كزاد الراكب[1]، وحولى هذه الأزواد، وقيل: إنما كان حوله إجانة وجفنة ومطهرة.

---

(١) صحيح: أخرجه ابن ماجه (٤١٠٤) عن جعفر بن سليمان عن ثابت، عن أنس رضي الله عنه، وصححه الألبانى وانظر الصحيحة تحت رقم (١٧١٥).

وروى المزنى قال: دخلت على الشافعى فى مرضه الذى مات فيه، فقلت له: كيف أصبحت؟ قال: أصبحت من الدنيا راحلاً، وللإخوان مفارقاً، ولسوء عملى ملاقياً، ولكأس المنية شارباً، وعلى الله وارداً، ولا أدرى أروحى تصير إلى الجنة فأهنئها، أم إلى النار فأعزيها، ثم أنشأ يقول:

ولما قسا قلبى وضاقت مذاهبى ... جعلتُ رجائى نحو عفوك سُلَّمَا

تعاظمنى ذنبى فلمَّا قرنتُه ... بعفوك ربِّى كان عفوُك أعْظَمَا

وما زلتَ ذا عفوٍ عن الذنبِ لم تزلْ ... تجودُ وتعفو منةً وتكرمَا

قيل: كان أبو الدرداء ﷺ يقعد إلى القبور، فقيل له فى ذلك، فقال: أجلس إلى قوم يذكرونى معادى، وإن غبت لم يغتابونى.

وقال ميمون بن مهران: خرجت مع عمر بن عبد العزيز إلى المقبرة، فلما نظر إلى القبور بكى، ثم أقبل علىَّ فقال: يا ميمون، هذه قبور آبائي بنى أمية، كأنهم لم يشاركوا أهل الدنيا فى لذاتهم وعيشهم، أما تراهم صرعى قد حلت بهم المثلات واستحكم فيهم البلاء، وأصاب الهوام مقيلاً فى أبدانهم؟ ثم بكى وقال: والله ما أعلم أحداً أنعم ممن صار إلى هذه القبور، وقد أمن من عذاب الله تعالى.

وتستحب زيارة القبور، فإن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال: «**زوروا القبور فإنها تذكركم الآخرة**»[1] ومن زار قبراً فليستقبل وجه الميت، وليقرأ شيئاً من القرآن ويهديه له، ولتكن الزيارة يوم الجمعة.

وقد روى أنه لما مات عاصم الجحدرى رآه رجل من أهله في المنام بعد موته بسنتين فقال له: ألست قد مت؟ قال: بلى. قال: وأين أنت؟ قال عاصم: أنا والله فى روضة من رياض الجنة، أنا ونفر من أصحابى، نجتمع كل ليلة جمعة وصبيحتها إلى أبى بكر ابن عبد الله المزنى نتلاقى أخباركم، قال: قلت له: أبأجسامكم أم أرواحكم؟ قال: هيهات! بليت الأجسام، وإنما تتلاقى الأرواح. قلت: فهل تعلمون بزيارتنا إياكم؟ قال: نعلم بها عشية الجمعة ويوم الجمعة كله، ويوم السبت إلى طلوع الشمس. قلت: كيف ذلك دون الأيام كلها؟ قال: لشرف يوم الجمعة وعظمه.

---

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم (٩٧٦) الجنائز، والنسائى (٢٠٣٤)، وأبو داود (٣٢٣٤) وابن ماجه (١٥٦٩)، وأحمد (٩٣٩٥) عن يزيد بن كيسان، عن أبى حازم، عن أبى هريرة مرفوعاً.

وحكى عثمان بن سوادة الطفاوى وكانت أمه من العابدات، وكان يقال لها: راهبة، قال: لما احتضرت رفـعت رأسها إلى السماء، وقالـت: يا ذخرى ويا ذخيرتى ومن عليـه اعتمادى فى حياتى وبعد مماتى، لا تخذلنى عند الموت، ولا توحشــنى فى قبرى. قال: فماتت، فكنت آتيها كل جمعة وأدعو لها، وأسـتغفر لها ولأهل القبور، فرأيتها ليلة فــى منامى فقلت لها: يا أماه! كيف أنت؟ قالت: يا بنى! إن الموت لكرب شديد. وأنا بحـمد الله فى برزخ محمود، يفترش فيه الريحـان، ويتوسد فيه السندس والإستـبرق إلى يوم النشور. فقلت: ألـك حاجة؟ قالت: نعم، لا تدع ما كنت تصنـع من زيارتنا فإنى لأسر بمجيئك يوم الجمـعة إذا أقبلت من أهلك، فيقال لى: يا راهبة! هذا ابنك قد أقبل، فأسر ويسر بذلك من حولى من الأموات.

وعن أنس بن منصـور قال: كان رجل يختلف إلى المقـابر فيشهد الصلاة عـلى الجنائز فإذا أمسى وقف على باب المقابر فقال: آنس الله وحشتكم، ورحم غربتكم، وتجاوز عن سيئاتكم، وقبل حسناتكم، لا يزيد على هؤلاء الكلمـات، قال ذلك الرجل: فأمسيت ذات ليلة، ولم آت المقابر فأدعـو كما كنت أدعو، فبينا أنـا نائم إذا أنا بخلق كثير قد جـاؤوني فقلت: من أنتم؟ وما حاجـتكم؟ قالوا: نحن أهل المقـابر، إنك كنت عودتنا منك هديـة. فقلت: وما هى؟ قالوا: الدعوات التى كنت تدعو بها لنا. قلت: فإنى أعود لذلك، فما تركتها بعد.

وقال بشار بن غالب: رأيت رابعة فى منامى، وكنت كثير الدعاء لها، فقالت لى: يا بشار! هداياك تأتينا على أطبـاق من نور، مخمرة بمناديل الحرير. قلت: وكـيف ذلك؟ قالت: هكذا دعاء الأحياء إذا دعوا للموتى واستجيب لـهم، جعل ذلك الدعاء على أطباق النور، وخمر بمناديل الحرير، ثم أتى به إلى الذى دعى له من الموتى، فقيل له: هذه هدية فلان إليك.

فصـل فـى حقيقـة المـوت

والذى تدل عليه الآيات والأخبار أن حقيقة الموت، هو مفارقة الروح للجسد، وأن الروح تكون بعد ذلك باقية، إما معذبة أو منعمة، فإن الروح قد تتألم بنفسها بأنواع الحزن والغم، وتتنعـم بأنواع الفرح والسـرور من غير تـعلق لها بالأعـضاء[1] فكل ما هـو وصف للروح بنفسها، يبقى معها بعد مفارقة الجسد، وكل ما هو لها بواسطة الأعضاء يتعطل بموت الجسد إلى أن تعاد الروح إلى الجسـد. ولا يبعد أن تعاد الروح إلى الجسد فى القـبر، ولا يبعد أن

(١) راجع «معارج القبول» للحكمى، ورسالة «إثبات عذاب القبر» للدكتور / ياسر برهامى.

تؤخر إلى يوم البعث، والله سبحانه أعلم بما حكم به على كل عبد من عباده.

فمعنى الموت انقطاع تصرف الروح عن البدن، وخروج البدن عن أن يكون آلة لها، وسلب الإنسان عن أمواله وأهله بإزعاجه إلى عالم آخر لا يناسب هذا العالم، فإن كان له فى الدنيا شىء يفرح به، ويستريح إليه، عظمت حسرته عليه بعد الموت، وإن كان لا يفرح إلا بذكر الله تعالى والأنس به، عظم نعيمه، وتمت سعادته إذا خُلّى بينه وبين محبوبه، وقطعت عنه العوائق والشواغل، لأن جميع أسباب الدنيا شاغلة عن ذكر الله تعالى.

وينكشف للميت بالموت ما لم يكن مكشوفاً فى حال الحياة، كما ينكشف للمتيقظ ما لم يكن مكشوفاً له عند النوم، والناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا، وأول ما ينكشف له ما يضره وما ينفعه من حسناته وسيئاته، وقد كان ذلك مسطوراً فى كتاب مطوى فى سر قلبه، وكان يشغله عن الاطلاع عليه شواغل الدنيا، فلما انقطعت انكشفت له جميع أعماله، فلا ينظر إلى سيئة إلا ويتحسر عليها تحسراً يؤثر أن يخوض غمرة النار للخلاص من تلك الحسرة، وكل ذلك ينكشف له عند الموت، وهذه آلام تهجم على العاصى قبل الدفن، نسأل الله العافية.

ومما يدل على أن الروح لا تنعدم بالموت، قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (آل عمران: ١٦٩). قال مسروق: سألنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن هذه الآية فقال: أرواحهم فى جوف طير خضر، لها قناديل معلقة بالعرش، تسرح من الجنة حيث شاءت، ثم تأوى إلى تلك القناديل، وذكر تمام الحديث[1]. وجاء فى قوله تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ (غافر: ٤٦). أخبر أنهم يعذبون بعد الموت.

وفى «الصحيحين»[2] عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**إن أحدكم إذا مات، عرض عليه مقعده بالغداة والعشى، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، فيقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله إليه يوم القيامة**».

وقد تقدم أن الإنسان إذا انكشفت له سيئاته تحسر لها وتألم تألماً عظيماً، فأما المؤمن، فقال عبد الله بن عمر: مثل المؤمن حين تخرج نفسه مثل رجل كان فى سجن فأخرج منه، فهو

---

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم (١٨٨٧) فى الإمارة.

(٢) **صحيح**: أخرجه البخارى (١٣٧٩) الجنائز، ومسلم (٢٨٦٦) الجنة وصفة نعيمها.

يتفسح فى الأرض، ويتقلب فيها. وهو صحيح، فإن المؤمن ينكشف عليه عقيب الموت من فضل الله وكرامته ما تكون الدنيا بالإضافة إليه كالسجن، فيكون كمحبوس فى بيت مظلم فتح له باب إلى بستان واسع الأكناف، فيه أنواع الأشجار، فلا يسره الرجوع إلى الدنيا كما لا يسره العود إلى بطن أمه. وقال مجاهد: إن المؤمن ليبشر بصلاح ولده من بعده لتقر بذلك عينه.

فصل فى ذكر القبر

وكلام الموتى إما بلسان المقال، أو بلسان الحال، روى عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «**القبر روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النار**».[(1)] وروى أيضاً عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «**يقول القبر للميت حين يوضع فيه: ويحك يا بن آدم! ما غرك بى؟! ألم تعلم أنى بيت الفتنة، وبيت الظلمة، وبيت الوحدة، وبيت الدود؟**».[(2)]

وروى الترمذى عن أبى سعيد ﷺ قال: دخل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مصلاه، فرأى ناساً كأنهم يكتشرون، فقال: «**أما إنكم لو اكثرتم من ذكر هاذم اللذات لشغلكم عما أرى الموت فأكثروا ذكر هاذم اللذات الموت، فإنه لم يأت على القبر يوم إلا يتكلم فيقول: أنا بيت الغربة، أنا بيت الظلمة، وأنا بيت الوحدة، وأنا بيت التراب، وأنا بيت الدود. فإذا دفن العبد المؤمن قال له القبر: مرحباً وأهلاً، أما إن كنت لأحب من يمشى على ظهرى إلىّ، فإذا وليتك اليوم وصرت إلىّ، فسترى صنيعى بك، قال: فيتسع له مد بصره، ويفتح له باب إلى الجنة، وإذا دفن العبد الفاجر أو الكافر قال له القبر: لا مرحباً ولا أهلاً، أما إن كنت لأبغض من يمشي على ظهري إليّ، فإذا وليتك اليوم وصرت إليّ، فسترى صنيعي بك، قال: فيلتئم عليه حتى تلتقى عليه وتختلف اضلاعه**»، وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بأصابعه، فأدخل بعضها فى بعض قال: «**ويقيض الله له سبعين تنيناً، لو أن واحداً منها نفخ فى الأرض ما أنبتت شيئاً ما بقيت الدنيا، فينهشنه ويخدشنه، حتى يفضى به إلى الحساب، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إنما القبر روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النار**».[(3)]

(1) **ضعيف جداً**: أخرجه الترمذى (٢٤٦٠)، من طريق عبيد الله بن الوليد الوصافى، عن عطية، عن أبى سعيد عن النبى ﷺ. وضعفه الألبانى فى ضعيف الترمذى، وقال أبو عيسى: «هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه»، وانظر الضعيفة للألبانى (٤٩٩٠) وسيأتى بتمامه ص (٤٢٨) من الكتاب.

(2) **ضعيف**: أخرجه أبو يعلى (٦٨٧٠)، والطبرانى «الكبير» (٩٤٢).

(3) **ضعيف جداً**: ضعفه الألبانى وانظر الضعيفة (٤٩٩٠) لكنه قال: «لكن جملة هاذم اللذات صحيحة» وقد سبق.

وقال كعب: إذا وضع الرجل الصالح في قبره، احتوشته أعماله الصالحة: الصلاة، والصيام، والحج، والجهاد، والصدقة. وقال: وتجيء ملائكة العذاب من قبل رجليه فتقول الصلاة: إليكم عنه فلا سبيل لكم عليه، فقد أطال بى القيام لله عز وجل، قال: فيأتونه من قبل رأسه، فيقول الصيام: لا سبيل لكم عليه فقد أطال بى الصيام. قال: فيأتونه من قبل جسده، فيقول الحج والجهاد: إليكم عنه، فقد أنصب نفسه، وأتعب بدنه، وحج وجاهد لله عز وجل، لا سبيل لكم عليه، فيأتونه من قبل يديه، فتقول الصدقة: كم من صدقة خرجت من هاتين اليدين حتى وضعت فى يد الله ابتغاء وجهه، فلا سبيل لكم عليه. قال: فيقال له: هنيئاً طبت حياً، وطبت ميتاً. قال: وتأتيه ملائكة الرحمة، فتفرشه فراشاً فى الجنة ودثاراً من الجنة، فيفسح له فى قبره مد بصره، ويؤتى بقنديل من الجنة يستضىء بنوره إلى يوم يبعثه الله من قبره.

وعن أنس بن مالك أن نبى الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: **«إن العبد إذا وضع فى قبره وتولى عنه أصحابه حتى إنه ليسمع قرع نعالهم، أتاه ملكان فيقعدانه، فيقولان له: ما كنت تقول فى هذا الرجل محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فأما المؤمن فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله. فيقولان انظر إلى مقعدك من النار قد أبدلك الله عز وجل به مقعداً في الجنة. قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: فيراهما جميعاً. وأما الفاجر أو المنافق فيقال له: ما كنت تقول فى هذا الرجل؟ فيقول: لا أدرى كنت أقول ما يقول الناس، فيقال له: لا دريت ولا تليت، ثم يضرب بمطارق من حديد ضربة بين أذنيه، فيصيح صيحة يسمعها من يليه غير الثقلين»** أخرجاه في الصحيحين.[1]

وفيهما من حديث أسماء بنت أبى بكر رضي الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: **«أوحى إلىَّ أنكم تفتنون فى قبوركم مثل -أو قال قريباً من- فتنة المسيح الدجال، يقال: ما علمك بهذا الرجل؟ فأما المؤمن فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله...»**[2] وذكر باقى الحديث.

وعن ابن عباس قال: لما أخرجت جنازة سعد بن معاذ وسوينا عليها، التفت إلينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: **«ما من أحد من الناس إلا وله ضغطة فى قبره، ولو كان منفلتاً**

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخارى (١٣٣٨) فى الجنائز، ومسلم (٢٨٧٠) الجنة وصفة نعيمها.

(٢) **صحيح**: أخرجه البخارى (٨٦) العلم، ومسلم (٩٠٥) عن هشام عن فاطمة عن أسماء رضي الله عنها.

منها أحد لانفلت سعد بن معاذ[1]. وذكر باقى الحديث.

وعن عبد الله الصنعانى قال: رأيت يزيد بن هارون فى المنام بعد موته بأربع ليال، فقلت: ما فعل الله بك؟ قال: تقبل منى الحسنات، وتجاوز عنى السيئات. قلت: وما كان بعد ذلك؟ قال: وهل يكون من الكريم إلا الكرم، غفر لى ذنوبى وأدخلنى الجنة، قلت: بم نلت الذى نلت؟ قال: بمجالس الذكر، وقولى الحق، وصدقى فى الحديث، وطول قيامى فى الصلاة، وصبرى على الفقر، قلت: منكر ونكير حق؟ قال: إى والله الذى لا إله إلا هو، لقد أقعدانى وسألانى: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ فجعلت أنفض لحيتى البيضاء من التراب، وقلت: مثلى يسأل؟! أنا يزيد بن هارون الواسطى، كنت فى دار الدنيا ستين سنة أعلّم الناس؟ فقال أحدهما: صدق، هو يزيد بن هارون، نم نومة العروس، فلا روعة عليك بعد اليوم.

وقال المروزى: رأيت أحمد بن حنبل فى النوم في روضة، وعليه حلتان خضروان، وعلى رأسه تاج من النور، وإذا هو يمشى مشية لم أكن أعرفها له، فقلت: يا أحمد! ما هذه المشية التى لم أكن أعهدها لك؟ فقال: هذه مشية الخدام فى دار السلام. فقلت: وما هذا التاج الذى أراه على رأسك؟ فقال: إن ربى عز وجل أوقفنى وحاسبنى حساباً يسيراً، وكسانى وحبانى وقربنى، وأنا أنظر إليه، وتوجنى بهذا التاج، وقال لى: يا أحمد! هذا تاج الوقار توجتك به، كما قلت: القرآن كلامى غير مخلوق.

الشطر الثانى من كتاب ذكر الموت:

فى أحوال الميت من وقت نفخة الصور إلى حين الاستقرار فى الجنة أو النار

قد أشرنا إلى أهوال القبور، وأشد من ذلك نفخ الصور، والبعث والحساب ونصب الميزان والصراط، وهذه أهوال يجب الإيمان بها، وينبغى تطويل الفكر فيها، وجمهور الناس لم يتمكن من قلوبهم الإيمان بالآخرة، ولو أن الإنسان لم يشاهد توالد الحيوانات، ثم قيل له: إن صانعاً يصنع من هذه النطفة القذرة مثل هذا الآدمى المتصور العاقل المتكلم، لاشتد نفور طبعه عن التصديق بذلك، فخلقه على ما فيه من الأعاجيب، يزيد على بعثه

---

(١) **صحيح** : أخرجه الطبرانى (١/ ٨١/ ٢) وفى «الكبير» (١٠٨٢٧، ١٢٩٧٥) من طريق زياد مولى ابن عباس عنه. قال الألبانى: «قد داخلنى شك كبير فى كون هذا الحديث من مسند ابن عباس، فإنهم لم يذكروا لزياد هذا رواية عنه». وقال الألبانى: «وجملة القول أن الحديث بمجموع طرقه وشواهده صحيح بلا ريب»، وانظر للأهمية الصحيحة للألبانى (١٦٩٥).

وإعادته، وكيف ينكر ذلك -من قدرة الله تعالى وحكمته- من يشاهد البداية؟ فإن كان فى إيمانك ضعف، فقوِ الإيمان بالنظر فى النشأة الأولى، فإن الثانية مثلها وأسهل منها، وإن كنت قوى الإيمان بها، فأشعر قلبك تلك المخاوف والأخطار، وأكثر فيها التفكر والاعتبار، وليحثك ذلك على الجد والتشمير. وأول ما يقرع أسماع الموتى صوت إسرافيل حين ينفخ ذلك فى الصور. فصور نفسك وقد قمت ذاهلاً مبهوتاً شاخصاً نحو النداء. قال الله تعالى: ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴾ (يس: ٥١).

وعن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: **«كيف انعم وصاحب الصور قد حنى جبهته، واصغى بسمعه، ينتظر ان يؤمر ان ينفخ فى الصور فينفخ؟»**، قال المسلمون: كيف نقول يا رسول الله؟ قال: **«قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل، وتوكلنا على الله»**[١]. ثم انظر كيف يحشر الناس يوم القيامة، فيساقون بعد البعث حفاة عراة إلى أرض المحشر، وهى قاع ليس فيها ربوة يختفى الإنسان بفنائها.

وفى الصحيحين[٢] قال النبى صلى الله عليه وآله وسلم: **«يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصة النقى»**.

ثم تفكر فى ازدحام الناس، وقرب الشمس من رؤوسهم، وشدة العرق، مع ما فى القلوب من القلق.

وفى الحديث: **«إن العرق يأخذ الناس على قدر أعمالهم»**.[٣]

وتفكر يا مسكين فى سؤال ربك لك عن أعمالك بغير واسطة، فقد روى عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: **«يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات فأما عرضتان، فجدال ومعاذير، وأما العرضة الثالثة فعند ذلك تطير الصحف فى الأيدى، فآخذ بيمينه وآخذ بشماله»**.[٤]

---

(١) **صحيح** : أخرجه الترمذى (٢٤٣١) من طريق خالد أبى العلاء عن عطية عن أبى سعيد مرفوعاً. وقال أبو عيسى: «هذا حديث حسن، وقد روى من غير وجه هذا الحديث عن عطية عن أبى سعيد الخدرى عن النبى ﷺ نحوه». وعطية: ضعيف، وصححه الألبانى وانظر الصحيحة (٢٠٧٩).

(٢) **صحيح** : أخرجه البخارى (٦٥٢١) الرقاق، ومسلم (٢٧٩٠) صفة القيامة.

(٣) **صحيح** : أخرجه مسلم (٢٨٦٤) الجنة وصفة نعيمها، والترمذى (٢٤٢١)، وأحمد (٢٣٣٠١) عن المقداد.

(٤) **ضعيف** : أخرجه الترمذى (٢٤٢٥)، وابن ماجه (٤٢٧٧)، وأحمد (١٩٢١٦)، وقال الترمذى: «ولا يصح هذا الحديث من قبل أن الحسن لم يسمع من أبى موسى»، وضعفه الألبانى عن أبى موسى أو أبى هريرة.

وعن أبى برزة ﷺ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: **«لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل: عن عمره فيما افناه، وعن علمه فيما عمل فيه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما انفقه، وعن جسمه فيما أبلاه»**. (١)

وعن صفوان بن محرز قال: كنت آخذاً بيد ابن عمر ﷺ، إذ عرض له رجل فقال: كيف سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول فى النجوى يوم القيامة؟ فقال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: **«إن الله عز وجل يدنى المؤمن، فيضع عليه كنفه ويستره من الناس، ويقرره بذنوبه، ويقول سبحانه: أتعرف ذنب كذا؟ اتعرف ذنب كذا؟ اتعرف ذنب كذا؟ حتى إذا قرره بذنوبه، ورأى فى نفسه انه قد هلك قال: فإنى قد سترتها عليك فى الدنيا، وانا اغفرها لك اليوم. قال: ثم يعطى كتاب حسناته. وأما الكفار والمنافقون، فيقول الأشهاد: ﴿هَؤُلاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾** (هود:١٨) أخرجاه فى الصحيحين. (٢)

وفى الصحيحين من حديث أبى سعيد، عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: **«يضرب جسر على جهنم فأكون أول من يجوز»**. (٣)

وفيهما أيضاً، عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال: **«يؤتى بالجسر فيجعل بين ظهرى جهنم، قالوا: يا رسول الله! ما الجسر؟ قال: مدحضة مزلة، عليها خطاطيف وكلاليب وحسك، يمر المؤمنون عليه كالطرف، وكالبرق الخاطف، وكالريح وكأجاويد الخيل والركاب، فناج مسلَّم، وناج مخدوش، حتى يمر آخرهم يُسحب سحباً»**. (٤)

ذكر جهنم أعاذنا الله منها

عن أبى هريرة ﷺ، قال: كنا عند النبى صلى الله عليه وآله وسلم يوماً، فسمعنا وجبة، فقال النبى صلى الله عليه وآله وسلم: **«اتدرون ما هذا؟** قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: **هذا حجر ارسل فى جهنم منذ سبعين خريفاً فالآن انتهى إلى قعرها»**، رواه مسلم. (٥)

---

(١) **صحيح**: أخرجه الترمذى (٢٤١٧)، وصححه الألبانى فى صحيح الترمذى.

(٢) **صحيح**: أخرجه البخارى (٢٤٤١)، ومسلم (٢٧٦٨) التوبة.

(٣) **صحيح**: أخرجه البخارى (٧٤٤٠)، ومسلم (١٨٣)، عن أبى سعيد الخدرى. وأخرجه البخارى (٨٠٦)، ومسلم (١٨٢) عن أبى هريرة ﷺ.

(٤) **صحيح**: أخرجه البخارى (٧٤٤٠)، ومسلم (١٨٣) عن أبى سعيد.

(٥) **صحيح**: أخرجه مسلم (٢٨٤٤)، وأحمد (٨٦٢٢).

وفى «الصحيحين» عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: **«ناركم هذه التى يوقد ابن آدم جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم»** قالوا: والله إن كانت لكافية يا رسول الله، قال: **فإنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً، كلها مثل حرها»**. (١)

وفى أفراد مسلم، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال: **«يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها»**. (٢)

وعن أبى الدرداء رضي الله عنه قال: يلقى على أهل النار الجوع، فيعدل عنهم ما فيه من العذاب، فيستغيثون بالطعام، فيغاثون بالضريع لا يسمن ولا يغنى من جوع، فيستغيثون فيغاثون بطعام ذي غصة، فيذكرون أنهم كانوا يجيزون الغصة بالشراب، فيستغيثون بالشراب فيغاثون بالحميم، ينالونه بكلاليب من حديد، فإذا دنا منهم شوى وجوههم، وإذا دخل بطونهم قطع ما فى بطونهم، فيطلبون إلى خزنة جهنم: أن ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ﴾ فيجيبونهم: ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ (غافر:٤٩)، فيقولون: سلوا مالكاً، فيقولون: ﴿يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ فيقول: ﴿إِنَّكُم مَّاكِثُونَ﴾ (الزخرف:٧٧) فيقولون: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾، فيقول الله عز وجل: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ (المؤمنون:١٠٧-١٠٨). فعند ذلك ييأسون من كل خير، ويأخذون فى الشهيق والويل والثبور.

وتفكر فى حياتها وعقاربها، ففى الحديث: **«إن حياتها أمثال أعناق البخت، وعقاربها كالبغال الموكفة»**. (٣)

وعن الحسن: أن النار تأكلهم كل يوم سبعين ألف مرة ثم يعودون كما كانوا.

واعلم: أن صفة جهنم تطول، وأيسر اليسير من ذلك ينبغى أن يكفى فى التخويف، فإن كنت بهذا مؤمناً فانتبه لنفسك، وخَفْ ما بين يديك، فإن الله لا يجمع على عبد خوفين، ولسنا نعنى بالخوف رقة النساء فتبكى ساعة، ثم تترك العمل، وإنما نريد خوفاً يمنع عن المعاصى، ويحث على الطاعة. فأما خوف الحمقى الذين اقتصروا على سماع الأهوال، وأن يقولوا: استعنا بالله، نعوذ بالله، يا رب سلِّم، وهم مع ذلك مصرون على القبائح،

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخارى (٣٢٦٥)، ومسلم (٢٨٤٣).

(٢) **صحيح**: أخرجه مسلم (٢٨٤٢)، والترمذى (٢٥٧٣)، وصححه الألبانى عن ابن مسعود مرفوعاً.

(٣) **صحيح**: انظر الصحيحة للألبانى رقم (٣٤٢٩).

والشيطان يسخر بهم كما يسخر ممن قصده سبع ضارٍ وهو إلى جانب حصن، فيقول: أعوذ بالله من هذا، وهو لا يدخل الحصن ولا يبرح مكانه.

فصل في محبة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم

وكن في الدنيا محباً لرسول الله صلى الله عـليه وآله وسلم، حريصاً على تعظيم سنته، لعله يشفع فيك في الآخـرة، فإن له شفاعة يتقدم فيها على الأنبـياء كلهم، ويسأل الله في أهل الكبائر من أمته فـينجيهم، واستكثر من الإخوان الصالحين، فـلكل مؤمن شفاعة، ولا تحملنك الغرة على التواني وتسمى ذلك رجاء، فإن من رجا شيئاً طلبه، واحترز من المظالم، فإن من كانت علـيه مظالم ومات قبل ردها، فإن غـرماءه يحيطون به في يوم القيـامة، فهذا يقول: ظلمني، وهذا يقول: استهزأ بـي، وهذا يقول: أساء جواري، وهذا يقول: غشني، فلا خلاص لك من أيديهم. فإذا توهمت الخلاص قيل: لا ظلم اليوم.

وعن أبي سـعيد الخـدري قال: قال رسـول الله صلى الـله عليه وآلـه وسلم: «**يخلص المؤمنون يوم القيامة من النار، فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار، فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة**». (١)

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي صلـى الله عليه وآله وسـلم قال: «**أتدرون من المفلس**»؟ قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، قال: «**إن المفلس من أمتي من يأتي يومة القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه، ثم طرح في النار**». (٢)

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «**لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة، حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء**». (٣)

وهذه الأحاديث كـلها في الصحـاح. فانظر وفقك اللـه إلى بعد سلامة حـسناتك لدخول ما يبطلها من الرياء والغيبة، فـإن سلمت أخذها الخصوم، فتيقظ لنفسك، ولا

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (٢٤٤٠)، وأحمد (١٠٧١١).

(٢) **صحيح**: أخرجه مسلم (٢٥٨١)، والترمذي (٢٤١٨).

(٣) **صحيح**: أخرجه مسلم (٢٥٨٢)، والترمذي (٢٤٢٠).

تفرط فى أوقاتك، فإن المسكين من آثر لذة متقطعة، واشترى بها عذاباً دائماً. نسأل الله السلامة والتوفيق.

ذكر صفة الجنة نسأل الله العظيم من فضله أن يدخلنا إياها

عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قلنا: يا رسول الله! حدثنا عن الجنة، ما بناؤها؟ قال: **«لبنة من ذهب، ولبنة من فضة، وملاطها المسك الأذفر، وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت، وترابها الزعفران، من يدخلها ينعم ولا ييأس، ويخلد ولا يموت، لا تبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه»**.[(١)]

وفى حديث أسامة بن زيد، عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال يوماً وذكر الجنة: **«ألا مشمر لها؟ هى ورب الكعبة ريحانة تهتز، ونور يتلألأ، ونهر مطرد، وزوجة لا تموت، فى حبور ونعيم، ومقام كريم، فى أبد»**، فقالوا: نحن المشمرون لها يا رسول الله، قال: **«قولوا: إن شاء الله»**.[(٢)]

وفى الصحيحين[(٣)] من حديث أبى هريرة رضي الله عنه أنه قال: **«إن الله عز وجل قال: أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»**.

وفيهما أيضاً من حديثه عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: **«إن أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر، والذين يلونهم على أشد كوكب درى فى السماء إضاءة، لا يبولون ولا يتغوطون ولا يتفلون ولا يمتخطون، أمشاطهم الذهب ورشحهم المسك، ومجامرهم الألوة والألنوج، وأزواجهم الحور العين، أخلاقهم على خلق رجل واحد، على صورة أبيهم آدم، ستون ذراعاً فى السماء»، وفى رواية أخرى: «لكل واحد منهم زوجتان، يرى مخ ساقهما من وراء اللحم من الحسن، لا اختلاف بينهم ولا تباغض، قلوبهم قلب واحد، يسبحون الله بكرة وعشياً»**.[(٤)]

---

(١) **صحيح**: أخرجه الترمذى (٢٥٢٥) عن محمد بن فضيل، عن حمزة الزيات، عن زياد الطائى، عن أبى هريرة قال أبو عيسى: «هذا حديث ليس إسناده بذلك القوى، وليس هو عندى بمتصل، وقد روى هذا الحديث بإسناد آخر عن أبى مدلة، عن أبى هريرة عن النبى ﷺ». وقد أخرجه أحمد (٧٩٨٣)، والحديث صححه الألبانى، وانظر الصحيحة (٢/ ٦٩٢)، وصحيح الترمذى، راجع فى صفة الجنة كتاب «حادى الأرواح» لابن القيم بتحقيق: فهو مرجع هام.

(٢) **ضعيف**: أخرجه ابن ماجه (٤٣٣٢)، وضعفه الألبانى وانظر الضعيفة (٣٣٥٨).

(٣) **صحيح**: أخرجه البخارى (٣٢٤٤)، ومسلم (٢٨٢٤).

(٤) **صحيح**: أخرجه البخارى (٣٢٤٥، ٣٢٤٦، ٣٢٥٤)، ومسلم (٢٨٣٤).

وعن أبى موسـى الأشعرى ﷺ قال: قـال رسول الله صلـى الله عليـه وآله وسلم: **«جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه فى جنة عدن»**. أخرجاه فى الصحيحين.(١)

وفيهمـا من حديث أبى موسى أيضـاً عن النبى صلى الله عليـه وآله وسلم قال: **«إن فى الجنة لخيمة من درة مجوفة، عرضها ستون ميلاً، فى كل زاوية منها أهل ما يرون الآخرين، يطوف عليهم المؤمن»**.(٢)

واعلم: أن الله تعالى ذكـر نعيم الجنة مبسـوطاً فى مواضع القرآن، ثم جـمعه فى آيات. منها قوله تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ﴾ (الزخرف: ٧١)، وقوله: ﴿لا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً﴾ (الكهف: ١٠٨)، ثم زاد على ذلك بقوله: ﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (السجدة: ١٧).

وصفات الجنة كثيـرة اقتصرنا منها على هذا. وأفضل ما يُنـال فى الجنة رؤية الله تعالى. وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة ﷺ أنه قيل: يا رسول الله! هل نرى ربنا؟ فقال: **«فهل تضامون فى القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب؟»**، قالوا: لا، قال: **«فإنكم ترونه يوم القيامة كذلك»**(٣). وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

بـاب فـى ذكـر سعـة رحمـة الله تـعالـى

نختم الكتاب بذكر سعة رحمة الله عـز وجل، نرجو بذلك فضله، إذ ليس لنا أعمال نرجو بها العفو، لكن نرجو ذلك من رحـمته وكرمه. قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (الزمر: ٥٣). وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ (النساء: ١١٠).

وعن أبى هريرة ﷺ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: **«لما قضى الله عز وجل الخلق، كتب فى كتاب فهو عنده فوق العرش: إن رحمتى غلبت غضبى»** أخرجاه فى «الصحيحين»(٤).

---

(١) صحيح: أخرجه البخارى (٤٨٧٨)، ومسلم (١٨٠).

(٢) صحيح: أخرجه البخارى (٣٢٤٣)، ومسلم (٢٨٣٨)، والترمذى (٢٥٢٧) واللفظ له.

(٣) سبق تخريجه ص (٣٨٥) هامش رقم (٣).

(٤) صحيح: أخرجه البخارى (٦٥٧٤)، ومسلم (٢٩٦٨).

وعن أبى هريرة رضي الله عنه، عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال: «**إن لله عز وجل مائة رحمة، أنزل منها رحمة واحدة بين الإنس والجن والهوام والبهائم، فبها يتعاطفون، وبها يتراحمون، وبها تعطف الوحش على أولادها. وأخَّر تسعاً وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة**» [١].

وعن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**إن ربكم تبارك وتعالى رحيم، من همَّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف، ومن همَّ بسيئة فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له سيئة واحدة أو يمحوها الله، ولا يهلك على الله تعالى إلا هالك**» [٢].

وعن أبى ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**يقول الله عز وجل: من عمل حسنة فله عشر أمثالها أو أزيد، ومن عمل سيئة، فجزاء سيئة مثلها أو أغفر، ومن اقترب إلىَّ شبراً اقتربت إليه ذراعاً، ومن اقترب إلىَّ ذراعاً اقتربت إليه باعاً، ومن أتانى يمشى أتيته هرولة**» [٣].

وعن أبى هريرة رضي الله عنه، عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم: «**أن رجلاً أذنب ذنباً فقال: أى رب! أذنبت ذنباً فاغفره لى، فقال تبارك وتعالى: علم عبدى أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به، قد غفرت لعبدى. ثم مكث ما شاء الله، ثم أذنب ذنباً آخر فقال: أى رب! عملت ذنباً فاغفره لى، فقال عز وجل: علم عبدى أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به، قد غفرت لعبدي، ثم مكث ما شاء الله، ثم أذنب ذنباً آخر فقال: أي رب! عملت ذنباً فاغفره لي، فقال: علم عبدى أن له رباً يغفر الذنب، أشهدكم أنى قد غفرت لعبدى، فليعمل ما شاء**»[٤]. وهذه الأحاديث كلها صحاح.

وفى «الصحيحين»[٥] من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قدم على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بسبى، وإذا امرأة من السبى تسعى، إذ وجدت صبياً فى السبى فأخذته، فألصقته ببطنها، فأرضعته، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**أترون هذه المرأة طارحة ولدها فى النار؟**» قلنا: لا والله. قال: «**لله أرحم بعباده من هذه المرأة بولدها**».

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخارى (٦٤٦٩)، ومسلم (٢٧٥٢).

(٢) سبق تخريجه ص (٣٤٤).

(٣) **صحيح**: أخرجه مسلم (١٣١) الإيمان، وأحمد (٢٥١٥).

(٤) **صحيح**: أخرجه مسلم (٢٦٨٧).

(٥) **صحيح**: أخرجه البخارى (٥٩٩٩)، ومسلم (٢٧٥٤).

وفى «الصحيحين»[1] من حديث أبى ذر رضي الله عنه، عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: **«ما من عبد قال: لا إله إلا الله، ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة»**. قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: **«وإن زنى وإن سرق، وإن زنى وإن سرق! وإن زنى وإن سرق»**، ثم قال فى الرابعة: **«على رغم أنف أبى ذر»**.

وفيهما من حديث عتبان بن مالك رضي الله عنه، عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: **«إن الله حرم النار على من قال: لا إله إلا الله، يبتغى بذلك وجه الله»**.[2]

وفيهما من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم، أنه قال: **«يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله، وكان فى قلبه من الخير ما يزن شعيرة، ثم يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله وكان فى قلبه من الخير وزن برة، ثم يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله وكان فى قلبه من الخير ما يزن ذرة»**.[3]

وعن أبى موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: **«إذا كان يوم القيامة لم يبق مؤمن إلا أتى بيهودى أو نصرانى حتى يدفع إليه فيقال له: هذا فكاكك من النار»**.[4]

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: **«إن الله عز وجل يستخلص رجلاً من أمتى على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فينشر عليه تسعة وتسعين سجلاً، كل سجل مثل مد البصر، ثم يقول: أتنكر من هذا شيئاً؟ أظلمك كتبتى الحافظون؟ قال: لا يا رب، فيقول: ألك عذر أو حسنة؟ فيبهت الرجل، فيقول: لا يا رب فيقول: بلى، إن لك عندنا حسنة واحدة، لا ظلم عليك اليوم، فتخرج بطاقة فيها: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، فيقول: احضر وزنك فيقول: ما هذه البطاقة مع هذه السجلات، فيقال: إنك لا تظلم، فتوضع السجلات فى كفة، والبطاقة فى كفة. قال: فطاشت السجلات وثقلت البطاقة، ولا يثقل شىء مع اسم الله عز وجل»**.[5]

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخارى (٥٨٢٧)، (١٢٣٧)، ومسلم (٩٤).

(٢) **صحيح**: أخرجه البخارى (٤٢٥)، ومسلم (٣٣).

(٣) **صحيح**: أخرجه البخارى (٤٤) (٤٤٧٦)، ومسلم (١٩٣).

(٤) **صحيح**: أخرجه مسلم (٢٧٦٧).

(٥) **صحيح**: أخرجه أحمد (٦٩٥٥)، والترمذى (٢٦٣٩)، وابن ماجه (٤٣٠٠)، وقال أبو عيسى: «حديث حسن غريب»، وصححه الألبانى فى صحيح الترمذى.

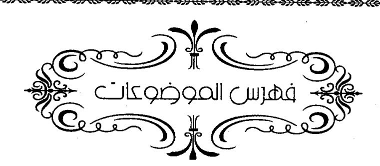
ونظر الفضيل بن عياض إلى تسبيح الناس وبكائهم يوم عرفة فقال: أرأيتم لو أن هؤلاء صاروا إلى رجل يسألونه دانقاً، أكان يردهم؟ فقيل: لا، فقال: والله المغفرة عند الله عز وجل أهون من إجابة رجل لهم بدانق!

وعن إبراهيم بن أدهم قال: خلا لي الطواف في ليلة مظلمة شديدة المطر، فلم أزل أطوف إلى السحر، ثم رفعت يدي إلى السماء، فقلت: اللهم إني أسألك أن تعصمني عن جميع ما تكره. فإذا قائل يقول في الهواء: أنت تسألني العصمة، وكل خلقي يسألني العصمة، فإذا عصمتك فعلى من أتفضل؟

فهذه الأحاديث مع ما ذكرناه في كتاب الرجاء، تبشرنا بكرم الله تعالى وسعة رحمته وجوده. ونحن نرجو من الله سبحانه أن لا يعاملنا بما نستحقه، وأن يتفضل علينا بما هو أهله. ونحن نستغفر الله عز وجل من أقوالنا التي تخالف أعمالنا، ومن كل تصنع تزينا به للناس، وكل علم وعمل قصدنا به وجهه، ثم خالطه ما يكدره، فبكرمه نستشفع إلى كرمه، وبجوده نسأل من جوده، إنه قريب مجيب.

والحمد لله رب العالمين حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، وكما ينبغي لكريم وجهه عز وجل.

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين.



الموضوع	الصفحة